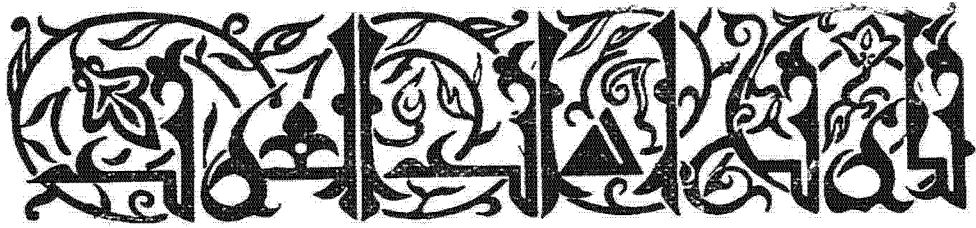


فبراير ١٩١٢

أحمد محمد سر

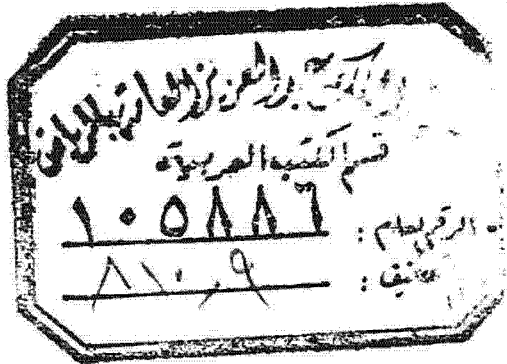
أدب شيخ  
(١٠٨)

ن



حبيبة الدين

# تاريخ إحياء العرب



لأبي السامي

مصطفى صادق الرافعي

الجزء الاول

حق الطبع محفوظ

تبع مطبعة الاختصاص بمصر

سنة ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م

٦٠٧ ٢٠٣



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

باسمك اللهم أقدم بين يدي فاتحة الكتاب ، وبحمدك أتقدم بين يديك الى ما تفتح من الصواب ، وبالصلاة والسلام على نبيك الحكيم أستفتح من حكمة الألباب هذا الباب . اللهم فاجعل لكتابي من اسمك فائدة الذكر والبقاء ، واكتب له من حمدك معنى القبول والثناء ، وألق عليه من أثر الحكمة بركة المنفعة والنماء .

(أما بعد) فان هذا التاريخ علمٌ قد كثرت عليه الأيدي واضطربت فيه الأقلام ، واستبقت إليه العزائم حتى عثرت بها عجالة الرأي ولجاجة الإقدام ، وقد أخصب في الأوهام ، حتى نفشت في واديه كل جرباء<sup>١</sup> ، وامتزج أمره بالأحلام ، فلم يمس كتابه علماء حتى أصبح قراؤه أدباء ، على أنهم تجاذبوه انتهاباً فجاءوا هياماً في وثيقته<sup>٢</sup> ، وتناكروه اهتياباً فخرج ضعيف الشبه بين ظاهره وحقيقته<sup>٣</sup> ، وما منهم الا من يحسب أنه أmaal

---

(١) يقال في الكناية عن الخصب نفشت العز لاختها لانها تنفش شعرها وتنصب روقها في أحد شقيها فتنتطح أختها وانما ذلك من الاشر . ويقولون في أوصافهم خلفت أرضاً نظالم معزاها (أي تتظالم) . (٢) ضعيف العقدة كناية عن تراخي التأليف واضطرابه . (٣) الاهتباب والهبة بمعنى وتناكر الشيء تجاهله

بالقلم يدهُ فمضى مرخى العنان ، غلّى له عن طريق السبق الى الرّهان ،  
وإن للقلم لو أطلقوه لنفرةً أيسر خطبها الجراح ولكنه مدللٌ والطائر  
أهون ما يطرد إذا كان مهيض الجناح<sup>١</sup> .

كثرت الكتب وهي إما أعجميُّ الوضع والنسب ، وإما هجينٌ في  
نسبته الى أدب العرب<sup>٢</sup> ، يلتفت فيها الكلامُ التفاتة السارق الى كل  
ناحية<sup>٣</sup> ، ويسرع في مرّه اسراع السابق على كل ناجية<sup>٤</sup> ، فلا يحققون  
ولكن يخلدون الى سائح الخاطر كيفما خطر<sup>٥</sup> ، ولا يُنقبون ولكنهم  
يجذون في كل حجر أصابوه معنى الأثر ، وإذا كتبوا تاريخ الرجال  
فكانهم يكتبونه على ألواح القبور<sup>٦</sup> ، ثم ينطلق الكتابُ وفي صدره  
اسمُ ( المؤلف ) يسعل به كما يسعل المصدور ، وهم لو علموا منطق  
المعاني لرأوا كلاماً كثيراً يذعوهم أن يدعوه ، وكان يرفعهم لو أنصفوه  
ولم يضعوه ، ولكنهم يأخذون في كل جانب ، ويضمّون ما ضمّ حبلُ  
الحاطب<sup>٧</sup> ، وإنما العلم كالروض يقصر بعض أغصانه فيسهل على كل متناول ،  
ويطول بعض فروعه فيكدّيد الفارع المتناول وهذا التاريخ قد طوي في رؤس

( ١ ) الاطراد جري الشيء والمهيض المكسور ( ٢ ) الهجين عربي ولد من أمة  
والمراد استعجام نسق التأليف كما ستعرفه في الفصل التالي . ( ٣ ) كناية عن الاضطراب  
والاخذ من كل جهة ( ٤ ) الناجية السريعة وهي من صفات النوق . ( ٥ ) سائح الخاطر  
ما يعرض لأول وهلة وأكثر ما يكون خطأ وأخذ مال اليه أو ازمه ( ٦ ) لا يكتب  
على هذه الألواح الا الاسم والتاريخ وشي من النسب وبعض الاشعار ... ( ٧ ) من  
المجاز هو حاطب ليل للمخلط في كلامه وحبل الحاطب انما يضم التخليط



اهله فكانت جماجمهم غلاف كتابه ، وغابت حقائقه في القبور كما يغيب أثر الميت في ترابه ، فلم يبقَ الا إتفاق الأعمار وسيلة لاستدراك ما فات ، وليكون ما يموت من عمر الأحياء فداءً لآثار الحياة بعد من مات ، وفي ذلك همٌّ من الكدِّ يلحفُ القلوبَ والأكبادُ ، وحرقةٌ تتلذّع حتى في القلم والصحيفة والمداد ، وضيقٌ يخيل للباحث أن بين الأوراق ، بحاراً ذات أعماق ، وأن رأسه يصطدم من أحرف السطور ، بحروف الصخور ، وضجرٌ يتوهم به الكاتب أن روحه تثبُّ من جسده ، الى يده ، فيجد للقلم حزناً كالخز في الوريد ، ومساً من نفسه كمس المبرد للحديد ، بل يرى كأن المعاني لا تنضج الا اذا جعل رأسه قدرها ، وأوقد من فكره جمرها ، فيتنسم وكأنه يتنسم بعض دخانها ، ويزفر وكأنما يزفر من حرّ نيرانها .

وأنا لم أصوّر للقارئ هذا الجحيم الذي خالق للكتاب ، ولا ذكرت ما أعيد لهم فيه من أنواع العذاب ، لأدعي أنني الكاتب الذي لا يصرف غيره الأقوال ، ولا أن كتابي يعدُّ شيئاً اذا الاشياء حصلت الرجال<sup>٢</sup> ، ولا أن لي محابر الأقلام ومدادها وياض الصحف وسوادها ، فاني لست في هذا ( العصر ) ممن تخدعه الشمس بطول ظله ، أو تفرّقه النفس بكثرة وقلة ، ولكني رأيت من كتب في هذا التاريخ يريد ان يستولي على الأمد وادعاً في مكانه ، ويلحق الطريدة ثانياً من عنانه ، ويستبدّ بالسبق

( ١ ) أي يلحسها فيشتد عليها ( ٢ ) التنسم التنفس . ( ٣ ) اذا ميزت الاشياء

الرجال واظهرت صفاتهم والجملة شطر بيت لذي الرمة ( ٤ ) وقت ( العصر ) يبلغ ظل كل شي ، مثليه والتورية في هذه اللفظة . ( ٥ ) بكثيره وقايله

بالقلم يده فمضى مرخى العنان ، فغلى له عن طريق السبق الى الرهان ،  
وإن للقلم لو أطلقوه لنفرة أيسر خطبها الجماح ولكنه مذلّ والطائر  
أهون ما يطرد إذا كان مهيض الجناح<sup>١</sup> .

كثرت الكتب وهي إما أعجمي الوضع والنسب ، وإما هجين في  
نسبته الى أدب العرب<sup>٢</sup> ، يلتفت فيها الكلام التفاتة السارق الى كل  
ناحية<sup>٣</sup> ، ويسرع في مره اسراع السابق على كل ناجية<sup>٤</sup> ، فلا يحققون  
ولكن يخلدون الى سانح الخاطر كيفما خطر<sup>٥</sup> ، ولا ينقبون ولكنهم  
يجدون في كل حجر أصابوه معنى الأثر ، واذا كتبوا تاريخ الرجال  
فكأنهم يكتبونه على ألواح القبور<sup>٦</sup> ، ثم ينطلق الكتاب وفي صدره  
اسم ( المؤلف ) يسعل به كما يسعل المصدور ، وهم لو علموا منطق  
المعاني لرأوا كلاماً كثيراً يدعوه أن يدعوه ، وكان يرفعهم لو أنصفوه  
ولم يضعوه ، ولكنهم يأخذون في كل جانب ، ويضمون ما ضم حبل  
الحاطب<sup>٧</sup> ، وانما العلم كالروض يقصر بعض أغصانه فيسهل على كل متناول ،  
ويطول بعض فروعها فيكد يد الفارع المتناول وهذا التاريخ قد طوي في رؤس

---

( ١ ) الاطراد جري الشيء ، والمهيض المكسور ( ٢ ) الهجين عربي ولد من أمة  
والمراد استعجام نسق التأليف كما ستعرفه في الفصل التالي . ( ٣ ) كناية عن الاضطراب  
والاخذ من كل جهة ( ٤ ) الناجية السريعة وهي من صفات النوق . ( ٥ ) سانح الخاطر  
ما يعرض لأول وهلة وأكثر ما يكون خطأ وأخذ مال اليه أو ازمه ( ٦ ) لا يكتب  
على هذه الألواح الا الاسم والتاريخ وشيء من النسب وبعض الاشعار... ( ٧ ) من  
المجاز هو حاطب ليل للمخطط في كلامه وحبل الحاطب انما يضم التخليط

اهله فكانت جماجمهم غلاف كتابه ، وغابت حقائقه في القبور كما يغيب أثر الميت في ترابه ، فلم يبقَ الا إتفاق الأعمار وسيلة لاستدراك ما فات ، وليكون ما يموت من عمر الأحياء فداءً لآثار الحياة بعد من مات ، وفي ذلك همٌّ من الكدِّ يلحفُ القلوبَ والأكبادُ ، وحرقةٌ تتلذّع حتى في القلم والصحيفة والمداد ، وضيقٌ يخيل للباحث أن بين الأوراق ، بحاراً ذات أعماق ، وأن رأسه يصطدم من أحرف السطور ، بحروف الصخور ، وضجرٌ يتوهم به الكاتب أن روحه تثبُّ من جسده ، الى يده ، فيجد للقلم حزناً كالخز في الوريد ، ومساً من نفسه كمسّ المبرد للحديد ، بل يرى كأن المعاني لا تنضج الا اذا جعل رأسه قدرها ، وأوقد من فكره جمرها ، فيتنسم وكأنه يتنسم بعض دخانها ، ويزفر وكأنما يزفر من حرّ نيرانها .

وأنا لم أصوّر للقارئ هذا الجحيم الذي خاق للكتاب ، ولا ذكرت ما أعدّ لهم فيه من أنواع العذاب ، لأدّعي أنني الكاتب الذي لا يصرف غيره الأقوال ، ولا أن كتابي يعدُّ شيئاً اذا الاشياء حصلت الرجال<sup>٢</sup> ، ولا أن لي محابر الأقلام ومدادها وبياض الصحف وسوادها ، فاني لست في هذا ( العصر ) ممن تخدعه الشمس بطول ظله ، أو تفرّقه النفس بكثرة وقلة ، ولكني رأيت من كتب في هذا التاريخ يريد ان يستولي على الأمد وادعاً في مكانه ، ويلحق الطريدة ثانياً من عنانه ، ويستبدّ بالسبق

( ١ ) أي يلحسها فيشتد عليها ( ٢ ) التنسم التنفس . ( ٣ ) اذا ميزت الاشياء الرجال واظهرت صفاتهم والجملة شطر بيت لذي الرمة ( ٤ ) وقت ( العصر ) يبلغ ظل كل شيء مثليه والتورية في هذه اللفظة . ( ٥ ) بكثيره وقايله

من قبل أن يجري في رهانه ، ومن ألف فقد استهدف أيما استهداف  
والرأي كما قيل ميزان لا وزن الوافي لناقص ولا الناقص لواف ، ولا  
أكذب الله فان كتب القوم في الايدي كالثياب المتداعية كلما حيست  
من ناحية تهكت من ناحية ، اقتصروا فيها على تمزيق الأسفار ،  
فجعلوا القلم كالمقراض ، واختصروا من التاريخ اقبح الاختصار ، فكأنه لم يكن  
للعرب أثر ماض ، وهذا العلم ان لم يزاوَل بقوة النية خرج ضعيفا ، والقلم  
غصن رويحي فان لم تروه النفس أصبح قصيفا .

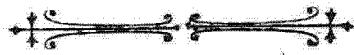
لا جرم أن هذا التأليف ليس الا مدرجة التلف ، بعد أن أغفله  
من سلف وعفا الله عما سلف ، وقد يقتحمه رجل اللهم ، فلا يلبث من  
فرقه ، أن تراه كالصبي في مشيته يتخلع ، ويركبه فارس القلم ، فلا يلبث  
من نزوه وقلقه ، أن تراه كالجبان في سرجه يتقلع ، فانما هي حقائق بعضها  
متمنى فات ، وبعضها لا يزال تَحْمَلًا في بطون المؤلفات ، فليس الصبر على  
نفض تراب المناجم ، حتى يخرج معدن الذهب ، بأشد من الصبر على فض  
الكتب والمعاجم ، حتى يخلص تاريخ الادب .

بيد أنني وان طاوات التعب فيما استطعت من الإيقان والتجويد ،  
وحسبت زمني في إغفال حسابه كأنه عمر قديم ليس فيه يوم جديد ، لا أقول  
إني أتيت منه على آخر الإرادة ، ولا أزعم أنني أوفيت على الغاية من الافاده ،

( ١ ) الحوص والحياصة الحياطة ومنه المثل ان دواء الشق أن تحوصه ( ٢ ) يسمى  
ظرفاء ( الصحافيين ) هذا النوع من النقل ( التحرير بالمقص ) . ( ٣ ) تخاع الصبي  
تفككه في مشيه حين يدرج

فذلك امر تنصرم دونه أعصار ، ولكمال عمر لا يحسب بالسنين ولكن  
بالأعصار ، وجهد ما بلغت من همة النفس أن أكون بنجوة من التقصير ،  
وان أدل بما جمعته من حوادث التاريخ على ان عمر التاريخ غير قصير .  
ولقد رميت في ذلك المرمى القصي ، وعالجت منه الطبع والعصي ، ولو أن لي  
قلماً ينفذ مداده شهاباً على الأفهام ، ويكون في جنة هذا التاريخ آدم الأعلام ،  
لخرج منها وليس عليه من خلته ، الا مثل ما هبط به آدم من « ورق »  
الجنة في قلته .

يبدأ أن الورقة من أحدهما تعد في بركتها بأشجار ، ومن الآخر  
تعد في منفعتها بأسفار ، وحسبي ذلك عذراً ان جرئت على العادة في  
تقديم الأعدار .



## كلمتي في هذا التأليف

لست أريد بما أثبتته من هذه الكلمة أن أظهر الاستبصار فيما الفت من هذا الكتاب أو أستطيل بما تهياً لي من طريقته فذلك مني جهد المقل ، وقوة الضميف الذي لا يمضي حتى يكل ، وبمذاقنا أنا وهذا الامر وأين أقع منه وهل ولدت مع التاريخ فأكون شاهد نشأته والقاضي في خصومة أهله ومن اليه الكلمة في الجرح والتعديل ، والطرح والتبديل ، وهل أنا الا رجل يقرأ ليكتب ويكتب ليقراً الناس فان أصاب فلهم ولا هم ، وان أخطأ فعليه وخلاهم ذم

ولكني أريد أن أصف الطريقة التي اتهجتها وأبين لم خالفت القوم في نمط التأليف الى ما ابتدعته وما هو مبلغهم من العلم فيما يتقحمون من تلك الخطة وان انزع في ذلك بالدليل وادعي بالبينة مستعيناً بالله من فتنة القول وزوره ، وخطل الرأي وغروره

اجتمع المتأخرون على جعل التدبير في وضع « تاريخ أدبيات اللغة العربية »<sup>(١)</sup> أن يقسموا هذا التاريخ الى خمسة عصور . الجاهلية فصدر

---

(١) هذا هو الاسم الذي ضربت به الذلة على كل كتاب عربي وقلم يغيرون منه الالفة أدبيات يبدلون بأداب واني لو لم أكن أعرف ان هذا العلم ينقله الضعفة عن موضوعات اللغات الاعجمية ويحتذون مثالها فيه لعرفت ذلك من ركافة هذه التسمية واختبالها فلا أدري كيف يجعلونها مع فرط ثقلها عنواناً لأداب اللغة التي توزن حروفها بالاسنة

الاسلام فالدولة الاموية فالعباسية الى سقوطها سنة ٦٥٦ للهجرة ثم ما تعاقب من العصور بعد ذلك الى قريب من هذه الغاية حيث ابتدأت النهضة الحديثة. وأول من ابتدع هذا التقسيم المستشرقون من علماء أوربا قياساً على أوضاع آدابهم مما يسمونه Littérature فهم الذين تنبهوا لهذا الوضع في العربية فجأؤا به كالمنبهة على فرط عنايتهم بفنونها وآدابها وحسبهم من ذلك صنيعاً<sup>(١)</sup>

يبد أن تلك العصور اذا صلحت أن تكون أجزاءاً للحضارة العربية التي هي مجموعة الصور الزمنية لضروب الاجتماع وأشكاله فلا تصلح أن يكون أبواباً لتاريخ آداب اللغة التي بلغت بالقرآن الكريم مبلغ الإعجاز على الدهر ولم تك تدطوي عصرها الاول حتى كان أول سطر كتب لها في صفحة المصر الثاني شهادة الخلود وما بعد اسباب الخلود من كل .

ثم ان تاريخ الآداب ليس فناً من الفنون العملية التي يجذب فيها الناس بعضهم حذو بعض ويأخذ الآخر منها مأخذ الاول وتتساقق فيها الامم على وضع واحد لانها لا تتغير على الجملة في تعرف مادتها وتصرف أداتها حتى يتعين علينا أن نجعل آداب لغتنا جميلة على آداب اللغات الاعجمية يفصل على أزيائها وان ضاقت به وخرج فيها باذ الهيئة مجموع الاطراف متداخل الاعضاء وكأنه مشدود الوثاق ، أو مأخوذ بالخناق . انما التاريخ حوادث قوم بعينهم

( ١ ) اول من ميز الادب والفنون بالتاريخ هو باكون مؤسس الفلسفة الحديثة ( توفي سنة ١٦٢٦ للميلاد ) فانه جمل أقسام التاريخ ثلاثة التاريخ المدني وتاريخ الاجتماع وتاريخ الادب والفنون

والآداب اللسانية ليست أكثر من مواضع يتواطأ عليها أولئك القوم حتى تخرج منها الحوادث المعنوية التي هي ميراث التاريخ كله في أيديهم من العادات والاخلاق على أنواعها . فتاريخ الآداب في كل أمة ينبغي ان يكون مفصلاً على حوادثها الأدبية لأنها مفاصل عصوره المعنوية والشأن في هذه الحوادث التي يقسم عليها التاريخ أن تكون مما يحدث تغييراً محسوساً في شكله وان تالحق بمادته تنوعاً خاصاً بنوع كل حادثة منها فإذا لم تكن كذلك لم يكن التاريخ متجديداً بالاعتباره الزمني فقط وهذا ليس بشيء ، لان تغير الزمن طبيعة الوجود . من أجل ذلك تجد الأمة التي لا حوادث لها ليس لها تاريخ

على ان مثل تلك الحوادث التي وصفناها قد تعقم بها الازمنة المتطاولة في تاريخ بعض الأمم وقد تتساقق في بعض عصورها الراقية كآداب اللغات الاوربية وقد تكون متقطعة كما هي في تاريخ الادب العربي . وهذا التاريخ فضلاً عن تداخل أدواره بعضها في بعض حتى لا حدّ بينها ولا يتعين لأحدها مفصل يبتدىء منه أو ينتهي إليه فانه يمتاز عن كل ماسواه بذهاب الكثير من أصول حوادثه لا تقطاع متن التأليف من أول عهده واضطراب النسق التاريخي فيما ألف بعد ذلك بحيث يستحيل أن تنضد كل حوادثه في متعاقب أزمانه أو تنزل على مراتب عصوره . وهذا الجاحظ امام الكتاب ، ورأس الآداب ، والذي لا يستعصي عليه من داء القلم الا ما يعي طب أساته ، ويمتنع أن يكون من قدرة كاتب متأخر وضع دوائه في دوائه ، قد حاول بعض ذلك مرة في باب من كتابه ( البيان والتبيين ) فلم يصنع شيئاً



ورहितه من المعجز ما سوغ له أن يجعل عجزه في معنى استطاعته فاكتفى به  
عذرا .

قال في باب أسماء الخطباء « كان التدبير في أسماء الخطباء وحالاتهم  
وأوصافهم أن تذكر أسماء أهل الجاهلية على مراتبهم وأسماء أهل الإسلام على  
منازلهم ويجعل لكل قبيلة منهم خطباء وتقسّم أمورهم باباً باباً على حدته  
وتقدم من قدمه الله عز وجل ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم في النسب  
وفضله في الحسب . ولكني لما عجزت عن نظمه وتنسيده تكلفت ذكرهم  
في الجملة » اهـ .<sup>(١)</sup>

هذا على أنه في شباب اللغة ورعان الأدب والرواة يومئذ متوافرون  
ومادة العرب لا تزال باقية فكيف بنا وقد بعد العهد وانقطعت الأسانيد  
وبليت الصحف وليس التدبير في أسماء الخطباء الذي اعجز الجاحظ وهو  
ما هو إلا جزءاً مما يجب من التدبير في أصول التاريخ كله إذا وسعنا في  
الكثير ماضاق عنه في القليل . ولكن الذي ينظر امامه الى حدّ ، قلما ينتبه  
الى مقدار ما وراءه مما لا يجد

وعلى هذه السبيل وضمت الكتب في « تاريخ ادبيات اللغة العربية »  
فقد تصوروا حدوداً معينة من الزمن لا يلبث أحدهم ان يمد اليها قلمه حتى  
يتجاوزها ويكاد يؤرخ ما في الغيب أيضاً ..

---

(١) عجز الجاحظ ايضاً عن ترتيب شواهد كتاب الحيوان كما صرح بذلك في  
باب الضب في المصحف السادس من كتابه وان كان هذا المعجز من معاني الفوضى  
التي اقتضتها طبيعة الأدب يومئذ

وقد رأينا لتاريخ الحضارة في كل امة راقية اربعة ابواب متفرقة على أركانها وهي الادب والسياسة والدين والعلم . فتأجُ الامةُ من باب الأدب الى نوع الكمال في عواطفها ، ومن باب السياسة الى مبلغ القوة في كيانها ، ومن باب الدين الى درجة السعادة في انفسها ، ومن باب العلم الى ما تعزُّ به في مجتمعها من هذه الثلاث . بيد أن تلك الاركان لا تستوي في جميعها ضعفاً وقوة ولا في اعتماد اصل التاريخ على بعضها دون بعض فقد كانت دعامة التاريخ العربي في قيامه ادبية محضة ثم جاء الدين فاستتبع السياسة والعلم . لا جرم كان الأدب عندهم تاريخ خاص لا يمتزج بالدين ولا بالسياسة ولا بالعلوم الا من جهات معلومة تعرف بها وجوه الاتصال بين اجزاء تاريخهم في جملته وإفضاء بعضها الى بعض في المخالطة والارتباط

وبديهي أن تعاقب ثلاثة عشرين قرناً من تاريخ الادب الاسلامي لم ينشئ لغة أفصح مما نطقت به العرب قبل ذلك ولا جاء بشعر يباين أشعارهم في الجملة ولا جعل لادبائنا مذاهب متميزة في تكوين الدين والسياسة والعلم بل ليس في تعاقب تلك المصور الادبية على الاغلب الا موت رجال وقيام رجال والا أمور عرضية مما يترك في مادة الادب أثاراً قليلة تدل على اختلاف القرائح وتباين الفرائز في أولئك الرجال الذين قاموا عليه وتاريخها متعلق بمواقع رجالها من طبقات الزمن ثم هي من قلتها بحيث لا تبلغ الا أن تأوى عليها بعض عرى التاريخ ويبقى سائرُه على تفصيله الذي أشرنا اليه آنفاً

إذا تدبرت هذا وانعمت على تأمله علمت السبب في حشو ما تراه من

كتب الادبيات التي ترتب على العصور بالطم والرّم (١) من تاريخ العلوم الدينية والدينية وبالتراجم الكثيرة التي تخرج بشرط الكتاب الى أن يكون سجل وفيات ثم بتعداد الكتب والمؤلفات التي تلحق شطره الآخر بكتب الفهرست. ومؤلفوا هذه الكتب لا يدرون أنهم مرغمون على ذلك بحكم هذه الطريقة العقيمة التي تتبني ولا تلد إذ ليس في تفتيش القبور عن بقايا الحياة الا العظام، ومن يرجع الى ورائه لا يقطع شيئاً الى الامام.

ثم هم يحفلون أن لتاريخ كل أمة تبين غيرها مباينة طبيعية مزاجاً معنوياً تتعلق به حوادثها كما تتعلق أخلاق الفرد بنوع مزاجه الفطري ومن أين يكون للعصبي في أبواب التحمل والأناة والسعة والخفض ما يكون لذي المزاج الليمفاوي مثلاً. فأيما امرؤ أجرى على الاثنين حكماً واحداً ظاهراً كليهما وكذلك الامر في أمزجة التاريخ

وأنت خير بان الرجال في تاريخ الآداب الاوربية هم قطعة التي يتألف منها لانهم متصرفون في اللغة كأنها انما توضع لمهدم أوضاعاً جديدة فكل رجل منهم في طريقته ومذهبه فن علم أو هو على الحقيقة قطعة متميزة في تركيب التاريخ العقلي. ونكن الرجال عندنا في قياسهم بأولئك ينزلون منزلة التشبيهات من المعاني الاصلية الا ما ندر ولا حكم للنادر. وذلك لأن في لغتنا معنى دينياً هو سرّها وحقيقتها فلا تجد من رجل روى أو صنف أو أمل في فن من فنون الآداب أول عهدهم بذلك الا خدمة للقرآن الكريم ثم استقلت الفنون بعد ذلك وبقي أثر هذا المعنى في فواتح الكتب. والقرآن

(١) كل ما لا يراد منه الا الكثرة

نفسه حادثة أدبية من المعجزات الحقيقية التي لا شبهة فيها وإن لم يفهم سر ذلك « من لا يفهمونه ». أفصلح بعد هذا أن يكون تاريخ الادب العربي مبنياً على غير حوادثه التي كوّنته وتعلق بأكثرها رجاله دون أن تتعلق بهم كما هو الشأن في سواه

على أن المستشرقين فيما أرى لم يختاروا ذلك الوضع إلا لما كان العجبة منهم إذ لا سليفة لهم في العربية وآدابها وإن كان منهم رؤس في بعض فنون التاريخ العربي ثم لأنهم يتعجلون الفائدة كيف أصابوها فأياً ما يضموا من ذلك فلم به فضل . ثم هم يكتبون لا أنفسهم ولا قوامهم فلا يبالون بما تفتق عليهم هذه الطريقة التي يستمرّون عليها . ولكن ما بال ادبائنا أصلحهم الله قد أضلوا الحجة وجهلوا بموضع الشبهة فتابعوا على غير نظر وكانوا جميعاً في ذلك كأنّ وأخواتها فيما يعمل وما يكف . . . وما بالهم وهم بقية العرب وأهل اللسان وحفظة الكتاب لا يأنفون أن يعدوا من « أدبيات اللغة » تاريخ علم الفلك مثلاً وإن كانت روائع الالفاظ تشبه بالنجوم ، ولا أن يقرنوا علم الصرف بعلم الكيمياء وإن كان لكل منهما « وزن » معلوم .<sup>(١)</sup>

إن صنيع أولئك (المستشرقين) وهؤلاء (المستغربين) لا يعتبر في حقيقة التأليف، إلا توسعاً من ضيق وتوفيراً من قلة واغراقاً في الحشد والاجتلاب

---

(١) كان العرب في صدر الاسلام يسمون ما عرف يومئذ من العلوم كالنحو والفرائض بعلوم الموالي ويأنفون منها لأنها غميمة في سلاتهم ثم لما استبحر العلم بعد شباب الدولة العباسية كان العلماء يفرقون بين (انواع العلوم واصناف الآداب) كما يؤخذ من طبقات الادباء لابن الانباري وكل ذلك لان المذاهب العلمية واختصاص الاختصار،

والفرق بعيد بين عم يورد منه المؤلف اشباعاً لكتاب وبين كتاب يفرد به اشباعاً للعلم نفسه . ولهذا بقي تاريخ آداب العرب محتاجاً الى طريقة أخرى لا يختصر فيها الزمن بسرعة النقل ولا يرفقه على الفكر بهذا « الاضطراب الرياضي » في وثوبه بين الكتب ولا يُستَرَفِها قبحُ التأليف بحسن التقسيم ولا يقوّى ضعف المعنى بما يكون من العناية ولا تنفتق الفصول الهزيلة سمنًا بما تلبس من الاوراق الكثيرة .

ولم تسقط دولة المعقول في هذه الامة الا منذ ابتداء العلماء يعتبرون العلم فهم العلم كما هو قهافتوا على ذلك باختصار الكتب وشرحها وتفتيقها بالحواشي والتعليق (الهوامش) وتلخيص المتن ونحو ذلك مما يورث الاضمحلال ، ويفقد العقل معنى الاستقلال ويجعل القرائح كالظل المتنقل كل آونة يقرب الى الزوال .

وقد بلغ من أثر ذلك ان صار العلماء يجهلون حتى أسماء العلوم التي لم تمسح على ايديهم وخاصة في مصر فهذا شيخ الاسلام محمد بن عبد البر السبكي المتوفي بدمشق سنة ٧٧٧ هـ يقول انه يعرف عشرين عالماً لم يسأله عنها بالقاهرة احد . ونقلوا عن القاضي عز الدين بن جماعة المتوفي سنة ٨١٩ وهو الذي كان يفاخر به المصريون علماء المعجم في كل فن ويشيرون اليه في أنواع المعقول — انه كان يقول أعرف ثلاثين عالماً لا يعرف أهل عصري أسماءها .

وكل ذلك من وناء الهمم ، واجتماع العلماء من هذه الشروح على ما يشبه تشریح الرمم ، حتى ليس الا قال وقيل وان قلت قلت وفيها قولان . ولعمري

ما جبل (قاف) الا جزء من هذه السلسلة..<sup>(١)</sup>

واذا كان عمود التاريخ سياقة الحوادث كما أسلفنا فلا ترغم هذه الحوادث على ان تقع في غير وقتها وتنفصل عن طبيعتها وتتصل بغير طبقها في التاريخ ولذلك رأينا الطريقة المثلى ان نذهب في تأليفنا مذهب الضم لا التفريق وان نجعل الكتاب على الابحاث التي هي معاني الحوادث لا على المصور فنخصص الآداب بالتاريخ لا التاريخ بالآداب كما يفعلون وبذلك يأخذ كل بحث من مبتدئه الى منتهاه متقلباً على كل عصوره سواء اتسقت أم افرقت فلا تسقط مادة من موضعها ولا تقتصر على غير حقيقتها ولا تلجأ الى غير مكانها ثم لا يكون بعد ذلك في التاريخ الا التاريخ نفسه لا ما يزين به من العبارة الموثقة ولا ما توصل به الحقائق القليلة من تصورات الخيال وشعر التأليف الى امثال ذلك من مواضع الاستكراد وضيق المضطرب وأمثله فيما بين أيدينا ماثلة لا تحتاج الى انتزاع، وهي على نفسها شاهدة فلم يبق في أمرها نزاع .

واذا تدبرت طريقتنا هذه وقابلت آثارها بما شئت من آثار الطريقة

---

(١) مما نورده تفككة ان بعض العلماء كان لا يقرأ دروسه الا في كتب مخطوطة (تحققاً بعلم) ومن عاداتهم في المخطوطات ان يكتبوا أوائل الكلمات في الشروح والحواشي بالحمرة . فكان صاحبنا يدفع نسخه لا يبيع طلبته يقرأ فيها ثم يشرح هو بعده وكان اذا فرغ القارىء من جملة في المتن أعادها الشيخ ومطل بها صوته وفخم كلماتها حتى يفرغ منها على هذا الوجه ثم يبتدىء الشرح بقوله للقارىء، قل ايه قال (شوف عندك الحمرا يا سيدي شوف) ...

الأخرى واحكمت ذلك بعقل راجح وأنعمت فيه بنظر غير مدخول رأيت  
أي هذه الكتب أحسن قياماً على تاريخ الأدب وأوفى بالحاجة منه وأردت  
بالفائدة على طالبه وتبينت أيها أضعف منزعة من الرأي والتدبير في طريقته  
بما يكشف لك خلوه باطنه من ورم ظاهره ، وما تجده من سرعة الاتصال  
في هذا « الفراغ المعنوي » بين أوله وآخره ،

### نمط الكتاب والبراه

قد قلنا في طريقة الكتاب اما تأليفه وأسلوبه ونمطه فاننا لم نأل جهداً  
في البحث والتنقيب ولم نأخذ في أمرنا بالرّسالة ولا استوطنا منه الهين اللين  
بل طاولنا ما طال من التعب وصابرنا ما يعزّ عليه الصبر من الضجر وما زلنا  
نردّ النفس على مكروهاها حتى استقرت فلم تترك كتاباً يمكن ان يستفاد منه  
حرف مما نحن بسبيله الا قرأناه في طلبه<sup>(١)</sup> ، وحملنا على النفس ما يكون من

---

(١) اصطلاح بعض المتأخرين على ان يذكر في مؤلفاتهم أسماء الكتب  
التي ينقلون عنها ويعينون مواضع النقل ليخرجوا من تبعه ما ينقلون اذا كان خطأ فينقلون  
ذلك على الكتاب زيادة في حسنات مؤلفه . . .

وقد كان سبيل الرواية عند محققي المتقدمين ان يذكر الراوية سنده في كل  
ما يرويه للقطع بصحته أو فسادة اذ العدالة شرط في الصحة فان لم يذكر انه روى عن  
فلان عن فلان الخ ويسمبهم لم تعرف عدالة المروي عنهم فلا يوثق بصحة ما يرويه  
وبذلك لا يكون ذكر السند الا لاثبات الصحة وسبائك هذا البحث مستفيضاً . اما نحن  
فلما لم يكن لنا سند وكنا نسئهم ان ثبت شيئاً لا نمخض الرأي فيه ولا نتق بصحته

نصبه ، وهذا أمر كما ترى متطاول ، ومثال ولكن لم نجد له لبعده من متناول ، ثم ان مواد هذا التاريخ اذا لم يتولها الكاتب بالذهن الشفاف ، ولم يعتبرها بالفطنة النفاذة حتى يكون لغيرها كالعراف ، فقلما تجتمع الا متفرقة في طلب مواضعها ، منازعة الى منازعتها ، لانها في أصلها غير كاملة النسق ولا قريبة المتسق . ومن تحررى ما تحريناه من ذلك يقف من تاريخ الادب على غور بعيد

ولم نبالغ في تهذيب العبارة ولا تدقيق المعاني ولا تنقيح اللفاظ اذ كان سبيل التاريخ ان لا يجي ، عن طبقة واحدة من الناس فبالحري لا يوضع لطبقة واحدة منهم وحسبنا من البلاغة ان يكون كتابنا مطابقاً لمقتضى الحال . . . ولم نستكثر من الامثلة ( والمختارات ) رغبة منا عن حشو الكتاب بما لا فائدة فيه الا تعذيب حجه ، وتذنب نجمه ، اذ كان ذلك لا يغني شيئاً في مادة التاريخ الا قليلاً منه يستوفى به حق النقد ويدل ببعضه على أثر من آثار ما نحن فيه والامثلة مطروحة في طرق النظر من كل كتاب ، وقد ابتذلها المتأخرون حتى لم يعد من دونها حجاب<sup>(١)</sup>

وكذلك ضربنا صفحاً عن الروايات الضعيفة والمبالغات السخيفة وما

بعد تقدم النظر دون ان ننبه عليه اذ مست الضرورة الى اثباته فقد أهملنا ذكر الكتب لان ذلك تطويل من غير طائل ولاننا نبسط كل معنى نأخذ فيه ولم نعين مواضع ما نقله لان علينا تبعته

(١) لعلنا تتبع هذا التاريخ بكتاب « القرائح العربية » الذي اتقينا فيه عيون الكلام نظمته ونثره ان شاء الله



اعترضنا من التكاذيب والتهاويل الى ما يدخل في تحريف الغالين وانتحال المبطلين وبالغنا في التثبت والتحقيق وتصفح الآراء وتجريح النقاة والرواة مقتصدين في الثقة بهم معتدين في التهمة لهم لا نتجاوز مقدار الصواب حتى تقبل ما لا يعقل ، ولا مقدار الوهن حتى نلحق ما يقبل بما لا يقبل .

وقد جعلنا أبوابه اثني عشر باباً تنطوي على جملة المأثور ، ويدور عليها التاريخ كما تدور السنة على عدة الشهور ، وهذه سياقها بعد فصلين من التمهيد في تاريخ الادب ، وأصل العرب

(الباب الاول) في تاريخ اللغة ونشأتها وتفرعها وما يتصل بذلك

(الباب الثاني) في تاريخ الرواية ومشاهير الرواة وما تقلب من ذلك على الشعر واللغة

(الباب الثالث) في منزلة القرآن الكريم من اللغة واعجازه وتاريخه وفي البلاغة النبوية ونسق الاعجاز فيها

(الباب الرابع) في تاريخ الخطابة والامثال جاهلية واسلاماً

(الباب الخامس) في تاريخ الشعر العربي ومذاهبه والفنون المستحدثة منه وما يلتحق بذلك

(الباب السادس) في حقيقة القصائد المعلقة ودرس شعرائها

(الباب السابع) في أطوار الادب العربي وتقلب العصور به وتاريخ أدب الاندلس الى سقوطها ومصرع العربية فيها

(الباب الثامن) في تاريخ الكتابة وفنونها وأساليبها وروساء الكتاب وما يجري هذا المجرى

(الباب التاسع) في حركة العقل العربي وتاريخ العلوم وأصناف الآداب جاهلية  
وسلاماً ( بالابحار ) التاريخي

( الباب العاشر ) في التأليف وتاريخه عند العرب ونوادير الكتب العربية  
( الباب الحادي عشر ) في الصناعات اللفظية التي أولع بها المتأخرون في النظم  
والنثر وتاريخ أنواعها

( الباب الثاني عشر ) في الطبقات وشي، من الموازنات  
هذه هي حوادث التاريخ وأبوابه، ومنها كما ترى فصوله وكتابه، وأنا  
أسأل الله أن يكون قد كتب فيه من السلامة ما يحقق به الفائدة للقراء، وأن  
يهب له من حسنات أهل الإنصاف ما يكفر عن سيئات أهل المراء، والحمد  
لله على ما انعم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

## الفصل الاول

### الأدب — تاريخ الكلمة

تقلب هذه اللفظة في العربية على ثلاثة أدوار لغوية تتبع ثلاث حالات من أحوال التاريخ الاجتماعي فهي لم تكن معروفة في الجاهلية وصدر الاسلام الا بما يؤخذ من معناها النفسي الذي ينطوي فيه وزن الاخلاق وتقويم الطباع والمناسبة بين اجزاء النفس في استوائها على الجملة وكل ما هو من هذا الباب ومنه الحديث الشريف « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ولعل ذلك كان توسعاً منهم في اصل مدلول الكلمة الطبيعي على ما هو معروف من امرهم في اشتقاق اللغة وانتزاع بعضها من بعض فانهم يقولون أدب القوم يأديبهم أدباً اذا دعاهم الى طعام يتخذونه والقوم اهل بادية مقفرة تأكل فيها الشمس حتى ظلها ، وتشرب نسيمها وطلها ، فاذا هلك فيها الزاد هلك حامله ، واذا لم يدفع عن نفسه باسلحة فله فالجوع قاتله ، ولذلك تمدحوا من أقدم أزمنتهم بالقري وعدوه من أعظم مفاخرهم لانه شريعة الطبيعة التي أدبتهم هذا الادب بل هو شعرها في اخلاقهم اذ ارتقى بعد ذلك بارتقاء الشعر حتى تخرقوا فيه كما يؤثر عن كرمائهم واجوادهم مما استوعبته كتب المحاضرات .

فلما كان هذا الخلق مظهر الخيم الصالح فيهم وحقيقة الأدب الطبيعي منهم وأرق معاني الانسانية عندهم لانه ليس وراء امساك الحياة على الحي

غاية توسعوا فيه بمقدار ما بلغوا من رقي الآداب وجعلوه تعريفاً نفسياً كما مر ولا بد أن يكون ذلك بعد أن ارتقوا في اجتماعهم واشتبتت العلاقات بينهم حتى أخذت الفطرة الطبيعية تبرز في أكثرهم بما يخالفها من صنعة الاجتماع وكان ذلك سبباً في انتباههم إلى هذا الوضع لأن الأدب على اختلاف معانيه انما هو ردُّ النفس إلى حدود مصطلح عليها اصطلاحاً وراثياً .

ثم لما جاء الاسلام ووضعت أصول الآداب واجتمعوا على أن الدين أخلاق يتخلق بها فشت الكلمة حتى إذا نشأت طبقة المعلمين لعهد الدولة الاموية كما سيجي، أطلق على بعض هؤلاء لفظ المؤدبين وكان هذا الاطلاق توسعاً ثانياً في مدلول (الأدب) لأنه اكتسب معنى علمياً إذ صار أثراً من آثار التعليم .

ثم استفاضت الكلمة وكانت مادة التعليم الأدبي قائمة بالرواية من الخبر والنسب والشعر واللغة ونحوها فاطلقت على كل ذلك ونزلت منزلة الحقائق العرفية بالاصطلاح وهذا هو الدور الثالث في تاريخها اللغوي وهو أصل الدلالة التاريخية فيها .

وقال ابن خلدون في حدِّ الأدب « هذا العلم لا موضوع له ينظر في اثبات عوارضه أو نفيها وانما المقصود منه عند اهل اللسان ثمرته وهي الاجادة في فني المنظوم والمنثور على اساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملائكة من شعر عالي الطبقة وسجع متساو في الاجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة اثناء ذلك متفرقة يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوائين العربية مع ذكر بعض من أيام العرب ليفهم

به ما يقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المههم من الانساب الشهيرة والاخبار العامة . والمقصود بذلك كله ان لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم اذا تصفحه ... ثم انهم اذا أرادوا حدة هذا الفن قالوا : الأدب هو حفظ اشعار العرب واخبارها والأخذ من كل علم بطرف . « اهـ

فهذا كما ترى ثبت لما قررناه لان كل ما عدوه من موضوع الادب انما هو مادة الرواية وعلى ذلك يستحيل ان يكون معنى الادب الاصطلاحي جاهلياً ولا ان يكون من مصطلحات القرن الاول لأن الكلمة لم تجيء في شيء من شعر المخضرمين ولا المحدثين وقد كانوا اهلها ومورثيها من بعدهم لو انها اتصلت بهم أو كانت منهم بسبب . والعجيب انك تجد لهم القوافي الطويلة على الباء وقد استوعبوا فيها الالفاظ الا مادة الادب ومشتقاتها مع انه ليس أخف منها عند المتأخرين ولا أعذب ولا أطرب ولا أعجب والسبب في ذلك ما ذكرناه وما نذكره

بلى قد روى صاحب العقد الفريد في باب الأدب من كتابه كلمة اسندها لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما وهي قوله : « كفاك من علم الدين ( ان تعلم ) <sup>(١)</sup> ما لا يسع جهله . وكفاك من علم الادب ان تروي الشاهد والمثل » ومقتضى ذلك ان ( علم الادب ) كان بالغاً من الاتساع في عهد ابن عباس حتى صار أقل ما لا يسع جهله منه رواية الشاهد والمثل للقرآن والعريية وهو نهاية الغرابة والشذوذ لان ابن عباس توفي فيما بين سنة ٦٨

(١) سقطت هذه الكلمة من نسخ العقد الفريد

و ٧٤ هـ على اختلاف اقوال المؤرخين ولم يكن يومئذ بالتحقيق ما يصح ان يسمى علم الادب .

وقد تناقل المتأخرون هذه الرواية عن العقد الفريد دون ان ينتبهوا لما فيها من فساد الدلالة التاريخية ولكن الصحيح ان الكلمة لمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس كما اسندها اليه الجاحظ في كتاب البيان . ومحمد هذا هو أصل الدولة العباسية لانه أبو السفاح أول الخلفاء العباسيين وتوفي سنة ١٢٥ وقيل ١٢٦ . ومما يرجح فساد تلك النسبة الى ابن عباس قول عمرو بن دينار فيه ما رأيت مجلساً كان اجمع لكل خير من مجلس ابن عباس . الحلال والحرام والعريية والانساب والشعر . ولو كان لفظ الادب معروفاً يومئذ لاجتزأ به وطوى فيه الثلاث . فالكلمة اذن من موضوعات القرن الثاني أي بعد ان بلغت الدولة الاموية مبلغها من المجد العربي

اما في القرن الاول فقد كانوا يسمون ما يقرب من ذلك (بعلم العرب) كما ذكره المسعودي في مروج الذهب اذ نقل عن المدائني حديثاً تصادر عليه ابن عباس وصمصمة بن صوحان وفيه ان ابن عباس بعد ان سأل الرجل عن قومه وعن الفارس فيهم ونحو ذلك مما يتعلق بالايام والمقامات قال انت يا ابن صوحان باقر علم العرب<sup>(١)</sup> وما كان الادب الاصطلاحي باكثر من هذا العلم يومئذ .

وبعد ان عرفت حدود الأدب في القرن الثاني واشتهرت الكلمة

---

(١) الباقى المتبحر في العلم وبه سمي محمد بن علي بن الحسين رضي الله تعالى

عنهم لتبحره

بقيت لفظة ( الأدباء ) خاصة بالمؤدين لا تطلق على الكتاب والشعراء واستمرت لقباً على أولئك الى منتصف القرن الثالث ومن ذلك كان منشأ الكلمة المشهورة ( حرفة الادب ) واول من قالها الخليل بن احمد صاحب العروض المتوفى سنة ١٧٥ وذلك قوله كما جاء في المضاف والمنسوب للثعالبي : « حرفة الأدب آفة الادباء » لانهم كانوا يتكسبون بالتعليم ولا يؤدبون الا ابتغاء المنة وذلك حقيقة معنى الحرفة على إطلاقها<sup>(١)</sup> .

فلما فشت اسباب التكسب بين الشعراء في القرن الثالث وبطلت العصبية التي كانت تجعل للشعر معنى سياسياً فاتخذوه حرفة يكدهون بها وجعلوه مما يتدرع به الى اسباب العيش من جائزة خليفة أو منادمة امير أو ما دون ذلك من الاسباب أيها كان انتقل اليهم لقب الادباء للمناسبة بين الفئتين في الحرفة ولم يلبثوا ان استأثروا به لتوسمهم في تلك الاسباب ثم جاء ابن بسام الشاعر المتوفى سنة ٣٠٣ فجعل « الحرفة » نبزاً وأخرجها عن وضعها اللغوي الى معنى مجازي غلب على حقيقتها واستبد بها فأرسلها مثلاً . وذلك فيما رثى به عبد الله بن المعتز حين قتل في سنة ٢٩٦ ودفن في خربة بازاء داره بعد جلال الامارة وعزة الملك اذ يقول

لله درك من مئت بمضيعة      ناهيك في العلم والآداب والحسب  
ما فيه لو لا ليت فتنقصه      لكنما ادركته « حرفة الأدب »

(١) يقال احرف الرجل احرافاً اذا نما ماله وكثر والاسم الحرفة من هذا المعنى قال قطرب والحرفة عند الناس الفقر وقلة الكسب وليست من كلام العرب انما تقولها العامة

وهذا هو اصل الكلمة التي تعاورها الادباء واعتبرها الشعراء ميراثاً  
دهرياً الى اليوم . وانما تناولها ابن بسام من لغة العامة وطبعها على شيء من عبث  
اخلاقه التي بلغت به من هجاء الامراء والوزراء وذوي المكانة من الناس الى  
هجاء ابيه واخوته وسائر اهل بيته حتى سنّها طريقة فيقال لمن يقفوا أثره  
في عبث اللسان ( انه يجري في طريق ابن بسام )

ثم صارت الآداب من يومئذ تطلق ايضاً على فنون المنادمة  
واصولها وأحسب ذلك جاءها من طريق الغناء اذ كانت تطلق عليه في  
القرن الثالث لانه بلغ الغاية من إحكامه وجردت فيه الكتب وأفردت له الدواوين  
من مختارات الشعر كما سنفصله في موضعه وكانوا يعتبرون معرفة النغم وعلل  
الاغاني من ارقى فنون الآداب وفيها وضع عبيدالله بن طاهر من ندماء الخليفة  
المعتضد بالله المتوفى سنة ٢٨٩ كتابه ( الآداب الرفيعة )<sup>(١)</sup> . لذلك قال ابن  
خلدون ان الغناء في الصدر الاول كان من اجزاء هذا الفن « الأدب »  
وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون انفسهم به  
حرصاً على تحصيل اساليب الشعر وفنونه

وقد الف كشاجم الشاعر الرقيق الذي كان طباح سيف الدولة بن حمدان  
كتابته « ادب النديم » اودعها ما لا يستغني عنه شريف ، ولا يجوز ان يخل به

---

(١) تصاح هذه الكلمة ان تكون تعريباً لما ترجمه المتأخرون ( بالفنون  
الجميلة ) beaux arts وعبيدالله هذا كان نادرة في الغناء قال صاحب الاغاني  
انه توصل الى ما عجز عنه الاوائل من جمع النغم كلها في صوت واحد تتبعه هو  
واتى به .



ظريف - وهو مطبوع مشهور . وتلى هذه الجبهة قال ابو القاسم اسماعيل بن  
أحمد الشجري من شعراء القرن الرابع ايضاً وقد جمع « حرف » الآداب  
ان شئت تعلم في الآداب منزاتي

وانني قد عداني العز والنعم

فالطرف والسيف والأوهاق تشهد لي

والعود والترد والشطرنج والقلم<sup>(١)</sup>

وكل ذلك انما كان في تاريخ البلدين اما الأعراب فلم يجر عليهم حكم  
الأدب ولم يتناولوا الكلمة على اصطلاحها وانما اتخذ بعضهم لقب الاديب  
يتمدح به على جهة ما ينشأ عنه من معاني الرقة الحضرية التي تقابل في طباعهم  
الجفاء ولوثة الاعرابية كقول بعضهم انشده الجاحظ

واني على ما كان من عنجبيتي ولوثة أعرابيتي لأديب<sup>(٢)</sup>

ولم ينتصف القرن الرابع حتى كان لفظ (الادباء) قد زال عن العلماء جملة  
وانفرد بمزيتة الشعراء والكتاب في الشهرة المستفيضة لاستقلال العلوم يومئذ  
وتخصص الطبقات بها على ما كان من ضعف الرواية ونضوب مادتها حتى  
قالوا : ( ختم تاريخ الادباء بشعب والمبرد ) وكانت وفاة المبرد سنة ٢٥٨

---

(١) الطرف الكريم من الخبل والاهواق جمع وهق قال الليث هو الخبل المغار  
يرمى في أنشودة فتؤخذ به الدابة والانسان وغرض الشاعر ان يجمع حرف الكدية  
التي ينال بها وسيأتي تفصيل ذلك في بحث الشعر

(٢) العنجهية الحق والجهل واللوثة الهيج والحق ايضاً والمراد بكل ذلك  
جفاء الاخلاق

وشعلب سنة ٢٩١ فيكون ختام تاريخ الادباء (أي المعلمين) في أواخر القرن الثالث ومن يومئذ أخذ الادب يتميز عن علم العربية بعد ان كانوا يعدون (الادباء) اصحاب النحو والشعر وان كان ذلك بقي موضوع علم الادب . ومن هذا انه لما وضع علي بن الحسين المعروف بالباخرزي<sup>(١)</sup> كتابه ( دمية القصر ) الذي جعله ذيلًا على اليتيمة للشعالبي عقد فيه فصلا ( لأئمة الادب ) قال في أوله : « هؤلاء قومٌ ليس لهم في دواوين الشعر رسم ، ولا في قوانين الشعراء اسم ، » ثم ترجم طائفة من علماء اللغة كابي الحسين بن فارس صاحب فقه اللغة وابن جني النحوي واسد العامري والجوهري صاحب الصحاح وتلميذه أبي صالح الوراق<sup>(٢)</sup> فدل صنيعه على ان الشعراء يومئذ كانوا هم المستبدون بلقب الادباء ولا يزالون على ذلك الى اليوم والى ما شاء الله لان معنى الأدب قد استحجر فعاد لغويا كأنه كذلك في أصل الوضع من جهة الدلالة به على الشعراء والكتاب

---

(١) نسبة الى باخرز ناحية من نواحي نيسابور وقتل علي هذا في بعض مجالس

الانيس سنة ٤٦٧

(٢) وكذلك الف الفرزدقي القيرواني المتوفى سنة ٤٧٩ في تراجم اللغويين والنحاة

كتاباً سماه ( شجرة الذهب في معرفة أئمة الادب ) . دع عنك كتب طبقات (الادباء)

في تراجم القوم وهي مشهورة

### المؤدبون

ونداشرنا الى المؤدين فيما سبق ونحن ذاكرون طائفة منهم تتبعنا اسماءهم فيما بين أيدينا من كتب الأدب والتاريخ لانهم كانوا مادة هذه الكلمة وانما قبل لهم المؤدبون تمييزاً لهم من المعلمين الذين اختصوا بإقراء صبيان العامة في الكتاتيب فان هؤلاء لم يكن يطلق على احدهم الا لقب المعلم وقد جعلوهم مثلاً في الحق حتى قالوا «الحق في الحاكّة والمعلمين والغزاليين» ثم جعلوا الحاكّة والغزاليين أقل واسقط من ان يقال لهم حق ... لان الاحق هو الذي يتكلم بالصواب الجيد ثم يجيء بخطأ فاحش وليس عند هؤلاء صواب جيد في مثال ولا فعال فبقي الحق في عرفهم خاصاً بالمعلمين

اما المؤدبون فهم الذين ارتفعوا عن تعليم اولاد العامة الى تعليم اولاد الخاصة أو اولاد الملوك المرشحين للخلافة وأخذهم بفنون الآداب كالخبر والشعر والعربية ونحوها ولذا كانوا يسمونها (علوم المؤدين) قال الجاحظ مرّ رجل من قریش بفتى من ولد عتاب ابن اسيد وهو يقرأ كتاب سيبويه فقال أف لكم علم المؤدين وهمّة المحتاجين<sup>(١)</sup> على ان المؤدين كانوا عندهم على ضربين اصحاب العلوم واصحاب البيان وكانوا يخصصون هؤلاء بالاثرة قال ابن عتاب « يكون الرجل نحويًا عروضيًا وقسامًا فرضيًا<sup>(٢)</sup> »

(١) وكانوا يقولون لا ينبغي للقرشي ان يستغرق في شيء من العلم الا علم الاخبار اما غير ذلك فالتف والشذور

(٢) عالماً بالمواريث

وحسن الكتابة جيد الحساب حافظاً للقرآن راوية للشعر وهو يرضى ان يعلم أولادنا (بستين درهماً) ولو ان رجلاً كان حسن البيان حسن التخريج للمعاني ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم». ومن ثم اختص مشاهير العلماء والرواة بتأديب أولاد الخلفاء والامراء

فمن المؤدين ابو معبد الجهني وعامر الشعبي كاتبا لعلمان اولاد عبد الملك بن مروان وهما اقدم المؤدين فيما وقفنا عليه <sup>(١)</sup> ويزيد بن مساحق ادب الوليد بن عبد الملك ايضاً وعبد الصمد بن الاعلى ادب الوليد بن يزيد وأدب ولد عتبة بن ابي سفيان وصالح بن كيسان أدب بني عمر بن عبد العزيز والجمد بن درهم كان يعلم مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية والشرقي بن القطامي كان يؤدب المهدي بن المنصور وابو سعيد المؤدب كان يؤدب موسى الهادي ومحمد بن المستنير المعروف بقطرب كان يؤدب المهدي وابو عبيدة كان يؤدب الرشيد والاحمر النحوي كان يعلم الامين ثم ادبه الكسائي وفي طبقات الادباء ان الكسائي كان يؤدب الرشيد ايضاً واليزيدي النحوي كان يؤدب المأمون والفراء كان يؤدب ولدي المأمون وقيل انه نهض يوماً لبعض حوائجه فابتدرا الى نعله ليقدماها له فتنازعا ايها يقدمها ثم اصطلحا على ان يقدم كل منهما واحدة . ورفع ذلك الى المأمون فاستدعاه فلما دخل عليه قال له من أعز الناس . قال لا اعرف احداً اعز من امير المؤمنين . فقال المأمون بل من اذا نهض تقابل على تقديم نعليه وليا عهد

---

(١) وأقدم من عرف من المعلمين قبل ظهور لقب المؤدب أبو الاسود الدؤلي كان يجتمع له الناس فيعلمهم النحو وتعالماً

المسلمين حتي يرضى كل واحد منهما ان يقدم له فردا . فقال يا أمير المؤمنين  
لقد أردت منعها عن ذلك ولكن خشيت ان ادفعهما عن مكرمة سبقا اليها او  
أكسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليها الخ

وكان المفضل الضبي يؤدب الواثق والزم المتوكل يعقوب بن السكيت  
المتوفى سنة ٢٤٤ تأديب ابنه المعتز قالوا فلما جالس عنده قال له يا بني بأي  
شيء يحب الامير ان يبدأ من العلوم قال بالانصراف... ثم اختار المتوكل لتأديب  
المعتز وأخيه المنتصر أبا جعفر بن ناصح وأبا جعفر بن قادم. ومن ذلك العهد  
بدأ لقب المؤدب ينزل عن رتبته اذ كانت العجمة قد فشت وضعفت النزعة  
العربية في الدولة فختم تاريخ الادباء كما قيل بشعلب والمبرد اللذين تخرج عليهما  
عبد الله بن المعتز أما مؤدبه فكان أبا جعفر بن عمران الكوفي  
وقد ضربنا صفحا عن ادباء المعلمين ممن دارسوا اولاد الخاصة والامراء  
لان فيما قدمناه كفاية على برهان ما ذهبنا اليه

### علوم الادب وكتبه

كان الادب كما أسلفنا مجموع علوم المؤدين فلا جرم حدوده كما رأيت  
فيما نقلناه عن ابن خلدون وهو حد يطاق امرهم كل المطابقة فلما أرادوا  
تعيين هذه العلوم نظروا في غرض الأدب فجعلوا له غرضين احدهما  
يقال له الغرض الادنى والثاني الغرض الأعلى . فالاول ان يحصل للمتأدب  
بالنظر في الأدب والتمهر فيه قوة يقدر بها على النظم والنثر . والغرض الأعلى  
ان يحصل للمتأدب قوة على فهم كتاب الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه

وصحابه ويعلم كيف تبنى الالفاظ الواردة في القرآن والحديث بعضها على بعض حتي تستنبط منها الاحكام وتفرع الفروع وتنتج النتائج وتقرن القرائن على ما تقتضيه معاني كلام العرب ومجازاتها .

قال البطانيوسي وهو الذي ننقل عنه هذه الكلمات من شرح ادب الكاتب — والشعر عند العلماء أدنى مراتب الأدب . ثم نظروا في تعيين العلوم التي تفضي الى هذه المقاصد فاختلفوا فيها ولكنها في الجملة كانت علوم العربية ولم يعينها احد الى أواخر القرن الخامس . فلما انشئت المدرسة النظامية ببغداد أنشأها نظام الملك ( وزير ملك شاه السلجوقي ) المتوفى سنة ٤٨٥ اختير لتدريس الادب فيها ابوزكرياء الخطيب التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ وهو من أئمة اللغة والنحو ثم درسه بعده علي بن أبي زيد الفصيح وكان نحوياً ثم عزل ( لهمة التشيع ) بابي منصور الجواليقي . وتعاقب هؤلاء المدرسين جعل للأدب موضعاً معيناً كان لا يزال مقرراً عند العلماء الى آخر القرن السادس على ما ذكره ابن الانباري المتوفى سنة ٥٧٧ في طبقاته فانه لما ترجم هشام بن محمد بن السائب الكلبي قال « انه كان عالماً بالنسب وهو احد علوم الادب فذلك ذكرناه في جملة الادباء فان علوم الادب ثمانية النحو واللغة والتصريف والعروض والقوافي وصناعة الشعر واخبار العرب واسبابهم ثم قال . » والحقنا بالعلوم الثمانية علمين وضعناهما وهما علم الجدل في النحو وعلم اصول النحو<sup>(١)</sup> . الا ان الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ اراد ان يجعل للادب حداً علمياً من الحدود ( الجامعة المانعة ) على طريقة المتكلمين فعرف علوم الادب

(١) لذلك تفصيل سياتي في موضعه عند الكلام على النحو

بأنها علوم يجتريز بها عن الخلل في كلام العرب لفظاً وكتابةً وجعلها اثني عشر  
منها أصول <sup>الأنها</sup> العمدة ~~للأدب~~ في ذلك الاحتراز وهي : اللغة والصرف والاشتقاق  
والنحو والمعاني والبيان والبديع ( وجعلوه ذيلًا لعلمي المعاني والبيان داخلا  
تحتهما ) والعروض والقوافي

ومنها فروع وهي : الخط — أي الاملاء — وقرض الشعر والانشاء  
والمحاضرات ومنه التواريخ . وهذا التقسيم هو المعروف عند العلماء الى اليوم  
وقال صاحب نفح الطيب ان علم الادب في الاندلس كان مقصوراً على  
ما يحفظ من التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات قال وهو أنبل علم  
عندهم ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل .

اما كتب الأدب فهي على الحقيقة كتب العلوم التي مرت بيد أن  
اهل اللغة كانوا ينتحلون لفظة الادب في تسمية كتبهم الخاصة باوضاع  
اللغة وشواهدا لان اللغة أصل المادة فمن ذلك ديوان الأدب وكتاب  
ديوان العرب وميدان الأدب وروض الآداب وفتح الأدب وسر الأدب  
ومقدمة الأدب وعنوان الأدب وكلها في اللغة ذكرها صاحب كشف  
الظنون وغيره وبعضها موجود كديوان الأدب للفارابي ومقدمة الأدب  
للزحشري . ومن هذا القبيل أدب الكاتب لابن قتيبة ولابن دريد ولابن  
النحاس وغيرهم .

اما الكتب التي هي من شرط الأدب فكثيرة وأصولها كما قال ابن  
خلدون أربعة دواوين وهي : أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرّد  
وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لابي علي القاسمي

البغدادى (١) وما سوى هذه الاربعة فتبع لها وفرع عنها  
وانما عدت هذه الاربعة اصولا لانها تدور على فنون الرواية . وقد  
وضعت كتب كثيرة أشهرها كتاب العقد الفريد لابن عبدربه الاندلسي  
وكتاب الاغانى لابي الفرج الاصبهاني وهو الكتاب الذي استوعب فيه  
اخبار العرب وانشابهم واشعارهم وأيامهم ودولهم فكان أفضل مايتؤدب به  
في العربية وكثرت كذلك كتب الامالي والتذاكر وأعظمها امالي ابن  
الشجري وتذكرة الصلاح الصفدي وللکلام في ذلك موضع نتولى فيه  
بسطه ونوفيه قسطه ان شاء الله



(١) كل هذه الكتب طوع مشهور وقد شرحت كلها شروحا مختلفة ما عدا  
البيان والتبيين ولولا التفادي من الملل لاتينا على تاريخ كل كتاب منها



## الفصل الثاني

### العرب

هم جيلٌ من الناس تدلّت عليه الشمس منذ القدم في هذه الجزيرة التي كأنها قطعةٌ انخرلت من السماء مع الانسان الأول فلا يزال أهلها أبعد الناس منزعاً في الحرية الطبيعية واشدهم منافسة في مغالبة لهمم كأنما ذلك فيهم ميراث الطبيعة الأولى فهم منه ينبتون وعليه يموتون . سكان الفيافي وتربية العراء ينبسطون مع الشمس وبقيثون مع الظل ويطيرون في مهبّ الهواء بل أولاد السماء ما شئت من أنوف حمية ، وقلوب أيّة ، وطباع سيّالة ، وأذهان حداد ، ونفوس منكّرة وقد أصبحت بقاياهم الضاربة في بوادي العربية ومصر وسورية لهذا العهد موضع العجب لاهل البحث من علماء الطبائع حتى أجمعوا على انه لا ندّ لهذا الجنس في جميع السلائل البشرية من حيث الصفات التي تتباين فيها أجناس البشر خالقاً وخالقاً وحتى صرح بعضهم بأن هذه السلالة تسمو على سائر الاجيال بالنظر الى هيئة القحف وسعة الدماغ وكثرة تلافيفه وبناء الاعصاب وشكل الألياف العضلية والنسيج العظمي وقوام القلب ونظام نبضاته فضلاً عما هي عليه من ملاحظة السحنة وتناسب الاعضاء وحسن التقاطيع ووضوح الملامح وفضلاً عما في طباعها من الكرم والانفة والارحية وعزة النفس والشجاعة لاجرم كانوا أهل هذه الامة المعجزة التي ناسبتهم بأوضاعها في معاني

التركيب حتى كأنما كتب لها ان تكون دين الالسنه الفطري لتصلح  
بعد ذلك ان تكون لسان دين الفطرة

### بلاد العرب

العربية شبه جزيرة موقعها الى طرف الجنوب الغربي من قارة آسيا  
ويحدها من الشمال سورية ومن الشرق الفرات حتى مصبه في خليج العجم  
وجهة من بحر الهند ومن الجنوب بحر الهند ايضاً ومن الغرب البحر  
الاحمر وكانوا يحدونها قديماً بأنها من بحر القلزم (الاحمر) الى بحر البصرة ومن  
أقصى الحجز<sup>(١)</sup> باليمن الى أوائل الشام بحيث كانت تدخل اليمن في دارهم  
ولا تدخل فيها الشام . ثم يقسمونها معتبرين الاصل في ذلك جبل السراة  
الذي تبثديء سلسلته في اليمن وتمتد شمالاً الى أطراف بادية الشام فتجعل  
العربية شطرين غريباً وشرقياً ينحدر الغربي من سفح ذلك الجبل حتى يصل  
الى شاطئ البحر الاحمر وقد صار هابطاً فيسمونه لذلك الغور وتهامة .  
ويرتفع الشرقي الى أطراف العراق والسموة فيسمونه نجداً — ومن هذا  
قولهم أغار وأنجد . - ويسمون ما فصل بين تهامة ونجد بالحجاز لانه يحجز  
بينهما ثم يسمون ما ينتهي به نجد في الشرق حتى يصل الى خليج فارس من  
بلاد اليمامة والبحرين وعمان وما اليها بالعروض لا اعتراضها بين اليمن ونجد  
ويسمون القسم الجنوبي مما وراء الحجاز باليمن لوقوعه عن يمين الكعبة

---

(١) والحجز بالمكسر في شمال الجزيرة وهي ديار ثمود

إذا استقبلت المشرق فالعربية عندهم خمسة أقسام كبيرة : اليمن وهو الى الجنوب يحده البحر من ثلاث جهات ويحد من الجهة الرابعة بتهامة واليمامة والبحرين . ومن هذا القسم حضرموت وعمان والشحر ونجران وتهامة وهي شمال اليمن والى شرق البحر الاحمر وغرب الحجاز والحجاز وهو جبال انتشرت فيها المدن والقرى وأشهر مدنه مكة والمدينة

ونجد وهو بين الحجاز والعراق العربي غرباً وشرقاً وبين اليمامة والشام جنوباً وشمالاً وهذا القسم أطيب ارض في بلاد العرب ولذا كانت بواديه من معادن الفصاحة

واليمامة وهي بين اليمن ونجد جنوباً وشمالاً وبين الحجاز والبحرين غرباً وشرقاً .

وأحسن ما انتهى اليه مما هو خاص بوصف البلاد العربية على نحو عهدها الجاهلي هو كتاب « صفة جزيرة العرب » للهمداني المعروف بابن الخائك المتوفى سنة ٣٣٤ فقد رحل اليها ووصفها كما رآها واستقصى في ذلك وبالغ الى حد التحقيق .

#### اصل العرب

ليس من شأننا في هذا الكتاب ان نستغرق ما قيل عن العرب واصلهم ومنشئهم وما حققه من ذلك علماء البحث من المتأخرين الذين استثاروا الدفائن واستنطقوا الآثار واستخرجوا تاريخ الحياة من القبور ولا ان

نستوفي معاني الاجماع العربي مما يدل في العادات والاديان ونحوها  
فذلك مما يحتمل لجلدات الكثيرة وهو منجى تبعد الصلة بينه وبين ما نحن  
بسبيله من آداب اللسان . ولذلك نأتم بهذا المعنى مكتفين منه بما تمس اليه  
حاجة التحديد ، وما توفى به فائدة هذا التمهيد .

العرب أصل الشعوب السامية نسبة الى سام بن نوح وهي الامم التي  
ذكرت التوراة انها من نسله وتسمى لغاتها باللغات السامية ايضاً كالعربية  
والعبرانية والسريانية والحبشية والآرامية وغيرها وهي تسمية استحدثها  
بعض المتأخرين من علماء اللغات . وقد اختلف الباحثون في منشأ تلك  
الشعوب الذي امتهدته وتفرقت منه فذهب بعضهم الى ان أصل الساميين  
الحبشة في افريقيا وقال آخرون بان مهدهم جزيرة العرب . والقائلون بهذا  
الرأي أكثر تفرأ وأعز أنصاراً ولهم في ذلك آراء أخرى متنوعة الادلة  
ولكن مما لا يمترون فيه ان العربية كانت أبعد آفاق التاريخ التي اضاء فيها  
كوكب الحضارة المشرق وقد تحققوا ذلك بما اكتشفوه سنة ١٩٠١ الميلاد  
في بلاد السوس من آثار دولة حمورابي - وهي المسألة التي دونت عليها  
الشريعة البابلية في ٢٨٢ نصاً وما ثبت لهم من ان هذه الدولة عربية وهي  
تبتدىء سنة ٢٤٦٠ ق.م وبهذا الاكتشاف قضي للجنس العربي انه أسبق  
الامم الى وضع الشرائع وانه بلغ طبقة عالية في الحضارة سقطت دونها  
الشعوب القديمة بل يذهب الاستاذ (صموئيل لاينج) في كتابه اصل الامم  
الى أن الساميين استوطنوا بلاد العرب وانهم حيثما وجدوا في غيرها فهم  
غرباء وان تقدمهم في الحضارة معرق في القدم ربما كان زمن تحول العصر

الحجري فتحولوا يومئذ عن الصيد والقنص الى الزراعة والصناعة وهو  
يشير بذلك الى الدولة الميعينية التي جاء ذكرها في سفر الاخير الثاني الاصحاح  
٢٦ عدد ٧ . وقد عثر الباحثون على أمة بهذا الاسم ذكرت في أقدم آثار  
بابل سنة ٣٧٥٠ ق . م . على نصب من أنصاب النقوش المسمارية .  
وبالجملة فإن أصل العرب من أصول التاريخ الانساني التي ألحقها الله بعباده  
فلا يجليها لوقتها الا هو وفوق كل ذي علم عليم

#### طبقات العرب

المؤرخون على ان العرب قسمان بائدة وباقية ويسمون البائدة بالعرب  
العاربة على التأكيد للمبالغة كما يقال ليل لائل وصوم صائم وشعر شاعري يؤخذ  
من لفظه فيؤكد به وذلك لرسوخهم في العروبية كما يقولون ويقسمون الباقية  
الى قسمين يسمون الاول بالعرب المستعربة لانهم ليسوا بصرحاء في العروبية  
ولا خلصاً بل هم استعربوا بانتقال الصفات العربية اليهم ممن قبلهم وهم من  
بني حمير بن سبأ .

ويسمون القسم الثاني بالعرب التابعة للعرب وهم من قضاة وقحطان  
وعدنان وشعبيها العظيمين ربيعة ومضر . وقد يقسمون العرب الى ثلاث  
طبقات بائدة وعاربة ومستعربة<sup>(١)</sup> ويريدون بالبائدة القبائل الهالكة بالعاربة  
(١) يسمي بعضهم البائدة بالعاربة والقحطانية بالمتعربة والاسماعيلية بالمستعربة  
وبعضهم يجعل المتعربة والمستعربة مترادفتين ويراد بهما الاسماعيلية واختلاف المؤرخين  
في ذلك نما جاء من تطبيقهم أقوال علماء اللغة على التاريخ فانهم يريدون في اللغة بالعاربة  
والعرباء الخالص والمتعربة والمستعربة الدخلاء

عرب اليمن ومن ولد قحطان وبالمستعربة أولاد اسماعيل عليه السلام لانه كان عبرانياً فاستعرب بعد ان اتصل بجرهم الثانية من ولد قحطان وأصهر اليهم . وقد يطلقون على القسم الاول من قسمي العرب الباقية القحطانية والسبئية والحميرية والكهلانية واليمينية والكلبية . وعلى القسم الثاني الاسماعيلية والعدنانية والمعدنية والمضرية والقيسية .

### العرب البائدة

وهذه يريدون بها القبائل التي بادت واندثرت اخبارها فلم يقع الى التاريخ شيء منها وهي : عاد ومسكنهم الأحقاف . وثمود في الحجر وأميم في بادية أبار بين عمان والأحقاف . وعييل في يثرب . وطسم وجديس ومسكنهم اليمامة . والمماثلة وهم قبائل عدة مساكنهم عمان والحجاز وتهامة ونجد وتيما وبطره وهي التي سماها اليونان بالعربية الصخرية غير البتراء المذكورة في سيرة ابن هشام <sup>(١)</sup> وفلسطين . وجاسم وهي قبيلة تفرعت من العماليق وجرهم الأولى ومسكنهم باليمن ومن بقاياهم جرهم الثانية الذين هاجروا الى مكة وتزوج منهم اسماعيل عليه السلام ثم ألدوا في الحرم فنزل بهم العذاب . ووبار ومسكنهم ارض وبار باليمن <sup>(٢)</sup> . ومما

---

(١) ذكرت في سياق غزوة النبي صلى الله عليه وسلم ابني لحيان . وابن بنو لحيان من ارض الانباط

(٢) عد ابن دريد في الجمهرة العرب العاربة سبع قبائل وقال هي عاد وثمود وعماليق وطسم وجديس وأميم وجاسم وعدهم ابن قتبية تسعاً كما سيأتي

نذكره للدلالة على بعض مزاعم العرب في آثار القبائل البائدة  
ماحكاها الجاحظ في الحيوان قال : زعم اناس ان من الابل وحشياً . . .  
فزعموا ان تلك الابل تسكن أرض وبار لانها غير مسكونة ولان  
الحيوان كلما اشتدت وحشيته كان للخلاء أطلب قالوا وربما خرج الجمل  
منها لبعض ما يعرض فيضرب في أدنى هجمة من الابل الاهلية فالمهزّية<sup>(١)</sup>  
من ذلك النتائج . وقال آخرون هذه الابل الوحشية . . من بقايا ابل  
وبار فلما أهلكهم الله تعالى . . بقيت ابلهم في أما كنهم التي لا يطرقها  
أحد فان سقط الى تلك الجزيرة بعض الخلفاء او من أضل الطريق حثا الجن  
في وجهه فان ألحَّ خبلته .

وقد حقق أهل البحث من المتأخرين شيئاً من تاريخ بعض القبائل  
البائدة وعينوا أزمتهامستندين في ذلك الى التوراة وما ذكره قدماء الجغرافيين  
ثم الى ما اكتشفوه آخراً من الآثار في طرفي الجزيرة وليس ذلك من غرضنا  
فنكتفي بالایماء اليه .

#### القحطانية

وهم عرب اليمن ينسبونهم الى يعرب بن قحطان وهو المذكور في التوراة  
باسم (يارح بن بقطان) وقحطان عند نسابة العرب بن عابر بن شالح بن ارغشند  
ابن سام بن نوح .

(١) الهجمة من الابل الجماعة منها وقد اختلفوا في عددها والمهزّية ابل متسوبة  
لمهرة بن حيدان ( بفتح الميم والحاء ) وهو حي من أحيائهم

ويعرب هذا هو الذي يزعم العرب انه أصل اللغة الفصحى قال  
حسان بن ثابت

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب  
أينما فصرتم معربين ذوي نقر  
وكنتم قديماً ما بكم غير عجمة  
كلام وكنتم كالبهائم في القفر<sup>(١)</sup>

وفي تاريخ هذه الطبقة القحطانية عند العرب تخطيط كثير لاسبيل الى  
تخليص الحقيقة منه وقد عرف أهل البحث من علماء المتأخرين بما أصابوه  
من الآثار في اطلال اليمن وبعض اطلال اشور وغيرها انه قامت في اليمن  
ثلاث دول كبرى كلها ذات شأن وهي المعينية والسبئية والحيرية . والمعينيون

(١) في كتاب العرب لابن قتيبة ان اصل العربية لليمن لانهم من ولد يعرب  
ابن قحطان قال . وكان يعرب اول من تكلم بالعربية حين تبلبلت الاسن بابل وسار  
حتى نزل اليمن في ولده ومن اتبعه من اهل بيته ثم نطق بعده ثمود بلسانه وشخص حتى نزل  
الحجر . الى ان يقول . حين بوأ الله اسماعيل عليه السلام الحرم وهو طفل وأنبط له  
زمزم ومرت به من جرهم رقعة فتبركوا بالمكان ونزلوه وضموه اليهم فنشأ معهم ومع  
ولدانهم فتكلم بلسانهم فقل نطق بالعربية (أي العربية) قال الا ان الياء زبدت في  
الاسم فحذفت في النسب كما تحذف أشياء من الزوائد وغير كما تغير أشياء  
عن اصولها . اهـ

وابن قتيبة يعد العرب العاربة هم اليمن ويسمي غيرهم المتعربة أي الداخلة فيهم  
المتعلمة منهم ويقول أيضاً ان القبائل القديمة تسع . طسم وجديس وعبينة وضجم (بالجيم  
والحاء) وجم والماليق وقحطان وجرهم وثمود .





## العرب والاعراب

لعلماء اللغة كلام مسهب في وجه تسمية العرب بهذا الاسم وقد استوفى الزبيدي قسامته في شرحه على القاموس ولا فائدة في جميعه لان مداره على اشتقاق اللفظة من عَرَبَة التي قالوا انها بآحة العرب - واختلفوا بين ان تكون مكة او تهامة - او ارتجالها كغيرها من أسماء الاجناس او هم سموا كذلك لاعراب لسانهم أي ايضاحه وبيانه لانه اوضح الألسنة وأعرها عن المراد بوجوه من الاختصار . والصحيح ان اللفظة قديمة يراد بها في اللغات السامية معنى البدو والبادية وتلك خصيصة العرب في التاريخ القديم وقال بعض الباحثين انهم سموا بذلك حين نزحوا عن ارضهم الاولى - جهة العراق - الى الجزيرة لأن نزوحهم كان الى الغرب واللغة السامية الاصلية ليس من حروفها العين فاصل اللفظة على ذلك « غرب » وهو تخريج على النسبة كالذي خبط فيه علماء اللغة

ثم حدثت من هذه اللفظة لفظة الأعراب وذلك حين تحضرت القبائل فخصوا الكلمة بأهل البادية . وقال الازهري : رجل عربي اذا كان نسبه في العرب ثابتاً وان لم يكن فصيحاً وجمعه العرب ورجل أعرابي اذا كان بدوياً صاحب نجمة وانتواء وارتباد الكَلَأ وتنبع مساقط الغيث<sup>(١)</sup> وسواء كان من العرب أو من مواليهم قال : والاعرابي اذا قيل له يا عربي فرح بذلك

(١) المراد بذلك انه يقيم حيث يجد المرعى فاذا اجذب اتجمع وذهب في طلبه . وهذا التعريف الذي جاء به الازهري انما هو من أمرهم بعد الاسلام

وهشّ والعربي اذا قيل له يا اعرابي غضب فمن نزل البادية او جاور البادين  
فظمن بظعنهم وانتوى بانتوائهم فهم أعراب . ومن نزل بلاد الريف  
واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها مما ينتمي الى العرب فهم عرب  
وان لم يكونوا فصحاء

وقد صار لفظ الاعرابي بعد الاسلام مما يراد به الجفاء وغلظ الطبع  
وكانوا يسمون ذلك في الرجل أعرابية فيقولون للجافي منهم ألم تترك  
اعرايتك بعد . وبذلك خرجت الكلمة عن مطلق معنى البادية الى معنى  
خاص يلزمها

والاعراب يومئذ هم أهل الفصاحة يلتمسهم الرواة ويحملون عنهم  
ويرون فيهم بقية اللغة ومادة العرب كما ستقف على تفصيله وبهذا نزلوا من  
تاريخ الاسلام منزلة العرب من تاريخ الجاهلية في المعنى اللغوي



## الباب الاول

### اصل اللغات

اللغة بنت الاجتماع وليس من السهل أن تُحدد الطفولة التاريخية للانسان ولكن العلماء وأهل البحث ممن تقدم نظرهم يهجمون من ذلك على التشابهات ويعقدون من النسب المختلفة سلسلة طويلة يسلكون فيها المصور التي جمعها التاريخ وينتهون من ذلك الى طرف دقيق يتلمسه التصور لان مادته من الوهم المصمت وهذا الطرف هو عندهم اصل الانسان أو طفولة تاريخه الهرم

منذ خلق اللسان خلقت الاصوات وهي مادة اللغة ولكن الطفولة الفردية تدلنا على أن الطفل يتدىء من أبسط درجات النطق الطبيعي الذي هو محض اصوات مصبوغة بصبغة من الشعور تكون هي حقيقة الدلالة المعنوية فيها فيكون كأنما يلهم المنطق بهذه الاصوات التي هي لغة روحه ثم يدرك معاني تلك الدلالة ويميز بين وجوهها المختلفة ثم ينتهي الى الفهم فيقلد من حوله في طريقة البيان عنها بالالفاظ متوسعاً في ذلك على حسب ما يتسع له من معاني الحياة الى أن تنقاد له اللغة التي يحكيها ولولا التقليد الذي فطر عليه ما بلغ من ذلك شيئاً

وعلى هذا القياس رجع العلماء الى طفولة التاريخ فنهج من رأى ان الانسان كان محاطاً بالسكوت المطلق فذهب الى أن اللغة وحي وتوقيف

من الله في الوضع او في الموضوع وهو مذهب افلاطون من القدماء وبه أخذ ابن فارس والاشعري واتباعه من علماء العرب . وفريق آخر ذهب الى ان الانسان طفل تاريخي فاللغة درس تقليدي طويل مداره على التواطىء والاصطلاح وهذا هو المذهب الوضعي وبه قال ديودورس وشيشرون واليه ذهب ابو علي الفارسي وتلميذه ابن جني وطائفة من المعتزلة<sup>(١)</sup> . وبالجملة فانه لم يبق من اصول الاستدلال على تحقيق هذا الرأي الاتبع منطق الحيوان الذي يسرح في حضيض الانسانية وتبين وجوه الدلالة في اموره واستقراء مثل ذلك في الامم المتوحشة التي لا تزال من نوع الانسان الادنى . وقد رأوا ان الحيوان يفهم بضروب الحركات والاشارات والشمائل وتباين الاصوات باختلاف معاني الدلالة وهذا امر تحققه رواض الدواب وسواها وأصحاب القنص بالكلاب والفهود ونحوها فانهم يدركون ما في أنفسها الحيوانية باختلاف الاصوات والهيئات والتشؤف واستحالة البصر والاضطراب واشباه ذلك . ومن ثم قيل ان اول النطق المعقول في الانسان كان بدلالة الاشارة كما يصنع الخرس فكان معاني الحياة لما لم تجد منصرفاً

---

(١) لما ألف ابن جني كتاب الخصائص تناول في بعض مواضعه الكلام عن أصل اللغة فأظهر ميله الى المذهب الوضعي الا انه لم يقطع به بل وازن بين أدلة المذهبين ثم قال « وان خطر خاطر فيما بعد يعاق الكف باحدى الجهتين ويكفها عن صاحبها قلنا به » ثم جزم بهذا الرأي بعد ذلك . وقد أورد السيوطي في المزهرة كلاماً طويلاً يجمع فيه آراء المتكلمين في أصل اللغة واستوعب ذلك أتم استيعاب ولكن الفصل برمته « من صناعة الكلام » ...

من اللسان فاضت على أعضاء البدن وترى أثر ذلك لا يزال باقياً في الدلالة على المعاني الطبيعية الموروثة من أول الدهر كالتقطيب وتزوية بعض عضلات الوجه واستحالة البصر في الغضب ثم انبساط الاسارير واستقرار النظر في الرضا والسرور ونحو ذلك مما تراه لغة طبيعية في الخليقة الانسانية ورأوا ايضاً ان لبعض القبائل المتوحشة من سكان أستراليا وأواسط أمريكا الجنوبية الفاظاً ولكنها محض أصوات لا تدل على المعاني المقصودة منها الا اذا صحبتها الاشارة والحركة والاضطراب بحيث إن العين هي التي تفهمها لا الأذن . وهم اذا انسدل الليل وأغمدت الالحاظ في أجفانها حبسوا ألسنتهم وباتوا بحياة نائمة . ومن ثم قيل ان الانسان يستعمل الصوت للدلالة بعد ان استكمل علم الاشارة ولذلك بقي الصوت محتاجاً اليها احتياجاً وراثياً ثم ارتقى الانسان في استعمال الاصوات بارتقاء حاجاته وساعده على ذلك مرونة اوتار الصوت فيه . وبتجدد هذه الحاجات كثرت مخارج الاصوات واتسع الانسان في تصريف الفاظه فتهيأ له من المخارج ما لم يتهيأ لسائر الحيوان فان منطق الكلب مثلاً قد لا يخرج عن العين والواو ( في عَوَوَو ) وقس عليه ما يسمع من منطق الغراب والسنور وسائر انواع الحيوان ومن ذلك كان منشأ اللغة

#### المواضعة على الالفاظ

اذا تدبرت ما تقدم رأيت القول بأن اللغة وحي وتوقيف انما هو من باب التقوى التاريخية لا اكثر لان الانسان خلق مستعداً منفرداً ليصير بعد ذلك عالماً مجتمعاً وليجري في كماله المقسوم له على سنة الله التي لم تتبدل

ولن تجد لها تبديلاً وهذه السنة هي أن المتغير لا يوجد كاملاً بل لا بد له من نشأة يمر في ادوارها حتى يتحقق معنى التغير فيه ولعل أصل هذا المذهب كان مبالغة في تصوّر الاستعداد الانساني لانه إلهام لا مربية فيه ولذلك ترى أهله منقسمين فتمهم من يقول بان الانسان ألهم أصول المواضعة ومنهم من يقول بانه ألهم اللغة نفسها والحقيقة ان الانسان ملهم بفطرته أصول الحياة وليست اللغة بأكثر من أن تكون بعض أدواتها التي تعين عليها ولذا تراها في كل أمة على مقدار ما تبلغ من الحياة الاجتماعية قوة وضعفاً . وإذا كان من أصول الحياة الاجتماع فمن أصول الاجتماع اللغة وهذه من أصولها المواضعة . وأقرب ما يصح في الظن مما لا يبعد أن يكون الوجه المتقبل وان كان الظن لا يغني من الحق شيئاً أن الاصوات الحيوانية هي المثال المحتذى في لغة الانسان لانها محيطة به تتقلب على سمعه كلما سمع خصوصاً والانسان في أول اجتماعه مضطر لمغالبة الحيوان فهو بهذا الاضطرار يتدبر اختلاف هيآت الصوت الواحد ومعاني ما فيه من التبر ودليله في ذلك افعال الحيوان التي تؤدي معاني هذا الاختلاف من نحو الغضب والألم والذعر وغيرها ومن هنا يتعين أن تكون اوائل الالفاظ التي نطق بها الانسان وأدارها على معان متنوعة هي الفاظ الاحساس وما يصرح به عن الوجدان على الصور البسيطة التي لا يزال أكثرها ميراثاً في الجنس كله على تباين اللغات وهي التي تشبه في تركيبها مقاطع الصوت الحيواني اذ يكثر فيها الحرف الهاوي الذي هو أخف الحروف بل هو الصوت الطبيعي في الحياة وهو حرف اللين بأنواعه الالف والواو والياء . وما عدا هذا الحرف فقلما يكون فيها الا أحرف الحلق كالعين

والغين والهاء والخاء لأنها قريبة من الحنجرة وذلك في الانسان نحو آه واخ  
وامثالهما من المقاطع الصوتية التي لا يزال يعبر بها عن أنواع من الاحساس  
الى اليوم

ولما أدرك الانسان حقيقة هذا الاستعمال وتقلب فيه واصطلحت عليه  
الجماعات منه فتق له استعدادده اللهاام أن يتأمل في الاصوات الطبيعية  
الاخرى من قصف الرعد وانقضااض الصواعق وخرير الماء وهزيز الريح  
وحفيف الشجر واصطكاك الاجسام وما اليها من أصوات هذه اللغة الجامدة  
وهي ربما تبلغ المائة عددًا فقلدها واهتدى بها الى مخارج حروف أخرى غير  
التي تنهيا في الاصوات الحيوانية فدار بها لسانه وابتدأ يجمع بينها على طريق  
المحاكاة دالًّا بالصوت على مُحْدِثِهِ ولا يزال ذلك طبيعة في لغة الاطفال فهم  
يسمون الدجاجة كا كا والشاة ماما والسنور نونو وذكر الجاحظ في الحيوان  
ان طفلا سئل عن اسم أبيه فقال وَوَّ وَوَّ وكان أبوه يسمى كلبًا .

وهذه الحالة كانت بدء اختراع اللغة أي حين كانت حاجات الاجتماع  
قليلة لا تتجاوز الاشارة الى أمهات المعاني الطبيعية بالمقاطع الثنائية كأنهمال  
المطر وانفلاق الحجر وانكسار الشجر وأمثالها فلما بدأ الاجتماع يرتقي بنسبة  
أحوال الانسان يومئذ بدأ الاختراع الحقيقي في اللغة وأمثلة ما يُظن في ذلك  
ان الانسان جعل يقلب المقاطع الثنائية التي عرفها على كل الوجوه التي تحدثها  
آلات الصوت فلما استتم صورها ارتجل المقاطع الثلاثية فدارت بها الحروف  
دورة جديدة وفشت الفاظ أخرى غير التي عهد لها وكان ذلك ابتداء تسلسل  
اللغة فتواضعوا على اعتبار المقطع الثنائي أصلا في مدلوله كقطّ مثلاً حكاية



صوت القطع ثم جعلوا كل صورة تتحصل من زيادة حرف عليه فرعاً من هذه الدلالة ثم استفاضوا في الاستعمال على هذا التركيب بالقلب والابدال وبذلك اهتدى الانسان الى سر الوضع

لاجرم ان هذا أبين وجوه الطريقة التي يمكن ان توحى بها الفطرة في تاريخ المواضع على اللغات وهي السنّة التي لاتزال تجري عليها أحكام الخلق في كل ما يتكون وينشأ ثم هي متحققة بما يقطع الريب في هذا الخلق السوي الذي يعقل ويفكر وهو الانسان معجزة المخلوقات الذي يتكوّن جنيناً كسائر الاجنّة الحيوانية لا فرق بينه وبينها في التركيب . ولكن هذا الذي أتى على اللغة انما تم في دهور متطاولة وعلى طريقة وراثية بطيئة لان جماعات الانسان يومئذ لم تكن (أكاديميات) او مجالس علماء يبدت فيها الرأي وتقطع الكلمة ولكنها كانت طبيعية وأعمال الطبيعة لا حساب لها في عرف الانسان وان يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون

ومما نستوفي به « الفائدة الظنية » في هذا الفصل ان علماء طبقات الارض حققوا بعد ما عانوه من البحث وماتياً لهم من أنواع الاكتشاف أن الحيوانات التي كانت تكتنف الانسان في أول نشأته الارضية ليست من الأنواع التي نعهد لها اليوم بل كانت غاية في العظم والهول وشدة المراس . لاجرم كانت هذه الحالة مضطرة للانسان الى الاصطلاح في مخاطبة نوعه كلما نذر بها كما كانت هي الباعثة له على انتقاله من أول اطواره الى الطور الثاني الذي هو بداية تاريخ العقل الاجتماعي الساذج . وذلك ان العلماء يعملون الزمن من نشأة الانسان الارضية الى بدء التاريخ ثلاثة عصور . عصر

التوحش المطلق وعصر الحجر وعصر البرنز ويليه عصر الحديد الذي يبتدىء مع انسان التاريخ . وهذا التقسيم عينه يصح ان يطلق على اللغة أيضاً فعصر التوحش فيها هو الذي خرجت فيه الاصوات الوجدانية مصحوبة بالاشارات أولاً ثم استقلت هذه عنها . وعصرها الحجري هو الذي ابتداء فيه الانسان ينحت من المقاطع الحيوانية والطبيعية لغته الأولى . وعصرها البرنزي الذي يدخل فيه شيء من الصناعة هو العصر الذي اهتدى فيه الانسان الى الزيادة على المقاطع الثنائية وصنعة الالفاظ على هذا الوجه . ثم انتقادت له اللغة وتماسكت وذلك عصرها الحديدي الذي ابتداء مع التاريخ .

ومما يستأنس به ان تلك المخلوقات الهائلة التي كانت لعهد النشأة الاولى وانقرضت ربما كان في أصواتها بعض مقاطع متنوعة يتألف من مجموعها (أبجدية) صالحة وهي التي ورثها الانسان وركب منها أصول لغته وذلك فضلاً عن جهارة الصوت وشدة التي تترك له أثراً في النفس هنيئة يتمكن فيها الانسان من استيفاء صنعة التقليد الصوتي على أتم وجوها والله أعلم بغيبه . فاللغات قبل التاريخ بزمن لا يذكر التاريخ في حسابه وقد تمشت على سنن الاجتماع وجرت معه في طريق واحدة ولا يزال ذلك من أمرها الى اليوم في الشعوب المنحطة فان من أهل أستراليا من ليس في لغتهم من العدد الا واحد واثنان ( نأت . نائس ) فاذا عدوا ثلاثة جمعوها واذا أرادوا أربعة كرروا لفظ ( نائس ) ويكررونه مع لفظ الواحد اذا عدوا خمسة فاذا بلغوا الستة كرروه ثلاث مرات ثم يقرنون بها لفظ الواحد للبعة وذلك منتهى ما يعدون . أما ما وراء السبعة فيشيرون اليه بلفظ ( كثير ) .

وما كانت لفظة الكثرة لتطلق على الثمانية كما تطلق على الثمانين مثلاً إلا لان ماين المعنيين من الجزئيات غير مضبوط في نظام الاجتماع بل هو مطلق فيه وكذلك يطلق الاسم عليه .

وقد وجد علماء اللغات أيضاً ان من اولئك من يعبرون عن معنى الصلابة بلفظ الحجر وعن معنى الاستدارة بلفظ القمر وهكذا من المترادفات التي هي أصول طبيعية ثابتة لتلك المعاني المتفرعة . وذكروا ان أهالي ( المكسيك ) القدماء لما رأوا السفينة اول مرة سموها (بيت الماء) وان أهل ( ميسوري ) لم يكن عندهم غير الادوات المتخذة من الصوان فلما جيء اليهم بالحديد والنحاس سموها الاول حجراً اسود والثاني حجراً أحمر . وان بعض أهالي أمريكا لما رأوا الخيل اول مرة ولم تكن في أرضهم اختلفوا في تسميتها فبعضهم سمي الجواد ( الكلب المسحور ) وآخرون سموه ( الخنزير الحامل للانسان ) . وكذلك لما رأى أهل ( المكسيك ) المعزى ولم يكونوا عرفوها من قبل سموها ( رأس شجرة وشفة شعر ) . ومثل هذا كثير أحصاه علماء اللغات ودلوا عليه بألفاظه في منطق أهله فلا بد ان تكون كل اللغات قد جرت في ارتقائها على هذا النحو الذي حفظه التاريخ في جملة أدلته والذي هو بسبيل ما تخلده الطبيعة مما يعتبر به الآخرون من أمر الأولين .

ولما كانت اللغة العربية كما أسلفنا تابعة لآحوال الاجتماع في البسط والقبض وما يتقلب عليه ويحدث فيه بحيث لا تخرج عن ان تكون مرآة تظهره كما هو في نفسه مهما تنوعت اشكاله واختلفت أزياءه كان لا بد ان

تغير بحسبه مادامت مستعملة فيه وهذا التغير هو حقيقة الاصطلاح  
والمواضعة فالانسان لما ارتجل المقاطع الثلاثية دل بها على معان محصورة في  
حدود نظامه الاجتماعي ثم ضرب في الكلام بمقدار ما يجدر من أمره وما  
يتنبه اليه من حقائق الموجودات التي تكاشفه بنفسها وما يقتضيه التبسط  
في مناحي المجتمعات شيئاً فشيئاً وذلك على طريقة تكرار الالفاظ وتنويعها  
للمعاني المختلفة بدلالة القرينة . وهذا النحو لا يزال باقياً في اللغة الأكادية  
فانهم يدلون بلفظة لا تعدو هجاءً واحداً على خمسة عشر معنى وهي لفظة  
ga أو ea يدلون بها على الفم والوجه والعين والاذن والشكل والقدم  
والرجل والنظر والتكلم والمدينة وهذا اكثر معانيها .

ثم يعبر الانسان عن المعاني بما يرادفها من الفاظ المحسوسات كما يعبر  
اهل المكسيك عن معنى الصلابة بلفظ الحجر وكما وجدوا في الكتابة  
الميروغلبية بمصر والصين والمكسيك ايضاً وهي الكتابة الصورية فانهم  
يرسمون الشمس ويريدون بها التعبير عن الضوء ويرسمون القمر ويعبرون  
به عن الليل واذا أرادوا ان يدلوا على المشي مثلاً رسموا ساق رجل في حال  
الحركة وهلم على هذا القياس مع ان هؤلاء وان كانوا في أقدم عهد الكتابة  
الا انهم في أول عهد التاريخ فأحر بالمتكلمين ان يكونوا كذلك في أول عهدهم  
بالدلالة المعنوية . ومن هذا القبيل ان زنوج (غريبو) يدلون على معنى الغضب  
بما ترجمته ( قد نتأ عظم في صدري )

ويرتقي الانسان من ذلك التعبير عن غرائب الاجتماع في عهده على نحو  
مارأيت من تسمية الخيل والمعزى وكما فعل سكان جزيرة (فاكومز) فانهم

لما رأوا أول رجل أوربي دخل بلادهم سموه بما ترجمته (طويل وجه شعر رجل) ولفظها في لغتهم (يكبيكو كسالكوس) ثم استمروا يصقلونها ويخففون من ثقلها بمقدار ما تخف هذه الدهشة الأولى حتى صارت الكلمة في لغتهم بعد أن ألفوا الأوربيين (يكبوس) .

ومتى بلغ الإنسان الى هذه الدرجة فقد صار في أعلى سلم الاجتماع الطبيعي وحينئذ تدخل اللغة في الطور الصناعي وتجري عليها أحكام الاشتقاق والنحت والقاب والابدال ويفعل الزمن فعله فيها كما يفعل في تكوين الجماعات وبذلك تنوع وتنشأ منها اللغات الكثيرة

### تفرع اللغات

الأصل في تشعب اللغات تشعب الجماعات فإن اللغة كما اسلفنا بنت الاجتماع وهي الفاظ ملك السامع في الحقيقة لا ملك المتكلم لأنها لا يلغى بها لغو الطائر ولكنها تأتي لدلالة خاصة يعينها الاصطلاح العرفي بين المتكلم والسامع وهذا الاصطلاح عمل اجتماعي محض لا يتهيأ لفرد فيما بينه وبين ذات نفسه . وليس ما بسطناه فيما تقدم مما يدل على كيفية نشأ اللغات في القديم وتدرج الإنسان في استعمال المنطق والتوفيق في الدلالة بين الصوت وحركة النفس التي هي المعاني القائمة بالفكر — ليس كل ذلك مما تتعين معه دلالة خاصة على كيفية اختلاف اللغات فإن هذا الاختلاف لا يتعلق بسر الوضع اللغوي اذ هو إلهام مخلوق في فطرة الإنسان ولكن اختلاف اللغات عمل صناعي تكيّفه حالة الاجتماع كما تكيّف سائر الاحوال من العادات

وأماثلها . ولهذا كانت حقيقة معنى اللغة أنها مجموع العادات الخاصة بطائفة من طوائف الاجتماع<sup>(١)</sup>

فلا يمكن القطع إذن بأن أصل اللغات كلها لغة واحدة الا اذا نهض الدليل على أن النوع الانساني في أول وجوده لم يكن الا جماعة واحدة او كان جماعات مختلفة ولكنها تتفق في حالة جامدة من احوال الحياة الاجتماعية كالحيوان السائم الذي لا يتعدى درجة معينة من الالهام على تفاضل انواعه فيما دون ذلك ، وهذا ( أي نهوض الدليل ) بعيد عن اليقين بل هو بعيد عن الظن ايضاً لان « الظن العلمي » أضعف مراتب اليقين نقول هذا لنقطع بانه لا يمكن تعيين الاممات التي ينتهي اليها التسلسل اللفظي ولا الحكم بأصالة لغة دون غيرها كالذين يقولون ان آدم الالسنه او لسان آدم كان سريانياً او عبرانياً او نحو ذلك فان الانسان الاول امر من الامور الغيبية والزمان نفسه لا يهتدي الآن الى موطن قدمه من الارض ولا يعلم الغيب الا الله .

وان ما حصره علماء اللغات من ذلك وعدوه اممات انما هو خاص بالازمنة المتأخرة التي احصاها التاريخ مما يرجع الى حد من الزمن يختلفون في تقديره من ٣٠٠٠ الى ٦٠٠٠ سنة على انهم يقولون ان الانسان الاول نشأ على ضفاف الفرات ودجلة بين العراق وارمينيا فتناسل هناك وكانت ذريته بعضها من بعض ثم اتساحت الجماعات وتفرقت بما يلجئها من

---

(١) هذا هو التعريف المعنوي أما تعريف اللغة باللفظ فهو كما يقولون « الفاظ

يعبر بها كل قوم عن اغراضهم »

الاسباب الطبيعية كضيق الوطن وبغي بعضهم على بعض فضرَبوا في الارض وبهذا تنوعت الجماعات أو دخلت في أسباب التنوع الذي هو الأصل في تفرع اللغات .

ومن ذلك ما أشارت اليه ( التوراة أقدم كتاب تاريخي ) مما يعرف بحكاية تبلبل الالسنه ( سفر التكوين الاصحاح الحادي عشر ) وذكر تفرق الامم التي انشعبت من نسل نوح عليه السلام بعد الطوفان فكانت لغة كل فئة تنفصل عن أمها ثم تنمو وتتغير بالاستعمال فتصير أمماً لفروع أخرى وهلم جرا .

وقد استدلوا على تحقق هذا التسلسل بتشابه الاسماء الخالدة في الانسانية وهي التي لا يمكن أن تتغير لثبوت مدلوها على حالة واحدة في تاريخ النوع كله كاسم الامم فقد وجدوا ان هذه الميم أصلية في كل ما عرف من لغات العالم وكذلك وجدوا ان الباء أصلية أيضاً في لفظ الاب . ومهما يكن من الامر فان هذا وأمثاله مما يستأنس به ليس غير .

وعلى الاعتبار الذي أومأنا اليه ردوا اللغات الى ثلاثة أصول : الاصل الآري . والسامي . والطوراني . وهم يريدون بهذه الاصول الامم التي تتكلم باللغات الراجعة اليها فيقولون ان الامم التي تنطق اللغات الآرية ترجع الى أصل واحد في تاريخ الاجتماع وكذلك السامية والطورانية ثم انشعب كل أصل وانشعبت معه اللغة ولكن بقيت المشابهة في لغاتهم المتفرعة دليلاً تاريخياً على وحدة الاصل .

ويعمدون من اللغات الآرية السنسكريتية وما خرج منها كالهندية

والفارسية والافغانية والكردية والبخارية وغيرها وهي اللغات الجنوبية . ثم اللغات الشمالية ومنها اللاتينية وفروعها من الفرنسية والاسبانية والبرتغالية . وكذلك الهياينية ومنها اليوناني القديم والحديث والوندية ومنها لغات روسيا وبلغاريا وبوهيميا والتيوتونية ومنها لغات إنجلترا وجرمانيا وهولاندا والدانمارك واسلاندا

وسنفرد اللغات السامية كلاماً لأنها أصل ما نحن بسبيله من هذا التأليف . أما الطورانية فيعدون منها الفروع التركية التي يتكلم بها ما بين آخر حدود النمسا الشرقية وآسيا الصغرى فالتر إلى ما وراء أواسط آسيا وشمالاً إلى حدود سيبيريا وهي لغات كثيرة .

وهذا كله وإن كان ليس من حاجتنا ولا نريد التكثر به إلا أننا سقناه كما قالوه بياناً لما ذهبوا إليه من الرأي في تنوع الجماعات ، وأصل الشعوب اللغات ، والله يقول في محكم تنزيله وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً .

### علوم اللغات

عني أهل العلم في أوربا منذ القرن التاسع عشر للميلاد بالبحث في مظاهر العقل الانساني بحثاً علمياً مبنياً على قواعد وأصول مقررة كسائر العلوم الأخرى فدرسوا الأديان والعادات ولما أرادوا مقابلة ذلك ببعض تعيين المواضع المتداخلة منه اضطروا إلى مراجعة اللغات والبحث فيها فنشأ من ذلك علمان : أحدهما سموه علم اللغات ( La philologie ) والثاني علم الاساطير ومعارضتها ( La mythologie comparées ) وبذلك وضع



الاستاذان كريم وبوب علما يبين اصل اللغات وتحولها .  
ثم لما وقفوا على لغات الشعوب الصينية وقابلوها بلغات الامم الفطرية  
التي درسها « المرسلون » المنبشون في كل قاصية وضع الاستاذ همبولدت علماً  
عاماً سماه دراسة اللغات ( Linguistique ) واول المشتغلين بهذا العلم واشهرهم  
من الالمان وان كان قد فكر فيها قبلهم بعض العلماء من الفرنسيين

وقد امكنهم بعد ذلك حين بالغوا في الاستقراء والتقصص أن يردوا  
اللغات الى اصول وانواع حتى أوقعوا عليها أحكام المذهب الدارويني في النشوء  
والارتقاء بالتغير والانتخاب الطبيعي فبحثوا في سلسلة التحول لكل لغة ودأبوا  
على تحصيل الصورة للمتوسطة بين الصورتين المتشابهتين وهم لا يزالون في  
جد ذلك وهزله ليردوا ما عرف من لغات البشر كلها الى اصول قليلة ثم  
ينبشون بعد ذلك « الجد اللغوي » من قبره القديم في مغارة التاريخ

ولم نجد لاحد من علماء العرييه في التاريخ الاسلامي كله بحثاً يشبه ما  
وضع من تلك العلوم حتى ولا في لهجات العرب انفسهم ومعارضة بعضها  
ببعض لانهم لم ينظروا الى اللغة بالعين الزمنية ( التاريخ ) التي تطمح الى كل  
أفق بل أخذوها على المعنى الديني الثابت الذي لا يتغير وجعلوا عاليها سافلها  
فاعتبروا اصل الفصاحة اسماعيل عليه السلام وأن لفته دُرست من بعده ثم  
كانت في القرآن الكريم والبلاغة النبوية وهما افصح ما عرف من الكلام<sup>(١)</sup>  
الا ان قليلاً منهم كأي علي الفارسي وتلميذه ابن جني والزنجشري

(١) سنستوفي القول في هذا النقص عند البحث في لهجات العرب

قد اصابوا من ذلك محزاً جرت فيه اقلامهم وكان اسبقهم الى الغاية ابن جني فانه بحث في وضع اللغة ونشأتها وحكم اشتقاقها ومقابلة موادها بعضها ببعض واستمر بك اشياء من ذلك في مواضعها ان شاء الله . على ان هذا القليل الذي جاؤا به انما كان بعد ان استفاضت المقالات واستحضر الجدال بين اهل « الالسنه العريضة » من علماء الكلام فتحرك المعنى الديني الثابت الذي سبق الايمان اليه وكان اثر ذلك في اللغة ما عرفته ثم عاد الامر كما بدأ

وقد اختلف العلماء في عدد اللهجات التي يتكلم بها انواع الانسان فهي عندهم بين ٤٠٠٠ و ٦٠٠٠ وأحصاها بعضهم في قارات الارض فعد في أوروبا ٥٨٧ وفي آسيا ٩٣٧ وفي افريقيا ٢٧٦ وفي أمريكا ١٦٢٤ فذلك ٣٤٢٤ لهجة . ويريدون باللهجات الانواع التي نشأت من لغة واحدة بالاسباب الاجتماعية كأنواع العربية المتحضرة مثلاً ومنها عامية مصر والشام والمغرب الخ . وكذلك أحصى بعضهم عدد الكلمات في بعض اللغات المعروفة فذكروا ان كلمات اللغة الانجليزية لا تقل في عهدها الحديث عن ٢٥٠ ألف كلمة وتليها الالمانية ٨٠ ألفاً فالاطالية ٤٥ ألفاً فالفرنساوية ٣٠ ألفاً ثم الاسبانية ٢٠ ألفاً . اما اللغات الشرقية فاعلمها العربية وهي تتألف من ٨٠ ألف كلمة ثم الصينية ويستعمل فيها عشرة الاف علامة يتألف منها ٤٩ ألف كلمة مركبة ثم التركية وهي تحتوي نحو ٢٣ ألف كلمة ثم لغة هاواي وفيها زهاء ١٦ ألف كلمة ثم لغة الكفر وذكروا انه ليس فيها الا ٨ آلاف كلمة ثم لغة غالا الجديدة وقالوا انها تتألف من ألفي كلمة لا غير . على ان ذلك كله انما يقال وينقل تشقيقاً للبيان ، لا تحقيقاً للبرهان .

### اللغة العامة

واصلها العربي فيما يقال

لا يفكر عاقل في اختلاف اللغات وتعددتها مع وحدة الانسان في صله وفي تركيب هذه الجارحة اللسانية التي تختلف الوان المنطق فيها كما يختلف الشجر الذي يسقى بماء واحد الا خطر له امر التوحيد واجتماع الناس على لغة عامة لان هذا هو الاصل في حكمة النطق ولكن الفكر في الشيء غير معاناته فلم ينقل الينا تاريخ الامم التي سلفت أن أحدا عمل لهذه الغاية البعيدة. ولا جرم أن هذا انما يكون عند اشتباك العلائق بين الامم واختصار المسافات التي تفصل فصلا طبيعيا بين الآفاق على نحو ما هو في المصور الحديثة فان الانسان في هذه الحالة يحتاج الى اختصار المسافات بين الالسنه ايضا فلا يفصل بين كل لسانين لسان ثالث ثاقل والترجمة ولما كانت الحاجة ام الاختراع فقد ولدت تلك الحاجة هذه اللغة العامة .

ويقال إن اول من عانى هذا الضرب من الوضع الامام محي الدين بن العربي الاندلسي من أهل القرن السادس للهجرة وكان من اعلام الحقيقة وأئمة المتصوفة فذكر بعض علماء المشرقيات من الفرنسيين انه عثر على أن الشيخ وضع لغة خاصة باستعمال المتصوفة أخذ الفاظها من العربية والفارسية والعبرانية وسمّاها ( بَلِيلَان ) قال وهذا الاسم من اوضاع اللغة نفسها ومعناه ( لغة المحي ) .

وقيل إن تيمورلنك الفاتح التتري الشهير الذي كان في القرن الثامن لما

رأى جيشه طوائف من اجناس مختلفة متناكري الالسنه واللغات تقدم الى قوم من خاصته بانشاء لغة عامة تقتبس من لهجاتهم جميعاً فأنشأوا لغة ( اوردو ) اي الجيش وهي التي يتكلم بها الهنود اليوم على اختلاف جهاتهم وقد ذكروا أن هذا الخبر التاريخي كان من جملة البواعث التي حملت على وضع اللغة العامة المعروفة في هذه الايام ( بالاسبرانتو )

على انه قبل ان توضع هذه اللغة عني بأمرها عدة من العلماء حتى بلغ ما وضعوه من نوعها بضع عشرة لغة وأقدم من حاول ذلك باكون الفليسوف الشهير من أهل القرن السادس عشر للميلاد ولكن أول من افرد هذا الوضع بكتاب انما هو الاستاذ بيشرفانه صنع كتاباً استقرى فيه المعاني فوضع بازاء كل معنى اللفظ الدال عليه ووضع أحكام الصيغ الصرفية والتركيبية ثم انسحب على اثره كثيرون حتى جاء الاستاذ اللغوي شليير الالماني فوضع كتاباً نشره سنة ١٨٧٩ م بعد أن صرف في تأليفه عشرين سنة وسمى لغته ( الفولابوك ) وهو لفظ من اوضاعها معناه ( اللغة الجامعة ) ولكن هذه اللغة لم تنتشر الا قليلاً ثم ذهبت مع القرن التاسع عشر في مدرجة واحدة من التاريخ . وفي اثناء ذلك كان الاستاذ ( زامنهوف ) المشهور يشتغل بوضع لغته المتداولة فقضى اثنتي عشرة سنة ثم نشر رسالة عرض فيها اصول تلك اللغة وجعل عنوانها ( دكتور واسبرانتو ) اي الاستاذ المؤمل اشارة الى يأس العلماء قبله من النجاح في هذه الاوضاع على أن هذا الاسم ما لبث أن لزم لغته ولا تزال تعرف به الى اليوم .

والاسبرانتو تتألف من ٣٢٠٠ مادة مقتبسة من جميع لغات اوربا على

نحو اقتباس هذه اللغات نفسها من اللاتينية والجرمانية واليونانية وكلها في سبيل واحد من السلاسة والانتقياد واطراد القواعد بلا شذوذ ولا استثناء وقد ألحق بها واضعها ثلاثين لفظة تركب مع سائر الفاظها فيدلُّ بها على نوع المعاني الوصفية وسبع عشرة زيادة صيغية تدل على المعاني التصريفية فصارت بذلك من الثروة في الفاظها بحيث تنتهي في التركيب الى عشرة ملايين من الكلمات .

وقد انتشرت هذه اللغة في اوربا واطرد استعمالها وكثر أهلها والقائمون عليها وكأنها لم تكن الا حاجة في نفس الانسان قضاهوا انه لدو علم مما علمه الله .

### اللغات السامية

والمراد بها لهجات سكان القسم الجنوبي من غرب آسيا من حدود الارمن شمالا الى البحر العربي جنوبا ومن خليج العجم شرقا الى البحر الاحمر غربا وهي منسوبة الى سام بن نوح عليها السلام باعتبار ان المتكلمين بها هم في الجملة من نسله كما تسمى اللغات الآرية باليافثية ايضا نسبة الى يافث والذين يزعمون اصاله بعض اللغات في النوع الانساني لا يعدون في زعمهم هذه اللهجات السامية لانهم يذهبون الى أن مهد الانسان الاول انما كان حيث نشأت تلك اللغات على ضفاف الفرات ودجله . فالعبرانيون والسريان وبعض الغلاة من العرب يزعم كل فريق منهم أن لغته اصل اللغات وأنها كانت لغة آدم عليه السلام وهذا على غرابته واتقطاعه من نسب البرهان لا يخلو من بعض المعنى في الدلالة على قدم اللغات السامية .

وعلماء اللغات يعينون السامية منها في التقسيم بحسب موقع أهلها الجغرافي كما كانت الشعوب السامية قديماً ينسبون بعضهم بعضاً الى موقعه من شرق الشمس وغربها . وذلك التقسيم اصحُّ بيانا في اللغة لان أشد العوامل في تغييرها إنما هو امر الحضارة لا كروور الزمن وحده فان العبرانيين مثلاً حينما غلبهم الكلدانيون جعلت لغتهم تفنى حتى صارت الآرامية في منطقتهم الا حيث يتعبدون فان لغة العبادة بقيت العبرانية ولا تزال الى اليوم وكانت لغتهم هي العبرانية وحدها الى الزمن الذي خرب فيه بختنصر ملك الكلدانيين بيت المقدس ووقع باليهود وأجلاهم عنها الى بابل وذلك سنة ٥٨٦ قبل الميلاد .

لذلك يعتبرون اللغات السامية شرقياً وغربياً ومن الشرقي اللغتان البابلية والاشورية . والغربي عندهم قسمان شمالي وجنوبي ويجعلون الشمالي منها قسمين أيضاً : (١) الكنعاني ومنه العبراني والفينيقي ولغة موأب شرقي فلسطين وغيرها (٢) الآرامي ويجعلونه قسمين : غربي وهو لسان اليهود المتأخرين في فلسطين ومصر ثم هو لسان امم اخرى . وشرقي وهو لسان اليهود في بابل ولسان السريان وغيرهم .

وهذا في القسم الشمالي من الجزء الغربي من اللغات السامية اما الجنوبي فهو نوعان أحدهما لغة القبائل العربية العدنانية ( اي العرب المستعربة ) والثاني لغة القبائل العاربة وهي السبئية والحيرية والحبشية .

ويردون اللغات السامية كلها الى ثلاثة اصول الآرامية والعبرانية والعربية كما يردون اللغات الآرية الى ثلاثة اصول أيضاً وهي اللاتينية

واليونانية والسنسكريتية . وكل من هذين النوعين بأصوله يُردُّ عندهم في الاشتقاق الى لغة مفقودة يتوهمونها انفصلت عنها هذه اللغات فكانت متشابهة في أول عهدها ثم جعلت تتنوع وتباين حتى قلت وجوه المشابهة الا ما يكون من قبيل الدلالة التاريخيه على وحدة الاصل والذي يعنيننا من هذا البحث ان نكشف عن أصل العربية وانما سقنا ذلك توطئة حتى يجيء الكلام آخذاً بعضه ببعضه

### الاصل السامي

رجح علماء الاثر الذين تخاطبهم الارض بلغتها الحجرية الصامتة فينقلون عنها آثار الأول أن الاصل السامي الذي انشقت منه اللغات المتقدمة انما هو اللسان البابلي القديم الذي عثروا على بقيته من آثار دولة حمورابي كما أوامنا اليه في أصل العرب لانهم رأوا مشابهة قريبة بين هذا اللسان وبين العربية بل رأوا كلمات في العربية كأنما نقلت عن البابلية نقلاً صريحاً مع انها في العبرانية والسريانية قد دخلها التحريف . وعللوا ذلك بان العربية بادية فهي قلما تتغير كلمات الحضر التي تتنازعها التبعية لغيرها والاستقلال بنفسها على حسب ما يتقلب عليها من أدوار العمران . فمن المشابهة بين البابلية والعربية حركات الاعراب وهي في اللغتين واحدة ولا وجود لها في سائر اللغات السامية حتى لقد كانوا يذهبون قبل ذلك الاكتشاف الى انها من اختراع العرب تميزوا بها لرفقة ألسنتهم وتوخيهم عذوبة البيان - كما سنفصله في موضعه .

واللغات تتباين في سكون الآخر وتحريكه فالتحريك في السنسكريتية القديمة وفي بعض اللغات الاوربية الحاضرة كالإيطالية والاسبانية ولكن جميعها خالية من هذا الضبط الموزون بالحركات المتسارعة التي تجدها اعراباً في العربية . ويقال ايضاً ان ما اكتشفوه من لغة بطره وتدمر يوجد فيه آثار لحركات الاعراب وذلك لان اهلها من بقايا العماليق

ومن تلك المشابهة التنوين فهو في البابلية ميم وفي العربية نون وهما من احرف الابدال ومن العرب من يجوز ابدال احدهما من الآخر كما سيمر بك . ومنها علامة الجمع فهي في البابلية الواو والنون كما في العربية وفي السريانية الياء والنون وفي العبرانية الياء والميم . ومنها ان صيغ الافعال في البابلية اقرب الى الصيغ العربية منها الى غيرها من سائر اللغات السامية اما الكلمات التي حفظت في العربية كأنها نقل صريح عن البابلية مع تغيرها في سواها فمنها لفظة (أنف) سقطت نونها في العبرانية والسريانية دون العربية والبابلية . وكذلك لفظة (عنب) فهي ايضاً ساقطة النون في ~~ال~~عبرانية دون ~~ال~~سريانية .

ولما رجحوا ان البابلية هي اللغة السامية الاصلية او هي بقيتها بعد ان تنوعت قالوا ان هذا الاصل تفرعت منه سائر اللغات السامية ثم انقصت اللغات الشمالية عن الجنوبية وتميزت كل طائفة منهما بخصائص بحيث لا يمكن ان تكون احدى الطائفتين قد أخذت لغتها عن الاخرى لتمييز اللغات الجنوبية بخواص لسانية ولخالفه اوثانها لا وثنان اللغات الشمالية لان اللغة كما قدمنا مجموع العادات . وقال بعضهم اذا لم تكن اللغة السامية الاصلية قد نشأت



في شمال جزيرة العرب فلا بد ان يكون منشؤها في وسطها . وقد افاضوا في  
المشابهة بين جميع الفروع السامية واسلسوا عنان الرأي في الكلام على تاريخها  
مما لا يعدو في برهانه الظن والاستئناس ولا يهمننا من ذلك الا ان نحصل  
ما يتعلق باللغة العربية

### اصل العربية

لا يذهب عنك ان العلماء انما يكشفون عن اصول اللغات القديمة بما  
يعثرون عليه من بقايا الطبقات التاريخية وبقية التاريخ في الدلالة الزمنية غير  
التاريخ نفسه وبذلك يجيئون في احكامهم بالناسخ والمنسوخ وربما كشفوا  
عن حفرة من الارض فأحبروا منها تاريخاً ميتاً ودفنوا فيها تاريخاً حياً . فنحن  
ان قلنا ( اصل العربية ) لا نريد انها فجر اليوم من أمس ، أو نهارٌ يدلُّ به على  
الشمس وان لم تظهر الشمس ، ولكنه فجر يوم من أيام الله أظهره ثم محاه ،  
وشهد الأولون تباشيره ثم تعاقبت الأجيال ولا يزال العالم في ضجاءه .

بعد ان انشعبت اللغات من البابلية ذهب المعينيون وهم من القبائل  
الذين اقتبسوا تمدن السومريين مع الدولة البابلية في عصر حمورابي فنزلوا  
اليمن وخذلوا في عمارتها حذو بابل وكانت لغتهم من البابلية في منزلة العامية  
من الفصحى لما ثبت فيها من أثر المخالطة والتجول وهم الذين اقتبسوا  
حروف الفينيقيين واستعملوها في التدوين على طريقة سهلت للزمن أسباب  
التنوع فيها حتى انتهت في صورها الى الخط المسند المشهور وهو القلم  
الخميري . واستمرت لغتهم تتباين من البابلية بتقادم الزمن حتى لم يعد من

الشبه بينهما الا اثر الدلالة التاريخية فقط وقد وجدوا من ذلك علامة لا توجد من اللغات السامية الا في هاتين اللغتين وفي الحبشية أيضاً وهي السين التي هي ضمير الغائب في اللغات الثلاث . وقالوا ان هذه السين ربما كانت دخيلة في الاصل السامي من اللغة الطورانية

ثم نشأت الدولة السبئية وهم القحطانيون الذين يسمونهم العرب المتعربة ويرجح العلماء أن اصلهم من الحبشة وكان ظهور دولتهم على ما تحققوه من القرن الثامن الى سنة ١١٥ قبل الميلاد . وقد اقتبسوا لغة المعينيين الا في ضمير الغائب الذي اشرنا اليه ولعل هذا ما ينظر اليه قول المؤرخين انهم اخذوا العربية عن العرب العاربة . وبديهي ان هذه العربية لا يمكن ان تكون لغة مضر فانهم يعرفونها — أي العربية — درجات ويمدون منها لغة حمير فلا يكون إذن الا انهم ارادوا عربية ذلك الزمن وهي اصل في المضرية وغيرها ولا عبرة بما يتعلق عليه اهل اللغة من أن منطق القحطانيين ومن قبلهم بل ومنطق آدم هو العربية الفصحى فان ذلك كذب لغوي يحتاج الى تصحيح<sup>(١)</sup>

وابتدأت الدولة الحميرية من سنة ١١٥ قبل الميلاد واستمرت الى سنة ٥٢٥ بعده وهو العهد الذي زهت فيه عربية مضر وحفظ اهله بعض خصائص الحميرية كما سنبينه .

اما الاحباش فيرجح بعضهم ان اصلهم عرب هاجروا من اليمن زمن

---

(١) بعضهم يغلو في ذلك غلوّاً كبيراً حتى يقول ان لغة آدم عليه السلام في الجنة كانت العربية فلما عصى ربه سلبه العربية واعطاه السريانية ثم لما تاب ردها عليه

المعنيين وأخذوا معهم لغتها واستدلوا على ذلك من مشابهة لغتهم للمعينية والبابلية في ضمير الغائب (السين) ثم من مشابهتها للغة الحميرية حتى ان أحرف الكتابة تكاد تكون واحدة في اللغتين غير ان الاحرف الحبشية تكتب من اليسار الى اليمين وهم يزيدون عليها رسم الحركات مما لم يكن عند الحميريين . هذا غير ما يرى من تشابه الملاح في الاحباش واهل اليمن وتماثل الآثار في البلادين ونحو ذلك مما يرجح انهم طارثون على تلك البلاد من اليمن .

وقد أسلفنا ان عرب الشمال المستعربة وهم الاسماعيلية يبتدئ تاريخهم من القرن التاسع عشر قبل الميلاد ولكن عدنان الذي ينتهي اليه عمود النسب العربي الصحيح كان في القرن السادس قبله فلا بد ان تكون العربية العدنانية قد ابتدأت بعد الحميرية أو قبلها بقليل ومهما يكن من ذلك فان أصل هذه العربية لا بد ان يكون من الحبشية والحميرية ثم من اللغات السامية الاخرى لان العرب قوم رُحَّل وقد اختلطوا بأمم كثيرة فلا بد ان يكون أثر هذا الاختلاط يَبْيناً في تكوين لغتهم وتلك سنة عامة في اللغات كلها حتى لقد تجددت في لغات هذا الزمن ما لا صفة له في نفسه بل هو لغة مركبة كالمعروض التجارية تؤخذ من كل مكان الى مكان واحد وذلك خاص بالبلاد التي عرفت بتجارة المقايضة على نحو ما كان يصنع العرب . ومن هذا القبيل لغة (البيجين) في الشرق الاقصى وهي مزيج من الانجليزية والصينية . ولغة السايروهي تتألف من العربية والفرنسية والاسبانية والاطالية . وهكذا كانت العربية في أول نشأتها الى ان ضربت القبائل في البادية بعد سيل العرم وذلك يرجع

الى القرن الثالث قبل الميلاد على أبعد تقدير <sup>(١)</sup> فاستتمت بعدئذ طريقة العربية وانصرف أهلها الى العناية بتشقيقها وعلى ذلك لا يمكن الجزم مطلقاً بأن للعربية العدنانية أصلاً معيناً الا اذا أمكن القطع بأن لهم دولة مستقرة في التاريخ مميزة الحضارة حتى تقتضي اصالة اللغة وهذا مما لا يقول به احد لانه لا مكان له في التاريخ

### مجانسة العربية لأهلها

لم يبق من امهات اللغات السامية الا ثلاث العربية والعبرانية والسريانية اما الحميرية فقد اندثرت قبل الاسلام غير الفاظ قليلة وتولدت منها لهجات مهرة والشجر في جنوب الجزيرة وقد عثروا من هذه اللغة على آثار من القرن الخامس والسادس قبل الميلاد وتمكنوا من قراءة الخط المسند <sup>(٢)</sup> اما اللغة البابلية أو الاشورية أو الكلدانية القديمة فقد وفقوا في قراءة آثارها حتى استخرجوا قواعدها ووضعوا فيها المعجمات كأنها من اللغات الحية . وصيغ الافعال التي وجدوها في هذه اللغة اثنتا عشرة صيغة أكثرها موجود في العربية والعبرانية والسريانية وبعضها غير موجود في جميعها ولكنه طبيعي

(١) ذكرت هذه الحادثة في سورة سبأ ويقال ان سد العرم هذا بني في القرن الثامن قبل الميلاد كما وجدوا ذلك في النقوش التي على صدفه . واكثر الروايات على ان الحادثة كانت حوالي تاريخ الميلاد

(٢) اشهر الباحثين في الحميرية الاستاذ هالبي الفرنسي وغلادز الألماني . وهم اليوم يبحثون في آثار الحبشة ويقال انهم اصابوا فيها بمض ما يعين على الكشف عن اصل العربية

في اصل المنطق مما يدل دلالة صريحة على اصاله تلك اللغة وتفرع الباقيات عنها وتلك الصيغ هي :

فَعَلَ	نَفَعَلَ	فَاعَلَ	شَفَعَلَ
اِفْتَعَلَ	اِفْتَنَعَلَ	اِتَّفَعَلَ	اِتَنَفَعَلَ
اِفْتَنَاعَلَ	اِسْتَنَاعَلَ	اِسْتَفَعَلَ	اِسْتَنَفَعَلَ

فصيغتا اِفْتَنَعَلَ وَاِسْتَنَفَعَلَ لا توجدان في غير الاشورية وفعل وفاعَل لا توجدان الا في هذه اللغة وفي العربية . وَنَفَعَلَ وَاَتَّفَعَلَ مما يوجد في السريانية والعبرانية دون العربية .

اما المشابهة بين الاخوات الثلاث ( العربية والعبرانية والسريانية ) فهي متحققة في جهات منها تحقّقاً يقطع الريب ويمتاز الشبهة في اهن اخوات أو فروع لاصل واحد (١) وأخص ما يكون ذلك في الالفاظ الطبيعية التي لا تتغير بتبدل المواطن واختلاف الحالة الاجتماعية وهي التي سميناها الالفاظ الخالدة كالارض والسماء وكثير من ظواهر الطبيعة واعضاء الانسان ونحوها فان مادتها فيهن واحدة على اختلاف قليل في بعض الاوزان والمقاطع مما يرجع أكثره الى الخصائص المقومة لهيئة كل لغة منها في منطوقها . وتجدي في الافعال والاسماء المشتقة دليلا من ذلك في تناسب الوضع وتداني اللفظ . اما الالفاظ النابتة في اللغة الانسانية التي هي خاف من لغته الاولى وهي الضمائر فانها في اللغات الثلاث باقية على حالة واحدة وان لم تخل من الفروق العارضة التي

(١) على هذه المشابهة ووجوهها المختلفة بني علم مقارنة اللغات السامية

لا بد منها في الهيئة المقومة لمنطوق اللغة . والضمائر كما لا يخفى مادة اصلية لا تؤثر فيها زيادة مواد اللغة او نقصها وهذا مثال من حقيقة التشابه فيها

العربية	العبرانية	السريانية	العربية	العبرانية	السريانية
انا	اني	انا	نحن	انحنو	حنن
انت	اته <sup>(١)</sup>	انت	انتم	اتم	انتون
انت	ات	انتي	انتن	اتن	انتين
هو	هوا	هو	هم	هم	هنون
هي	هيا	هي	هن	هن	هنين

فالمقابلة بين هذه الضمائر كافية في الدلالة على ان العربية مجانسة لاختيها وانها اعذب منهما واخف والسبب في ذلك انها صرّفت على وجوه كثيرة لانها كانت غير مدونة بخلاف العبرانية مثلا فانها مدونة من اقدم ازمانها والكتابة نصّ على النص فبقيت ثابتة كما هي فضلا عما لقي العبرانيون من طول الاغتراب والتقلب بين اظهر الامم المختلفة وما ابتلوا به من الجوائح السياسية في متعاقب ازمانهم وكل ذلك قد خلا منه العرب وهم ليسوا من اهل المهن ولا اورثتهم الطبيعة اسباب التبليد والفرة والذل . وبعد فان الكلام في مجانسة العربية لاختيها من اللغات السامية طويل الذيل عند علماء اللغات وقد فصلوه تفصيلا وجاؤا فيه باشياء كثيرة من الحبشية والحيرية والعبرانية والسريانية والفروع الاخرى التي اومأنا اليها فيما سبق مما لا محل

(١) ينطق الحرف الذي نضع تحته هذه الكسرة بالامالة

لبسطه وتقريره لاننا انما نشير الى التاريخ وقد يكون المثال الطبيعي برهانا فيه على انه يخلص من جملة ابحاثهم ان المشابهة بين العربية وباقي اللغات السامية امر لا ريب فيه وعلى ذلك فهي اما أن تكون فرعاً من الاصل الذي انفصلن عنه جميعاً ويكون أصل الوضع مستصحباً في جميعها على السواء واما ان تكون مشتقة من بعض تلك الفروع ثم كملت بما تناولته من غيرها الى ان استقلت طريقتها المقومة لها بعد ذلك وكلا الرأيين قريب بعضه من بعضه في النسبة غير انهم يرجحون الرأي الاول كما سلف بيانه .

ومما يحسن ذكره في هذا الموضع أن العدنانية يعدون أنفسهم متميزين عن القحطانية ويقولون إن حمير تنتمي الى العرب وليست منهم وكذلك يرون أن اليهود مع طول معاشرتهم اياهم واختلاطهم بهم ليسوا الا حلفاءهم فلا يبالون بانسابهم ولا بلغتهم وكأنهم لا يرون انهم اخذوا من العبرانية أو الحميرية شيئاً وانما ذلك شعور طبيعتهم السامية

### اللسان العربي في الشمال

قامت في شمال الجزيرة دول عربية متحضرة كالنبط والتدمريين وهؤلاء وان كانوا عرباً فيما حققه العلماء بيد أن عريتهم غثة غير متوقعة لانهم على اطراف البادية مما يلي الحجاز وبذلك لا تعرف نسبة لغتهم الى العربية العدنانية وقد كانوا زمن نشأتها لان أقدم ما عرف من تاريخ النبط يرجع الى اوائل القرن الرابع قبل الميلاد وكانت اطراف مملكتهم تتراعى الى نواحي دمشق وهم قوم كانوا يكتبون بالآرامية التي خلفت البابلية في

مدونات السياسة والتجارة لان الاحرف العربية لم تكن وضعت يومئذ  
والملك من أخص حاجاته الكتابة . على ان ما اكتشفوه من آثارهم الكتابية  
لا يخلو من الفاظ شبيهة بعربية العدنانيين مما رجح عند العلماء انها تحوّل في  
الآرامية التي هي مشتقة من البابلية القديمة كما خرجت المضربة بذلك التحول  
عينه من فروع البابلية . وقد استدلوا بهذا على أن لسانهم كان عربياً على وجه  
ما حتى أثرت عربيته على لغة الكتابة التي اضطروا اليها بحكم الحضارة وذلك  
شبيه بأمر النوبيين الذين يكتبون اليوم بالعربية مع أنهم يتكلمون لغة تكفر بها  
العربية كفرا لا ايمان له . وفي البلاد العثمانية طوائف من الارمن والروم  
يتكلمون التركية ولكنهم يكتبونها بحروفهم القديمة وذلك كان شأن بقية العرب  
في الاندلس بعد سقوطها فان بعضهم كانوا يكتبون عربيتهم بالاحرف الاسبانية  
وتسمى هذه الكتابة ( الخيادو ) وكانوا يكتبون بها حتى الفقه والحديث  
والتصوف . ومن هذا النحو القلم ( الكرشوني ) عند السريان وهو كتابتهم  
العربية بالاحرف السريانية .

وقد خمل تاريخ النبط منذ صارت مملكتهم ولاية رومانية في اوائل القرن  
الثاني للميلاد ونبه من بعدهم تاريخ التدمريين وهم عرب ايضاً حذوا حذو  
النبط في استعمال الكتابة الآرامية ووجد العلماء في آراميتهم صبغة ضعيفة من  
العربية مما يدل على انها بسبيل من عربية من قبلهم لا أثر فيها لإحكام البداوة  
ولا للفريزة الصحيحة . وقد عثروا على خطوط فيما بين دمشق والعلی وهي  
من رسم الرعاة خطوها على الصخور ومن اغرب ما في عربيتها ان التعريف  
فيها بالهاء اذ قرؤا في بعضها هذه الكلمات « حامل بن سلم اخذ هفرس





وترجمتها هذا :

- ١ هذا قبر امرئ القيس . ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج
  - ٢ واخضع قبياتي اسد ونزار وملوكهم وهزم مذحج الى اليوم وقاد
  - ٣ الظفر الى اسرار نجران مدينة شمر واخضع معدا واستعمل بنيه
  - ٤ على القبائل وانا بهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه
  - (٥) الى اليوم هلك سنة ٢٢٣ في اليوم السابع من ايلول وفق بنوه للسعادة<sup>(١)</sup>
- وهذه اللغة تكاد تكون الحلقة المتوسطة بين الآرامية والعربية أو هي أقدم ما يمكن ان يسمى عربية في اللغات الشمالية . اما البادية لذلك العهد فلا شك في ان لغتها كانت أخلص منطقاً وأعذب بياناً وأدنى الى عهد الجاهلية التي أدركها التاريخ والفرق في ذلك بين اللغتين طبيعة الفرق بين الجهتين

### نهزيب العربية

أردنا بما تقدم الكلام في أولية هذه اللغة وكيف نشأت وتفرعت والقول في وجوه المشابهة بينها وبين غيرها لنضم أطرافاً من التاريخ تحصر جهة معينة من جهاته يستدل بها الباحث على الوضع المكاني لهذه اللغة في التاريخ العام اذ لا سبيل الى تعيين موضع من المواضع الدائرة التي تراكت عليها طبقات الزمان القديم الا بتتبع الآثار التي تومىء اليه ولو ايماءاً معنوياً

- (١) كان أهل الشام وهوران في ذلك العهد يؤرخون من دخول بصرى عاصمة حوران في حوزة الروم سنة ١٠٥ للميلاد فاذا اضيف هذا التاريخ الى سنة ٢٢٣ المذكورة في الكتابة كانت وفاة ذلك الملك سنة ٣٢٨ م .

والعرب — أهل هذه اللغة — قوم ملكوا الأرض ولم تملكهم فلم يؤثر عنهم شيء في جاهليتهم الأولى من أنواع الدلالة الثابتة كالكتابة والآثار ونحوها ولا دخلوا في تاريخ أمة من أمم الحضارة فيكون لهم نوع من تلك الدلالة وعلى ذلك يتعين أن تكون لغتهم أيضاً قد ملكت التاريخ ولم يملكها . وهي لا بد أن تكون قد تقلبت معهم على وجوه من الإصلاح وجرت على مناح من التهذيب وتاريخ ذلك بالطبع غير محقق بالنص ولا سبيل إليه إلا تلك الطريقة التي سلكتها من قبل وأن كانت هذه الجهة منها قد حفظت بعض الآثار التي يترسمها الباحث ويراها كأنما تركت بالأمس وذلك لقرب عهد الرواة في صدر الإسلام بقبائل العرب الذين خلصت من لهجاتهم هذه اللغة المضرية .

وقبل أن نأخذ إلى القصد من هذا التاريخ نأتي على شيء من أقوال علماء العرب في أمر اللغة وتهذيبها فهم مجمعون على أن اسماعيل عليه السلام أصل العربية المضرية ولذلك قال صاحب المخصص في موضع من كتابه حين أراد أن يدل على أن لغة أهل الحجاز هي الأصل في جميع لهجات العرب « وإنما صارت لغتهم الأصل لأن العربية أصلها اسماعيل عليه السلام وكان مسكنه مكة »<sup>(١)</sup> وعندهم أن العربية قحطانية وحميرية وعربية محضة وهذه هي التي نزل بها القرآن وقد انفتق بها لسان اسماعيل قالوا : وعلى هذا يكون توقيف

---

(١) لهذا يعتبر النحاة مذهب الحجازيين مقدماً . وصاحب المخصص ينقل دائماً عن العلماء ، ولكنه لا يعزو أكثر ما ينقله . وستمرك أقوال أخرى في الكلام على لهجات العرب

اسماعيل على العربية المحضة يحتمل أمرين اما ان يكون اصطلاحاً بينه وبين جرحهم النازلين عليه بمكة واما ان يكون توقيفاً من الله تعالى وهو الصواب اه وقال الجاحظ يشير الى فلسفة هذا المعنى وان لم يقصده في سياق كلامه «اما الخواص الخالص فانهم قالوا : العرب كلهم شيء واحد لان الدار والجزيرة واحدة والاخلاق والشيم واحدة وبينهم من التصاهر والتشابك والاتفاق في الاخلاق وفي الأعراق ومن جهة الخوالة المرددة والعمومة المشتبكة ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة وطباع الهواء والماء . فهم في ذلك شيء واحد (في الطبيعة واللغة) والهمة والشمايل . . فاذا بعث الله عز وجل نبياً الى العرب فقد بعثه الى جميع العرب وكلهم قومه لانهم جميعاً يدُّ على العجم ، وعلى كل من حاربهم من الامم ، ولان تناكحهم لا يعدوهم وتصاهرهم مقصور عليهم . قالوا والمشاكله من جهة الاتفاق في الطبيعة والعادة ربما كانت أبلغ وأوغل من المشاكل من جهة الرأحم . نعم حتى تراه أغلب عليه من اخيه ، لأمه وأبيه ، وربما كان أشبه به خلقاً وخلقاً وأدباً ومذهباً فيجوز ان يكون الله تبارك وتعالى حين حوّل اسماعيل عربياً . ان يكون كما حوّل طبع لسانه الى لسانهم وباعده من لسان العجم ان يكون ايضاً حوّل سائر غرائزه وسلخ سائر طبائعه فنقلها كيف احب وركبها كيف شاء ثم فضله بعد ذلك بما اعطاه من الاخلاق الحمودة (واللسان البين بما لم يكن عندهم) وكما خصه من البيان بما لم يخصهم به فكذلك يخصه من تلك الاخلاق ومن تلك الدلائل بما يفوقهم ويروقهم فصار باطلاق اللسان على غير التلقين والترتيب وبما نقل من طبائعه اليهم ونقل اليه من طبائعهم وبالزيادة التي أكرمه الله بها أشرف شرفاً وأكرم كرمًا .

ولو صح هذا وامثاله لكان دليلاً على ان لغة القرآن متوارثة في قريش من لدن اسماعيل عليه السلام وتكون قد بقيت زهاء خمسة وعشرين قرناً وهي جامدة على حال واحدة . وهذا الرأي مدفوع في <sup>الحقول</sup> ~~القول~~ وانما سوءه عندهم ما يريدونه من اعطاء هذه اللغة صفة إلهية لمنزلة القرآن منها وما كان الهياً فهو كذلك الى الابد . غير ان التاريخ لا دين له في نسقه الزمني وانما التحوّل والتنوع من سنن الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

والذي عندنا ان المراد بانطلاق لسان اسماعيل بالعربية وضع اصلها بما أضاف من لغة جرهم الى لغة قومه وبذلك انطلق لسانه من الكلام في مذهب اوسع منجى واوضح دلالة وهذا معنى ما ورد في الحديث من انه اول من فُتق لسانه ( بالعربية المينة ) وذلك أمر خاص بالكمال الفطري لا يحتاج الى تمرين ولا تلقين ولا تدريج ولا تخريج . هذا اذا صح الحديث والا فان اسماعيل علم من أعلام التاريخ الصحيح وهو الرأس الذي أودع المعقول من تأريخ العدنانية أهل هذه اللغة لا يتجاوزونه الا الى الحدس والتخمين فلا جرم كان في الاعتبار أصل اللغة وكانت كأنها منسوبة اليه نسبة تأريخية لان ما وراءه كأنه منقطع عن التاريخ اذ هو تيه من الظن لا يعرف في أي موضع منه توجد الحلقة المفصومة من سلسلة التاريخ العربي

وعلى هذا يصح لنا أن نقول إن أول تهذيب حقيقي في العربية يرجع الى عهد اسماعيل . أما تنقيح اللغة قبل ذلك فانما هو درجات من النشوء الزمني لا يمكن بوجه من الوجوه أن يحدد أو ينسب الى فرد معين كنسبتهم بعضه ليعرب بن قحطان مثلاً الا اذا صح التسلسل التاريخي حتى ينتهي

اليه وذلك غير صحيح . والاستدلال على نسبة المنطق العربي الى يعرب انما هو استدلال لغوي فقط تنبّه اليه المجانسة اللفظية . والا فان من المؤرخين من يقول ان يعرب هذا هو المعروف في التوراة باسم ( يارح بن يقطان ) واذا وجدنا دلالة الاعراب — أي الابانة — في يعرب فلا نجد لها في يارح لا بالنص ولا بالتأول

انتشار القبائل العربية

### والتهذيب الثاني

خرج اولاد اسماعيل عليه السلام ومنهم انشعبت القبائل بعد ان كانت لغتهم قد اشتدت وقطعت مسافة بعيدة من الفرق بينها وبين اصلها الذي اشتقت منه فابتدأت تأخذ صورة متميزة من الاستقلال . ومن شأن الكمال في الاستقلال اللغوي استعمال القوى الكامنة في اللغة نفسها واعطاؤها الحياة والنمو من باطنها لا تهئية هذا الكمال بما يتناول من قوى غيرها فان ذلك تبعية لا استقلال . وقد كان هذا الاستعمال الذي اشرنا اليه اصل التهذيب الثاني الذي أحدثته القبائل بعد انشعابها فان أعظم الاسباب في تكوين العربية على هذا النحو من اللين والمطاوعة على التغير الذي تماورها في كل عصورها قبل الاسلام انما هو عدم كتابتها لان ما كتب لا يتغير كما أومأنا اليه في محله . وهي قد صادفت من العرب قوماً كما علمت في وصفهم من التركيب الخلقى الصحيح والفطرة البدوية السليمة والطبيعة العربية

السامية . واذا كنا نرى اختلاف صور الحيوان على قدر اختلاف طبائع  
الاماكن فاحر بذلك ان يكون في الانسان وفي اللغة المقومة له .

لا جرم كانت جزيرة العرب وكانت قبائل العرب وكانت لغة العرب  
سواءً في سمو الطبيعة وتميز الشأن والنزعة الى الكمال الفطري في كل  
ما هو من معاني الفطرة وانما يمتنع الكمال عن اللغات من قبل امور تعرض  
من الحوادث وأمور في أصل تركيب الغريزة فاذا كفى الله اهلها تلك  
الآفات وحصنهم من تلك الموانع ووفر عليهم الذكاء وجلب اليهم جياذ  
الخواطر وصرف أوهامهم الى التعرف وحبب اليهم التبين وقعت المعرفة وتمت  
نعمة الكمال وذلك شأن العرب العدنانية في كل ادوارهم الى الاسلام .  
ولهؤلاء العرب اسباب خاصة فيهم بالجراحة اللسانية وهي التي اتخذوا منها  
أدوات لتهديب اللغة وصقلها وسنفصل أمرها بعد .

فلما تفرقت القبائل أخذت اللهجات تتنوع والعرب انما تهجم بهم  
طبائعهم على حقائق الكلام وبذلك لا بد أن تكون قد تعددت طرق الوضع  
في اللغة بطول المدة واتساع الاستعمال وتقلب الكلام على وجوهه المستحدثة  
ومن ثم نشأت اللغات الكثيرة التي تشير الى تاريخ هذا التنوع لانها مادته  
الحقيقية وسنكسر عليها باباً مفرداً .

وكانت العرب يأخذ بعضها عن بعض بالمخالطة والمجاورة فربما انتقل  
لسان العربي عن لغته الى لغة قبيلة أخرى وربما تداخلت اللغات فنشأت من  
اللغتين لغة ثالثة على انهم في ذلك لا يخرج كل منهم عن قياس نفسه ووزن  
طبعه حتى كأن ألسنتهم تختلف مثل الاختلاف ما بين أجسامهم وأذواقهم

فكل منهم يفصل من الكلام ويتصرف في وجوه القول على حسب هذا القياس الذي خلق فيه وركب في طبعه وكان مظهر قريحته . ومن هذه الجهة نشأ بينهم التنافس في إحكام اللغة والمفاخرة بالبيان وانحراف اللسان عن الشذوذ الذي يعتبرونه خلقيا في اللسنة الشاذة وساعدتهم على ذلك مواقعهم وأيامهم وأسواقهم التي يقصدونها للتسويق والبياعات والمنافرة والحكومة وغيرها مما هو من طبيعة المخالطة . وهذا هو الدور الثاني من ادوار تهذيب العربية

### الدور الثالث

أما هذا الدور فهو عمل قریش وحدها وهي القبيلة الاخيرة في تاريخ الفصاحة بعد ان كان الثاني عمل القبائل جميعا وكان الاول عمل القبيلة الاولى فتكون اللغة قد أحكمت على ادوار التاريخ الاجتماعي كل الاحكام . وذلك ان قریشا كانوا ينزلون من مكة بواد غير ذي زرع لا يستقل أهله بتكاليف الحياة ولا يرزقون اذا لم تهو اليهم أفئدة من الناس وكانت الكعبة شرفها الله وجهة العرب وبيت حجبهم قاطبة في الجاهلية فكان لكل قبيلة منهم صنم يحجون اليه حتى قيل إنهم كانوا يقربون القرابين في الكعبة من الابل والغنم لثلاثمائة وستين صنما (١) وكانت تلك القبائل بطبائعها متباينة اللهجات مختلفة الاقيسة

---

(١) هذه رواية هشام بن محمد بن الكلابي عن ابيه محمد هذا فقد ذكر في كتاب الاصنام انه لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وجد حول البيت ٣٦٠ صنما فجعل يطن بسية قوسه في وجوها وعيونها وهي تنساقط على رؤسها ثم أمر بها فاخرجت



المنطقية المودعة في غرائزها فكان قریش يسمعون لغاتهم ويأخذون ما  
استحسنوه منها فيديرون به ألسنتهم ويجرون على قياسه ولو كانوا بادين  
كسائر القبائل ما فعلوه ولكن نوع الحضارة الذي اكتسبوه من تاريخهم  
الآن من طباعهم وكسر من صلابتهم فاتفقت في ذلك حياتهم اللغوية  
وحياتهم الاجتماعية القائمة بالتجارة وتبادل العروض مع اصناف الناس . فلما  
اجتمع لهم هذا الامر ارتفعت لغتهم عن كثير من مستبشع اللغات ومستقبجها  
وبذلك مرنوا على الانتقاد حتى رقت اذواقهم وسمت طبائعهم وقويت  
سلاقتهم وحتى صاروا في آخر أمرهم أجود العرب انتقاءً للأفصح من  
الالفاظ واسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأينها إبانة عما في  
النفس وكانت لهم رحلتان في التجارة كل عام . رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة  
الصيف الى بصرى في حوران وهي حاضرة ذلك الجبل وكذلك كانوا  
يضربون في الارض الى فارس والى الحبشة فسمعوا مناطق الناس وتدبروا  
وجوه العذوبة في أعذبها وتناولوا كثيراً من الفاظ تلك الامم فداخلت  
كلامهم وأعربوها من الرومية والفارسية والعبرانية والحبشية والحميرية وعلى  
ذلك صاروا بطبيعة ارضهم في وسط العرب كأنهم مجمع لغوي يحوط اللغة  
ويقوم عليها ويشد أزرها ويرفع من شأنها ويزيد في ثروتها وبالجملة يحقق فيها  
كل معاني الحياة اللغوية

من المسجد وحرقت ولهذا الراوية كلام كثير عن العرب زيفه العلماء وردوه . ولا يخلو  
عدد الاصنام التي ذكرها من المبالغة كما حققه المتأخرون الذين بحثوا في تاريخ اصنام  
العرب واصلها واسمائها واهتدوا من ذلك الى حقائق كثيرة لا محل أبسطها في هذا الموضع

ولا يسع المتأمل في الادوار التي تماقت على قريش في تهذيبها اللغة الا ان يستسلم للدهشة ويحار من أمر هذا التعاقب فانه كالتسلّم المدرّجة تنتهي الدرجة منها الى درجة على نمط متساوق من الرقيّ ان لم يكن عجيبيّاً في تاريخ أمة متحضرة فهو عجيب على الخصوص في تاريخ العرب ولا سيما اذا اعتبرنا مبدأ تلك النهضة وانها لا تتجاوز مائة سنة قبل الهجرة الى مائة وخمسين على الاكثر فلا بد من التسليم بأنها حادثة كونية من خوارق النظام الطبيعي ظهرت نتيجتها بعد ذلك في نزول القرآن الكريم بلغة قريش وهو أفصح الاساليب العربية بلا مراء والله يحكم ما يشاء ويقدر .

### أسواق العرب

آخر الادوار التي قامت فيها قريش مقامها في تهذيب العربية هو الدور العكاظي . وقد أشرنا الى أسواق العرب آنفاً - ومنها عكاظ - ونحن نوجز القول في بيانها لانها ليست من غرض ما نحن فيه . وهي أسواق كانوا يقيمونها في أشهر السنة وينتقلون من بعضها الى بعض فكانوا ينزلون دومة الجندل أول يوم من شهر ربيع الاول ثم ينتقلون الى هجر بالبحرين فتقوم سوقهم بها في شهر ربيع الآخر ثم يرتحلون نحو عمان في ارض البحرين ايضاً فتقوم بها سوقهم الى أواخر جمادى الاولى ثم ينزلون سوق المشقر وهو حصن بالبحرين فتقوم سوقهم به أول يوم من جمادى الآخرة ثم ينزلون سوق صُحار فيقيمونها خمسة أيام لعشر يمضين من رجب الفرد . وتقوم سوقهم بالشحر وهو ساحل بين عمان وعدن في النصف من شعبان ثم يرتحلون فينزلون ( عدن

أين) وهي جزيرة في اليمن أقام بها أين فنسبت إليه ثم تقوم سوقهم في حضرموت نصف ذي القعدة ومنهم من يجوزها وينزل صنعاء فتقوم أسواقهم بها .

ولهم أسواق أخرى غير هذه كذي المجاز بناحية عرفة وسوق مجنة وهي تقام قرب أيام موسم الحج ويؤمها كثير من قبائلهم . وسوق حباشة كانت في ديار بارق نحو قنونا من مكة الى جهة اليمن ولم تكن من مواسم الحج وإنما كانت تقام في شهر رجب . وأسواق كانت بين دورهم ودور العجم يلتقون فيها للتسوق والبياعات وهي التي كانت أوسع أبواب الدخيل والمغرب في هذه اللغة وذكر منها الجاحظ في الحيوان سوق الابلة وسوق اقه (كذا) وسوق الانبار وسوق الحيرة

### عكاظ

أما عكاظ فهي أعظم أسواقهم اتخذت سوقا بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة - ٥٤٠ للميلاد - ثم بقيت في الاسلام الى ان نهى الخوارج الحرورية حين خرجوا بمكة مع المختار بن عوف سنة ١٢٩ للهجرة . وعكاظ نخل في واد بين نخلة والطائف فكانت تحضره قبائل العرب كلها لانها متوجههم الى الحج الا كبر فيجتمعون منه في مكان يقال له الابتداء فتقوم أسواقهم ويتناشدون ويتحاجون لانه مشهد القبائل كلها اذ كان كل شريف انما يحضر سوق ناحيته الاعكاظ فانهم يتوافون اليها من كل جهة (١) وهم كانوا لذلك العهد يتعلقون

(١) كانت هذه السوق تقوم في ذي القعدة فمن كان له أسير يسعى في فدائه ومن

بالكلمة السائرة والخبر المرسل لا يعدلون بذلك شيئاً لما ركب في طباعهم من  
الفخر وحب المحمّدة وما انصرفوا اليه من المباهاة بالفصاحة وقوة المعارضة  
وقرب ما بين اللسان والقلب ونحو ذلك مما اقتضته أحوالهم يومئذ . وفي هذه  
السوق كان يخطب الشاعر الفحل بقصيدته والخطيب المصنّع بكلمته كما فعل  
عمرو بن كلثوم بطويلته التي سميت بالمعلقة على قول بعضهم إنها مع باقي  
القصائد السبع المعروفة علفت في هذه السوق أو في الكعبة — وهو من  
الأكاذيب وسنفصل أمره في موضعه — وكما خطب قس بن ساعدة الإيادي  
حكيم العرب خطبته المشهورة التي شهدها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وهو يخطب الناس على جبل اورق . وفيها ضربت للنايعة الذياني قبة من آدم  
ليتحاكم اليه الشعراء في أيهم أشعر وقد انشده فيها الأعشى والخنساء وحسان  
في قصة مشهورة <sup>(١)</sup>

ولا يخفى أن مثل هذا الاجتماع العام حالة من أحوال الحضارة ولذلك

كانت له حكمة ارتفع إلى الذي يقوم بأمر الحكومة وهم ناس من بني تميم كان آخرهم  
الأقرع بن حابس على ما نقله القلقشندي في قبائل العرب . ثم يقفون بعرفة ويقضون  
مناسك الحج ثم يرجعون إلى أوطانهم بما حملوا من آثار هذا الاجتماع

(١) وخاف عكاظ في هذا المعنى الأدبي بعد الإسلام مريد البصرة وهو  
من أشهر محالها وكان يكون سوق الأبل فيه قديماً ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس  
وبه كانت مفاخرات الأشراف ومجالس الخطباء يتوافون إليه ساعة من نهار للحديث  
والمناشدة والمفاخرة ويجتمع اليهم الناس فيهدر الشعراء ويخطب الخطباء ويتكلم العلماء  
ولهم فيه مقامات مأثورة ومواقف مشهورة وسنشير إليه في الكلام على الشعر . ولا يعرف  
لهم من أسواق الكلام غير المريد وعكاظ .

اقتضى الصناعة اللسانية فكان العرب يرجعون الى منطق قريش كما كان هؤلاء يبالغون في انتقاد اللهجات وانتقاء الافصح منها . وهذا هو الدور الاخير من ادوار التهذيب اللغوي اذ يدخل في حالة عامة يشيع فيها المنطق الفصيح وتبلغ بها اللغة درجة عالية من النشوء ليس بعدها الاموت الضعيف وتحوله الى شكل أثري لا منفعة فيه للمجموع المكوّن على هذه الطريقة ولكنه يدل على أصل التكوين .

هذا أثر قريش في تهذيب اللغة وبلغتهم نزل القرآن فتكونت به الوحدة اللغوية في العرب ومنع لغتهم على الدهر ان تضمحل او تنشعب فتصير الى ما انتهت اليه لغات الامم من تباين اللهجات واختلاف مناحي الكلام كما ترى في اللغات العامية العربية فهي من اصل واحد وقد تتباين حتى يصير هذا الاصل فيها كأنه بعض الجذور الذاهبة في طبقات الارض خفاءً وضعفًا في التأثير

وكما ان الذي انزل عليه القرآن نبيُّ العرب فالقرآن نبيُّ العربية بحيث لا تجد من فضل لرسول الله على الأنام ، الا وجدت فضلاً في معناه لكلام الله على الكلام .

### الاسباب اللسانية

اوماننا في الفصل السابق الى هذه الاسباب وأن العرب قد خُصوا بها لتكون معدّلاً لألسنتهم وهي اسباب طبيعية فيهم ما دامت اللغة بالقياس وما دام قياس العربي قريحته فهي تجعل حركات الألسنة على مقادير مضبوطة

توازن الحروف التي تجري عليها كما تميل كفة الميزان بمقدار ما يوضع فيه ثقلاً وخفة .

وقد كان يسبق الى ظننا أن هذه الجارحة اللسانية في العرب قد تكون ممتازة في أصل تركيب الخلقة كما امتازت أدمغتهم عن أدمغة السلائل الأخرى وكنا نللم بذلك ما في منطقهم من الفخامة وما في حروفهم من لطيف الحس وسري المخرج وعجيب التركيب والترتيب . بيد اننا لما تتبعنا لغات القبائل واستقرينا لهجاتها الباقية في كتب العربية رأينا انهم ليسوا سواءاً في هذه الميزة فان لبعضهم لهجات رديئة وطرقاً شاذة في سياسة المنطق كما سنبينه في موضعه فرجح عندنا ان ذلك من عمل التنقيح وانه صنعة وراثية في الالسنه جرت بها اللغة مجرى الكمال . وهي في بعض القبائل أظهر منها في البعض الآخر وعلى حسب ذلك قسموها درجات في الفصاحة كما ستعلم . غير انه مما لا ريب فيه أن كل قبيلة كانت تهذب في منطقها باعتبار ما الفته وعلى مقدار يكافئ طبيعة أرضها راجعة في كل ذلك الى الثقل والخفة . فكل ما رفضه العرب في الجملة أو عدلوا عنه الى غيره من هيات المنطق فانما فعلوه استئقالاتاً وكل ما قبلوه أو عدلوا اليه فلخفته على ألسنتهم وهذا مذهب كل من يستبطن اسرار لغتهم ويتتبع هياتها وتراكيبها حتى جعلوه في تقدير الكلام علة ما لا تظهر له علة .

قال ابن جني في فصل من كتابه الخصائص بعد ان ذكر علة عدل عامر وجاشم الى عمر وجشم مع تلك الاسماء المحفوظة التي تمنع من الصرف للعامة والعدل دون أن يكون هذا العدل في مالك وحاتم ونحو ذلك ووجهها

على انهم لم يخصصوا ما هذه سبيله بالحكم دون غيره الا لا اعتراضهم طرفاً مما طَفَّ لهم — اي أمكن — من جملة لغتهم كما عن وعلى ما اتجه لا لأمر خص هذا دون غيره مما هذه سبيله قال : وعلى هذه الطريق ينبغي ان يكون العمل فيما يرد عليك من السؤال عما هذه حاله ولكن لا ينبغي أن تُخلد اليها الا بعد السبر والتأمل والا نعام والتصفح فان وجدت عذراً مقطوعاً به صرت اليه واعتمدته « وان تعذر ذلك جنحت الى طريق الاستخفاف والاستئصال » فانك لا تعدم هناك مذهباً تسلكه وماً تتورده .

وبعد فالثقل والخفة أمران معنويان في اللغة لا يقدرهما الا الذوق وهو ليس من الصفات التي يجمع عليها الناس ثم ان الذين دونوا اللغة لم يجمعوها الا بعد ما انطبعت الالسنه على لغة القرآن وجرت في نهجه وبعد تنقل هذه اللغة في أدوار التهذيب حتى بلغت نهايتها من الكمال فمن هنا تألف ذوق عام في تقدير لهجات القبائل المختلفة والتمييز بينها خفة وثقلا . وليس يخفى ان العلماء انما دونوا لغات بعينها وتناولوا من اللهجات الاخرى نتفاً قليلة مما كان باقياً لمهدم وذلك للحاجة اليه في العربية ثم اغفلوا ما عداه فضلاً عن كثير لم يقع اليهم علمه ولذلك تأتى لهم أن يحصروا أبنية الكلام وانواع المستعمل منها والمهمل وأن يضعوا قوانين وضوابط لتأليف الحروف حتى توافق ( منطلق العرب ) ومثل هذا لا ينهض به الدليل على أن ذلك كان شأن اللغة في كل القبائل جاهلية واسلاماً . فلغات العرب مختلفة وكلهم كانوا يبدأون في تهذيبها متابعة لسنة الكمال راجعين في ذلك الى موازين القرائح التي لا تميل بطبيعتها الا مع الاستئصال والاستخفاف على ما يكون بين مقاديرهما من التفاوت

### أمثلة من هذه الاسباب

من نواذر اختلاف العرب في لغتهم للاسباب اللسانية هذه الامثلة :

( ١ ) من العرب من يحرك آخر الكلمة بحركة الحرف الذي قبله . مطلقاً في الفتح والضم والكسر فيقول في رُدَّ مالي رُدُّ مالي كما يقول عَضَّ يحرك الضاد كتجريك العين — ويقول في نحو فِرَّ يا غلام واطمئن واستعدَّ . فِرَّ واطمئن واستعدَّ وهلم جرَّاً .

( ٢ ) وكذلك يفعلون اذا اتصل الفعل بضمير غير الهاء . فان جاءت الهاء والألف فتحوأبدا لأن الهاء خفيفة فكأنها لا تنطق فيقولون رُدَّها وأمدَّها . يعتبرون أنفسهم خلفه الهاء المفتوحة عندهم كأنهم قالوا رُدَّاً وأمدَّاً والالف بالطبع تقتضي الفتحة . وأما إن كانت الهاء مضمومة فانهم يرجعون لطبيعتهم فيضمون ما قبلها وعلى ذلك يقولون في مدَّه وعَضَّه . مدَّه وعَضَّه ( كلفة العامة ) . وسمع الاخفش ناساً من بني عقيل يقولون مدَّه وعَضَّه .

( ٣ ) زعم الخليل أن ناساً من بكر بن وائل يقولون في نحو رددن ومررن ورددت ومررت . ردَّن ومرَّن ورددَّت ومررَّت . وهذا الفعل المضاعف اذا كان آخره مفتوحاً نحو ردَّ ومرَّ فالعرب يجمعون على الادغام وذلك فيما زعم الخليل أولى به لانه لما كانا اي الحرفان اللذان صارا حرفاً مشدداً — من موضع واحد ثقل عليهم ان يرفعوا السنتهم من موضع ثم يعيدوها الى ذلك الموضع للحرف الاخير فلما ثقل عليهم ذلك ارادوا ان يرفعوا رفعة واحدة وذلك قولهم ردِّي وضارِّي الى سائر تصاريف الفعل



( ٤ ) قال سيبويه فاذا كان حرف من هذه الحروف - المدغمة - في موضع تسكن فيه لام الفعل نحو رُدَّ ( فعل الامر ) فان أهل الحجاز يضاعفون ( لا يدغمون ) لانهم اسكنوا الآخر فلم يكن بدءً من تحريك الذي قبله لانه لا يلتقي ساكنان . وذلك قولهم أردد وان تضارز تضارز وان تستعدد أستعدد . يدعونه على حاله ولا يدغمونه . وأما بنو تميم فيدغمون المجزوم كما أدغموا اذا كان الحرفان متحركين فيقولون رُدَّ يافتي وان تضارز تضارز الخ وهي اللغة المأنوسة في الفصح .

( ٥ ) قال سيبويه في باب ما شذ من المضاعف انهم يقولون أحسنت يريدون احسست وأحسنن يريدون أحسنن . قال وكذلك تفعل في كل بناء تبني اللام من الفعل فيه على السكون ولا تصل اليها الحركة شبهوها بأقت .. فاذا قلت لم أحس لم تحذف لأن اللام ( اي آخر الفعل ) في موضع قد تدخله الحركة ولم يكن على سكون لا تناله الحركة ( اي كقولهم أحست ) فهم لا يكرهون تحريكها . وأورد من شاذ اللغة ظلت ومست وظلت ومست في ظلت ومستت شبهوا الاولى بخفت والثانية بلمت قال : ولم يقولوا لست ألبتة

( ٦ ) وقال ايضاً : اعلم أن للعرب لغة مطردة تجري فيها فعل ( المبنى المجهول ) من رددت ونحوه مجرى فعل من قلت ( أي على وزن قيل ) وذلك قولهم قد ردد وهيد ورحبت بلادك وظلت — وأصل ذلك كله بالضم — وقد قال قوم قد ردد فأمالوا الفاء ( يريد انهم ينطقون كسرة الراء كحرف ه ) ليعلموا أن بعد الراء كسرة قد ذهبت ( لان اصله على فعل )

كما قالوا المرأة أُغْزِي فَأَشْمُوا الزاي ( وجعلوا في كسرتها صوت الضمة )  
ليعلموا أن هذه الزاي أصلها الضم .

( ٧ ) الواو اذا كانت مضمومة في أول الكلمة فان من العرب من  
يبدل مكانها الهمزة فيقول في نحو وُلِدَ ووجوه أُلِدَ وأجوه . واذا اجتمع  
الواوان في كلمة فمنهم من لا يهمز فيقول في قوُول وموؤنة قوُول وموؤنة  
يجري الحركة على الواو الأولى والذين يهمزونها انما يرونها حرفاً ضعيفاً  
فيضعون مكانها حرفاً أجلد منها وهو الهمزة .

( ٨ ) اذا كانت الواو في أول الكلمة مفتوحة فمنهم من يبدلها بالهمزة  
ولكن هذا في كلمات ممدودة كوجم ووَناة يقولون أجم وأناة وهو ليس  
مطرداً . قال سيبويه : ولكن ناساً كثيراً يجرون الواو اذا كانت مكسورة  
مجرى المضمومة فيهمزونها اذا كانت أولاً . من ذلك قولهم إِسادة وإِعاء في  
وسادة ووعاء وهكذا <sup>(١)</sup>

( ٩ ) من لغة بعضهم إدغام الهاء في الحاء — اي اخفاؤها عندها  
وهذا الاخفاء يسميه سيبويه إدغاماً — وذلك كقول الراجز يصف ناقه  
كأنها بعد كلال الزاجر ومَسْجِي مرث عقاب كاسر

يريد ( ومسجحه ) وشبيه بذلك قول بني تميم مَسْمٌ ومَحَاوِلًا يريدون معهم  
ومع هؤلاء فيحولون العين حاءاً ثم يدغمون الهاء فيها وذلك لاستتقالهم أصله  
وان كان خفيفاً على السنة من عداهم .

( ١ ) لابن جني في هذا الموضع بحث طويل أشبع فيه القول في كتابه ( سر  
الصناعة ) وقد ساقه في كلامه على وجوه الابدال مطردها وشاذها

(١٠) من نوادر باب الادغام في كتاب سيبويه - وهذا الباب صفحة مُمْتَعَة من تاريخ الاسباب اللسانية عندهم واعتبارهم في التأليف مخارج الحروف ومرور الصوت وما هو أندى وأفشى وأخفى في السمع ابتغاء الخفة على ما ألفه كل قبيل من لغته الموروثة - قول بعضهم : ذهب سلمي وقسمعت يريد ذهبت سلمي وقد سمعت ويقولون مَزَّمان ومَسَّاعة في مَد زمان ومَد ساعة واغرب من ذلك قول بعضهم حَدَّثهم في حَدَّثهم ( وهي العامة المعروفة اليوم ) . ومنهم من يقول هَشْي في هل شيء وهْتَعين في هل تعين وقد وردت الكامتان في الشعر<sup>(١)</sup>

ومراتب الثقل متفاوتة عند العرب فقد يقل الشيء من الصحيح في كلامهم وان كان له بعض نظائر من المعتل مثلاً كراهية أن يكثر في كلامهم ما يستقلون وقد يطرحونه لهذا السبب وقد يقل عندهم ما هو أخف مما يستعملونه لتوهمهم فيه سبباً من أسباب الثقل وقد يطرحونه وغيره أثقل منه في كلامهم لهذا التوهم عينه وقد يدعون البناء من الشيء وهم يتكلمون بمثله في لفظ آخر . وذلك كله راجع الى قياس القرينة المستقلة فلا يتقيد العربي بمتابعة غيره ولا تقليده في منطقه ناظراً الى حقيقة المتابعة والتقليد بل ذلك امر طبيعي في جميعهم يرجعون فيه الى السليقة وينزلون منه على حكم الغريزة . وقد رأينا سيبويه يقول في باب الامالة من كتابه بعد أن أشار الى اختلاف العرب وأن منهم من يوافق غيره في الامالة وقد يخالف كل

(١) على هذه اللغة قرأ بعضهم هَشْوِب الكفار في هل ثوب الكفار وشَوْثرون

في بل ثوثرون . وقد بقيت أشياء من هذا الفصل اللساني تتعرفها فيما يأتي بعد

واحد من الفريقين صاحبه وأن تلك الموافقة ليست تقليداً من بعضهم لبعض ولكنها طبيعية . قال « فإذا رأيت عربياً كذلك ( يخالف أو يوافق ) فلا تُرينه خلط في لفته ولكن هذا من أمرهم » .

### مواقع الحروف اللسانية

نظر ابن دُرَيْد في كتابه (الجمهرة) الى مواقع الحروف في كلام العرب باعتبار الاسباب اللسانية في دورانها فرأى ان أكثر الحروف استعمالاً عندهم الواو والياء والهمزة وأقل ما يستعملون منها لتفاوتها في الثقل على ألسنتهم الظاء ثم الذال ثم التاء ثم الشين ثم القاف ثم الخاء ثم العين ثم النون ثم اللام ثم الراء ثم الباء ثم الميم . اما باقي الحروف فهي بين المنزلتين . وقال في موضع من كتابه : اعلم انه لا يكاد يجيء في الكلام ثلاثة أحرف من جنس واحد في كلمة واحدة لصعوبة ذلك على ألسنتهم وأصعبها حروف الحلق فأما حرفان فقد اجتمعا مثل أحد وأهل ونحع غير ان من شأنهم اذا أرادوا هذا ان يبدؤا بالأقوى من الحرفين ويؤخروا الألين كما قالوا ورل<sup>(١)</sup> ووتد فبدؤا بالتاء مع الدال وبالراء مع اللام فذق التاء والدال فانك تجد التاء تنقطع بجرس (صوت) قوي واللام تنقطع بغثة ويدلك على ذلك ايضاً ان اعتياص اللام على الألسن أقل من اعتياص الراء وذلك للين اللام . وقال الخليل لولا بحة في الحاء لاشبهت العين فلذلك لم يتألفا في كلمة واحدة وكذلك الهاء ولكنهما يجتمعان في كلمتين لكل واحدة منهما معنى على حدة نحو قولهم حيَّيل وحيَّيلاً

(١) الورل دابة كالضب أو العظيم من اشكال الوزغ

فحي كلمة معناها هلم وهلا حيثاً<sup>(١)</sup>

ثم قال ابن دريد في امتزاج الحروف وسر التاليف في أبنية كلامهم بمراعاة الخارج المتباعدة والمتقاربة وملاءمة بعضها لبعض مما هو حقيقة الاسباب اللسانية : اعلم ان أحسن الابنية ان ينووا بامتزاج الحروف المتباعدة ألا ترى انك لا تجد بناءً رباعياً مُصنّت الحروف لا مزاج له من حروف الذلاقة<sup>(٢)</sup> الا بناءً يجيئك بالسين وهو قليل جداً مثل عسجد وذلك ان السين لينة وجرسها من جوهر الغنة فلذلك جاءت في هذا البناء . فأما الخماسي مثل فرزدق وسفرجل فانك لست واجده الا بحرف او حرفين من حروف الذلاقة من مخرج الشفتين أو أسلة اللسان ( طرفه ) فاذا جاءك بناء يخالف مارسمته لك مثل<sup>(٣)</sup> (دعشق وضعنج وحضافج وضقهجج أو مثل عقجش) فانه ليس من كلام العرب فاردده فان قوماً يفتعلون هذه الاسماء بالحروف المصنّمة ولا يمزجونها بحروف الذلاقة فلا تقبل ذلك . فأما الثلاثي من الاسماء والشائئ فقد يجوز بالحروف المصنّمة بلا مزاج من حروف الذلاقة مثل خدع وهو حسن لفصل ما بين الخاء والعين بالبدال فان قلبت الحروف قبح . فعلى هذا القياس فأنف ما جاءك منه وتدبره فانه اكثر من ان يحصى

### عدة أبنية الكلام

وقد أطل العلماء النظر في وجوه التاليف المتصورة من تركيب الحروف

(١) يقال حيّ هلا الثريد أي هلم وحيّ هلك ايضاً (٢) انظر مخارج الحروف وأقسامها في الفصل التالي (٣) الكلمات الآتية أمثلة مفتعلة لا معنى لها

العربية بضرب من الحساب واضح ليستخرجوا بذلك عدّة أبنية الكلام العربي من البناء الثنائي الى الخماسي ويستقصوا من كلام العرب ما تكلموا به وما رغبوا عنه مما يأنلف أولاً يأنلف باعتبار الاسباب اللسانية ايضاً . وهذه الطريقة الحسائية من وضع الخليل بن احمد وقد شرحها ابن دريد في الجمهرة ونقلها عنه السيوطي - في الكلام على ايجاء اللغة من المزهري - وبها حصر ابو بكر الزبيدي الاندلسي في مختصر كتاب العين عدة ابنية الكلام ما أهمل منه وما استعمل صحيحاً ومعتلاً فذكر أن عدة مستعمل الكلام كله ومهملة ٦٦٥٩٤٠٠ المستعمل منها ٥٦٢٠ والباقي مهمل لم يستعملوه لافي الصحيح ولا في المعتل . أما الصحيح من المستعمل فهو ٣٩٤٤ والمعتل منه ١٦٧٦ . وقد نقل كلامه برمته صاحب المزهري في الفصل الذي أوامنا اليه وهو يشمل عدة الكلام المتصور في كل بناء مستعمله ومهملة في الصحيح والمعتل من كليهما فارجع اليه ان أحبيت الاستقصاء <sup>(١)</sup>

(١) قد يجب بعضهم لاستفراق العلماء في مثل هذا الاحصاء بل وجدنا من يكذبه زاعماً انه منزع بعيد وذلك قياساً على همم المتأخرين ، من علمائنا . ولكن المطلع على تاريخ المحققين من العرب ايام كان العلم علماً يرى أن هذا مما امتازوا به في التحقيق . ونحن نكتفي بخبر عن الزبيدي نفسه الذي نقلنا عنه هذا الحساب فانه لما كتب طبقات النحاة وقف في ترجمة ابي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ على خبر . وذلك انه قبل له ان فلاناً يقول خطأ ابو عبيد في مائتي حرف من الغريب المصنف . فحلم ابو عبيد ولم يقع في الرجل بشيء . وقال ان في المصنف كذا وكذا حرفاً فلم أخطئ الا في هذا القدر اليسير لم يكن كثيراً . فهضت همه الزبيدي الى تحقيق قول ابي عبيد وانما الرواية حتى يضع بدل ( كذا وكذا ) عدداً معيناً فعد ما تضمنه الكتاب من الالفاظ قال فالفيت فيه ١٧٧٧٠ حرفاً اه فتأمل

والمهمل عندهم على ضربين : ضرب لا يجوز ائتلاف حروفه في كلام العرب البتة وذلك كجيم تؤلف مع كاف . أو كاف تقدم على جيم . وكعين مع غين أو هاء مع هاء أو غين فهذا وما أشبهه لا يأتلف . والضرب الآخر ما يجوز تألف حروفه لكن العرب لم تقل عليه وذلك كارادة مرید أن يقول عضخ فهذا يجوز تألفه وليس بالناسف الا تراهم قد قالوا في الاحرف الثلاثة خضع لكن العرب لم تقل عضخ . فهذان ضربان للمهمل وله ضرب ثالث وهو أن يريد مرید أن يتكلم بكلمة على خمسة احرف ليس فيها من حروف الذلق أو الإطباق حرف . وأي هذه الثلاثة كان فانه لا يجوز أن يسمى كلاما .

ومن يتتبع تراكيب هذه اللغة ويتدبر أثر الاسباب اللسانية فيها لا يجد كلاما يعدل كلام العرب في العذوبة والبيان وفي الاختصار ونهج التأليف بين حروف الكلمة الواحدة حتى أنهم قد يراعون مواضع الحروف من معانيها فيجعلون الحرف الأضعف فيها والألين والأخفى والأسهل والأهمس لما هو أدنى وأقل وأخف عملاً وصوتاً ويجعلون الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملاً وأعظم حساً ولتفصيل ذلك موضع سيايتك . أما صيغ كلامهم فهي بذلك أبدع الصيغ وأسهلها لما نحوّه في استعمالها من التخفيف وما طلبوه في صوغها من الاختصار واكثر الصيغ المهمة في العربية تجدها مستعملة في العبرانية والسريانية أو في احدهما دون الاخرى مما يدل على أن هذه اللغة خلق لسانی حی كما ينناه في صدر هذا الكلام .

## أوزان الرفع في اللغات الثلاث

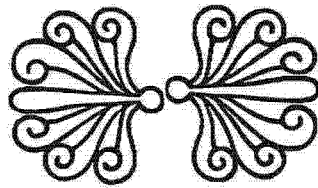
وصيغ الافعال معروفة في اللغات الثلاث وقد تقلنا ما عرفوه منها في اللغة البابلية ونحن ذا كرون هنا اوزانها في هذه اللغات المتشابهة ليستدل بالمقابلة بينها على ترقى الصفات اللسانية في العرب وأن مبنى كلامهم على خفة اللفظ وعذوبته حتى كأنهم جروا في اللغة على ناموس اقتصادي وهو نهاية ما تبلغه القرائح من الكمال في اوضاع اللغات . هذا الى ما انفردت به العربية من استقامة الصوت وامتلائه ووضوحه لانه مادة الحرف وصالح كل شيء من مادته

العبرانية	السريانية	العربية
فَعَلَ	فَعَلَ	فَعَلَ
فَعِلَ	أَفْعِلَ <sup>(١)</sup>	انْفَعَلَ
فُعِلَ	فَعِلَ	افْتَعَلَ
هَفْعِلَ	فَاعِلَ	افْعَلَّ
هُفْعِلَ	سَفْعِلَ	افْعَالًا
تَفْعَالُ	شَفْعِلَ	فَعَلَّ

(١) كل الكسرات التي تكون (على العين) في هذه الاوزان يترك فيها الصوت اعور فلا تنطق الا بالامالة . وكل أوزان العربية محركة الاواخر بالفتح



المصرية	السريانية	المبرانية
تَفَعَّلَ	فَعْلَعَلْ	هَتَفَعَّلْ
فَاعَلَ	اَتَفَعَّلْ	
تَفَاعَلَ	اَتَفَاعَلَ	
اسْتَفَعَلَ	اَتَفَعَّلْ	
اَفْعُوْعَلْ	اَتَفَاعَلَ	
اَفْعُوْلْ	اَسْتَفَعَلَ	
اَفْعَلَى	اَسْتَفَعَلَ	
	اَتَفَعْلَعَلْ	



## مناطق العرب

### الحروف العربية

الحرف هيئة عارضة للصوت الساذج يتكون في مواضع من اللسان والخلق والسن والنّطع<sup>(١)</sup> والشفة وهذه المواضع هي مخارج الحروف . ومحال أن يتكون الصوت في جميعها تكويناً طبيعياً يشمل الناطقين جميعاً بل لا بد في ذلك من عمل ورأى يتبع حالة اللغة من الكمال ويقدر بقدرها وذلك لا تجده على أكمل الوجوه الا في لغة العرب .

وقد بينا فيما سبق أن الحرف الطبيعي في المنطق انما هو الحرف الهاوي الذي يتسع مخرجه لهواء الصوت فلا يقع الحرف فيه على مدرج من مدارج الخلق ولا اللسان ولا غيرهما من سائر المخارج ويتلوه في التكون أحرف الخلق لقربها من مصدر الصوت ثم تكونت باقي الحروف على نظم طبيعي بطبي . وذلك بارتقاء أوتار الصوت وتفنن الانسان في توقيع الاصوات عليها لان الخلق انما هو في اصل الخلقة أداة الموسيقى اللغوية .

وثبت ما قدمناه ما وقف عليه علماء اللغات في مباحثهم وهو أن بعض القبائل في اواسط افريقية لا توجد في لغتهم الحروف الشفوية كالفاء والباء والميم والواو . وبعض هنود كولومبيا لا يجدون سبيلاً الى النطق بهذه الحروف ( ب ف ج د و ) واكثر اقوام استراليا لا يستعملون حروف

---

(١) النطع ما ظهر من الفار الاعلى للفم وفيه آثار كالتحزيز وحروفه ( ط د ت ) وتسمى الحروف النطعية

الصفير ( س ص ز ) ولا هذه الحروف ( ش ث ط ) . واهل ( نيوزيلاندا ) لا ينطقون هذه الحروف ( ب س د ف ح ج ل ن ص و ي ) وكذلك وجدوا اللغة الهيروغليفية القديمة وهي من اقدم اللغات المعروفة ليس من حروفها في المنطق ( ب ج د ز ظ ض ) : بل أنت ترى الدليل الذي لا سبيل الى رده في هذه الحروف الطبيعية الخالدة التي لا يزداد فيها ولا ينقص منها وهي ما يتهيا في منطق الحيوان السائم<sup>(١)</sup> فانها على قدر الحاجة الحيوانية مما لا يتجاوز معنى الاحساس لذي هو المنطق الباطني .

أما الحروف العربية فهي المعروفة اليوم بالحروف الابدجية أو الفباء . ولم تكن على هذا الترتيب الهجائي من قبل وانما هو ترتيب نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر العدواني في زمن عبد الملك بن مروان حين بدأ في اصلاح الخط وتميز الحروف والحركات - كما سيأتي في موضعه - وكانت قبل ذلك على ترتيب أبجد هو ز المعروف وهو ترتيب السريانية والعبرانية ومن علماء اللغة من يرتبها على وجه آخر كالخليل بن أحمد فانه اعتبر ترتيبها على مخارجها الطبيعية ذاهباً من الصدر الى الشفتين وبنى على هذا الوضع كتاب ( العين ) الذي هو اول كتاب جمع اللغة فجعلها هكذا<sup>(٢)</sup>

---

(١) اما الحيوان لمروض المأخوذ بالعابرة والتعليم والتلقين فقد يقتبس جملة من حروف اللغة التي يعلم بها وبذلك تأتي لبعض الالمانيين أن ينطق كلبه بالفاظ خالصة من لغة الالمانية ولكنها في الجملة من حاجات الكلب الطبيعية كالاكل والشرب فلا تخرج عن معنى الاحساس أيضاً

(٢) قال الازهري في ( التهذيب ) نقلاً عن الليث بن المظفر - متمم

ع ح ه خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط  
د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م و ا ي

وقد خالفه بعضهم ولا نرى فائدة في استقصاء أقوالهم المختلفة .  
وهذه الحروف ٢٩ حرفاً بإضافة الهمزة ( وهو رأي سيبويه وعليه  
المحققون وكان أبو العباس ثعلب لا يعدها منها ) وتسمى حروفاً أصلية ولها  
أربع حركات أصلية ايضاً وهي الفتحة والضممة والكسرة والسكون<sup>(١)</sup>  
وهذه الحركات قديمة في اللغة لانها هيأت المنطق ولكن دلائلها  
الخطية ( ' — ' ) لم تكن عندهم بل اخترع أصولها السريان حينما تنصروا  
وارادوا ضبط قراءتهم في الاناجيل فوضعوا علامات صغيرة تدل على

كتاب العين بعد الخليل — لما أراد الخليل الابتداء في كتاب العين أعمل فكره فيه  
فلم يمكنه أن يتبدى . من أول أ ب ت ث الخ لان الالف حرف معتل فلما فاتته  
أول الحروف كره أن يجعل الثاني أولاً ( وهو الباء ) الا بحجة وبعد استقصاء . فتدبر  
ونظر الى الحروف كلها وذاقها فوجد مخرج الكلام كله من الحلق فصير أولها بالابتداء .  
أدخلها في الحلق ، وكان ذوقه إياها أنه كان إذا اراد أن يذوق الحرف فتح فاه  
بألف ( أي الحرف الطبيعي في النطق كما قدمنا ) ثم أظهر الحرف ( الذي يريد ذوقه )  
نحو ا ت . ا ح . ا ع . فوجد العين أقصاها في الحلق وأدخلها فجعل اول  
الكتاب العين ثم ما قرب مخرجه منها الارفع فالارفع حتى اتى على آخر الحروف .  
( ١ ) في كتاب سر الصناعة لابن جني : الحركات أبعاض حروف المد واللين  
فالفتحة بعض الالف والكسرة بعض الباء والضممة بعض الواو . وكانت متقدموا  
النحويين يسمون الفتحة ( الالف الصغيرة ) والكسرة الباء الصغيرة والضممة  
الواو الصغيرة .

الحركات وهي ( نقطة او خط صغير ) فوق الحرف او تحته أو بين يديه ولا يزال أثر هذه الطريقة في المصاحف المخطوطة في القرن الثاني للهجرة فقد كانت تكتب من غير تقط إلا للشكل فالنقطة فوق الحرف علامة الفتحة وتحت علامة الكسرة وإلى جانبه علامة الضم وأول من وضع هذه الطريقة للعرب أبو الأسود الدؤلي ولذلك تأريخ يأتي في محله

والمراد بالحروف والحركات ( الأصلية ) التي يستوي في الاتيان بها الإلحاق من العرب الذين لم تخطط لغتهم ولا ورثوها مخلوطة فان لمن عدا هم حروفاً أخرى تسمى متفرعة

### الحروف المتفرعة

وهي حروف من التسعة والعشرين حرفاً تتميز بأشراب الحرف<sup>(١)</sup> صوتاً من غيره وهي قسمان : مستحسنة ومستهجنة ونحن نذكرها في هذا الفصل مقرونة بما يناسبها من لغات العرب تحقيقاً لغرضنا التاريخي

### المستحسنة

أما المستحسنة فهي التي عرفت في لغة من يوثق بعربيته وتستحسن في قراءة القرآن وإنشاد الشعر بحيث لا تشوب المنطق منها هجئة أوزداية وهي :  
( ١ ) النون الخفيفة التي يكون مخرجها من الخياشيم كما تقول عنك تخرج النون بغنة من الخياشيم وهذه النون في منطق كثير من أشراف العرب . ومن لغاتهم أنهم يستجيزون في الشعر جمع الميم والنون في القوافي

---

( ١ ) سمي سيديويه بعض الحروف بالمشرية وذلك في باب الوقف من كتابه

لاجماعها في الغنة التي ترتفع الى الخياشيم وعليها قول الراجز  
بُنَيَّ إِنِّ البرشيء هَيْنَ المنطق اللين والطعيم  
ينطقها الطعين للقافية . وقال آخر  
ما تنقم الحرب العوان مني بازلُ عامين حديثُ سني  
لمثل هذا ولدني أمي  
ينطقها أني

### النسبيل

(٢) الهمزة التي بين بين . وهي التي تقع متحركة بعد ألف فاتهم  
ينطقون بها حرفاً بين الهمزة وبين حرف حركتها ويجعلون الحركة التي عليها  
(أي الهمزة) مختلصة سهلة بحيث تكون كالساكنة وان لم تسكن .  
فينطقون بها بحرف بين الهمزة والألف ان كانت مفتوحة نحو تساءل  
وبينها وبين الواو ان كانت مضمومة نحو تفاؤل وبينها وبين الياء ان كانت  
مكسورة نحو قبائل . وهذا الحرف المنطوق به يسمى الهمزة المسهلة أيضاً .  
وذلك في لغة قريش وأكثر أهل الحجاز . يخففون الهمزة لأنها أدخل في  
الحلق ولها نبرة تجري مجرى التهوُّع <sup>(١)</sup> فثقلت بذلك على ألسنتهم .  
ويروى عن علي أنه قال : نزل القرآن بلسان قريش وليسوا بأصحاب نبر  
ولولا أن جبريل عليه السلام نزل بالهمزة على النبي صلى الله عليه وسلم ما  
همزنا . أما تحقيق الهمزة فهو الأصل وهو لغة تميم وقيس

(١) يريد أن صوت الهمزة في مخرجها من الحلق يشبه صوت من يتكلف القيء

### لغات في التخفيف

والتسهيل نوع من انواع التخفيف المقررة في علم الصرف ولا محل لبسط ذلك في هذا الكتاب ولكننا نذكر منه أمثلة من لغاتهم فيه جريباً على طريقتنا من جمع الصور التاريخية لهذه اللغة كما سنفصله .<sup>(١)</sup>

فمن العرب من يبدل الهمزة المفتوحة اذا كانت منفصلة (أي بين كلمتين) الى لفظ ما قبلها ويدغمها فيه (ويسمونه التخفيف البدلي) فيقولون في (أو أنت) أوَّنت . وفي (أبو أيوب) أبوَّيوب وهكذا . فاذا كانت الهمزة المنفصلة مكسورة أو مضمومة فاهل التخفيف لا يدغمونها فيما قبلها بل يقولون في نحو (أحلبني إيلك) أحلبني بلك وفي نحو (هذا أبو أمك) أبو أمك . فيلقون حركة الهمزة على ما قبلها .

أما إن كانت الهمزة في كلمة واحدة (أي غير منفصلة) نحو سواة وموالة فانهم يحذفونها فيقولون سوة ومولة .

فذلك كما ترى قريب من لغاتنا العامية وأقرب منه أنهم يحذفون الهمزة بعد المتحرك المبني ويلقون حركتها عليه فيقولون في نحو (قال إسحق) وقال أسامة (قال سحق) وقال سامة .

وكذلك يحذفون الهمزة اذا كانت اول كلمة وكان آخر الكلمة التي قبلها

---

(١) نتقدم الى القراء أن يتقصصوا ما ذكرناه من لغات العرب وما نذكره وما سندكره منها في الفصول التالية لأنها في حقيقتها درجات تاريخية ثم هي بجملتها لا يجمعها كتاب كائناً ما كان لمقدم أو متأخر

ألفاً . وفي هذه اللغة : إن كان ما بعد الهمزة حرفاً ساكناً حذفوا معها  
الألف التي قبلها لئلا يجتمع ساكنان فإن لم يكن ذلك أبقوا الألف وحذفوا  
الهمزة وحدها . فيقولون في نحو ( ما أحسن زيدا ) محسن زيدا . وفي  
( ما أشد عمرا ) ما شدَّ عمرا يقولون في هذا المثال الألف التي قبل الهمزة  
لأن ما بعدها متحرك ( وهو الشين ) .

### الامالة

( ٣ ) من الحروف المستحسنة الألف التي تُمال إمالة شديدة وذلك  
أن يُنحى بالفتحة نحو الكسرة الى حد لو زاد صارت الالف ياءاً . وهي  
الامالة الكبرى ويسمونها المحضة ونطقها كحرف ( ê ) أما غيرها فيسمونها  
الامالة الصغرى . وبين بين . وبين اللفظين . وتسمى ترقيقاً أيضاً وهذا  
خاص بامالة الفتحة التي قبل الالف فقط كعابد . والمراد من الامالة إما  
غرض مناسبة صوت النطق بالفتحة الى صوت النطق بالكسرة التي قبلها  
حتى تقرب منها كعماد . او التي بعدها كعالم . او المناسبة لصوت  
النطق بياء قبلها كسيال وشيبان . او للتنبيه على اصل الالف المالة اذا  
كانت منقلبة عن ياء او واو مكسورة كباع وخاف . او للتنبيه على الحالة التي  
تصير اليها الالف في بعض الأحوال كأففى وحبلى لانهما تصيران في التثنية  
أففيان وحبليان<sup>(١)</sup> وسائر أسباب الامالة وانواعها مفصل في كتب

( ١ ) من لغات العرب أن بعضهم يبدل الالف في أففى وحبلى ياءاً في الوقف  
فيقول أففى وحبلى . وبعضهم يبدلها واواً فيقول أففو وحبلو وقال ابن سيده في المخصص



التصريف ولا تمس حاجتنا اليه وانما تقصد منه الى معنى التاريخ اللغوي فقط .  
فاصل التقريب شائع في كلامهم يقربون الحرف الى الحرف للشبه بينهما  
كما يقربون الصاد من الزاي ونحوها - على ما سيأتي - وليست الامالة  
مطرّدة في أهل اللغة الواحدة فان أهل الحجاز يميل بعضهم قليلا في مواضع  
معينة واكثرهم لا يميلون . وبنوا تميم وهم أحرص العرب عليها في منطقتهم  
يميل بعضهم في مواضع وينصب بعضهم ( لا يميل ) في مواضع أخرى وقد  
يميلون جميعاً في اشياء معروفة . ولناس كثير من العرب ممن ترتضي عريتهم  
أنواع من إمالة الالف فيقولون هو يريد أن يضربها ونحو ذلك لان الهاء  
خفيفة والراء مكسورة فكأنها عندهم يضربا - بدون هاء - ولذلك يميلون .  
وفي هذه اللغة يقولون منها فيميلون أيضاً ويقولون فينا وعلينا فيميلون للياء  
حيث قربت من الالف وكذا يدا ويدها يميلون فيهما للياء أيضاً . ومن  
اهلها بنوا تميم وقوم من قيس واسد

وتم حروف تمنع من امالة الالفات وهي ( ص ض ط ظ غ ق خ )  
اذا كان حرف منها قبل الالف وكانت الالف تليه كصادق وضامن وطائف  
وظالم وغائب وقاعد وخامد . وانما منعت هذه الحروف الامالة لانها مستعلية  
الى الحنك الاعلى والالف اذا خرجت من موضعها استعلت اليه فعلمت عليها

بعض العرب يجمع الياء والواو ثابتين في الوصل والوقف . وفي سر الصناعة : حكى  
سنيويه عنهم في الوقف هذه جلاء . يريدون حلي ورأيت رجلا يريدون رجلاً  
وقال ان الهمزة فيهما بدل من الالف وحكى أيضاً انهم يقولون هو يضربها بالهمزة  
وهذا كله في الوقف

هذه الحروف وقربتها منها لاستواء الصوت في مجموع الكلمة .  
قال سيديويه : ولا نعلم احدا يميل هذه الالف ( مع المستعلية ) الا من لا  
يؤخذ بلغته . فاذا كان حرف من هذه الحروف قبل الالف بحرف وكان  
مكسوراً فانه لا يمنع الالف من الامالة نحو الضماف والصماب والقباب مثلاً  
لانهم يضعون السنتهم في موضع هذه الحروف المستعلية ثم يصوبونها  
فلا تحذر اخف عليهم من الا صعاد .

وبقيت أشياء كثيرة لا تتعلق بغرضنا ولكن جماع القول في هذا الباب  
التاريخي ما قاله سيديويه من انه ليس كل من أمال الالفات وافق غيره من  
العرب ممن يميل ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه وكذلك  
من كان النصب من لفته لا يوافق غيره ممن ينصب ولكن أمره وأمر صاحبه  
كأمر الأولين في الكسر فاذا رأيت عربياً كذلك فلا تُرينه خلطاً في لفته  
ولكن هذا من أمرهم .

### المضارعة بين الحروف

(٤) ومن الحروف المتفرعة المستحسنة الشين التي تكون كالجيم فانهم  
يشربونها صوت الجيم متى كانت الشين ساكنة قبل دال . لان الدال مجهورة  
شديدة والشين مهموسة رخوة <sup>(١)</sup> فيريدون بهذا النطق تناسب الصوت  
على ما هو من أمرهم . وذلك نحو أشدق ومشدود فانهم يشربون هذه الشين  
صوت الجيم فتنتطق كحرف g وهي الجيم في منطق السوريين

(٥) ومنها الصاد التي تكون كالزاي . وذلك ان الصاد متى كانت ساكنة وكان بعدها دال نطقوها زايا مفخمة غير خالصة لانهم يضارعون بها أشبه الحروف بالدال من موضعه وهو الزاي لانها حرف مجهور غير مُطبق فيقولون في نحو (أصدر ومصدر والتصدير) أزدرو ومزدر والتزدير ولكن كما ينطق عامتنا حرف الظاء . وقال سيديويه : وسمعنا العرب الفصحاء يجعلونها زايا خالصة . . إرادة ان يكون عملهم من وجه واحد وليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد .

وقد يضارعون بالصاد ايضاً منطق الزاي اذا كانت الصاد متحركة نحو صدق وربما ضارعوا بها وهي متحركة وبعيدة عن الدال نحو مصادر بل وفي نحو الصراط ايضاً وان لم يكن في الكلمة دال ولكنهم يعتبرون الظاء كالدال . وفي شرح الفصيح لابن خالويه : ان من لغة بعض العرب ان يُشَمَّ (الصفاء والمصفا) فيشرب الصاد صوت الزاي مع انه ليس فيهما دال ولا ما هو في حكمها قال وهي لغة سوء .

وكذلك قد يضارعون الشين بالزاي اذا كان بعدها دال لانها في الهمس والرخاوة كالصاد فيقولون في نحو (أشدد) أزدق . وقد مرت اللغة الاخرى في النطق بهذه الشين

(٦) ومن الحروف المستحسنة ألف التفخيم وهي الف يُنحى بها نحو الواو فتكون كحرف O وينطق بها أهل الحجاز في قولهم الصلاة والزكاة والحياة ويقال انهم كتبوا هذه الكلمات في المصحف بالواو بدل الالف على هذه اللغة . ولا يقاس في ذا المنطق بل ينتهي فيه عند ما انتهت اليه العرب

### الحروف المستهجنة

وهي حروف لا يستحسنونها ولا تكثر في لغة من ترضى عريته ولا يؤخذ بها في قراءة القرآن وإنشاد الشعر وهذه الحروف لا يستطيع بعضهم النطق بأصولها فاذا اضطروا اليها حولوها عند التكلم بها الى أقرب الحروف من مخرجها وهي :

(١) حرف بين الجيم والكاف ينطق به كمنطق الجيم المصرية فيقولون في (كافر) جافر وهو اليوم من لغات اليمن وبغداد

(٢) الجيم التي ينطق بها كالکاف وكانت لغة سائرة في اليمن وهي اليوم فاشية في أهل البحرين يقولون في (رجل وجل) ركل وكمل .

(٣) الجيم التي كالشين وهي عكس الشين التي كالجيم في الحروف المستحسنة ولكنهم استهجنوا هذه لأنها انما ينطق بها كذلك اذا كانت ساكنة وبعدها دال أو تاء نحو (اجتمعوا وأجدر) يقولون فيهما اشتمعوا وأشدر . وموضع الثقل انه ليس بين الجيم والدال ولا بينها وبين التاء تباین بل هما شديدتان . ومن لغاتهم ايضاً انهم يقربون الجيم من الدال في وزن (الافتعال) فيبدلون الدال مكان التاء من هذا الوزن ليكون العمل من وجه واحد . يقولون في نحو (اجتمعوا واجتروا) اجدموا واجدروا

(٤) حرف بين الكاف والقاف وهذا لم يذكره سيبويه في كتابه بين الحروف المتفرعة ولكن ذكره ابن فارس في فقه اللغة قال : فأما بنوا تميم فانهم يلحقون القاف باللهاء حتى تغلظ جداً فيقولون (القوم) فيكون بين الكاف

والقاف وهذه لغة فيهم قال الشاعر :

ولا أكل لكدر الكوم قد نضجت      ولا أكل لباب الدار مكفول

يريد في كل ذلك القاف . وهذا الحرف يسمى القاف المعقودة قال أبو

حيان في ارتشاف الضرب وهي الآن غالبية في لسان من يوجد في البوادي

من العرب حتى لا يكاد عربي ينطق إلا بالقاف المعقودة لا بالقاف الخالصة

المنقولة على وضعها الخالص على السنة أهل الأداء من أهل القرآن

(٥) الضاد الضعيفة قال سيديويه في مخرجها إنها تكلف من الجانب

الأيمن وإن شئت تكلفتها من الجانب الأيسر وهو أخف لأنها من حافة

اللسان مطبقة . وقال الفارسي كما إذا قلت ضرب ولم تشبع مخرجها ( أي الضاد )

ولا اعتمدت عليه ولكن تخفف وتختلس فيضعف إطباقها . ويقول السيرافي

إنها في لغة قوم ليس في لفهم ضاد فاذا احتاجوا إلى التكلم بها في العربية

اعتضلت عليهم فربما أخرجوها ظاءاً لا إخراجهم إياها من طرف اللسان

وأطراف الشيا ورربما تكلفوا إخراجها من مخرج الضاد فلم يتأت لهم فخرجت

بين الضاد والطاء .

(٦) الصاد التي كالسين . يقربونها من السين لكونهما من مخرج

واحد وهي كـ بعض لغات المتطرفين من العوام يقولون في ( صالح ) سالح .

ومن لغات العرب إبدالهم السين صاداً إذا كان بعدها قاف وكانت في كلمة

واحدة فيقولون في ( سقت ) صقت . وكذا يعتبرون الغين والحاء بمنزلة

القاف يقولون صالغ وصالخ في ( سالخ وصالخ ) وهذه من لغة بني العنبر وقد

قالوا أيضاً صاطع في ( ساطع ) .

(٧) الطاء التي كالتاء وهي فاشية في لغة عجم اهل الشرق لان الطاء في أصل لغتهم ممدوم فاذا نطقوا بها تكلفوا ما ليس في لغتهم فارتضخوا هذه الأكنة فيقولون في ( سلطان ) سلتان بتفخيم قليل .

(٨) الظاء التي كالتاء وهو حرف يجي من المبالغة في إفشاء الظاء فتخرج كأنها ثاء مفخمة

(٩) الباء التي كالفاء في نحو ( اصبهان وبلخ ) وهي على ضربين أحدهما لفظ يكون الباء أغاب عليه من الفاء كحرف ( p ) والآخر لفظ يكون الفاء أغلب عليه . وهما حرفان من حروف المعجم سوى الباء والفاء المخلصين . قال السيرافي وأظن العرب انما أخذوا ذلك من المعجم لمخالطتهم إياهم .

(١٠) الياء كالواو في نحو قيل وبيع بالاشتماء وهي لغة بمض العرب يُشَمون الياء صوت الواو فتخرج كحرف ( eu )

(١١) الواو التي كالياء في نحو مذعور وابن بور ينطقون بها كحرف ( u ) وهي في لغة كثير من قيس وأكثر بني أسد كقفعةس وذوير يحيثون بها بدل واو المد التي بعدها راء مكسورة فتميل الضمة الى جهة الكسرة ويتبع ذلك ميل الواو الى جهة الياء كما قال سيبويه .

تلك جملة ما عرفوه في مناطق العرب وهي ولا شك آثار يرتضخونها من لغات أخرى كالعبرانية والسريانية ولغة الفرس والروم والحبشة وغيرهم ممن خالطوهم في أقدم أزمانهم ولا يزال ذلك يئنس في مناطق هذه اللغات إلى اليوم

## صفات الحروف ومخارجها

لا نريد أن نطيل في بيان مخارج الحروف العربية وضبطها على وجوها الصحيحة المتناقلة عن العرب فذلك خارج عن غرضنا في هذا الكتاب ثم هو موضوع فن برأسه وهو فن التجويد الذي وضعه حفص بن عمرو الدوري صاحب القراءة المشهورة بقراءة حفص وقد أخذها عن عاصم عن التابعين عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد مستفيض في كتب التصريف وقد وضع فيه ابن جني كتابه ( سر الصناعة ) وهو أتم كتاب في ذلك قسمه على ابواب بعدد الحروف فذكر فيه اسماءها واجناسها ومخارجها ومدارجها وفروعها وخلاف العلماء في ذلك مستقصى مشروحاً .

ولكننا نذكر انواع هذه الحروف باعتبار صفاتها لان هذه الصفات انما هي مصطلحات تاريخية في اللغة وهم يسمون الخطأ فيها - صفات الحروف - لحناً خفياً . وقد سمينا بعضها فيما تقدم لنا من الكلام فنذكر جملتها في هذا الفصل ترجمة لتلك وتوفية للفائدة ثم نلم بمخارجها بعد .

## الصفات

يقسمون الحروف باعتبار صفاتها الى تسعة عشر نوعاً وبعضهم يبلغ بها الى اربعة واربعين وكثير ينقصون او يزيدون اما الانواع المشهورة عند علماء هذا الفن والتي هي كالاصول فهي : حروف همس . وجهر . وشدة . ورخاوة . وبينَ بينَ . وحروف استعلاء . واستفال . وإطباق

وانفتاح . وتفخيم . وترقيق . وتفش . وتكرير . واستطالة .  
وغنة . وذلاقة . ومدة ولين . وصغير . وقلقلة .

(١) فالحرف المهموس هو الذي ضعف الاعتماد في موضعه حتى  
جری النفس معه وحروف هذا النوع عشرة ( ه ح خ ك ش  
س ت ص ث ف ) .

(٢) والحرف المجهور هو الذي أشبع الاعتماد في موضعه — أي على  
مخرج الحرف — ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه  
ويجري الصوت وحروف هذا النوع تسعة عشر لأنها كل ما كان غير مهموس  
(٣) والشديد هو الذي يمتنع الصوت أن يجري فيه لكمال قوة  
الاعتماد على مخرج الحرف ولهذا النوع ثمانية حروف ( ء ق ك ج ط ت دب )  
(٤) والرخو هو الذي يجري فيه الصوت لضعف الاعتماد على  
مخرجه مع نفس قليل وذلك في الرخو المجهور . أو كثير وهو في الرخو  
المهموس . وحروف الرخاوة ستة عشر ( ذ ظ غ ض ز وي ا ه ح خ ش  
س ت ص ث ) وهذه الثمانية الأخيرة هي كل حروف الهمس ما عدا  
الفاء والكاف .

(٥) وأما الحرف الذي هو بين بين فهو المتوسط بين الرخاوة  
والشدة وذلك من عدم كمال احتباس الصوت وعدم كمال جريه . وحروفه  
خمس ( ل ن ع م ر ) وهذه الحروف المتوسطة كلها مجهورة .

أما الأنواع السابقة فمنها الشديد المجهور وهو ستة حروف ( ء ق ط  
ب ج د )



ومنها الشديد المهموس وهو حرفان (ك ت)  
ومنها الرخو المجهور وحروفه ثمانية (ض ظ ذ غ ز ا و ي)  
ومنها الرخو المهموس وهو ثمانية أيضاً (ه ح خ ش س ص ث ف)  
وهذه الثمانية هي جميع الحروف المهموسة ما عدا الكاف والتاء.  
(٦) الاستعلاء وهو أن يستعلي اللسان عند النطق بالحرف الى  
جهة الحنك العليا وحروفه سبعة (خ ص ض غ ط ق ظ) وأشدها  
استعلاء القاف.

(٧) والاستفال ضد الاستعلاء وحروفه كل ما عدا السبعة المتقدمة  
(٨) الإطباق وهو انحصار الصوت فيما بين اللسان والحنك  
لانطباق الحنك على وسط اللسان بعد استعلاء أقصاه ووسطه الى جهة  
الحنك كما تعرف ذلك عند النطق بحروفه وهي اربعة (ط ظ ص ض)  
وجملتها من حروف الاستعلاء ولا يكون الاطباق تاماً الا مع الطاء.  
(٩) والانفتاح هو عدم انحصار الصوت بين وسط اللسان والحنك  
عند النطق بالحرف لانفتاح ما بينهما سواء انطبق الحنك على أقصى اللسان  
اولاً. وحروفه كل ما عدا الاربعة المطبقة. وكل حروف الاستفالة منفتحة  
(١٠) التفخيم وهو تغليظ الحرف في مخرجه بحيث يمتلئ الفم بصداه  
وحروف الاستعلاء كلها مفخمة ولا يجوز تفخيم شيء من حروف الاستفالة الا  
الراء واللام في بعض احوالهما والا الف المدة فانها تابعة لما قبلها تفخيماً وترقيقاً.  
(١١) والترقيق وهو تخفيف الحرف بحيث يكون جسمه ناعماً لا  
يتملئ الفم بصداه.

( ١٢ ) والتفشي كثرة انتشار خروج الهواء بين اللسان والحنك وانبساطه في الخروج عند النطق بالحرف . وحرف التفشي هو الشين فقط على المشهور وبعضهم يجعله في الضاء والطاء والفاء وبعضهم يقول ان في الصاد والسين تفشياً أيضاً وكل ذلك غير مجمع عليه

( ١٣ ) والتكرير ارتعاد رأس اللسان عند النطق بالحرف . وحرفه الراء فقط وأكثر ما يظهر تكريره اذا كان مشدداً نحو مرة وكرّة

( ١٤ ) والاستطالة امتداد الصوت من اول حافة اللسان الى آخرها وهي جنب اللسان لا طرفه وحرفها الضاد فقط وبعضهم يقول ان الشين مستطيلة أيضاً لانها تفشت واستطالت حتى خالطت اعلى الثنيتين وهذا نقله صاحب المخصص .

( ١٥ ) والغنة صوت يخرج من الخيشوم — أقصى الانف — ولذلك لو أمسك المتكلم باتفه لم يمكن خروجها وحرفها النون ( ولوتنونا ) والميم اذا سكنتا ولم تظهر

( ١٦ ) والذلاقة حروف سميت بذلك لخروج بعضها من ذلق اللسان وبعضها من ذلق الشفة أي طرفها وهي ( ف ز م ن ل ب ) وضدها حروف الإصمات وهي ما عدا هذه الستة .

( ١٧ ) والمد هو اطالة الصوت بحرف من حروف المد واللين زيادة على المد الطبيعي وحروفه ( اوي ) لان مخرجها متسع لانتهائها الى هواء الفم ومخرج الحرف اذا اتسع انتشر فيه الصوت وامتد ولان واذا ضاق انضط فيه الصوت وصلب وكل حرف تجده مساوياً لمخرجه الا هذه الحروف

الثلاثة <sup>(١)</sup> . وللمد في علم التجويد القاب عشرة ليس هذا موضعها  
( ١٨ ) والصفير صوت يخرج مع الحرف يشبه صفير الطائر وحروفه  
ثلاثة ( س ص ز ) .

( ١٩ ) والقلقلة صوت زائد يحدث بفتح مخرج الحرف بتصويت  
ويشترط عندهم في اطلاق اسم القلقله على ذلك الصوت أن يكون شديداً  
جهرياً . وحروفها خمسة ( ق ط ب ج د ) . والمبرد يعد الكاف من حروف  
القلقله كأنه لم يشترط قوة الصوت الزائد وعلى ذلك تكون التاء منها أيضاً  
وهو ما يفهم من كلام سيديويه لأنها كالكاف والصوت فيهما يلابس جري  
النفس وهو صوت همس ضعيف ولذلك عدّا شديدين مهموسين

### المخارج

- تلك صفات الحروف المجمع عليها اما مخارجها الطبيعية فهي خمسة عشر  
على ترتيب ذهابها مع الصوت من ابتداء الصدر الى الشفتين كما ترى :
- ١ حروف المد ( ا و ي ) تخرج من جوف الصدر وتنتهي الى هواء الفم
  - ٢ ( هـ ) مخرجها من أقصى الحلق غير ان الهمزة ادخل فيه
  - ٣ ( ع ح ) من وسط الحلق والعين أدخل من اختها
  - ٤ ( غ خ ) من ادنى الحلق الى الفم والعين أدخل

---

( ١ ) سيديويه يعتبر للين حرفين الواو والياء . ويسمى الالف ( الهاوي ) لانه  
حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه اشد من اتساع مخرج الباء والواو قال : لانك قد  
تضم شفتيك في الواو وترفع في الباء لسانك قبل الحنك .

- ٥ ( ق ) من بين اقصى اللسان وما فوقه من الحنك  
٦ ( ك ) مما يلي مخرج القاف من اللسان والحنك  
٧ ( ج ش ي ) من بين وسط اللسان وما فوقه من الحنك غير ان  
الجيم أدخل والياء أخرج  
٨ ( ض ) من بين جانب اللسان من أقصاه الى قرب رأسه وبين ما  
يقابل ذلك من الاضراس العليا فتستغرق أكثر حافة اللسان  
٩ ( ل ) من بين جانب اللسان حيث ينتهي مخرج الضاد الى  
منتهى طرفه وبين ما يقابل ذلك من الحنك الاعلى فوق الاسنان فالضاد  
واللام يتوزعان حافة اللسان<sup>(١)</sup>  
١٠ ( ر ن ) من بين طرف اللسان الى رأسه وبين لثة الثنيتين  
العلويتين غير أن الراء أدخل في ظهر اللسان قليلاً<sup>(٢)</sup>.

(١) سيويه يسمي اللام والراء حرفي الانحراف لان اللسان ينحرف عند  
النطق باللام الى داخل الحنك فلا يخرج الصوت من موضع اللام بل من ناحية  
مستدق اللسان فويق ذلك . وينحرف عند النطق بالراء الى جهة اللام قال ولهذا  
يلتصق فيها الاطفال فيخرجونها لائماً .

(٢) المراد بهذه النون ما يسمونه النون المظهرة والاظهار والادغام والاقلاب  
والاخفاء هي احكام هذا الحرف ، فالمظهرة النون الساكنة اذا كان بعدها حرف من  
حروف الحلق نحو انعمت والمدغمة التي يتلوها من كلمة أخرى حرف من الحروف  
المجموعة في قولهم ( برملون ) ويكون الادغام بغنة اذا كان الحرف التالي ميماً او نوناً .  
وتقلب النون ميماً اذا تلاها باء نحو منبع . وتكون خفية ي بين الاظهار والادغام اذا  
تلاها حرف من الخمسة عشر الباقية بمد الحروف التي اشرنا اليها

١١ ( ط د ت ) من بين طرف اللسان وبين أصول الثنايا العليا مصمداً الى الحنك غير أن الطاء أدخل والتاء أخرج .

١٢ ( ص س ز ) من بين رأس اللسان والثنايا من غير أن يتصل بها الحرف وإنما يحاذيها ويسامتها غير أن الصاد أدخل والزاي أخرج

١٣ ( ظ ذ ث ) من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا غير أن الظاء أدخل والتاء أخرج

١٤ ( ف ) من بين الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا

١٥ ( ب م و ) من بين الشفتين منطبتين للباء والميم ومنفتحتين للواو غير أن الباء أدخل والواو أخرج



## اختلاف لغات العرب

قدمنا ان من بعض أسباب اختلاف اللغات عند العرب كونهم أميين لا يكتبون فبقيت اللغة متعلقة على اللسان تتغير مادام يتكلم بها وما دامت ألسنتهم متصرفة بالسليقة أو ما هو في حكمها كال تقليد الطبيعي الذي يأخذ به العربي للخفة وانحراف لسانه اليه طبيعة لانه يركب منه قياس نفسه كأنه من منطق الموروث

لا جرم كانت اللغات كثيرة فان العرب قبائل وتحت كل قبيلة بطون متعددة ثم الافخاذ ثم العشائر ثم الفصائل <sup>(١)</sup> ولا بد ان يكون ناموس الاختلاف قد عم هذه الاقسام كلها ان لم يكن في أصل اللغة في الفروع واللهجات . وقد نقل صاحب المخصص في موضع من كتابه ان أبا عبيد روى عن الكسائي النحوي ( توفي سنة ١٨٢ ) ان المضارع من نعي انما هو نعي بالياء وقال الكسائي لم أسمع نعو بالواو الا من أخوين من بني سليم ثم سألت عنه جماعة من بني سليم فلم يعرفوه بالواو . هذا على انتشار اللغة يومئذ بالقرآن والشعر في جمهور العرب ولزومها على الغالب طريقة واحدة وحدًا معروفًا ومع ذلك بقي الاختلاف حتى في الفصيلة الواحدة لأن هذين الأخوين أهل بيت واحد امتاز بهذه اللغة عن العشيرة كلها . ولا بد لنا من التنبيه على ان الرواة والعلماء لم يدوتوا اللهجات على مناطق العرب قبل تهذيب قريش للغة ولكنهم تناقلوا من ذلك أشياء كانت لعهد الاسلام وأشياء اصابوها في

(١) العشيرة رهط الرجل والفصيلة أهل بيته خاصة

اشعار العرب مما صحت روايته قبيل ذلك أما سواد ما كتبوه فقد شافوها به العرب في بواديها وسمعوه منهم وهو بلا ريب من بقايا اللهجات الأولى التي كانت لعهد الجاهلية

على أنهم لم يدوّنوا من كل ذلك الا كفاية الحاجة القليلة في تصارييف الكلام او ما تنهض به أدلة الاختلاف بين العلماء المتناظرين كالبرصيين والكوفيين . أما تدوين اللهجات على أنها أصل من أصول الدلالة التاريخية في اللغة فهذا لم يتنبه له أحد فيما نعلم لان اكبر غرضهم من جمع اللغة وتدوينها يرجع الى علوم القرآن والحديث ولغتهما قرشية . وهذه يقل الاختلاف فيها لانها حضرية مهذّبة والتحضّر شيء ثابت فكانها في حكم المدوّنة .

وقبل أن نأتي على ما وقفنا عليه من وجوه الاختلاف والكشف عن معنى الأدلة التاريخية فيها نذكر شيئاً قليلاً عن تفرع قبائل العرب لانه من الأدلة الطبيعية على تفرع اللهجات وانشقاقها بما يطرأ عليها من اسباب المخالطة وقدم العهد ونحو ذلك

### قبائل العرب

تقسم القبائل العربية الى قسمين القحطانية والمدنانية وقد تداخلت لغاتهما جميعاً بعد الاسلام وصارت لغة واحدة هي القرشية الا فروقا قليلة بقيت في المنطق كأنها أدلة أثرية . فمن القحطانية حمير وغانم والخم والأزد ومذحج وكندة وطىء وغيرها ( وبعضهم يعد منها قضاة أيضاً ) واولئك عرب الجنوب . أما المدنانية أو عرب الشمال وهم أهل هذه اللغة فننازلهم في

تهامة ونجد والحجاز الا قريشاً فانهم تحضروا في مكة وتلك البادية هي التي صهرت اللغة وأحالتها الى هذه السبيكة الفنية العجيبة . ويرجع هؤلاء العرب الى فرعين ينتهيان الى عدنان وهما عك ومعد وقد بقيت من عك بقية الى الاسلام . اما معد فهو البطن العظيم الذي تناسلوا منه وكانت قبيلة كبرى ثم انشقت الى فرعين نزار وقص وتفرعت نزار الى خمسة فروع وهي : أثمار ومضر وقضاعة<sup>(١)</sup> عند من لا يعلها من القحطانية وريعة وإياد . وتحت كل فرع من هذه الخمسة قبائل كثيرة الا أن الفصاحة اشتهرت في مضر حتى عرفت اللغة بالمضرية ومن أشهر قبائلها كنانة - ومن بطونها قريش - ثم تميم وقيس واسد وهذيل وضبة ومزينة وتحت كل قبيلة بطون وانخاذ بسط النسابون عليها الكلام في كتبهم ولا فائدة في استقصائه لمثل هذا الفصل وسنلم بشيء من تاريخ تفرق القبائل ومنازلها عند الكلام على أولية الشعر العربي فهناك موضع الحاجة اليه

( ١ ) الظاهر ان من يعدون قضاعة من القحطانية انما يعتبرونها كذلك لانها لما تفرقت ذهب منها قوم فانشأوا دولاً متحضرة في العراق والشام كسليح فانهم نزلوا مشارف الشام وفلسطين وكانت الدولة في بطن من بطونهم يسمون الضجاعة وهم يعملون للروم . وتنوخ نزلوا البحرين ثم رحلوا الى الحيرة وأنشأوا هناك دولة ومن ملوكهم جذيمة الابرش صاحب الخبر المشهور مع الزباء . ومن تنوخ قوم رحلوا الى الشام فاستعماهم الروم على بادية العرب ومشارف الشام وبعض النسابين يقولون عن تنوخ انها مزيج من قضاعة والازد . وكثير من اللغات الشاذة يرجع الى قضاعة هذه .



### أفصح القبائل

وهذا فصل لا يؤخذ فيه الا بأقوال الرواة الذين جمعوا اللغة وتلقوها عن أهلها وذلك لتقدم المهد بزمان العرب ولان لغاتهم غير مميزة في التدوين حتى يعارض بعضها ببعض ويفصل بينها بطبقات من النظر يعلو اليها وينحدر عنها كما هو الشأن في التنظير والمقابلة بين المتفاضلات. والفصيح عندهم ما أكثر استعماله في السنة العرب ودار في أكثر لغاتهم لان تكراره على السنة المستقلة بطبيعتها في سياسة المنطق دليل على تحقق المناسبة الفطرية فيه .

وليس يخفى ان فصاحة العربي انما هي عمل من أعمال الطبيعة المحيطة به فان كانت خالصةً وإلا أكثر في لسانه الابتذال والتنافر كما تجدد في لغات القبائل الضاربة الى العراق واليمن والشام وهذه ايضاً تقرب أو تبعد من الفصاحة على نسبة مضبوطة باعتبار قربها وبعدها من ذلك الاختلاط الطبيعي<sup>(١)</sup> حقيقة الفصاحة أنها عمل تبتدئه الطبيعة وتكمله الوراثة فان وقع اختلال في أحد العاملين وقع مثله في العمل على نسبة واحدة .

ومن قبائل العرب قوم لم يخرجوا من ديارهم ويسمونهم الأرحاء لانهم أحرزوا دُوراً ومياها فلم ينزحوا عن أوطانهم بل هم يدورون في دورهم كالأرحاء على أقطابها الا ان ينتجع بعضهم في البرحاء وعام الجذب وذلك قليل وهم ست قبائل : تميم بن مرة واسد بن خزيمه في مضر . وكنب بن

---

(١) كان العرب انفسهم يعنون تأثير الطبيعة في خلوص منطقهم وسنأتي بالنص

على ذلك في موضع آخر

وبرة وطىء بن أدد في اليمن . وقبيلتان أخريان في ربيعة لم يذكرهما . ومنهم قبائل يسمونها الجمرات لاجتماعهم <sup>(١)</sup> على أن لا يخرجوا منهم الى غيرهم ولا يدخلوا من غيرهم فيهم وهم : بنو تميم بن عامر بن صعصعة وبنو الحرث بن كعب وبنو ضبة وبنو عابس بن بغيض <sup>(٢)</sup>

وبالارحاء والجرات نستدل على أن الطبيعة العربية تتفاوت في الميل الى العزلة والمخالطة وهي بحسب ذلك ابضاً متفاوتة في خلوص المنطق واثثابه . ولسنا نريد المخالطة على اطلاقها بل مخالطة الأعاجم خاصة والمخالطة الدائمة على الأخص وهي التي تكون في القبائل النازلة على حدودهم وذلك عند العلماء هو الحد بين من ترتضى عريته ومن لا يوثق بلفته حتى انهم نصوا على أن نطق من ترتضى عريته بالشاذ الذي يخالف قياسهم لا يخل بفصاحته لانه لا بد من أن يكون قد حاول به مذهباً أو نحاً نحواً من الوجوه التي يتأول عليها وذلك لأن الجادة على غير ما جاء به فيكون ما شذ من منطقة . وأمونا عليه من فساد المخالطة ولهذا يلحقونه بقياس القريحة الصحيحة . وأفصح القبائل الذين هم مادة اللغة فيما نص عليه لرواة قيس وتميم وأسد والمجز من هوازن الذين يقال لهم عليا هوازن <sup>(٣)</sup> وهم خمس قبائل أو اربع منها سعد بن بكر وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف . قال أبو عبيدة

(١) الجرة لغة الجماعة والتجمير التجميع

(٢) سنشير في بعض المواضع من بحث الشعر الى هذه الجرات وما طفق منها

(٣) وفيهم قال ابو زيد أفصح الناس سافلة العالية وعالية السافلة يعني عجز

هوازن . واهل العالية اهل المدينة ومن حولها ومن يليها ودا منها وانهم ليست بتلك عنده

وأحـب أفصح هؤلاء، بني سعد بن بكر وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أفصح العرب بيدائي من قريش وأني نشأت في بني سعد بن بكر . وكان مسترضعاً فيهم . وهم أيضاً الذين يقول فيهم أبو عمرو بن العلاء أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم<sup>(١)</sup>

ولهذا كان لا يكتب في المصاحف برأي عمر وعثمان إلا كاتب من ثقيف . وتلك القبائل كلها كانت تسكن في بوادي نجد والحجاز وتهامة وقد بقيت معادن الفصاحة العربية زمنا بعد الاسلام واليها كان يرجع الرواة حتى ان الكسائي لما خرج الى البصرة فلقى الخليل بن احمد وجلس في حلقة قال له رجل من الاعراب : تركت اسدا وتيمما وعندهما الفصاحة وجئت الى البصرة فقال لل خليل من اين اخذت علمك . قال من بوادي الحجاز ونجد وتهامة فخرج اليهم ولم يرجع حتى أنفد خمس عشرة قنينة حبرا في الكتابة عن العرب . ولم تزل هوازن وتيمم واسد متميزة بخلوص المنطق وفصاحة اللغة الى آخر القرن الرابع للهجرة . وهذا الازهري صاحب تهذيب اللغة المتوفى سنة ٣٧٠ يقول في مقدمة كتابه « لما وقعت في اسار انقراطة وكان الذين وقعت في سهمهم عربا عامتهم من هوازن واختلط بهم اصرام من تميم واسد... يتكلمون بطباعهم البدوية وقرائحهم التي اعتادوها ولا يكاد يقع في نطقهم لحن ولا خطأ فاحش الى ان يقول : واستفدت من مخاطباتهم ومحاوره بعضهم بعضا الفاظا جمّة ونوادير كثيرة أوقعت اكثرها في مواقعها من الكتاب . اهـ اما القبائل التي اختلطت بغيرها فلم ينقلوا عنها ولا عمدوها خالصة الفصاحة

(١) في رواية اخرى عن ابي عمرو أيضاً : أفصح الناس عليا تميم وسفلى قيس .

ففسندكرها مع تفصيل لما تقدم عند الكلام على رواية اللغة ان شاء الله

### معنى اختلف اللغات

رأينا محصل ما يروى من كلام العلماء في معنى اختلاف اللغات يرجع في كل وجوه الى ثلاثة معان :

(١) ما يكون من تباين اللهجات وتنوع المنطق وهذا رأس الانواع لانه يشمل اختلافهم في ابدال الحروف وحرركات البناء والإعراب واختلاف بناء الكلمة في اللفتين والتقديم والتأخير والحذف والزيادة ونحوها مما يرجع في جملة الى صيغة الكلمة او كيفية النطق بها . والعرب انفسهم يعدون مثل ذلك من اللغات الاصلية التي تمثل نوعا من انواع الاختلاف الطبيعي فيهم وقد رووا أن رجلا قال لعمر بن الخطاب ما ترى في رجل ظحى بضبي فعجب عمر ومن حضر وقال ما عليك لو قلت ضحى بظبي . فقال الرجل يا أمير المؤمنين انها ~~مشكلى~~ لغة فكان عجبهم من هذه أشد .

(٢) ما يكون من اختلاف الدلالة للفظ الواحد باختلاف اللغات التي تنطق به ومن هذا النوع المترادف والاضداد وغيرها مما سيأتي في محله ورووا أن أبا هريرة لما قدم من دؤس عام خير لقي النبي صلى الله عليه وسلم وقد وقعت من يده السكين . فقال له ناولني السكين فالتفت أبو هريرة يمينه ويسرة ولم يفهم ما المراد بهذا اللفظ فكرر له القول ثانية وثالثة وهو يفعل كذلك ثم قال المذبة تريد وأشار اليها فقبل له نعم فقال أو تسمى عندكم سكيناً ثم قال والله لم اكن سمعتها الا يومئذ . ودؤس بطن من الازد .

(٣) ما يكون قد انفرد به عربي مع إطباق العرب على النطق بخلافه وهذا اقل الانواع وانما يعد من اختلاف اللغات لجواز أن يكون ذلك وقع اليه من لغة قديمة طال عهدا وعفا رسمها . وقد رووا عن أبي حاتم أنه سأل ام الهيثم الأعرابية عن نوع من الحب يسمى ( اسفيوش ) ما اسمه بالعربية فقالت أرني منه حبات فأراها فأفكرت ساعة ثم قالت هذه البجدق ولم يسمع ذلك من غيرها .

وعندنا أن لغات القبائل في اختلافها انما هي درجات تاريخية في سلم النشوء والارتقاء يُستقرى فيها سير التاريخ اللغوي من طبقة الى طبقة لان هذه اللغات جرت من أول عهدها على اندماج النوع الأدنى منها في النوع الأرقى واستمر ذلك بين العرب فكما انتشرت لغة أو لغات لقوم دون قوم تعاوَرها كلٌّ وبهذا جعلت القبائل تدرج في سبيل الوحدة اللغوية العامة التي تقضي بها سنة الحياة واعتبر هذا بما حصل آخراً فإنه لم يبق بين اللغات كلها الا فروق جنسية ثم لما ذهب عصر العرب وفسدت السلائق واختبل الكلام وأصبح اللسان تعليماً لم يبق من اللغة الا اللغة وأودعت تلك الفروق الجنسية في معرض التاريخ . على أن العلماء انفسهم قد أضحوا لهذه الفروق قبل أن تموت وذلك لمكان القرآن من الوحدة اللغوية فلم يكونوا يسمونها لغات الا للدلالة على انها مخالفة لما أطبق عليه أكثر العرب وهو المعنى الاصطلاحي القديم منذ دونت اللغة . روى ابو بكر الزيري الاندلسي في طبقات النحويين : قال ابن نوفل سمعت أبي يقول لابي عمرو بن العلاء ( توفي سنة ١٥٤ ) أخبرني عما وضعت مما سميت عربية أي دخل فيه كلام العرب كله فقال لا . فقلت كيف

تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة . قال أحمل على الأكثر وأسمي ما خالفني لغات .

وقد نبهنا فيما سبق الى أن العلماء انما يريدون بلغات العرب ما كان باقيا لمهدم في السنة من أخذوا عنهم من القبائل وهم اقوام يمكن حصرهم والاحاطة بلهجاتهم ولذا ترى سيبويه يقول في مواضع من كتابه . هذا عربي كثير في جميع لغات العرب . وهذا عربي كثير في كلامهم . وذلك قول العرب سمعناه منهم ونحو هذا مما يحقق انهم يريدون باللغات ما بيناه . وكذا نقلنا عن صاحب المخصص في بعض المواضع أنهم يعتبرون لغة الحجازيين الاصل عند اختلاف اللغات لان أصل العربية اسماعيل عليه السلام . وهذا المعنى قد كشفه سيبويه في باب الادغام من كتابه حين ذكر أن أهل الحجاز دعاهم سكون الآخر في المثليين أن يبينوا في الجزم فقالوا ارؤد ولا تردد بخلاف بني تميم فهم يدغمون - قال : « وهي اللغة العربية القديمة الجيدة » . وسنشير الى هذا المعنى ببيان اوسع فيما يلي .

وبقيت اللغات مسماة منسوبة الى اصحابها من العرب عند الرواة والعلماء الى آخر القرن الثالث على أضعف الظن لكثرة الرواة يومئذ وتشعب فنون الرواية وان كان الجوهري صاحب الصحاح وهو في أواخر القرن الرابع قد ذكر أنه شافه بهذه اللغة العرب العارية في باديتها<sup>(١)</sup>

ومما يروونه ان الخليفة الواثق المتوفى سنة ٢٣٢ لما قدم عليه ابو عثمان المازني سأله ممن الرجل فقال من بني مازن قال اي الموازن امازن تميم ام

(١) سنفصل تاريخ الفساد في السنة العرب البادين عند الكلام على اللغة العامية

مازن قيس أم مازن ربيعة قال من مازن ربيعة . فكلمه الواثق بكلام قومه  
وقال (باسمك) يريد ما اسمك لانهم يلقبون الميم باءاً والباء ميماً قال المازني  
فكرهت ان أجيبه على لغة قومي كيلاً أو أواجهه بالمكر - لان اسمه بكر -  
فقلت بكر يا أمير المؤمنين فأعجبه ذلك وقال لي اجلس فاطمئن يريد  
اطمئن - ..

وبديهة ان مثل هذا الاختلاف لا يتدارس ويجعل من رياضة اللسان  
مالم يكن أهله في شباب أصرم لان هرم لغة من اللغات لا يكون الا بوشك  
انقراض أهلها أو تغير تاريخهم بما يشبه الانقراض اذ تفقدوا كثير مميزاتهم  
الاجتماعية الاولى فكانهم غير من كانوا

### تحقيق معنى اللغات

#### في الاصطلاح

رأينا علماء اللغة وأهل العربية قد طرحوا أمثلة اختلاف اللغات في كتبهم  
فلا قيمة لها عندهم الا حيث يطلبها الشاهد وتقتضيها النادرة في عرض كلامهم  
لانهم لم يعتبروها اعتباراً تاريخياً فقد عاصروا أهلها واستغنوا بهذه المعاصرة  
عن توريث تاريخها لمن بعدهم ولو ان منهم من نصب نفسه لجمع هذه  
الاختلافات وإفرادها بالتدوين بعد استقصائها من لهجات العرب وتمييز  
أنواعها بحسب المقاربة والمباعدة والنظر في أنساب القبائل التي تتقارب في  
لهجاتها والتي تتباعد وتعين منازل كل طائفة من جزيرة العرب والرجوع مع  
تاريخها الى عهدها الاول الذي يتوارث علمه شيوخ القبيلة واهل انسابها

نخرج من ذلك علم صحيح في تأريخ اللغة وأدوار نشأتها الاجتماعية يرجع إليه على تطاول الأيام وتقدم الأزمنة ولكن هذا يعد أصلاً فيما يمكن ان يسمى تاريخ آداب العرب يفرعون منه ويحتذون مثاله في الشعر وغيره من ضروب الأدب . ولكن القوم انصرفوا عن هذا وأمثاله لا اعتقادهم أصالة اللغة وانها خلقت كاملة بالوحي والتوقيف وان أفصح اللهجات انما هي لهجة اسماعيل عليه السلام وهي العربية القديمة الجيدة كما قال سيديويه . والرجوع بالتاريخ اللفظي الى عهد اسماعيل ضرب من المحال ومن تكلم فيه فقد اكبر القول لان الله يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم عن الامم وسيرهم « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » . وعلى هذا اعتبروا اللهجات العرب لمهدم كأنها انواع منحطة خرجت عن أصلها القرشي بما طرأ عليها من تقدم العهد وعبث التاريخ فلم يجيئوا ببعضها الا شاهداً على الفصاحة الاصلية في العربية وخلوها من التنافر والشذوذ وتمازجاً على الذي جمعه من أصول العربية وتفصيلاً لكل شيء ، الا التاريخ . مع ان الرواة قد وضعوا كتباً كثيرة ومصنفات ممتعة في قبائل العرب ومنازلها وأنسابها وأسمائها واشتقاق الاسماء وألقابها ومدحها واشعارها وفرسانها وأيامها ونحو ذلك مما يرجع الى التاريخ المتجدد فلو انهم اعتقدوا اللغات بسبب من ذلك ولم يعرفوها بالوصف الديني الثابت الذي لا يتغير في حقيقته لأجروها مجرى غيرها من آثار التاريخ ولكن ذلك الزمن قد طوي بأهله ، ولحق فرعه بأصله ، فبقي ذلك الخطأ التاريخي كأن صوابه من بعض التاريخ الذي هو حديث الغيب .

نقول هذا وقد قرأنا ما بين ايدينا من كتب الفهرست والتراجم



والطبقات على كثرتها وتبيننا ما يسرد فيها من أسماء الكتب والأصناف عسى  
ان نجد من آثار أحد الرواة أو العلماء ما يدل على وضع كتاب في تاريخ  
لهجات العرب وتميز لغاتها على الوجه الذي أومأنا اليه أو ما عسى ان نستدل  
به على انهم كانوا يعتبرون ذلك اعتباراً تاريخياً ولكننا خرجنا منها على حساب  
مادخلنا فيها صفر في صفر ولم يزدنا تعداد أسماء الكتب علماً بموت هذا العلم  
وانه لا كتب له للسبب الذي شرحناه من اعتبارهم أصالة العربية . بيد اننا  
استفدنا تحقيق معنى اللغات في اصطلاحهم بما يقطع الريب ويمتلك عرق  
الشبهة فيما أيقنا به فقد وجدنا كتاب التراجم والطبقات مجمعين في صنيعهم على  
ان اللغات انما هي الشواذ والنوادر واختلاف المعاني للكلمة الواحدة باختلاف  
المتكلمين بها وما يتماور الابنية من الاختلاف الصرفي والنحوي لان كل  
وجه من ذلك انما هو أثر من لغة . وعلى هذه السبيل يقولون مثلاً : كان  
منفرداً في حفظ اللغات والآداب . وكان من شيوخ العلم عارفاً باللغات  
والإعراب . وكان حافظاً للتفسير والحديث ذا كراً للأدب (واللغات) . وكان  
مبرزاً في علم العربية حافظاً (للغات) . وأوضح من هذا اننا رأينا لعمر بن شبة  
النحوي المتوفى سنة ٢٦٢ كتاباً سماه (الاستعانة بالشعر وما جاء من اللغات)  
ورأينا ياقوتاً يقول في ترجمة عمر بن جعفر الزعفراني « انه متخصص بمعرفة علم  
الشعر والقوافي والعروض وله كتاب (اللغات) . ونهاية البيان ما ذكره  
ياقوت أيضاً في ترجمة أبي مالك الاعرابي الراوية المشهور من انه يقال  
(ان أبا مالك هذا كان يحفظ لغات العرب) . وقد فسر أبو الطيب  
اللغوي ذلك بان المراد التوسع في الرواية والفتيا لأن الاصمعي مثلاً

كان يضيق ولا يجوز الا اصح ( اللغات ) وغيره كأبي مالك يتوسع في ذلك ولا يرى حرجاً في ثقل ما شذّ وندر - كما سيأتي في بحث الرواية - وقرأنا كذلك أن لكثير من الرواة كأبي عبيدة وأبي زيد والاصمعي والفرّاء وغيرهم مصنفات يتواردون جميعاً على تسميتها ( بكتاب اللغات ) فهذا الإجماع دليل على تعيين المعنى وتحديدده كما اسلفنا . ولكننا رأينا فيما استقريناه من أسماء المؤلفات أن لحسين بن مذهب المصري اللغوي كتاباً سماه ( كتاب السبب في حصر لغات العرب ) . والذي يبادر الظن من معنى هذه التسمية ان لم تكن لفظة ( السبب ) قد جيء بها للسجع أن الكتاب يتناول الكلام عن تأثير القرآن في حصر اللغات وتغليب القرشية عليها فان كانت اللفظة للسجع فالكتاب في حصر ما يسمونه باللغات من نحو المصنوع والضعيف والمنكر والمتروك والردى والمذموم والحوشي والنوادر الى أمثال ذلك مما يوجب على أكثره السيوطي في المزهرة وهو نفس ما تواضعوا عليه من معنى ( اللغات ) كما علمت والله أعلم

### أصله المصروف اللغات

وقد قلنا كتب العربية والأدب وتناسينا حساب الوقت في تصفحها لاستخراج هذه الدقائق التي نعتبرها بمنزلة الآثار التاريخية وانما جهدنا مما جمعناه أن ندل على علم مات في رؤس علمائنا رحمهم الله ونصور من بقاياهم هيكلاً نصفه كما يفعل علماء عصرنا في درس البقايا العظيمة القديمة التي استحجرت عليها طبقات الارض . والمثالان سواء في ذلك الموت الابدي .

ورأينا أن تقسم أنواع الاختلاف التي جمعناها الى خمسة أقسام : ( ١ ) لغات منسوبة ملقبة ( ٢ ) لغات منسوبة غير ملقبة تجري في إبدال الحروف ( ٣ ) لغات من ذلك في تغير الحركات ( ٤ ) لغات غير منسوبة ولا ملقبة ( ٥ ) لغة اولثغة في منطق العرب .

وكما قدمنا اشياء من ذلك في بعض الفصول التي سلفت ولا نعيدها كذلك أخرنا اشياء لبعض الفصول التي تأتي فلا نثبتها لان لكل موضعاً متى اقتضاه استوفاه

### النوع الاول

وقد عده العلماء من مستبشع اللغات ومستقبج الالفاظ وهو كذلك بعد ان هذبت اللغة واطبقت العرب على المنطق الحر والاسلوب المصفى ومن امثلته :

( ١ ) الكشكشة وهي في ربيعة ومضر يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شيناً فيقولون في رأيتك رأيتكش وبكش وعليكش وهم في ذلك ثلاثة أقسام : قسم يثبت الشين حالة الوقف فقط وهو الاشهر . وقسم يثبتها في الوصل أيضاً . وقسم يجعل ~~الشين~~ مكان الكاف ويكسرهما في الوصل ويسكنهما في الوقف فيقولون في مررت بك اليوم مررت بش اليوم . وفي مررت بك — في الوقف — مررت بش

وقال ابن جني في سر الصناعة قرأت على أبي بكر محمد بن الحسن عن أبي العباس أحمد بن يحيى قول بعضهم :

عليّ فيما ابتغي أبغيش بيضاء ترضيني ولا ترضيش  
وتطّبي ودّ بني أيش اذا دنوت جمعت تنئيش  
وان نأيت جمعت تدنيش وان تكلمت حثت في فيش  
حتى تنقي كنفق الديش

فشبه كاف الديك لكسرتها بكاف ضمير المؤنث . وقد تروى  
الكشكشة لأسد وهو وزن وقال ابن فارس في فقه اللغة انها في أسد .

(٢) الكسكسة وهي في ربيعة ومضر ايضاً يجمعون بعد الكاف  
او مكانها في خطاب المذكر سيدنا على ما تقدم . وقصدوا بالفرق بين الحرفين  
السين والشين تحقيق الفرق بين المذكر والمؤنث في النطق . وتقل الحريري  
أن الكسكسة لبكر لا لربيعة ومضر وهي فيما نقله زيادة سين بعد كاف  
الخطاب في المؤنث لا في المذكر . وري صاحب القاموس انها لتمم لا لبكر  
وفسرها كما فسر الحريري

(٣) الشنشنة في لغة اليمن يجمعون الكاف شيئاً مطلقاً فيقولون في  
لبيك اللهم لبيك . لبيش اللهم لبيش .

(٤) العننة في لغة تميم وقيس يجمعون الهمزة المبدوء بها عيناً فيقولون  
في إنك عنك وفي أسلم عسلم وفي إذن عذن وهلم جرا .

(٥) الفحفحة في لغة هذيل يجمعون الحاء عيناً فيقولون في مثل  
حات الحياة لكل حي . علت العيلة لكل عي . وعلى لغتهم قرأ ابن مسعود  
عنى حين في قوله تعالى حتى حين فأرسل اليه عمر بن الخطاب إن القرآن لم  
ينزل على لغة هذيل فأقرئ الناس بلغة قريش .

(٦) العجمة في لغة قضاة يجلون الياء المشددة جيا فيقولون في  
تميمي<sup>١</sup> (تميج<sup>٢</sup>) وكذا يجلون الياء الواقعة بعد عين فيقولون في الراعي الرابع  
وهكذا — وسيأتي في النوع الثاني عكس هذه اللغة — وكانت قضاة اذا  
تكلموا غمغمو افلاتكاد تظهر حروفهم وقد سمي العلماء ذلك منهم (غمغمة قضاة)  
(٧) الوتم في لغة اليمن أيضاً يجلون السين تاءاً فيقولون في الناس  
النات وهكذا .

(٨) الوكم في لغة ربيعة وهم قوم من كلب يكسرون كاف الخطاب  
في الجمع متى كان قبلها ياء او كسرة فيقولون في عليكم وبكم (عليكم  
وبكم)

(٩) الوهم في لغة كلب يكسرون هاء الغيبة متى وليتها ميم الجمع  
مطلقاً (والفصيح أنها لا تكسر الا اذا كان قبلها ياء او كسرة نحو عليهم  
وبهم) فيقولون في منهم وعنهم وبينهم (منهم وعنهم وبينهم) .

(١٠) الاستنطا في لغة سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس  
والأنصار يجلون الميم الساكنة نوناً اذا جاورت الطاء فيقولون في أعطى  
أنطى وعلى لغتهم قرئ شذوذا (إنا أنطيناك الكوثر) . وجاءت امثلة منها  
في الحديث الشريف

(١١) التلثة في بهراء وهم بطن من تميم وذلك انهم يكسرون أحرف  
المضارعة مطلقاً وقد ذكر سيبويه في الجزء الثاني من كتابه مواضع يكون  
فيها كسر اوائل الافعال المضارعة عامماً في لغة جميع العرب الا أهل الحجاز  
وذلك في نحو مضارع فعل اذا كانت لامه أو عينه ياءاً أو واواً نحو وجل

وخشي مثلاً فيقولون نيجل ونخشي وهكذا فراجع في الكتاب فان فيه تعليلاً حسناً . وقال في آخر هذا الفصل ان بني تميم يخالفون العرب ويتفقون مع أهل الحجاز في فتح ياء المضارعة فقط . ونسب ابن فارس في فقه اللغة هذا الكسر لاسد وقيس الا أنه جملة عاماً في اوائل الالفاظ فمثل له بقوله ( مثل تعلمون ونعلم وشيمير وبعير )<sup>(١)</sup>

( ١٢ ) القطعة في لغة طيء وهي قطع اللفظ قبل تمامه فيقولون في مثل يا ابا الحكم ( يا ابا الحكا ) وهي غير الترخيم المعروف في كتب النحو لان هذا مقصور على حذف آخر الاسم المنادى أما القطعة فتتناول سائر أبنية الكلام .

( ١٣ ) اللخلخانية وهي تعرض في لغة أعراب الشَّحرو عَمان فيحذفون بعض الحروف اللينة ويقولون في نحو ماشاء الله ( مشا الله ) . ومن لغات الشجر المرغوب عنها ما نقله صاحب المخصص من ان بعضهم يقول في السيف شَلقى .  
( ١٤ ) الطُّمُطمانية في لغة حمير يبدلون لام التعريف ميما وعليها جاء الحديث في مخاطبة بعضهم ( ليس من امبر امصيام في امسفر ) أي ليس من البر الصيام في السفر .

( ١ ) احرف المضارعة في العبرانية والسريانية لا تلزم حركة واحدة فتكون في العبرانية ساكنة ومكسورة ومفتوحة ومضمومة على اختلاف في هذه الحركات بين الاختلاس والاشباع ولامالة أما في السريانية فهي ساكنة ما عدا الهمزة فانها متحركة ابداً ولكن اذا ولي حروف المضارعة همزة متحركة فانهم ينقلون حركة هذه الهمزة اليها واذا وليها حرف ساكن كسروها

## النوع الثاني

لغات منسوبة غير ملقبة عند العلماء ومن أمثلته :

(١) في لغة فقيم<sup>(١)</sup> يبدلون الياء جيا ولغتهم في ذلك أعم من لغة قضاة التي مرت في النوع الاول لانها غير مقيدة فيقولون في بُخَيَّ وعليُّ بُخَيَّ وعليُّ وعليُّ ومنه قول الحماسي

خالي عويْفٌ وابو عاجٍ المطعمان اللحم بالمشج

اي بالعشي وانشد ابو زيد لبعضهم

يارب ان كنت قبلت حجتج فلا يزال ساجح يأتيك يج  
يريد حجتج ويأتيك بي والساجح السريع من الدواب<sup>(٢)</sup> . وقال ابن فارس في فقه اللغة . ان الياء تجعل جيا في النسب عند بني تميم يقولون غلامج اي غلامي وكذلك الياء المشددة تحوّل جيا في النسب يقولون بصرج وكوفج (في بصريّ وكوفيّ) . وعكس هذه اللغة في تميم على ما نقله صاحب المحصص وذلك انهم يقولون صهريّ والصهاريّ في صهرج والصهارج .

(٢) في لغة مازن يبدلون الميم باء أو الباء ميماء فيقولون في بكر (مكر)

(١) فقيم هذه هي فقيم دارم لا فقيم كنانة المسمون بفساة الشهور لانهم كانوا يؤخرون حرمة الاشهر الحرم الى غير ها وفيهم نزل قوله تعالى ( انما النسي زيادة في الكفر ) والنسبة الى هؤلاء فقيمي والى اولئك فقيعي حذفوا الياء في الاولى للتمييز بينهما وله نظائر في كلامهم

(٢) وبروي فلا يزال شاجح وهو البغل لان الشحج صوته

وفي اطمئن (أطبن) وقد تقدمت .

(٣) في لغة طيء يبدلون تاء الجمع هاءاً اذا وقفوا عليها الحاقاً لها بتاء المفرد وقد سمع من بعضهم دفن البناء من المكرمات - يريد البنات والمكرمات - وحكى قطرب قول بعضهم كيف البنون والبناء ، وكيف الاخوة والاخوان وسيأتي في النوع الرابع عكس هذه اللغة .

(٤) في لغة طيء ايضاً يقلبون الياء ألفاً بعد ابدال الكسرة التي قبلها فتحة وذلك من كل ماض ثلاثي مكسور العين ولو كانت الكسرة عارضة كما لو كان الفعل مبنيّاً للمجهول فيقولون في رَضِيَ وهُدِيَ رَضًا وهُدًى بل ينطقون بها قول العرب ( فرس حظية بظية ) فيقولون حظاة بظاة وكذلك يقولون الناصاة في الناصية . ومن لغتهم انهم يحذفون الياء من الفعل المعتل بها اذا اكّد بالنون فيقولون في اخشَيْنَ وارمَيْنَ الخ اخشنَ وارمنَ . وجاء من ذلك في الحديث الشريف على لغتهم « لتؤدّنَ الحقوق الى اهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلاحء من الشاة القرناء تنطحها » . وتنسب هذه اللغة الى فزارة ايضاً كما تنسب الى طيء .

(٥) في لغة طيء على ما رواه ابن السكيت انهم يبدلون الهمزة في بعض المواضع هاءاً فيقولون هَنَ فعلتَ فعلتَ يريدون إن فعلتَ ومنه قول شاعرهم

ألا يا سنا برق على قلل الحمى      لَهْنَك من برق عليّ كريم

أي لئنك وسيأتي عكس هذه اللغة في النوع الرابع .

(٦) في لغة تميم يجيئون باسم المفعول من الفعل الثلاثي اذا كانت



عينه ياءاً على أصل الوزن بدون حذف فيقولون في نحو مبيع ( مبيع )  
ولكنهم لا يفعلون ذلك اذا كانت عين الفعل واواً الا ما ندر بل يتبعون  
فيه لغة الحجازيين نحو مقول ومصوغ وهكذا .

( ٧ ) في لغة هذيل لا يبقون ألف المقصور على حالها عند الاضافة  
الى ياء المتكلم بل يقلبونها ياءاً ثم يدغمونها توصلاً الى كسر ما قبل الياء  
فيقولون في عصاي وهو اي ( عصي وهوي ) قال شاعرهم

سبقوا هوي وأعنقوا لهوام فتخرّموا لكل جنب مصرع  
ولا يفعلون ذلك اذا كانت الالف في آخر الاسم للتثنية كما في نحو  
( فتياي ) بل يوافقون الجمهور في ابقائها دون قلب كأنهم كرهوا أن يزيلوا  
دلالتها على المعنى الذي ألحقت بالكلمة له .

( ٨ ) في لغة فزارة وبعض قبس يقلبون الالف في الوقف ياءاً فيقولون  
( الهوي وأفمي وحيلي ) . ومن تميم من يقلب هذه الالف واواً فيقول  
( الهدو وأفمو وحبلو ) ومنهم من يقلبها همزة فيقول ( الهدأ وأفمأ وحبلأ ) .  
وقريب من قلب الالف واواً ما رواه ابن قتيبة عن ابن عباس « لا بأس  
بليس الحدو للمحرم » أي الحداء وهو دليل على أن من بعض لغاتهم قلب  
الالف مطلقاً واواً .

( ٩ ) في لغة خثعم وزبيد يحذفون نون من الجارة اذا وليها ساكن  
قال شاعرهم

لقد ظفر الزوار أقفية العدا بماجاوز الآمال ملأ سروا القتل  
وقد شاعت هذه اللغة في الشعر واستخفها كثير من الشعراء فتماوروها .

(١٠) في لغة بلحرت يحذفون الالف من على ( الجارة ) واللام

الساكنة التي تليها فيقولون في على الارض علأرض وهكذا

(١١) في لغة قيس وربيعة واسد وأهل نجد من بني تميم يقصرون

(أولاء) التي يشار بها للجمع ويلحقون بها لاما فيقولون اولالك قال بعضهم

أولالك قومي لم يكونوا أشابة وهل يعظ الضليل الا أولالك<sup>(١)</sup>

(١٢) في لغات اسماء الموصول : بلحرت بن كعب وبعض ربيعة

يحذفون نون اللذين واللتين في حالة الرفع وعلى لغتهم قول الفرزدق :

أبني كليب إن عمي اللذا قتلا الملوك وفككا الاغلا

وقول الاخطل :

هما اللتا لوولدت تميم لقل نخر لهم صميم

وتميم وقيس يثبتون هذه النون ولكنهم يشددونها فيقولون اللذان

واللتان وذلك في احوال الاعراب الثلاثة وللنحاة في حكمة هذا التشديد احوال

ليست من غرضنا. وطبيء تقول في الذي (ذو) وفي التي ذات ولا يغيرونها

في أحوال الاعراب الثلاثة رفعاً ونصباً وجراً. وقال ابو حاتم ان ذو الطائية

للو احد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد واعرابها بالواو في كل

موضع . وسيأتي في النوع الرابع بعض لغات غير منسوبة في اسماء الموصول.

(١٣) في لغة ربيعة يقفون على الاسم المنون بالسكون في كل أحوال

الاعراب فيقولون رأيت خالد ومررت بخالد وهذا خالد وغيرهم يشاركونهم

الا في النصب .

(١) الأشابة الأخلاط . والضليل مبالغة

وفي لغة الأزد يبدلون التنوين في الوقف من جنس حركة آخر الكلمة فيقولون جاء خالدٌ ومرت بخالدي .

وفي لغة ساعد يضعفون الحرف الأخير من الكلمة الموقوف عليها إلا إذا كان هذا الحرف همزة أو كان ما قبله ساكناً فيقولون هذا خالدٌ ولا يضعفون في مثل رشاً وبكر .

( ١٤ ) في لغة بلحرت وخثعم وكنانة يقلبون الياء بمد الفتحة ألفاً فيقولون في اليك وعليك ولديه ( الالك وعلاك ولداه ) ومنه قول الشاعر :  
( طاروا علاهن فطرعلاها ) ومن لغتهم أيضاً أعراب المثني بالالف مطلقاً رفعاً ونصباً وجراً وذلك لقلبهم كل ياء ساكنة انفتح ما قبلها ألفاً . فيقولون جاء الرجالان ورأيت الرجالان ومررت بالرجالان وانشد ابن فارس في فقه اللغة لبعضهم

تزود منا بين أذناه ضربة دعته الى هابي التراب عقيم

غير انه خص هذه اللغة ببني الحارث بن كعب <sup>(١)</sup>

( ١٥ ) ذكر المبرد في الكامل أن بني ساعد بن زيد مناة وخثعم ومن قاربها يبدلون الحاء هاءاً لقرب المخرج فيمدحتهم مدهته وعليه قول رؤبة : ( لله در الغانيات المدّة ) أي المدح وفي هذه الأرجوزة : براق أصلا الجبين الاجله . أي الا ~~الاجله~~ <sup>حلح</sup>

( ١ ) قل ابن جني في سر الصناعة ان من العرب من يقلب في بعض الاحوال الواو والياء الساكتين الغين للفتحة قبلهما وذلك نحو قولهم في الحيرة حاري وفي طبي . طائي .

وقال في موضع آخر : العرب تقول هودج وبنو ساعد بن زيد مناة ومن وليهم يقولون فودج فيبدلون من الهاء فاءاً . وفي أمالي ثعلب : أزد شنوءة تقول تفكّهون وتميم يقولون تفكّنون بمعنى تعجبون . وأمثلة الاختلاف من هذا الضرب غير قليلة .

( ١٦ ) في أمالي القالي عن أبي زيد أن الكلايين يلحقون علامة الانكار في آخر الكلمة وذلك في الاستفهام إذا أنكروا أن يكون رأي المتكلم على ما ذكر في كلامه أو يكون على خلاف ما ذكر

فاذا قلت رأيت زيدا وأنكر السامع أن تكون رأيت زيدا إني بقطع الالف وتبيين النون وبعضهم يقول زيدنيّ كأنه ينكر أن يكون رأيك على ما ذكرت . وهذه الزيادة تجري في لغة غيرهم على النحو الذي تسمعه في لغة العامة من مصر فانك اذا قلت لاحد رأيت الاسد يقول ( الاسد إيه ) فالعرب تحرك آخر الكلمة اذا كان ساكناً وتلحق به الزيادة فاذا قال رجل رأيت زيدا قالوا أزيدنيّه ويقول قدم زيد فتقول أزيدنيّه . أما اذا كان آخر الكلمة مفتوحاً فانهم يجمعون الزيادة الفاً ويجمعونها واواً اذا كان مضموماً وياءاً اذا كان مكسوراً . فان قال رأيت عثمان قلت أعماناه ويقول أتاني عمر فتقول أعمروه وهكذا . فان كان الاسم معطوفاً عليه او موصوفاً جعلوا الزيادة في آخر الكلام . يقال رأيت زيدا وعمر فتقول ازيدا وعمرنيّه . ويقال ضربت زيدا الطويل فتقول أزيدا الطويل . وذكر سيبويه انه سمع رجلاً من اهل البادية وقيل له اخرج إن أخصبت البادية فقال انا إنيّه وانما انكر ان يكون رأيه

على خلاف الخروج <sup>(١)</sup> وسيأتي وصف لغة أخرى للحجازيين في النوع التالي

### النوع الثالث

وهو من تغيير الحركات في الكلمة الواحدة حسب اختلاف اللهجات  
ومن أمثلته :

(١) هَلَمْ في لغة اهل الحجاز تلزم حالة واحدة ( بمنزلة رُوَيْدَ ) على  
اختلاف ما تسند اليه مفرداً أو مثنى أو جمعاً مذكراً أو مؤنثاً وتلزم في كل  
ذلك الفتح . وفي لغة نجد من بني تميم تتغير بحسب الاسناد فيقولون هَلَمْ  
يا رجل وهَلَمِّي وهَلَمَّا وهَلُمُوا وهَلُمْنِ واذا أسندت لمفرد لا يكسرونها كما

(١) قال ابو علي القالي زادت العرب ( ان ) ايضاحاً للاملم ولذلك قالوا انيه  
لان الهاء والياء خفيان والهمزة والنون واضحان كما زادوا ان في قولهم ، ان فعلت كذا..  
فاما ما حكاه ابو زيد من قوله ازيدنيه بتشكيل النون فانما هذا على لغة من يقف على  
الحرف بالتشديد . . وقف على زيدن فشدد فلما الحق به العلامة حركه بالكسر لانه  
توهم ان التنوين أصل

ومن قبيل حرف الانكار الذي شرحناه حرف التذكير وهو ان يقول الرجل  
في نحو سار ومسير ومن العام ( مثلاً ) سارا . يسيرو . من العامي . وذلك اذا تذكر  
ولم يرد أن يقطع كلام المتكلم . وهذه الزيادة تكون في اتباع ما قبلها ان كان متحركاً كما  
في زيادة الانكار فاذا اسكن ما قبلها حركه بالكسر . قال سيديويه سمعناهم يقولون  
قَدِي وإِلِي يعني في قد فعل وفي الالف واللام اذا تذكر الحارث ونحوه . ثم قل  
وسمعنا من بوثق به يقول هذا سيفني يريد هذا سيف من صفته كبت وكبت ( اذا  
تذكر صاحب هذه الصفات )

قال سيديويه فلا يقولون هلم يا رجل ولكنها تكسر في لغة كمب وغني .  
 (٢) في لغة تميم يكسرون أول فعيل وفعل اذا كان ثانيهما حرفاً من  
 حروف الحلق الستة فيقولون في لثيم ونحيف ورغيف وبخيل . لثيم ونحيف  
 الخ بكسر الأول ويقولون هذا رجل لعب ورجل نحيك وهذا ماضع لهم  
 — كثير البلع — وهذا رجل وغل — طفيلي على الشراب — وفخذ  
 ونحوها كل ذلك في لغتهم بالكسر وغيرهم بفتحه . وقد نقل صاحب المخصص  
 في ذلك تعليلاً حسناً يرجع الى الاسباب اللسانية .

(٣) في لغة خزاعة يكسرون لام الجر مطلقاً مع الظاهر والضمير  
 — وغيرهم يكسرها مع الظاهر ويفتحها مع الضمير غير ياء المتكلم — فيقولون  
 المال لك واه . ونقل اللحياني ذلك عن غير خزاعة أيضاً . وفي سر الصناعة  
 لابن جني عن ابي عبيدة والاحمر ويونس انهم سمعوا العرب تفتح اللام الجارة  
 مع المظهر وقال ابو زيد سمعت من يقول وما كان الله ليعذبهم : وفي لغة  
 هؤلاء يقولون المال للرجل ومثل هذه اللغة في عامية الشام .

ولكن العرب اجماعاً (١) (ومنهم خزاعة) على كسر اللام اذا اتصلت بياء  
 المتكلم فلا يفتحها منهم أحد

(١) لعرب  
 اجماع العرب  
 لعرب اجمع  
 مكتبة  
 احمد شكري

(٤) هاء الغائب مضمومة في لغة أهل الحجاز مطلقاً اذا وقعت بعد  
 ياء ساكنة فيقولون لدبه وعايه ولغة غيرهم كسرها وعلى منطلق أهل الحجاز قرأ  
 حفص وحزمة (وما انسانيه الا الشيطان . وعاهد عليه الله) وهي القراءة  
 المتبعة أما غيرهما من القراء فيكسر الهاء .

(٥) في لغة بني مالك من بني أسد يضمون هاء التنبيه فيقولون في

يا ايها الناس ويا ايها الرجل ( يا ايها الناس ويا ايها الرجل ) الا اذا تلاها اسم  
اشارة نحو اي هذا فانهم يوافقون فيها الجمهور

(٦) في لغة بني يربوع — وهم من بني تميم . يكسرون ياء المتكلم اذا  
أضيف اليها جمع المذكر السالم فيقولون في نحو ضاربي (ضاربي) وهكذا

(٧) في لغة الحجازيين يحكون الاسم المعرفة في الاستفهام اذا كان  
علماً كما نطق به . فاذا قيل جاء زيد ورأيت زيدا ومررت بزيد يقولون من  
زيد ومن زيدا ومن زيد . اما اذا كان غير علم كجاءني الرجل او كان علماً  
موصوفاً كزيد الفاضل فلا يستفهمون الا بالرفع يقولون من الرجل ومن  
زيد الفاضل في الاحوال الثلاث .

واذا استفهموا عن النكرة المربية ووقفوا على أداة الاستفهام جاؤا  
في السؤال بلفظة ( من ) ولكنهم في حالة الرفع يلحقون بها واواً لمجانسة  
الضمة في النكرة المستفهم عنها ويلحقون بها الفاء في حالة النصب وياءاً في  
حالة الجر فاذا قلت جاءني رجل ونظرت رجلاً ومررت برجل يقولون  
في الاستفهام عنه ( مَنْ وَمَنْ وَمَنْ ) . وكذلك يلحقون بها علامة التأنيث  
والتثنية والجمع فيقولون ( مَنَّة ) في الاستفهام عن المؤنثة ( وَمَنان وَمَنِينَ )  
للمثنى المذكر ( ومَنتان ومَنَتين ) للمثنى المؤنث ( ومنون ومنين ) للجمع  
المذكر ( ومنات ) للجمع المؤنث . وهذا كله اذا كان المستفهم واقفاً . فاذا  
وصل أداة الاستفهام جردها عن العلامة فيقول من يافتي في كل الاحوال .  
قال الزمخشري : وقد ارتكب الشاعر في قوله : (أتوا ناري فقلت منون أنتم)  
شدوذين الحاق العلامة في الدّرج وتحريك النون .

وبعض الحجازيين لا يفرق بين المفرد وغيره في الاستفهام فيقول  
(منو ومناومني) إفراداً وتثنية وجمعاً في التذكير والتأنيث .

(٨) من لغة الحجازيين أيضاً أنهم يعاقبون بين الواو والياء فيجعلون  
أحدهما مكان الأخرى والمعاقبة إما أن تكون لغة عند القبيلة الواحدة أو  
تكون لاقتراق القبيلتين في اللغتين وليست بمطردة في لغة أهل الحجاز بين  
كل واو وياء ولكنها محفوظة عنهم فيقولون في الصواغ (الصياغ) وقد  
دوخوا الرجل وديخوه . وسمع الكسائي بعض أهل العالية يقول (لا ينفعني  
ذلك ولا يضورني) أي يضيرني - وقوم يقولون في سريع الوبة (سريع  
الايبة) - ومنهم من يقول في المصاب (مصابوب) - ويقول بعضهم  
حكوت الكلام أي حكيت . وأهل العالية يقولون القصوى ويقول فيها أهل  
نجد<sup>(١)</sup> القصيا .

وقد وردت أفعال ثلاثية تحكى لاماتها بالواو والياء مثل عزوت وعزيت  
وكنوت وكنيت وهي قريب من مائة لفظة نظمها ابن مالك النحوي  
في قصيدة مشهورة

(٩) في لغة بكر بن وائل واناس كثير من بني نعيم يسكنون المتحرك  
استخفافاً فيقولون في نخد والرجل وكرم وعليم (نخد وكرم والرجل وعلم) .  
وقال أبو النجم الراجز وهو من بكر بن وائل يصف الشعر المتعهد بالبان  
والمسك .

---

(١) قال صاحب المختص ان نجداً في لغة هذيل نجد (بضم النون والجيم)



( لو عُصِرَ مِنْهُ الْبَانُ وَالْمَسْكُ انْعَصِر )

وهذه اللغة كثيرة ايضاً في تغلب وهو اخو بكر بن وائل . ثم اذا تناسبت الضمتان او الكسرتان في كلمة خففوا ايضاً فيقولون في العنق والايبل ( العنق والايبل ) . قال سيبويه ومما اشبه الاول فيما ليس على ثلاثة احرف قولهم اراك منتفخاً . وانطلق<sup>٤٠</sup> يا فتى — أي منتفخاً وانطلق — ثم قال حدثنا بذلك الخليل عن العرب وأنشدنا بيتاً لرجل من أزد السراة

عجبت لمولود وليس له أبٌ وذي ولد لم يلدَه ابوان  
وسمعه من العرب كما انشده الخليل . واصله لم يلدَه فلما اسكنوا اللام على لغتهم حر كوا الدال لثلا يجتمع سا كنان

( ١٠ ) في الخصائص لابن جني عن أبي الحسن الاخفش أن من لغة أزد السراة تسكين ضمير النصب المتصل كقول القائل

وأشرب الماء ما بي نحوه عطش      الا لان عيونه سال وادياها  
( ١١ ) لغات في كلمات : تميم من أهل نجد يقولون نهي للغدير وغيرهم يفتحها . الوتر في العدد حجازية والوتر بالكسر في الذحل — النار — وتمر تكسرهما جميعاً وأهل العالية يفتحون في العدد فقط . اللحد واللحد للذي يحفر في جانب القبر والرفع والرفع لاصول الفخذين فالفتح لتمر والضم لاهل العالية . يقال وتِدو وتَدوا أهل نجد يدغمونها فيقولون ودٌ . وفي لغة بعض الكلابيين يقولون الدِّواء وغيرهم يفتحها . والعرب يقولون شواظ من نار والكلابيون يكسرون الشين . ويقولون رُققة للجماعة ولغة قيس كسر الرائ . وقالوا وجنة ووجنة وبالكسر لغة أهل اليمامة . أهل الحجاز يقولون

خمس عشرة وتميم يقولون خمس عشرة ومنهم من يفتح الشين . والحجازيون يقولون لعمرى وتميم تقول وعملى وتحكى عنهم رعمري أيضاً . واللص في لغة طيء وغيرهم يقول اللصت . وبقيت الفاظ أخرى كنا جمعناها فأضربنا عن ذكرها لأن هذا الاختلاف غير مطرد فلا يعتد به فيما نحن بصدد منه .

( ١٢ ) لغات في الاعراب : في لغة هذيل يستعملون متى بمعنى من ويجرون بها سمع من بعضهم أخرجها متى كمه - أي من كمه - ويروون من ذلك البيت المشهور

شربن بماء البحر ثم رفعت متى لجج خضر لهن ثلج  
وفي لغة تميم ينصبون تميزكم الخبرية مفرداً ولغة غيرهم وجوب جره  
وجواز إفراده وجمعه فيقال كم درهم عندك وكم عبيد ملكت وتميم يقولون كم  
درهماً وكم عبداً .

في لغة الحجازيين ينصب الخبر بعد ما النافية نحو ما هذا بشراً وتميم  
يرفعونه .

في لغة أهل العالية ينصبون الخبر بعد إن النافية سمع من بعضهم أن  
أحد خيراً من أحد إلا بالعافية .

الحجازيون ينصبون خبر ليس مطلقاً وبنوا تميم يرفعونه إذا اقترن بإلا  
فيقول الحجازيون ليس الطيب إلا المسك وبنوا تميم إلا المسك .

في لغة بني اسد يصرفون ما لا ينصرف فيما علة منعه الوصفية وزيادة  
النون فيقولون لست بسكران ويلحقون مؤنثه التاء فيقولون سكرانه .  
في لغة ربيعة وغنم يبنون ( مع ) الظرفية على السكون فيقولون ذهبت

معه واذا وليها ساكن يكسرونها للتخلص من التقاء الساكنين فيقولون  
ذهبت مع الرجل . وغنم حي من تغلب بن وائل .  
في لغة بني قيس بن ثعلبة يعربون ( لدن ) الظرفية وعلى لغتهم قرى  
( من لدنه علما ) .

الحجازيون يبنون الاعلام التي على وزن فعال كزأم وقطام على الكسر في  
كل حالات الاعراب وتقيم تعربها ما لم يكن آخرها راء او تمنعها من الصرف  
للعلمية والمعدل . فاذا كان آخرها راءاً كـوبار - قبيلة - وظفار - مدينة - فهم  
فيها كالحجازيين .

في لغة هذيل ( أو عقيل ) يعربون الذين --- من اسماء الموصول اعراب  
جمع المذكر السالم قال شاعرهم :

نحن اللذون صبحوا الصباحا يوم النخيل غارة ملحاحا  
ومن لغة هذيل ايضاً فتح الباء والواو في مثل بيضات وهيات وعوارت  
فيقولون بيضات وهيات وعوارت والجمهور على اسكانها . وقد وقفنا على أمثلة  
اخرى نتجاوزها اكتفاءً بما قدمناه .

### النوع الرابع

وهو يشمل اللغات التي ذكرها العلماء ولم ينسبوها وتكون في جملتها  
راجعة الى تباين المنطق واختلاف اللهجات وهذا القسم هو اللغة او اكثرها  
لان الذين دونوها جمعوا كل لغات العرب وجعلوها لغة جنسية فلم يميزوا  
منطقاً من منطق ولا افردوا لغة عن لغة اذ كان ذلك من سبيل خدمة التاريخ

اللفوي وهم انما ارادوا بصنيعهم خدمة القرآن وعلومه فلولاه لمضت لغة العرب في سبيل ما تقدمها ولماتت مع اهلها وكان من يظفر اليوم بحرف منها فقد أحيى شيئاً من التاريخ .

ولو أردنا استغراق هذا النوع لخرجنا بالكتاب عن معناه الى أن يكون معجماً من معاجم اللغة ولكننا نأتي بشيء من نادره وتقتصر على القليل من غريبه مما يجانس ما قدمناه ويتحقق به نوع من انواع الاختلاف اللساني في العرب ومن أمثلة ذلك :

(١) إبداهم أواخر بعض الكلمات المجرورة ياءاً كقولهم في الثعالب والارانب والصفادع ( الثعالي والاراني والصفادي ) . قال ابن جني في سر الصناعة وقد اورد قول الشاعر :

لها أشارير من لحم تُثْمَرُهُ من الثعالي ووخزٌ من أرانيها<sup>(١)</sup>  
لم يمكنه أن يقف الياء فأبدل منها حرفاً يمكنه أن يقفه في موضع الجر وهو الياء .. وليس ذاك انه حذف من الكلمة شيئاً ثم عرض منها الياء . وقال وقد ذكر قول الآخر :

ومنهل ليس له حوازق<sup>(٢)</sup> والصفادي جمه نقائق<sup>(٣)</sup>

(١) الاشارير جمع إشارة وهي قطعة من اللحم تقدم للادخار . والتمير التجفيف . والبيت للنمر بن توبل الإشكري من ابيات يصف بها عقاباً

(٢) الحوازق الجماعات والجم الماء الكثير والنقائق جمع نقنة وهي صوت الصفدع . وهذا البيت عزاه سيبويه لرجل من بني يشكر وقيل انه مما صنعه خلف الاحمر فاذا صح ذلك فان هذه اللغة تكون خاصة ببني يشكر لنسبة هذا البيت والذي قبله اليهم

كره أن يسكن العين - من الضفادع - في موضع الحركة فأبدل منها حرفاً يكون ساكناً في حال الجر وهو الياء .  
وفي الصحاح قد يبدلون بعض الحروف ياءاً كقولهم في أما<sup>(١)</sup> أيما وفي سادس سادي وفي خامس خامي . وجاءت لغات من الإبدال وكلها غير منسوبة ولا مسماة وهي كثيرة ومنها نوع طريف يعد من « لغات اللغويين » لأنهم جمعوه ورتبوه وهو في الألفاظ التي ينطق فيها بلفتين بحيث يؤمن التصحيف كالتي تنطق بالياء والتاء والباء والتاء . والتاء والتاء ونحوها مما يقع في حروفه التصحيف وهذه الحروف هي :

ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ
ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ
ع	غ	ف	ق	ك	ل	ن	و

فالنون تشبه بالتاء والتاء والواو تشبه بالراء . أما سائر الحروف فلا اشتباه فيها ظاهر . وعلى أن هذا مما يرجع إلى الخط ويبعد أن يكون العرب أرادوه ولكن اللغويين وفقوا في عده من لغات الإبدال ومن أمثلته : الثرى والبرى بمعنى التراب وثجّ الجريج ونجّ سال دمه وفاح الطيب وفاح وهلمّ جرا .

( ٢ ) من العرب من يجعل الكاف جيماً فيقول مثلاً ( الجمعة ) في

( ١ ) أما هذه هي الشرطية وفي لغة نعيم وقيس واسد ينطقون إيماً التي للتفصيل مثلها

أي بالفتح و يروى لبعض شعرائهم

يا لينا أمنا شالت نعماتها أما إلى جنة أما إلى نار

الكعمية وبعضهم ينطق بالتاء طاءاً ( كأفلطني ) في أفلطني قال الخليل وهي لغة  
تميمية قبيحة <sup>(١)</sup>

( ٣ ) نقل صاحب المخصص في ( باب ما يجيء مقولاً بحرفين  
وليس بدلاً ) ان بعض العرب يقول أردت عن تفعل كذا وبعضهم يقول  
لأثني في ( لعني ) وقال في موضع آخر وفي لعل لغات يقولها بعض العرب  
دون بعض وهي : لعلي . لعني . علي . عني . لعني . لعني وأنشد للفرزدق  
هل أنتم عائجون بنا لعنا ترى العرصات أو أثر الخيام  
وقال أبو النجم أغد لعنا في الرّهان نرسلة  
يريد لعنا وبعضهم يقول لأثني وبعضهم لأثني وبعضهم لوني وقال رجل .  
من يدعو الى المرأة الضالة فقال اعرابي لوني عليها خماراً أسود . يريد لعل  
عليها . ومما وقفنا عليه من لغاتها ولم يذكره في المخصص : رعن ورعن وعن  
وأن ولعاء بالمد ومنه قول الشاعر :

لعاء الله فضلكم علينا بشيء ان أمكم شريح  
وروى في لعل لغة بكسر اللام ( لعل ) . وقد أسلفنا ان لغة عقيل

( ١ ) وهي في لغة سقلة العوام في مصر ايضاً وتطرد في كل تاء كما يبدلون الدال  
ضاداً . ومن للغات التميمية القبيحة ما نقله ابن خالويه من انهم يقولون الحمد لله بكسر  
الدال ( كما تقولها العامة ) قال ولا خير فيها . وذكر ايضاً في كتاب ليس في دخول  
الف الوصل على المتحرك أن عبد القيس يقولون إسل زيدا ( في اسأل ) وان العرب  
تقول زيد الاحمر والحمير ولحمير ثلاث لغات وكما في العامة ايضاً .

الجر بلعل وهو مما عزاه اليهم ابو زيد وغيره يقول ان ذلك في لغة  
بعض العرب

ومما أورده في هذا الباب قرأ فما تلعم وبعضهم يقول تلعم . وتضيفت  
الشمس للغروب وتضيفت قال ومنه اشتقاق الصيف

( ٤ ) وفي المخصص أيضاً عن السكيت في لغات عند تقول هو  
عندي وعندي وعندي . ومنه أيضاً لدن فيه ثماني لغات وهي : لدن ولدن  
ولدى ولد ولدن ولدن ولد ولدى . ومنه أيضاً في الذي لغات : الذي باثبات  
الياء واللذ واللذ واللذي . وفي التثنية اللذان واللذان واللذان وفي الجمع  
الذين والذون واللاؤن واللاؤا واللائي - باثبات الياء في كل حال - والأولى  
وللمؤنث اللائي واللاء واللاتي واللت واللت واللتان واللتا واللتان . وجمع  
التي اللاتي واللات واللواتي واللوات واللوا واللاء واللات .

ومن لغات هو وهي : هو وهي - بالسكون - وهو وهي

قال بعضهم

وان لساني شهدة يشتق بها وهو على من صبه الله علقم  
وتحكي فيهما لغة رابعة وهي أن تحذف الواو والياء وتبقى الهاء متحركة  
فتقول ه ه .

ومن لغات لا جرم على ما رواه الكوفيون لا جر ولا ذا جرم ولا ذا  
جر ولا إن ذا جرم ولا عن ذا جرم .

ومن لغات نعم ( حرف الايجاب ) نعم ونعم ونعم بابدال العين حاءاً  
كما ابدلت الحاء من حتى عيناً في خفحة هذيل فليل عتي كما مر في موضعه

(٥) بعض العرب يبدل هاء التأنيث تاءاً في الوقف فيقول هذه أمة (في أمه) وسمع بعضهم يقول يا أهل سورة البقرة فقال مجيب ما احفظ منها ولا آيت . ويؤخذ مما ذكره ابن فارس في فقه اللغة ان هذه اللهجة كانت من اللغات المسماة المنسوبة الى اصحابها في القرن الرابع ولكن لم تقف على نسبتها . ونقتصر من ذلك على هذا القدر فانه كفاء الحاجة فيما نحن بصدد منه

### النوع الخامس

وهو ما يروونه على أنه لغة في الكلام أو لثغة من المتكلم كالالفاظ التي وردت بالراء والغين أو بالراء واللام أو بالزاي والذال أو بالسين والثاء أو بالشين والسين فكل ذلك مما يشك فيه الرواة لا يجزمون بانه لغة فرد أو لغة قبيلة وقد قال الانباري في شرح المقامات يذكر أنواع اللثغة في منطقتهم : اللثغة تكون في السين والقاف والكاف واللام والراء وقد تكون في الشين . فاللثغة في السين أن تبدل ثاءاً وفي القاف أن تبدل طاءاً وربما أبدلت كافاً وفي الكاف أن تبدل همزة وفي اللام أن تبدل ياءاً وربما جعلها بعضهم كافاً وأما اللثغة في الراء فانها تكون في ستة أحرف (ع غ ي د ل ط ) وذكر أبو حاتم انها تكون في الهمزة . اه قلنا وليس ما ذكره أبو حاتم بغريب فقد رأينا في بغية الوعاة في ترجمة ركن الدين بن القوبع النحوي المتوفى سنة ٧٣٨ أنه كان يثغ بالراء همزة .

وبعضهم يثغ في اللام فيجعلها تاءاً ويسمونه الأرت . اما النطق بالحاء هاءاً فيسمونه همة كقول صاحب الصحاح . اللهس لغة في اللهس أو همة .



## عيوب المنطق العربي

- وقد رأينا توفية لفائدة هذا الفصل أن نذكر عيوب المنطق باسمائها وهي :
- ( النتممة ) ويقال لصاحبها التمتام وذلك اذا تعتم في التاء فاذا تردد في الفاء فذلك ( الفأفأة ) وصاحبها فأفاء .
- ( والعقلة ) وهي التواء اللسان عند الكلام .
- ( والحبسة ) تعذر النطق ولم يبلغ المتكلم حد الفأفاء ولا التمتام ويقال انها تعرض في اول الكلام فاذا مر فيه انقطعت .
- ( واللفف ) ادخال بعض الكلام في بعض
- ( والرتنة ) إيصال بعض الكلام ببعض دون افادة وقد تقدم لها معنى آخر في اللثغة
- ( والغمغمة ) أن يسمع الصوت ولا يبين لك تقطيع الحروف ولا تفهم معناه .
- ( والطمطمة ) أن يكون الكلام شبيهاً بكلام المعجم . وقيل هي ابدال الطاء تاءاً لانهما من مخرج واحد نحو السلطان في السلطان .
- ( واللكنة ) وهي ادخال بعض حروف المعجم في بعض حروف العرب ومنها قولهم فلان يرتضخ لكمة فارسية . وعدوا منها ابدال الهاء حاءاً والعين همزة
- ( والفنة ) وهي أن يشرب الصوت الخيشوم ثم هي عيب اذا جاءت في غير حروفها
- ( والخنه ) ضرب منها
- ( والترخيم ) حذف بعض الكلمة لتعذر النطق به
- ( واللثغة ) وقد تقدم الكلام عليها غير اننا رأينا فيها كلاماً حسناً لبعضهم قال :
- وتكون في اربعة حروف ( ق س ر ل ) فالتى تعرض للقف يجعلها صاحبها طاءاً فيقول طلت ( في قلت ) ومنهم من يبدلها كافاً . واما

السين فببدل ثاءاً . والتي تعرض في الراء اربعة احرف منهم من  
يجعلها غيناً ومنهم عيناً ومنهم ياءاً ومنهم زايماً فينطقون لفظ عمرو على  
انواع اللثة هكذا ( عمغ وعمع وعمي وعمز ) . واما التي تعرض في اللام  
فون من اهلها من يبدلها ياءاً ومنهم من يجعلها كافاً وهي لغة قبيحة . اه  
ولا حاجة بنا لايراد الامثلة من ذلك جميعه فانما أردنا بيان نوع من انواع  
الاختلاف الطبيعي في لهجاتهم وذكر هذه الحروف التي تغير شيئاً من هيئة  
المنطق حتى تقفَى بذلك على ما أوردناه ، ونوفي الفائدة مما أردناه .

### تذييل

ولا يفوتنا أن ننبه القراء الى ان انواع الاختلاف التي بسطناها لا  
تزال متحققة في اللهجات العامية المعروفة اليوم في مصر والشام والعراق  
وسائر الاقطار التي يتكلم أهلها الفصحح البلدي أو العربية المطلقة وقد ذهب  
بعضهم الى أن هذا الاختلاف لم يأت عبثاً بل هو طبيعة الاختلاف بين  
العرب الاولين الذين استوطنوا البلاد أيام الفتوح فخرج من أصلابهم  
هؤلاء المتأخرون ومن لم يمت اليهم بنسب كان منهم بسبب من الولاء  
والمخالطة ونحو ذلك . وعلى هذا يكون ما تصيبه في لهجات العوام مما يوافق  
لغات العرب ليس الا نسباً لفظياً يدل على ما وراءه من النسب التاريخي  
بين طوائف العوام وقبائل العرب ...

نم ان اللغة ميراث تاريخي ولكنها كذلك في الجملة فيقال ان لغة أمة  
متفرعة تدل على تحقيق النسبة التاريخية بينها وبين أمة اللغة نفسها ولكن

من الخطأ الواضح أن يقال ان نسب المفردات في الكلام يرتبط بنسب الافراد في المتكلمين فاذا رأيت أهل مصر جميعاً يقولون مشالله في (ما شاء الله) فلا يدل ذلك على أنهم من بقايا عرب الشجر وعمان الذين يحدفون بعض الحروف اللينة وهي اللخلخالية كـ **ل** في موضعه . واذا رأيت كثيرين من أهل البحيرة والغربية يقولون أحما في احمد وتاكو في تا كل والبصا في البصل فذلك لا يدل على أنهم من عرب طيء الذين يقطعون اللفظ قبل تمامه وهي القطعة كما بيناه .

ولو ذهبنا نعارض كل ما كان من هذا القبيل بالمأثور من لهجات العرب على ان نحقق نسبة هذا الميراث المنطقي الى قبائلهم لتقحمنا خطة من الغيب ولأوشكنا أن نضع علماً كله جهل وان كان هذا البحث مما ينبغي للنظر سبلاً من الكلام ويفتق للذهن أموراً من الجدل بيد أنه التاريخ المزور والشهادة الظنية على حق اليقين . والصحيح أن الالسنه هي الالسنه في كل زمان وما جرى عليه العرب في لغتهم جرت عليه العامه في لغتها فهم يتصرفون في المنطق تصرف المتمكن المستقل لان العامية لا ترجع الى قاعدة مضبوطة ولا هي من اللغات المكتوبة فتقف عند حد محدود ولكنهم يلوون بها ألسنتهم على ما يصرفها من الاسباب الخلقية ثم ما تقوم عليه من احوال المجتمع بين موروث ومكتسب . واسننا ننكر البتة ان التقليد قد فعل في اللغة العامية ما فعله في العربية قبلها بل كان أهل الامصار في صدر الاسلام - وهم أصل العامية - يتكلمون على لغة النازلين فيهم من البدو كما كان العرب النازلون بقرب السبل ومجامع الاسواق يتكلمون على لغة من يليهم

من العامة ، واللغة لا تخلق على لسان احد بل لا بد من التقليد والمحاكاة  
ولكننا ننكر نسبة الناطقين الى قبائل من العرب توافقها في هيات المنطق  
بعد أن تصرف أهل الامصار في اشتقاق اللغة كما تصرف العرب واخذوها  
بالتقليد والمحاكاة عن كل شفة وكان لهم في سياستها استقلال اوسع بكثير  
مما كان للعرب

ونحن نذكر هنا كلمة واحدة صح نقلها عن العامية اول عهد لها في الشام  
ثم هي لا تزال دائرة الى اليوم في العامي والفصيح وهي لفظة ( عليه ) فقد  
نقل صاحب الاغاني كلمة من الشعر العامي في دمشق زمن الوليد بن عبد الملك  
جاءت فيها هذه الكلمة ( ويلى علوه ) وهي تنطق كحرف O . وينطقونها  
اليوم في الشام ( علاه ) وقد مرت هذه اللغة عن العرب وفي الفصيح ( عليه )  
وفي اللهجات المصرية الغالبة ( عِلْيَة ) و ( عِلَايَة ) و ( عِلْيَة ) و ( عِلْيَة ) بالامالة  
كحرف E و ( عليه ) بغيرها كحرف I وذلك اكثر ما يمكن أن تدار  
عليه اللفظة فاذا استطعنا تحقيق نسبة هذا المنطق الى قبائل معينة فهل نحقق  
بها نسبة الناطقين أيضاً ؟ هذا ما لا جواب عليه الا انه لا جواب له والتاريخ  
وان كان من الكلام غير انه ليس كل الكلام من التاريخ .



## البقايا الأثرية

### في اللغة

الألفاظ في كل لغة من اللغات إنما هي أدوات الحياة الذهنية الخاصة بالنفس كما أن مدلولاتها أدوات الحياة المادية الخاصة بالحواس فالذهن يشبه أن يكون في علم الحياة كتاباً موضحاً بالرسوم يقرر الحقيقة ويمثلها ويدخل بين اجزائها ولكنه لا يعطيها . فقد تعلم لذة الطعام إذا كنت جائعاً وتتصوره أقرب من قوت ما بين اليد إلى الفم وتخيل منه كل ما تشتهي النفس بل قد تجد طعمه ورائحته إذا كنت شاعراً دقيق موضع الاتصال بين الحواس الظاهرة والباطنة ولكن تلك المائدة الذهنية على كثرة ما وسعت وطيب ما احتوت لا تعدل عندك لقمة واحدة تلجج الفكين .

فالألفاظ مقصورة دائماً عن بيان معانيها بياناً يطابق نوع الخلق ويوافق حالة الوجود فإذا قيل امامك جاء زيد وكنت لا تعرف من زيد هذا لم تعد أن تمثل رجلاً من الرجال ولكنك إذا عرفت أنه تمثل نوعاً من الخلق متميزاً بحالة خاصة من أحوال الوجود . ومن هنا كان التاريخ — الذي هو بيان نفسي محض لا يؤدي إلا بالألفاظ — من المعاني الكلية المبهمة التي لا تثبت على قياس واحد من الحقيقة بل لا بد فيها من الزيادة والنقص لأن مرجعها إلى التصور وهو مجموع ظلال متقلبة على النفس . ومن التاريخ ما لا يقتصر الإبهام على مدلوله فقط ولكن يتناول الألفاظ الدالة أيضاً وذلك لأن

صورته الذهنية تكون في مجموعها ملفقة غير مضبوطة على قياس مألوف من حياة المتكلم فاذا اصاب تلك الالفاظ لم يجد لها في ذهنه رسماً معيناً لانها اطلال زمنية واكثر ما يكون ذلك في العادات والمصطلحات اللغوية التي تتغير بتغير الازمان والاقوام فاذا انقرض أهلها انقرضت معهم وبقيت الفاظها في اللغة مبهمه في ذاتها حتى اذا ألحقت بالشرح التاريخي أو اللغوي الذي يكشف غموضها ويزيل ابهامها دخلت في الحياة الذهنية ولكنها تبقى مع ذلك بالنسبة لانتقطاعها من الوجود بقايا أثرية في اللغة <sup>(١)</sup>

ولو ذهبنا الى المعارضة بين الفاظ الحياة العربية الاولى وما اختصت به من المعاني وبين هذه الحياة الحضرية ومستحدثاتها رأينا قسماً كبيراً من اللغة يتنزل منها منزلة البقايا الأثرية لاننا لا نحتاجه ولا هو مما يعد فضلاً عن الحاجة فينتظر به وقتها وذلك كاسماء الإبل وصفاتها الكثيرة وكاسماء كثير من الحشرات وما جاءت به اللغات المتعددة وهو كثير تطفح به معاجم اللغة ولقد نرى ان ذلك مما يصح ان يسمى (لاتين العربية) قياساً على اللغة اللاتينية التي لا يستعملها الاوريون ولكن يشتقون منها أسماء المصطلحات التي تمس اليها الحاجة فيما يستحدثون من امورهم لولا ان (لاتينا العربي) يحتاج منا الى عربية تلامه فان استحياء الماضي لا يكون الا بالملاءمة بينه وبين روح الحاضر .

---

(١) سنشير الى هذا المعنى بمزيد من البيان عند الكلام على خشونة الشعر

ولسنا الى ذلك نذهب فهو بجملته لا يخرج عما يسمونه وحشياً<sup>(١)</sup> أو غريباً<sup>(٢)</sup> أو حوشياً<sup>(٣)</sup> وانما نريد بالبقايا الاثرية ما أراده علماء اللغة أنفسهم حين جمعوها فانهم عدوا من اللغات منكراً ومتروكاً ومُمتاً. فالمنكر ما لا يعرفه بعض أمة اللغة لكونه مهمل الاستعمال في العرب الا قليلاً وهو دون الضعيف الذي ينحط عن درجة الفصيح كقول بعض اهل الحجاز ذأى النبات يذأى وهي في لغة أهل نجد ذوى يذوي وعليها الاستعمال. والمتروك ما كان قديماً من اللغات ثم ترك واستعمل غيره وهذا ما سميناه آتقاً (بالمصطلحات اللغوية) كالغزّين في بعض تلك اللغات المتروكة أي الشدقين واحدهما غز. والبُعقوط والبُقوط أي القصير ونحو ذلك. والمُمت ما أُميت استعماله كأسماء الايام والشهور في اللغة الاولى على ما زعموا وقد ذكرها صاحب الجهرة وهي هذه :

(١) قال ابن رشيق اذا كانت الكلمة حسنة مستغربة لا يعلمها الا العالم المبرز والأعرابي القح فتلك وحشية

(٢) تتفاوت درجات الغريب بمقدار العناية بحفظه حتى يبلغ أحياناً ان لا يعد غريباً الا ما ذهب معناه وشاهده من العلم فقد كان امام اللغة في عصره محمد بن علي الانصاري الاندلسي المتوفى بالقاهرة سنة ٦٨٤ يقول اعرف اللغة على قسمين قسم أعرف معناها وشاهدها (وقسم أعرف كيف أنطق بها فقط) . وسنذكر أشياء من عنايتهم بالغريب وحفظه في باب الرواية .

(٣) نسبة الى الحوش وهي بقايا ابل وبار التي ذكرناها في أصل العرب . والمراد ان ذلك غريب نادر

السبت	الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة
شِيار	أول	أهون وأوهد	جُبَار	دُبَار	مونس	عَرُوبَة
وأسماء الشهور						

المحرم	صفر	ربيع الأول	ربيع الآخر	جمادى الأولى	جمادى الآخرة
المؤتمِر	ناجر	خوان	وبصان	الحنين	ربي
رجب	شعبان	رمضان	شوال	ذو القعدة	ذو الحجة
الاصم	عاذل	فاتق	وعل	ورنة	برك <sup>(١)</sup>

ومن الممات عندهم لغات في التصريف كقول الكسائي (محبوب من حبيت وكأنها لغة قد ماتت كما قيل دمت أدوم وامت أموت وكان الاصل أن يقال أمات وأدام في المستقبل (المضارع) الا انها قد تركت). ومن ذلك ليس الفعل الناقص — فان بعضهم يظن مضارعه وأمره من الافعال المماتة. ومما عدوه متروكاً من أسماء العادات العربية لزوال معانيه في

(١) ينسب ابن الكلبي ربي وحنينا الى عاد ويجعل الاسمين من لغتهما . . . وقال الفراء في كتاب الايام والليالي خوان من العرب من يشدده ومنهم من يخففه (ومنهم من يلفظه بالخاء) وو بصان منهم من يقول بوضان ومنهم من يقول بوضان . والحنين منهم من يفتح حاءه ومنهم من يضمها . قال وجمادى الآخرة يسمى ورنة سا كن الراء ومنهم من يقول رنة كزنة (وقد تقدم ان ورنة لذي القعدة والفراء يسميه هواعا). وفي هذه الاسماء واشتقاق بعضها كلام كثير وقفنا عليه في كتب مختلفة ولا حاجة لنا به في هذا الموضع



الاسلام : المربع وهو ربع الغنيمة وكان خاصاً بالرئيس ثم صار في الاسلام :  
الخمسة . والنشيطه وهي أن ينشط الرئيس عند قسمة المتاع الشيء النفيس  
يراه اذا استحلاه . والفضول وهي فضول المقاسم كالشيء اذا قسم وفضلت  
فضلة منه كاللؤلؤة والسيف والدرع والبيضة والجارية فكان ذلك من قسم  
الرئيس . وقد جمع هذه العادات كلها ابن غنمة الضبي في مرثيته لبسطام بن  
قيس اذ يقول :

لك المربع منها والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول

اما الصفايا فبقيت في الاسلام وخص بها النبي صلى الله عليه وسلم  
لانه اصطفى في بعض غزواته من المغنم اشياء كالسيف اللهدم والفرس العتيق  
والدرع الحصينة والشيء النادر وذلك يسمى الصفي قالوا وقد زال هذا الاسم  
بعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

والمات من اسماء العادات شيء كثير يستجر الكلام الى قسم من  
تاريخ العرب لا يسعه هذا الموضع فقد كانوا أهل مغاورات وإغرام بالمعاقرة  
والمياسرة ونحوها ولكل ذلك اسماء وصفات فنجتزئ بما ذكرناه . ولكن  
لا بد من التنبيه على شيء دقيق من هذا الباب وذلك أنا لو تدبرنا الكلام  
الذي نستعمله لرأينا اشياء كانت من عادات العرب الخاصة بها ثم نقلتها  
الحضارة الى معنى يناسبها بعد أن انتزعت منها الاصل التاريخي ، فمن ذلك  
أن الواحد يقول نحن فعلنا وليس معه غيره فلا تظن الا أنه اراد تعظيم نفسه  
وأنه ليس لهذا الاستعمال من اصل تاريخي في الكلام . وإنما الاصل أن

العرب كانوا قبائل وجماعات فكان الرئيس الذي له أتباع يفضون لفضبه  
ويرضون لرضاه ويتداعون لألمه كأنهم اجزاء من شخصه يقول امرنا ونهينا  
وغضبنا ورضينا لعلمه بأنه اذا فعل شيئاً فعله تباعه لا يخذلونه ولا يخالفونه  
ثم كثر استعمال العرب لهذا الجمع ملحوظةً فيه تلك الدلالة ثم استفاد في  
الكلام حتى صار الواحد من . . . مة الناس يقول وحده قنا وقعدنا لا يريد  
الا المعنى الحضري المصنوع وهو التعظيم الحقير . . .



## نمو العربية

### وطرق الوضع فيها

العربية أوسع اللغات مدى وأغزرهن مادّة وأوفاهن بالحاجة الحقيقية من معنى اللغة لكثرة أبنيتها وتعدد صيغها ومرونتها على الاشتقاق وانفساحها من ذلك الى ما يستغرق اللغات بجملتها مع انها اقل هذه اللغات أوضاعاً حتى ان المستعمل منها لا يتجاوز ستة آلاف تركيب واذا رددت الثلاثي منه وما فوقه الى التركيب الثنائي لم يكد يزيد ما يخرج منه على ثلاثمائة لفظة هي أصل الاوضاع وسائر التراكيب المستعملة متفرع عنها كما تفرعت سائر مواد اللغة عن هذه التراكيب بالاشتقاق وهي في الجملة لا تقل عن ثمانين الف مادة - عدة ما اشتمل عليه معجم لسان العرب - .

وظاهر أن اللغة لم تترام الى هذا الاتساع الا بعد أن قلبت على وجوه كثيرة في الاستعمال وأديرت على مناحي مختلفة من الوضع بما في أصل تكوينها من الحياة النامية التي تكافئ حياة اهلها وتعاذ أزمنتها بها كثر أغراض هذه الحياة واستفاضت معانيها واستبحرت في مذاهب العمران فهي في الكماية سواء يوم كانت لغة الطبيعة البدوية الخشنة لا تلقيها الا على السنة البدو الذين هم الجزء المتكلم من تلك الطبيعة الصامتة ويوم صارت لغة الحياة المنبسطة تصرّفها الألسنة والاقلام في مناحي من العلوم والآداب والصناعات التي قام بها التمدن الاسلامي . وان صمت الطبيعة البدوية

انما هو في حقيقة الاعتبار جزء متمم في المعنى للغة أهلها كما أن حركة العمران انما هي حركة العمل في مصنع اللغة . وليس يخفى أن حياة اللغة وموتها أمران يؤخذان بالاعتبار فان اللغة الحية هي التي تكون مشايعة بأوضاعها لكل ما يحدث من مستحدثات الحياة فكما خلت ألفاظها المتداولة بين أهلها مما يصور معنى جديداً أو يؤدي غرضاً حادثاً لم تعقم أوضاعها بما ينتج هذا اللفظ الجديد ويسد هذه الخلة الطارئة فهي بذلك فيما تأخذ وتدع كأنها تتنفس والتنفس أول صفات الحياة .

ولكن اللغة التي ترمى بأنها في سبيل اللغات الميتة لا يزال يطرأ عليها النقص كلما زادت مستحدثات الحياة لوقوفها عند حد من الوضع محدود وقعودها بكل طريق تدفع اليه من طرق التعبير فلا يرح أهلها يتناولون من غيرها ويزيدون نقصها حتى تصبح بهذه المداخلة لغة جديدة من عمل الزمن وكأن أصلها بقية من أهلها ، وأهلها بقية من أصلها - لفقدان المميزات الجنسية التي أخص دلائلها اللغة - .

وقد عرفوا الحيّ بأنه الكائن الذي ينمو من باطنه فاذا كان في اللغة ما يساعد على نموها المستمر مع بقائها متميزة في نفسها بحيث تحيل كل ما يدخلها من الفاظ اللغات الاخرى الى أوضاعها الخاصة بها والمقومة لهيئتها فلا تتحيفها الزيادة الطارئة عليها مهما بلغت ولا تخرجها عن حيزها الى مضطرب لا تثبت لها فيه الجنسية ولا ينطبق عليها وصف الاستقلال والا فتلك هي اللغة التي أحق ما توصف به انها سائلة في طرق الكلام وان أهلها صعايلك في طرق التاريخ

والعربية قد غنيت بأوضاعها حتى كأنها خلقت لتمادّ الزمن وفيها من أسباب النمو ما يحفظ عليها شباب الدهر غير أنه قد أصابها ما أصاب أهلها من تبدد الكلمة واضطراب الأمر ووهن الاستقلال وتمزق المجتمع فأصبحت بعدهم كأنها محكومة بقوة خفية لا يعرف ماهي ولا يظهر منها إلا أثرها الذي تتبينه فيما لحق اللغة من الضعف ومارهتها من العجز وفي جمودها على حال واحدة كأنها مقبورة في كتبها منذ تراجع التمدن الإسلامي أيام العباسيين إلى قريب من هذه الغاية . ومتى كانت اللغة صورة الأمة فإن كل ما يتطور هذه يتصل أثره بتلك ضرورة ولذلك بقيت العربية في نفسها على مروتها الأولى حتى يتاح لها أقوام كالولئك الأقوام ، وتفيض لها أقلام كتلك الأقلام .

وليس من غرضنا أن تفيض هنا في هذه المعاني وإنما نريد لنبيين أنواع النمو في هذه اللغة والطرق التي جرت عليها في الوضع إذ لولا ذلك ما خُطت اللغة في التاريخ خطوة واحدة

### طرق الوضع

وأنت إذا تدبرت المأثور من الفاظ اللغة وجدته في الجملة لا يخلو من ثلاث إما أن يكون مرتجلاً أو مشتقاً أو منقولاً على وجه من وجوه المجاز وهذه الثلاث هي طرق الوضع التي تقلبت عليها اللغة وهي تشبه أدوار الخلقة الكاملة فإنها ثلاثة أيضاً : التركيب والقوة والجمال فالمجاز جمال اللغة والاشتقاق قوتها والارتجال تركيب الخلقة فيها ويندر أن تجد ذلك كله

في لغة من اللغات على مقدار ما تجده في العربية فلا جرم كانت حريةً بأن  
تكون مناط الإعجاز لأنها الخلقة اللغوية الكاملة

### الارتجال

هو وضع اللفظ ابتداءً في أول امر اللغة بتقليد الطبيعة كما مر في موضعه  
ولا يمكن ان يحاط بأوائل كلامهم وعلى أي مقادير كانوا يضعونها غير انه مما  
لا شك فيه انه لم يبق وجه للزيادة على ما ارتجلوه لتقليدهم صور التراكيب  
المرتجلة على كل ما في آلات الصوت من المقاطع بحيث لم يدعوا منها الا  
المستكره المبذوء مما يتعمق به اللسان وينبوء عنه السمع ولا يكون منه الا  
تنكير الأسلوب وتغيير دياجة اللغة . بيد ان هذا انما هو في الارتجال الذي  
تُراعى فيه النسبة بين اللفظ الموضوع والمعنى الموضوع له كحاكاة الاصوات  
والحركات الطبيعية ونحوها اما فيما عدا ذلك فان العرب كانوا يتصرفون  
في لغتهم فيرتجلون الفاظاً قليلة ليست فيها ولا هي مأخوذة بالاشتقاق كما  
يصنع كثير من العامة اليوم فقد يتفق لاحد ان يصنع كلمة يرتجلها لمعنى  
من المعاني على طريق التطرف والتلمح فلا تلبث ان تشيع وتصير من أصل  
اللغة وكذلك كان يفعل العرب

قال ابن جني فيما ينفرد به العربي من اللفظ ولا يسمع من غيره ما  
يوافقه ولا ما يخالفه : انه يجب قبوله اذا ثبتت فصاحته لانه اما ان يكون  
شيئاً أخذه عن نطق به بلغة قديمة لم يشاركه في سماع ذلك منه احد . . او  
شيئاً ارتجله فان العربي اذا قويت فصاحته وسمت طبيعته تصرف وارتجل

ما لم يسبق اليه فقد حكي عن رؤبة وأبيه<sup>(١)</sup> انهما كانا يرتجالان الفاظاً لم يسمعاها ولا سبقا اليها . اما لو جاء ذلك عن متهم أو من لم ترق به فصاحته ولا سبقت الى الانفس نقته فانه يرد ولا يقبل . اه ومهما يكن من ذلك فان الارتجال أمر مفروغ منه لان تاريخ الشباب كله لا يقع فيه يوم واحد من عهد الطفولة

### الاشتقاق

كل ما وضع من اللغة ارتجالاً فانما وضع لمناسبة بين الدال والمدلول على وجه من الوجوه ولولا تحقق هذه المناسبة ما تأتى للوضع ان يشتق لفظاً من لفظ لان الاصل في الاشتقاق المناسبة في المعنى والمادة . فلولا اعتيادهم مراعاة المناسبة في الوضع الاول ما تنبهوا اليه في الوضع الثاني لان بعض الاشياء يدعو الى بعض والارتقاء سنة لا بد فيها من اطراد النسبة .

وعلى هذا أمكنهم أن يجعلوا كل مقطع من المقاطع الثنائية اصلاً في الدلالة ثم يفرعون عنه بالاشتقاق معانيه الجزئية المختلفة التي ترجع في أصل الدلالة اليه فكان المعاني سلاسل مرتبة تنحصر كل طائفة منها تحت جنس معلوم على ما قرروه في مذهب النشوء والارتقاء . ولا يزال هذا التسلسل متحققاً في اللغات السامية الباقية الى اليوم وهو اظهر في العربية منه في اخواتها

---

( ١ ) رؤبة بن المعجاج . هو وأبوه راجزان مشهوران من العرب وكان رؤبة خاصة بصيراً باللغة فيما يحوشها وغريبها حتى لا يرون في التشبيه ان معد بن عدنان أفصح منه وتوفي رؤبة بالبادية سنة ١٤٥ عن سن خاليه

حتى ذهب بعض العلماء الذين استقروا تراكيب اللغة الى ان هذا الاصل  
'مستصحب في كل تركيب بحيث لا يخلو مما يرجعه اليه ولو تأويلا من  
طريق المجاز الا ما تخلف عن سلسلته لامر طارئ على أصل الوضع كأن  
يكون مبدلاً من لفظ آخر او مقلوباً عنه أو داخلاً في تركيب المادة من  
لغة أخرى لان العلماء الذين دونوا هذه اللغة جمعوها من لغات كثيرة بعد  
أن تداخلت هذه اللغات بعضها في بعض لتعاور العرب ألفاظها جميعاً فحفي بهذا  
التداخل كثير من وجوه الوضع الاشتقائي وأضاع النقل كثيراً من الفاظ  
اللغة مما انشأت به سلسلة أوضاعها فاصبحت بحيث لا يمكن أن يدل فيها  
على تحقق التسلسل الا باعتبار الأغلب الأعم .

وقد نقلوا عن بعض المعتزلة أنه ذهب الى أن بين اللفظ ومدلوله  
مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع وكان بعض من يرى هذا الرأي  
يقول إنه يعرف مناسبة الالفاظ لمعانيها فمثل ما مسمى ( اذغاغ ) وهو  
بالفارسية الحجر فقال أجد فيه يباساً شديداً وأراه لحجر ... أما خواص أهل  
اللغة والعربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الالفاظ والمعاني وقد  
عقد لها ابن جني باباً في الخصائص سنشير اليه عند الكلام على التمدن اللغوي  
واول من ابتدع القول بأن المعاني سلاسل مرتبة وأن الالفاظ المختلفة  
ترد في الاشتقاق الى قدر مشترك هو فيلسوف العربية أبو الفتح بن جني  
المشار اليه وكان شيخه ابو علي الفارسي يأنس بهذا الرأي قليلاً . أما علماء  
العربية فقد قالوا ان ذلك ليس معتمداً في اللغة لان الحروف قليلة وانواع المعاني  
المتفاهمة لا تكاد تنتهى ... ولا ينكر مع ذلك أن يكون بين التراكيب



المتحدة المادة معنى مشترك بينها هو جنس لانواع موضوعاتها ولكن التحيل على ذلك في جميع مواد التركيب كاطلب لعنقاء مغرب . وجواب ذلك عندنا ما تقدم الايماء اليه من مداخلة اللغات وتفريط النقلة ونحو ذلك مما لا ينتظم به امر التاريخ اللفظي في هذه اللغة .

ولابن جني في تحقيق رأيه كلام سابغ الذيل سنشير اليه في الفصول التالية اما الكلام على الاشتقاق من حيث هو علم ذو اقسام وحدود فهو مبسوط في مواضعه من كتب الصرف والكتب الاخرى المجردة في هذا العلم ولا حاجة بنا اليه لانا انما نريد جهة التاريخ منه وكونه سبباً من اسباب نمو اللغة وطريقة من طرق نشأتها . وقد قلنا في تحقيق المناسبة بين الالفاظ والمعاني وأن اكثر أهل اللغة والعربية مطبقون على ثبوتها لانها في الحقيقة ليست الا توسعاً في المناسبة الاولى التي هيأت للواضع أن يضع بالتقليد والمحاكاة . ونحن ذاكرون طرفاً مما يثبت تلك المناسبة :

قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى (ومما رزقناهم ينفقون) أنفق الشيء وأنفقه أخوان ولو استقرت الالفاظ وجدت كل ما فاؤه نون وعينه فاء دالا على معنى الذهاب والخروج .

وقال في تفسير قوله عز وجل (أولئك هم المفلحون) والمفلح بالحاء والجيم الفائز بالمطلوب كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر وهذا التركيب وما يشاركه في الفاء والعين نحو فلق وفلذ وفلى يدل على الشق والفتح . ولز مخشري عناية بذلك في مواضع من تفسيره ايضاً

ومن هذه الامثلة ان ترا كيب الهمزة مع الباء تدل على النفور والبعد

والانفصال كَأَبَّ للسير وَأَبَّتَ اليوم اشتد حره فقطع الناس وفصلهم عن أعمالهم . وَأَبَدَ الوحش نفر . وَأَبَرَ النخل قطع شيئاً منه . وَأَبَزَ الظبي وثب وانطلق . وَأَبَقَ العبد فرّاً . وَأَجَلَ توحش وانفصل عن الناس . وَأَبَهَ عن الشيء بعد عنه وتنزه . وَأَبَى الضيم نفر منه وهمكذا

والالف مع الزاي تدل تراكيها على الضيق في الامر يقال أزر المجلس اذا ضاق وأزق الرجل ضاق صدره . وأزل صار في ضيق . وأزم ضاق عيشه . وأزى الظل قلص وضاق .

وتراكيب الباء مع الدال تدل على الابتداء والظهور نحو بدأ الشيء وبدأ أي ظهر . وبدح فلانا بالأمر أظهره له من دون روية . وبدح أظهر التعظيم . وبدر اليه بكذا أظهره له . وبدع أي ابتداء . وبدخ بالشر أظهره . وبده بالامر بديهية أي ابتداء به .

والباء مع الذال تدل تراكيها على إخراج الشيء نحو بذى أخرج الفحش في كلامه . وبذح وبذل أعطى فأخرج ما عنده . وبذج أخرج شقشقته . وبذر أخرج سره أو .اله بغير تقدير . وبذن أقر بما يخفيه فأخرجه .

والباء مع الراء تدل على الظهور نحو برأ الله الخلق أظهره . وبرت دل على الشيء فأظهره . وبرج ظهر ومنه التبرج . وبرح الخفاء ظهر . وبرخ زاد فظهرت فيه الزيادة وبر ظهر وبرز كذلك . وبرش ظهر بياضه . وبرص مثله وبرض الماء ظهر .

وكذلك الباء مع الزاي كبرز أظهر فضائله . وبرج الصيد خرج . وبرز

النبات خرج بزره . وبزغ الغلام ظهر ظرفه . وبزغت الشمس طلعت وبزقت مثله . وبزل ناب البعير طلع . وبزن الحق ظهر وهلم جرا .

ولو استقرت تراكيب اللغة كلها لوجدت مواد كل تركيب ترجع الى أصل واحد ولو تأويلا من طريق المجاز الا ما تخلف عن سلسلته لأمر طارئ كما أشرنا اليه في صدر الكلام . وليس يخفى ان سلسلة الاشتقاق في كل لفظة انما هي نسق تاريخي في تدوين نسبها اللغوي وفروع هذا النسب وقد بينا من قبل أن الرواة أغفلوا كل ما يتعلق بالجهات التاريخية في اللغة فلا جرم انثمت سلاسل الاشتقاق وضاع كثير من تلك الانساب الا ما تدل عليه مشاهات الحلقة اللفظية وهو ما يعرف بالاستقراء كما مثلنا له آنفاً

وكذلك ترى في أكثر صيغ الامثلة من الفعل والاسم على السواء فان القياس ثابت فيها ثبوتاً بيناً كصيغتي فاعل وتفاعل وكوزن فعلة في الاسماء<sup>(١)</sup> وغير ذلك مما نبهوا على اطراد القياس فيه وأحصوا شواذه وهو خارج عن غرضنا في هذا الكتاب

(١) فاعل تأني للمشاركة كضارب . وتكرار الفعل وموالاته بمضه لبعض كتابه بدينه . واطلب الفعل من طريق المزاولة والعلاج ولازمه التكرار ايضاً كسابق وقائل لان هذا طلب كل من المتشاركين الغلبة لنفسه ونحو خادع وخاتل . والمشاركة قد تكون بين اثنين ليس فاعل الفعل واحداً منهما كطارقت النعل اذا خصفت عليها نعلا أخرى وضاعفت الشيء اذا زدت عليه ضعفاً آخر .

وتفاعل تكون للمشاركة كتضارب القوم وتكون لوقوع الفعل مكرراً كنهات المرأة ولوقوعه في مهلة نحو تكامل وتناهى .

ولو أن أحدا عكف على هذه اللغة فتبع الفاظها وتدبر وجوه اشتقاقها وتفقد مواقعها في كلام العرب ورتب صيغها وأوزانها على ما تقتضيه أغراضها بحيث يستقر كل مثال منها في نصابه ويرد إلى حيزه لجاء من ذلك بعلم يكشف عن كثير من أسرار الوضع ويهتك عن استار الحكمة المستكنة في دقائق هذه اللغة العجيبة التي يزيد في العجب منها أنها لغة تلك العقول الفطرية والفطرة وإن كانت دائماً تختص بمسحة إلهية إلا أنها تكون أصل الكمال في النفس لا نفس الكمال . وهذه اللغة يوشك أن يكون أمرها معجزاً على ما رأيت بحيث لا يغلو في رأينا من يقول إنها بسبيل من الأوضاع الإلهية (في التوفيق والالهام) لأن أثر ذلك قد ظهر في القرآن .

### المجاز

وهذا هو الوضع الأخير في اللغة ولذا تجد مراعاة المناسبة فيه على ضعف وجوها فكأنهم في الوضع الأول <sup>وهو المراد بالمجاز</sup> مراعاة المناسبة الثابتة التي لا زيادة فيها ثم توسعوا في هذه المناسبة بنوع من التصرف في الوضع الثاني وهو الاشتقاق ثم بلغوا آخر حدودها (المناسبة) في المجاز وهذا مما يؤكد أن اللغة كلها حكاية للطبيعة فإن كان ثم توقيف أو وحي فيكون في هداية العقول إلى

وفعله تأتي اسماً للطائفة المجتمعة كالخزعة والعصبة . وللشيء القليل أو البقية من الشيء بعد ذهاب معظمه كالعقبة البقية المرق في القدر والنزفة للقليل من الماء . وتكون لمعنى الشيء يؤخذ بمرة ومن لوازمه الاجتماع والقلة كاللجمة والجرعة من الماء . وتكون اسماً لما توسط شيئاً فجمعه كالوصلة والرقعة . وتكون اسماً للافعال كالفرقة والحرقة

أسرار هذه الحكاية ولا بد في استكناه منطق الطبيعة من الذهن الشفاف والبصيرة النفاذة والالهام الخفي الذي يشبه أن يكون قبساً من النور الالهي يضيء بين العقل والقلب فلا يقع شعاعه على جهة من الطبيعة الا كشف منها عن معاني الاسرار الالهية .

والمراد من المجاز التوسع في الحقيقة لان الالفاظ الحقيقية تمضي لسننها المعروف فلا يبقى ثمت وجه لتقوية الحقيقة المرادة منها بالاتساع أو التوكيد أو التشبيه . وليس يخفى أن الحقيقة الواحدة تتنوع في ذاتها الى اجزاء متشابهة وتنوع في معناها أيضاً على درجات من الضعف والقوة فاذا كان معنى (الكوكب) في الوضع اللغوي الدلالة على هذا الجرم السماوي الذي يشبه نكته بيضاء في رأي العين . ثم رأيت في عين الانسان نكته بيضاء تغشى سوادها فقد تجزأت الحقيقة النظرية هنا في ذاتها فتطلق على بياض العين (النكته) اسم الكوكب مجازاً للمناسبة بين الاثنين في الشكل . وكذلك تقول في التوكيد فلان أسد تريد اثبات شجاعته في النفوس بدرجة متناهية موكدة . ثم تقول في التشبيه فلان على جناح السفر أي لا يلبث أن يسافر كأنه طائر بسط جناحه فليس الا أن يطير . وانما مدار ذلك كله على التوسع في المثال الحسي اذا ضاقت به الحقيقة المألوفة في التعبير .

ولسنا نخوض هنا في انواع المجاز وجهاته وتحقيق القول في الاستعارة وأقسامها فذلك من موضوع علم البيان بل هو البيان كله على ما قيل وانما نتناول الكلام من حيث يتصل بمعنى التاريخ . فالمجاز صنعة حقيقية في اللغة لا تنهياً الا بعد ان يكون العرب قد استكملوا اسباب النهضة الاجتماعية من

المخالطة واقتباس بعضهم عن بعض واعتبارهم أنفسهم في أمر اللغة مجموعاً معنوياً  
فينصرفون الى تشقيق الكلام وتتبع أظلال المعاني في اجزائه حتى تتسع  
لغتهم على نسبة هذا الاجتماع المعنوي وذلك ما سنفرد للكلام عليه باب  
التمدن اللغوي :

لا جرم كان للمجاز في اللغة هذا الأثر الذي بسط منها حتى فاضت  
أطرافها على المعاني وترباً فيها من أنواع الوضع وطرق التعبير ما يعد في اللغات  
ميراثاً خالداً تستغل منه المعاني في كل جيل ويضمن للغة الثروة وإن افلس  
أهلها . . .

والوضع بالمجاز يعتبر اشتقاقاً معنوياً فالتمهياً للعرب أخذه من طريق  
الاشتقاق أخذوه بالنقل من طريق المجاز وبذلك وسعوا لغتهم من جهات :  
( ١ ) الاكثار من الالفاظ وتعدد الوضع الواحد تفننا في التعبير  
كما تسمى الخوذة بالبيضة وبالتركة وهي بيضة النعام بعد أن يخرج منها الفرخ  
وكتسمية المطر بالسما والنبات بالغيث ونحو ذلك .

( ٢ ) التذرّع الى الوضع فيما لم يوضع له لفظ من المحسوسات  
كتسمية البياض في العين بالكوكب وغضروف الاذن بالمحارة والهنية  
الناشزة في مقدم الاذن بالوتد . وكقولهم ذؤابة الرّحل للجلدة المعلقة على  
آخره وعنق الإبريق وساق الشجرة وإبط الوادي ونحو ذلك .

( ٣ ) التذرّع الى الوضع لتمثيل صور المعاني كقولهم نبض البرق اذا  
لمع خفيفاً من نبضان العرق وسبح الفرس اذا مد يديه في الجري كما يفعل  
الساج في الماء ورتقت السفينة اذا دارت في موضع واحد لا تمضي من ترنيق

الطائر وهو ان يحقق بجناحه ويرفرف ولا يطير .

( ٤ ) الرمز الى حقائق المعاني كقولهم سافر ولا ظهر له أي ولا دابة يركب ظهرها . وفلان يملك كذا رقبة أي عبداً وقطع الأمير اللص أي قطع يده وبزات الخمر أي ثقت ذنها وهلم جرأ . وهذه الجهات الاربع الاصلية تجمع انواع المجاز وكل ما يحمل على هذه الانواع . ثم هي معان تشبه أن تكون تاريخية في حركة النمو والاتساع من هذه اللغة ولذلك استخرجناها وعدلنا اليها عن تقسيم علماء البيان فان لهم في بحث المجاز كلاماً مستفيضاً مضطرباً لا يؤخذ منه شيء يلتحق بفرضنا في هذا التاريخ .

وقد رأينا أن ننقل مادة من مواد اللغة تمثل هذا الوضع وكيف اتسعت به اللغة حتى قلب المعنى الواحد على صور كثيرة وهي مما نقله بعض اللغويين مثلاً لما نحن بسبيله . ومثل هذه المادة كثير في اللغة تطفح به معاجها وانما خصها بالذكر لسعة التصرف فيها ووضوح المآخذ وهي مادة ( ك ف ف ) . وأصل المعنى فيها الكف وهي الجارحة المعروفة والكلمة مشتركة بين العربية وغيرها من اللغات السامية ومأخذها في العبرانية والسريانية من معنى الانحناء والانعطاف . هذا اصلها ثم اشتقوا منها قولهم كفّه عن الامر اذا منعه كأنه دفعه بكفه فنقلوا معنى الكف الى لازمها وهو من المجاز المرسل . وقيل من هذا كفّ هو عن الامر اذا امتنع فنقل الفعل من التعدي الى الزوم وهو من قبيل ما سبقه . ثم قيل استكفّ السائل وتكفّف اذا طلب بكفه ويقال ايضاً استكفّ بالصدقة اذا مدّ يده بها يعطيها فضمن الاول معنى الاستعطاء والثاني معنى الاعطاء وكلاهما مما ذكر . ومن هذا القبيل

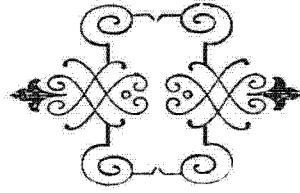
قولهم استكففت الشيء إذا استوضحته بأن تضع كفك على حاجبك كمن يستظل من الشمس فاستعمل هنا في معنى آخر من لوازم الكف .

ومن معنى كفّ عن الأمر قيل كفّ بصره وهو من المجاز المرسل من قبيل استعمال العام في الخاص . وفي مثل مأخذه قولهم عنده كفاف من الرزق أي ما كف عن الناس وأغنى .

ثم قيل من معنى الكف للجراحة كفة الميزان وكفة المقلع لشبهها بالكف في الهيئة وهي من الاستعارة . ثم استعيرت الكفة لعود الدفّ لشبهه بكفة الميزان في الاستدارة والاحاطة ومثلها الكفاف وهو ما استدار بالشيء . والكفة أيضاً النقرة المستديره يجتمع فيها الماء وهي مما ذكر . ومن معنى الاستدارة قيل كفة الصائد وهي الحباله يجعلها كالطوق . ومثلها كفة اللثة وهي ما انحدر منها على اصول الاسنان وكفة القميص وهي ما استدار حول الذيل وكذلك كفة الدرع وهي أسفلها . ثم قيل من هذا المعنى استكفوا حوله إذا احاطوا به ينظرون اليه واستكفت الحية إذا ترحت أي استدارت كهيئة الرحى . ومن كفة القميص قيل كفة الثوب وغيره وهي حاشيته . ومن معنى الحاشية قيل كفة الشيء بمعنى حرفه وكفاف السيف بالكسر بمعنى غراره (أي حده) وكل ذلك على التشبيه . ثم قيل من معنى الحاشية كفّ القميص إذا خاط حاشيته . ومن معنى الحرف كفّ الاناء إذا ملأه ملاء مفراطاً كأن المعنى ملأه حتى بلغ كفته . وبقيت معان من هذه المادة ترجع الى معنى الكف أو شيء من المجاز المأخوذ عن بعض المعاني الراجعة اليه بحيث ترى المعاني سلسلة متصلة من اول المادة الى آخرها .



✓ وهذا هو الاصل الذي عليه معظم كلامهم فاذا تدبرته رأيت أن أكثر اللغة مجاز لا حقيقة وتبينت صحة قولهم أن منكر المجاز في اللغة جاحد للضرورة ومبطل محاسن لغة العرب . وقد ذكروا أن بعض العلماء يذهبون إلى أن اللغة كلها حقيقة وإن تسمية الرجل الشجاع بالأسد لغة لقوم وتسمية الحيوان المفترس بالأسد لغة أخرى . وهو رأي بين الآفان وأكبر ظننا أنه لم يقل به أحد وإنما أورده بعض علماء الأصول لأنه مما يتمحل له ويرد عليه ويكون مادة في الجدل وذلك من أمرهم والله اعلم .



## انواع النمو في اللغة

تلك هي طرق الوضع التي سلكوا منها الى اللغة في كل أطوارها حتى أصبحت من الاتساع والنمو ما هي ولكن لهذا النمو انواعاً تحدد في جملتها أجزاء هذه اللغة وتصف تاريخ اتساعهم فيها وهي من هذه الجهة تعتبر تماماً على الذي تقدم وتفصيلاً له وتلك هي: الإبدال، والقلب، والنحت، والترادف، والاشتراك، والتضاد، والمداخلة، والتعريب، والتوليد، ونحن نوفيها حظها من الكلام على مقدار حظها من التاريخ.

### الإبدال

وهو إبدال الحروف وإقامة بعضها مقام بعض كما يقولون مدح ومدّه، واستعدى عليه واستأدى وقد أسلفنا في الكلام على أصل الوضع أن الدورة الجديدة التي دارت بها الحروف بعد وضع المقاطع الثنائية كانت بالقلب والإبدال، والدليل على ذلك أن أكثر ما يجري فيه الإبدال من اللغة إنما هو الألفاظ الطبيعية الأولى التي كانت من حاجة الإنسان أول عهده بالتعبير كالقطع والكسر والمهدم والشق والخرق والفرقة والتبديد وهي المعاني الوحشية في لغة الإنسان، ثم لما انتقاد الوضع بهذه الطريقة لاهل اللغة جعلوها من سنتهم وقلّبوا عليها الألفاظ الأخرى مما ليس بسبيل من تلك المعاني، والغريب أن فعل القطع يكاد يكون الأصل في أكثر هذه اللغة فقلما تناولت مادة الأريت أثره المعنوي فيها ولو تأويلا من طريق

المجاز وهذا ايضاً مما يؤكد ان اللغة نطق عن الطبيعة .

ثم ان الابدال من حيث اعتبار الوضع اللغوي فيه نوعان : الاول أن يكون لغات مختلفة لمعان متفقة كعلمني ولأني . وان فعل و هن فعل ونحوها مما مر في اختلاف اللهجات فيختلف اللفظان للاسباب اللسانية في القبائل المختلفة ثم تحفظ صورة كل لفظ على انها لغة فلا تشترك العرب في النطق بالصورتين تعمداً منها لتعويض حرف من حرف انما يقول هذا قوم وذاك آخرون . وقد سأل اللحياني أعرايياً أتقول مثل حنك الغراب او مثل حلكه . فقال لا أقول مثل حلكه . وسأل أبو حاتم أم الهيثم الاعرابية كيف تقولين أشد سواداً مماذا . فقالت من حلك الغراب . فقال أفتقولينها من حنك الغراب قالت لا اقولها ابداً

والنوع الثاني ما يعتمد فيه الوضع في لغة القبيلة الواحدة فتقوم كل من الصورتين بمعنى لا يصح استعمال الاخرى فيه وعلى هذا النوع يتوقف نحو اللغة واتساعها كقولهم لطمه ضربه بكفه مفتوحة . ولداه ضربه بشيء ثقيل يُسمع صوته . وائم أنفه لكمه . ورثمه كسره . ورضم به الأرض ضرب . وكذلك مما يرجع الى معنى الاكل : قضم أي اكل باطراف اسنانه أو أكل يابساً . وخضم أكل باقصى الاضراس أو أكل رطباً . وقطم اي عض أو تناول الشيء . أطراف اسنانه فذاقه . وكزم الشيء كسره بمقدّم فيه واستخرج ما فيه ليأكله . وكدمه عضه بأدنى فيه . وقشم اذا نقي من الطعام رديّه وأكل طيبه . ونحو ذلك من الامثلة الكثيرة في اللغة . فكل أولئك انما يقع فيه الابدال لتجزئة المعاني فترى الالفاظ متقاربة ترجع الى مقطع واحد وهي

بعد متباينة في الدلالة وكذلك ترى معاني كل طائفة منها ترجع الى جنس واحد ثم تتباين متقاربة وبهذا يتحقق الارتباط المتسلسل الذي هو برهان التاريخ على النشء اللغوي

وقد تجد المعنى الواحد الفاظاً متعددة في اللغة ثم تجد كل لفظ قد صار أصلاً في الدلالة وتفرعت عنه الفاظ أخرى على طريق الابدال ثم يدل بكل لفظ على جزء من اجزاء المعنى كما تجد من الفاظ القطع مثلاً قطّ وقصّ وجذّ وغيرها فان هذه الالفاظ وضعت في الاصل حكاية لأنواع من اصوات القطع اما حقيقية او متوهمة فقد تسمع انت صوت الشيء المقطوع كانه ( قط ) ولكن غيرك يتوهمه كانه ( قت ) وقد يكون لبعض الاشياء المقطوعة اصوات اخرى تحكى ( جذّ ) او ( كسّ ) او ( قصّ ) وغيرها . فترى لفظ ( قط ) قد صار اصلاً وتفرع عنه قطع وقطف وقطب وقطم وقطل ونحوها . وترى لفظ ( قص ) قد تفرع عنه قصم وقصل وقصب وقصر وقصف . ومن لفظ ( جذّ ) جذب وجذر وجذف وجذم وهكذا وكما معان متقاربة تتقلب معها الالفاظ المتفرعة عن مقطع واحد وهذا هو اكبر انواع النمو في اللغة لانه اصل نشأتها . والنحويين واهل الصرف كلام في الابدال وحروفه ومقيسه ومسموعه لا يتعلق بفرضنا ولهذا ضربنا عنه صفحاً .



### القلب

وهو تقديم وتأخير في بعض حروف اللفظة الواحدة فتنتطق على صورتين بمعنى واحد كقولهم جذب وجذب . وما أطيبه وما أيطبه . واهل اللغة يقولون ان كل ما جاء من هذا القبيل فهو مقلوب وبذلك لا يعتبر الا لغة واحدة من وضع واحد . وكأن هذا التقديم والتأخير انما هو عارض في المنطق لسبب من الاسباب اللسانية كالحقة والثقل وتابعهم على ذلك النحويون من الكوفيين . اما البصريون فلا يعتبرون القلب الامتى رأوا انه لا يمكن ان يكون اللفظان جميعاً اصلين في المعنى اللغوي بحيث يقصر احدهما عن تصرف صاحبه ولا يساويه فيه كقولهم فلان شاكى السلاح وشائك . وجرّف هارٍ وهائر . وحينئذ يعتبرون اوسع اللفظين في التصرف اصلاً للثاني ويمدون اللفظ الثاني مقلوباً عنه ويكون ذلك عندهم من قبيل الوضع الواحد . وكل ما عدا ذلك مما يتصرف فيه اللفظان تصرفاً واحداً كجذب يجذب جذباً<sup>(١)</sup> وجذب يجذب جذباً فليس بقلب عندهم وانما هما لغتان من وضعين مختلفين وبذا يعد كلا اللفظين اصلاً مستقلاً .

وقد صنف علماء اللغة ما جاء مقلوباً من الالفاظ وعقد له السيوطي في المزهرة النوع الثالث والثلاثين واستقصى فيه كثيراً من امثله ومنها صاعقة وصاعقة ولعمري ورع ملي ونحن في ذلك على رأي البصريين لاننا نرى في بعض اللغات المنسوبة ( ومنها هذان المثالان ) ثبتاً لما ذهبوا اليه

(١) هذا هو معنى التصرف

## النحت

وهو جنس من الاختصار ينحتون من الكلمتين كلمة واحدة كعبشمي وعبقي في النسبة الى عبد شمس وعبد القيس وكما ينسب المولدون الى الامامين الشافعي وأبي حنيفة رحمهما الله فيقولون شفعتني وحنفتني . ولكن هذا الاختصار انما هو زيادة في اللغة لانه يجعل الكلمتين ثلاثاً كما رأيت فضلاً عما فيه من معنى التصرف بخفة اللفظ مع جمع المعنيين في بعض أنواعه كما قالوا عجوز صهـ صلق أي صخابة نحتوه من سهل وصلق والصلق بمعنى الصوت الشديد . ونحو العجمـضى وهو ضرب من التمر يكون في ضاجم (اسم وادٍ) فنحتوه من عجم أي نوى وضاجم هذا .

وقد ذكر ياقوت في معجم الادباء في ترجمة الظهير النعماني اللغوي ان عثمان بن عيسى النحوي البليطي شيخ الديار المصرية كان يسأله (سؤال مستفيد) عن حروف من حوشي اللغة . فسأله يوماً عما وقع في كلام العرب على مثال شَقَحَطَب . فقال هذا يسمى في كلام العرب المنحوت ومعناه ان الكلمة منحوتة من كلمتين (فشقحطب) منحوت من شق حطب فسأله البليطي ان يثبت ما وقع من هذا المثال فأمالها عليه في نحو عشرين ورقة من حفظه وسماها (كتاب تنبيه البارعين على المنحوت من كلام العرب)

وقد ظن بعض المتأخرين من علماء اللغة ان النحت يقع في الثلاثي ايضاً ومثل له بقولهم نبض الماء اذا سال قال فانه يصح ان يكون من نض وبض وكلاهما بمعنى نبض . . وقولهم مؤجج الماء يؤجج فهو مأجج اذا ملح فلا

يكون الا منحوتا من ماء وأجاج... وذلك ليس بشيء لان النحت لا بد فيه من الاختصار الجامع للمعنيين وهذا لا تجده في نبض لانه مرادف لبض ونض ولأن أقرب ما يظن في المأج ان الكلمة مأخوذة من الموج ولازمه الملوحة . والعلماء كلهم مجمعون على ان النحت لا يعرف في الثلاثي .

ومن أنواع التصرف بالنحت في العربية هذه الحروف فان من العلماء من يذهب الى انها بقايا كلمات وقد نص بعضهم على ذلك في أحرف المضارعة فقال إنهم أخذوا الهمزة من أنا والنون من نحن والتاء من أنت وعدلوا عن الواو من هو الى الياء لكونها أخف منه وجعلوا الأحرف دليلاً على ما كانت تدل عليه الاصول تقريباً فكملت المعاني مع وجازة اللفظ .

وقد تتبع علماء اللغات بعض الحروف في اللغات السامية ليعرفوا من أين اخذت وكيف انتهت الى العربية على هذا الوجه فاهتدوا من ذلك الى بعض ما يرجح انها منحوتة . ومن هذه الامثلة التي عينوا اصلها باء الجر فاتها تستعمل في العربية لمعان كثيرة كالا لصاق والتعديّة والاستعانة الخ والاصل في ذلك الا لصاق كما نصوا عليه ولكنها لا تستعمل في غيرها من اللغات السامية الا للظرفية فرأوا ان أصلها (بيت) في العبرانية ثم جاءت (بي) في الكلدانية ثم الباء وحدها في العربية فكان الباء بقية من لفظ بيت كمل بها المعنى الاصيل مع وجازة اللفظ وسعة التصرف وهو بحث طريف ظريف

## الترادف

وهو ترادف لفظين فاكثر على معنى واحد كما تقول السيف والمضب ، والاسد والليث والفضنفر ، والخمر والراح والعقار والقرقف ، ونحو ذلك وقد وجدنا كلامهم في هذا النوع يرجع الى اربعة مذاهب :

(١) بعض العلماء ينكر ان يكون في اللغة ترادف مطلق لان كثرة الالفاظ للمعنى الواحد اذا لم تكثر بها صفات هذا المعنى كانت نوعاً من العبث تجل عنه هذه اللغة الحكيمة المحكمة . وهؤلاء يرون ان كل لفظ من المترادفات فيه ما ليس في الآخر من معنى وفائدة . واشياع هذا المذهب كثيرون منهم ابن الاعرابي وثعلب وابن فارس . وقال ابن الاعرابي ان كل حرفين اوقعتهما العرب على معنى واحد ففي كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه ربما عرفناه فأخبرنا به وربما غمض علينا علمه فلم يلزم العرب جهله . ومن امثلة هذا الذي عرفوه وبينوا وجهه قول العرب قعد وجلس . قال ابن فارس : ان في قعد معنى ليس في جلس ألا ترى أنا تقول قام ثم قعد وأخذ المقيم والمقعد . ثم تقول كان مضطجماً فجلس فيكون القعود عن قيام والجلوس عن حالة هي دون الجلوس لان الجلسة ( في اللغة ) المرتفع والجلوس ارتفاع عما هو دونه وعلى هذا يجري الباب كله .

(٢) بعضهم يذهب الى انكار الترادف مطلقاً بقيد الزيادة في معاني الالفاظ المترادفة وبدون هذا القيد فيعتبر الموضوع للمعنى الاصلي اسماً واحداً والباقي صفات له لا اسماً . فاسماء السيف كلها اصلها السيف



وسائرهما صفات له كالمهند والصارم والمضب ونحوها ومن القائلين بهذا الرأي أبو علي الفارسي شيخ ابن جني . وموضع الاختلاف بين هذا الرأي وما قبله في اعتبار الفرق بين الاسم والصفة فاصحاب المذهب الاول يعتبرون المترادفات اسماً تزيد معنى الصفة وهؤلاء يعتبرونها صفات محضة .

(٣) والمذهب الثالث إثبات الترادف ولكنهم يخصونه باقامة لفظ مقام لفظ آخر لمان متقاربة يجمعها معنى واحد كما يقال أصلح الفاسد ولم الشعث ورتق الفتق وشعب الصدع ونحوها اما اطلاق الاسماء على المسمى الواحد فيسمونه المتوارد كالحجر والعقار . والليث والاسد وغيرها . وهذا المذهب من تقسيم بعض علماء الاصول

(٤) والمذهب الرابع إثبات الترادف مطلقاً بدون قيد ولا اعتبار ولا تقسيم وعليه اكثر اللغويين والنحاة وقد قال ابن درستويه في هؤلاء « انما سمعوا العرب تتكلم بذلك على طباعها وما في نفوسها من معانيها المختلفة وعلى ما جرت به عاداتها وتعارفها ولم يعرفوا العلة فيه والفروق فظنوا أنهما (أي اللفظين المترادفين) بمعنى واحد وتأولوا على العرب هذا التأويل من ذات أنفسهم فان كانوا قد صدقوا في رواية ذلك عن العرب فقد أخطأوا عليهم في تأويلهم مالا يجوز في الحكمة »

والصحيح من ذلك كله ان اوضاع العرب تختلف لانهم متصرفون في اللغة لا يعرفون لها قيوداً اصطلاحية وما من عربي الا وهو في حكم العرب كلهم باعتبار الفطرة اللغوية التي يرجع اليها أصل الوضع لان اللغة مفردات وضعها أفراد وقد كانت لهم أشياء كأنها مظاهر الطبيعة المتسلطة عليهم بمعانيها

المتناقضة وصفاتها المتباينة لبلوغها الغاية في مألوفهم من اللذة والألم والمنفعة والمضرة وهذه يراها كل عربي ويحدث عنها ويصفها على ما يجد في نفسه من أثرها وعلى ما يراه من صفاتها المختلفة فلا جرم اختلفت الالفاظ الموضوعه لها بحسب ذلك . ومن هذه الالفاظ ما يكون أسماءاً من وضع القبائل المتعددة ثم تسمع كل قبيلة لغة الاخرى فيأخذ بعضها عن بعض استطرافاً وتوسعاً في الكلام . ومنها ما يكون صفات يتصرف في وضعها أفراد كل قبيلة فلا تختص بالوضع الواحد لما علمت من اختلاف السبب الحامل على اشتقاقها ثم تنزل هذه الصفات منزلة الحقائق العرفية بعد ان تكون قد فشت في الاستعمال وتلتحق ألفاظها بأصل اللغة . وهذا هو القسم الاكبر من المترادفات كثرت عندهم أسماءه وصفاته لما أشرنا اليه آنفاً وأشهر ماورد منه أسماء العسل وهي ٨٠ والأسد ٣٥٠ وقيل ٥٠٠ وقيل ٦٧٠ والحية ٢٠٠ وقيل ٥٠٠ والداهية ٤٠٠ وقيل أربعة آلاف <sup>(١)</sup> والحجر ٧٠ والكلب ٧٠ والسيف ٣٠ وقيل الف والناقة ٢٥٥ والبعير ١٠٠٠ <sup>(٢)</sup> والشمس ٥٢

(١) تختلف هذه الاسماء كثرة وقلة باعتبار سعة الرواية وضيقها فمن الرواة من يجوز كل ما اتصل به ومنهم من يضيق فلا يروي الا ما صح عن العرب . وقد يكون الاختلاف من الاقتصار على الاسماء دون الصفات عند قوم وعد الاسماء مع الصفات عند آخرين .

(٢) مما ثبت مذهبنا اليه في تعليل الترادف انه ليس في كلام العرب اسم جمع ست مرات الا الجمل فانهم جمعوه أجلاً ثم أجلاً ثم جاملاً ثم جملاً ثم جمالات

والحجر ١٠٠ وقيل ٢٠٠ والبئر ٨٨ والماء ١٧٠ وغير ذلك وخاصة ما يدخل في باب الصفة كصفات الطويل والقصير والشجاع والجبان والكريم والبخل ونحوها من الصفات الشائعة التي أجمعوا على مدحها أو ذمها وقد استوفى صاحب المخصص في كتابه قسماً كبيراً منها .

على ان ثمت شيئاً هو أكثر الفاظ العربية ترادفاً وهو (الميل الجنسي) فلا تكاد تتصفح مادة في القاموس المحيط حتى تصيب من مترادفاته لفظاً أو أكثر وذلك مما يثبت ما بيناه من سبب الترادف الكثير الذي هو مثار العجب .

أما النوع الثاني من المترادف وهو القسم الأصغر منه الذي تقل فيه الفاظ المعنى الواحد فانه يكاد يكون طبيعياً في اللغات كلها ومأثراً في العربية من اختلاف الأوضاع لتعدد القبائل كالمدينة في لغة دوس والسكين في غيرهم ولا يتعين في مثل هذا النوع أن يكون في كل كلمة زيادة في المعنى والفائدة عما في غيرها لان كلا اللفظين موضوع لمعنى واحد لا زيادة في دلالة الا اذا اعتبرنا اصل الاشتقاق والسبب الحامل للوضع على أن يضع والا اذا كان كلا اللفظين يمثل حالة مما يصح فيه الاختلاف كجلوس وقعد مثلاً . وتجد لاهل الاشتقاق في هذا المذهب تعسفات كثيرة وتأويلات باطلة كقول

جمع الجمع . وأكثر ما يكون الجمع عندهم مرتين أو ثلاثاً لا يجاوزن ذلك . وانما كان هذا لمكان الجمل من العرب جميعاً اذ هو جبل الحياة الذي تعصم به أرواحهم من طوفان الطبيعة العريية . ولما كانت الناقة الأكرم عليهم منه جمعوها سبع مرات فقالوا ناقت ونوقا وناقاً وأيانق ونياقاً وأينقا وأنوقا

بعضهم ان الانسان سمي انسانا باعتبار النسيان أو باعتبار أنه يؤنس وسمي بشرا باعتبار انه بادي البشرية . . . فكأن لفظ النسيان الذي يدل على معنى جزئي معقول وضع قبل لفظ الانسان الذي هو مدلول اللغة كلها . وذلك هو التاريخ الميت الذي حسابه عند ربه .

وقد افرد بعض العلماء انواع المترادف بالتأليف فوضعوا كتباً في اسماء الاسد والحية والسيف والداهية وغيرها ولصاحب القاموس كتاب سماه ( الروض المسلوف ، فيما له اسمان الى الالوف ) ولم يعثر عليه احد ولا رأينا منه مادة منقولة في كتاب من الكتب

### المشترك

وهو عكس المترادف لانه محجب ، اللفظ الواحد لمعنيين فاكثر كالارض لهذا البسيط ولاسفل قوائم الدابة وللنفضة والرعدة وللزكام . وأرض الخشبة وهو أن تأكلها الأرضة . وهذا لا شك في أن مأتاه من تعدد الوضع وتباين اللغات لان الالفاظ متناهية والمعاني لا تتناهي فاذا وزعت هذه على تلك لزم الاشتراك واختصاص اللفظ الواحد بمعنيين أو اكثر . والقسم الاكبر من المشترك كلمات معدودة اشهرها ما تعلق عليه شعراء المتأخرين كما ستعرفه في بحث الصناعات اللفظية وجملة ذلك خمسة الفاظ وهي : العين والخال والهلال والغرب والعجوز . فمن معاني العين مثلاً عين الانسان . والنقد من الدراهم والدنانير . ومخرج ماء البئر . ومطر ايام لا يقلع . والجاسوس . ونفس الشيء الخ وقد توسع المتأخرون من الشعراء في معاني

هذه الكلمات لتبلغ بها أنفاس القوافي كما سندكره في موضعه ان شاء الله  
لا جرم أن الاشتراك وجه من وجوه الوضع في اللغة فإن أكثره راجع الى  
الاشتقاق والمجاز كما يقال مشى من المشي ومشى اذا كثرت ماشيته . وكما  
تقلوا من اسماء الطير لاجزاء الفرس فسموا العظم الذي في أعلى رأسه بالهامية  
وهو اسم طائر . وسموا دماغه الفرخ . والجلدة التي تغطي الدماغ بالنعامة .  
والعظم الذي تثبت عليه الناصية بالمصفور الخ وهي عشرون اسماً .

### المشجر والمسلسل

وقد استخرج اللغويون من الاشتراك في اللغة ومداخلة الكلام للمعاني  
المختلفة نوعاً سموه المشجر وبعضهم يسميه المسلسل متابعة لرواة الحديث فيما  
يُنظر هذا النوع عندهم . وذلك أن يجيئوا بالكلمة المشتركة فيعتبرونها شجرة  
يفرعون من معانيها المختلفة فروعاً ويسترسلون في تفسير الكلام على الوجه  
المشترك حتى تبلغ الشجرة مائة كلمة او اكثر وكلها متسلسلة من كلمة واحدة

### نماذج هذا النوع

وأول من وضع كتاباً في ذلك ابو عمرو المطرّز الراوية المتوفى سنة  
٣٤٥ فقد عمل عليه كتابه الذي سماه ( المداخل في اللغة ) وكان يعاصره ابو  
الطيب اللغوي المتوفى بعد سنة ٣٥٠ بقليل فعمل كتاباً سماه ( شجر الدر )  
وجعل كل شجرة مائة كلمة الا شجرة ختم بها الكتاب عدد كلماتها ٥٠٠ وقال  
في كتابه انما سمينا الباب شجرة لاشتجار بعض كلماته ببعض اي تداخله .

فاخذ وضع المطرز وزاد فيه وابتدع له تسمية جديدة . ثم جاء ابو الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله التميمي المتوفى بمدينة قرطبة سنة ٥٣٨ فوضع كتابه الذي سماه ( المسلسل ) وقال في مقدمته : كانُ سَمِعَ عَلِيَّ كِتَابَ الْمَدَاخِلِ فِي اللُّغَةِ لِأَبِي عَمْرٍو الْمَطْرُزِ رَحِمَهُ اللَّهُ فَاسْتَنْزَرْتُهُ لِقَدْرِهِ ، وَلَمْ أَحْظَ بِهَلَالِهِ فِيهِ وَلَا بِدَرِهِ ، فَرَأَيْتُ أَنَّهُ رَأَى لَمْ يُسْتَوْفَ تَمَامُهُ ، وَغَرَضُ لَمْ تُقَرِّطِ سَهَامُهُ وَلَعَلَّهُ إِنَّمَا ارْتَجَلَهُ ارْتِجَالًا ، وَجَرَتْ رِكَائِبُهُ فِيهِ عَجَالًا ، فَلَمْ يُدَمِّثْ حَزَنَهُ ، وَلَا أَقَامَ وَزَنَهُ ، وَلَا اسْتَوْفَى غُرْرَهُ ، وَلَا اسْتَقْصَى دَرْرَهُ ، .. فخرّكني ذلك الى صلة ما ابتداء ، وتمكين ما رسم فيه وأنشأ ، وقد ضمن كتابه خمسين باباً افتتح كل باب منها بشعر عربي وختمه بمثل ذلك

### أُمثلة

من أمثلة كتاب أبي الطيب : ( شجرة ) العين عين الوجه ، والوجه القصد ، والقصد الكسر ، والكسر جانب الخباء ، والخباء مصدر خابات الرجل اذا خبات له خباً وخبأ لك مثله ، والخبء السحاب . ثم انسحب على هذا الأثر بعد ( العين ) وقد نقل السيوطي هذه الشجرة في مزهره في النوع الحادي والثلاثين .

ومن امثلة المسلسل هذا الفصل الاول فيه وقد حذفنا شواهد اختصاراً قال :

أنشد أبو عبيدة لصبيان الأعراب وتروى لامرئ القيس

لِمَنْ زُحْلُوقَةٌ زُلُّ بِهَا الْعَيْنَانِ تَنْهَلُ  
يُنَادِي الْآخِرَ الْأَلُّ الْأَ حُلُّوا الْآ حُلُّوا

الألُّ الأول . وأول يوم الأحد . والأحد هو الوحد . والوحد الفرد  
والفرد الثور . والثور الظهور . والظهور الغلبة . والغلبة جمع غالب . وغالب  
أبولؤي . ولؤي تصغير اللأى . واللأى الثور . والثور فحل البقر . والبقر الفرق .  
والفرق تباعد ما بين الثنايا . والثنايا العقاب . والعقاب الموالاة . والموالاة المظاهرة .  
والمظاهرة لبس ثوب على ثوب . والثوب الرجوع . والرجوع الكر . والكر حبل  
النخل . والنخل الخيار . والخيار الحكم . والحكم الحكمة . والحكمة العلم والعدل .  
والعدل القيمة . والقيمة الثمن . والثمن العوض . والعوض البذل . والبذل الخلف .  
والخلف الجبر . والجبر اصلاح الكسر . والكسر كسر جانب البيت . والبيت  
الزوج . والزوج النمط . والنمط من الناس الضرب . والضرب من الرجال  
الممشوق القد . والقد قطع السير . والسير سرعة المشي . والمشي سعي  
الواشي . والواشي المحسن . والمحسن اسم انسان . والانسان صبي العين .  
والعين خاصة الملك . والملك الصيِّدن . والصيِّدن الثعلب . والثعلب ما يدخل  
السنان من القناة . والقناة القامة . والقامة جمع قائم . والقائم مقبض السيف .  
والسيف الضرب به . والضرب الذهاب في الارض . والارض الرعدة .  
والرعدة الرعش . والرعش سرعة الظلِّيم . والظلِّيم اللبن قبل الرّوب .  
والرّوب خثارة النفس من كثرة النوم . والنوم الكرى . والكرا طائر .  
والطائر عمل العامل . والعامل من الرمح الصدر . والصدر ( الأول ) اه  
وهذا الاتساع مما اختصت به العربية دون سائر اللغات . وللمشجر

معنى آخر في صناعات النظم نذكره في موضعه من باب الصناعات

### الاضداد

والتضاد نوع من الاشتراك وهو من اعجب ما في أمر هذه اللغة لانه إيقاع اللفظ الواحد على معنيين متناقضين ومثل ذلك اذا لم تصح فيه الحجة ولم ينهض به الدليل كان عبثاً لما فيه من التباس أطراف الكلام ورجوع بعضه على بعض بالنقض وإن اصحب من القرينة بما يوضح تأويله ويعين جهة الخطاب فيه وذلك ما لا يمكن أن يُغمز فيه على العريية وهي بخصائصها وُسْنَن أهلها في الوضع والتصرف تعتبر كالعقل المدرك في جمجمة اللغات . وحاصل كلامهم في الاضداد يرجع الى اربعة مذاهب :

( ١ ) إبطال الاضداد وأن اللغة في ذلك تجري على وجه واحد وهذا مذهب لم نتحققه ولم نتصفح شيئاً من آراء القائلين به وانما أخذناه مما نقله السيوطي في المزهر عن ابن درستويه ( المتوفى سنة ٣٤٧ ) في شرح الفصيح قال ( النوء الارتفاع بمشقة وثقل ومنه قيل للكوكب قد ناء اذا طلع وزعم قوم من اللغويين أن النوء السقوط أيضاً وأنه من الاضداد ) وقد اوضحنا الحجة عليهم في ذلك في كتابنا - الذي عملناه - في ابطال الاضداد

( ٢ ) اثبات التضاد متى كان إيقاع اللفظ على الضدين في لغة القبيلة الواحدة لان التضاد يكون متحققاً في الوضع حينئذ . ومن أصحاب هذا الرأي ابن دريد قال في الجمهرة الشعب الاقتراق والشعب الاجتماع وليس من الاضداد وانما هي لغة لقوم .



(٣) إِبْثَاتُهُ عَلَى أَن لَا يَكُونُ مِنْ وَضْعِ الْقَبِيلَةِ الْوَاحِدَةِ لِأَنَّهُ مِنَ الْمَحَالِّ أَن يَكُونَ الْعَرَبِيُّ أَوْ قَعِ اللَّفْظِ عَلَى الضَّدَّيْنِ بِمَسَاوَاةٍ بَيْنَهُمَا وَلَكِنْ أَحَدُ الْمَعْنِيَيْنِ لِحِيٍّ مِنَ الْعَرَبِ وَالْمَعْنَى الْآخَرُ لِحِيٍّ غَيْرِهِ ثُمَّ سَمِعَ بَعْضُهُمْ لَفْظَ بَعْضٍ فَأَخَذَ هَؤُلَاءِ عَنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ عَنْ هَؤُلَاءِ . وَذَلِكَ رَأْيُ الْجُمْهُورِ مِنَ الْعُلَمَاءِ

(٤) إِبْثَاتُهُ مُطْلَقًا مِنْ وَضْعِ وَاحِدٍ أَوْ مُتَعَدِّدٍ وَاعْتِبَارِ الضَّدِّ مَعْنَى مُشْتَقٍّ مِنْ أَصْلِ الْوَضْعِ . فَالْأَصْلُ لِمَعْنَى وَاحِدٍ ثُمَّ تَدَاخَلَ عَلَى جِهَةِ الْإِتْسَاعِ وَأَصْحَابُ هَذَا الرَّأْيِ يَعْتَلُّونَ لِذَلِكَ بِإِمْكَانِ رَجُوعِ الضَّدِّينِ إِلَى بَابٍ وَاحِدٍ فِي الْإِشْتِقَاقِ أَحْيَانًا كَقَوْلِهِمُ الصَّرِيمُ يُقَالُ لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِأَنَّهُمَا يَنْصَرِمُ مِنَ الْآخِرِ فَأَصْلُ الْمَعْنِيَيْنِ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْقَطْعُ . وَهَذَا الْمَذْهَبُ كَمَا تَرَى جَدَلِيٌّ وَنَظَنُ الْقَائِلِينَ بِهِ مِنْ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ

وَالَّذِي عِنْدَنَا فِي ذَلِكَ أَنَّ التَّضَادَّ لَيْسَ قَدِيمًا فِي اللُّغَةِ وَلَا هُوَ مِنْ سَنَنِ الْوَضْعِ عِنْدَ الْعَرَبِ لِأَنَّهُ لَا تَمَسُّ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ الطَّبِيعِيَّةُ وَلَيْسَ فِي كُلِّ مَا وَرَدَ مِنَ الْفَاضِلَةِ لَفْظَةٌ وَاحِدَةٌ تَقْتَرِ بِهَا اللُّغَةُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَصْلُهُ حَادِثًا فِي زَمَنِ النَّهْضَةِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ الْإِسْلَامَ حِينَ اخْتَلَطَتِ الْقَبَائِلُ وَانْصَرَفَ الْعَرَبُ إِلَى زِينَةِ الْمَنْطِقِ وَالتَّمْلُجِ فِي الْكَلَامِ فَهُوَ تَفَنُّنٌ تَدْخُلُهُ بَعْضُ الْقَبَائِلِ فِي لُغَتِهَا وَتَتَوَسَّعُ بِهِ لِأَحَدِي الْمُنَاسِبَاتِ الْمَرْهُونَةِ بِأَوْقَاتِهَا ثُمَّ يُعْرِفُونَ بِهِ وَيَمْضُونَ عَلَيْهِ فِي التَّعْبِيرِ فَيُثَبَّتُ فِي مِيرَاثِ الْقَبِيلَةِ مِنَ اللُّغَةِ . وَمِمَّا يَرْجَحُ ذَلِكَ أَنَّ الْإِلْفَاضَ الَّتِي يَتَحَقَّقُ فِيهَا مَعْنَى التَّضَادِّ الطَّبِيعِيِّ قَلِيلَةٌ كَالسُّدْفَةِ لِلضَّوِّ وَالظَّلَامِ وَالصَّرِيمِ لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْجَوْنُ لِلْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدُ وَالسَّجُودُ لِلْإِنْحِنَاءِ وَالْإِنْتِصَابُ وَنَحْوُهَا وَقَلِيلٌ مِنْهَا مَنْسُوبٌ لِلْقَبَائِلِ الَّتِي اسْتَعْمَلَتْهُ عَلَى وَجْهِهِ . أَمَّا أَكْثَرُ مَا يَعْدُونَهُ مِنْ

الاضداد فمعظمه حادث في الاسلام اقتضاه تصرفهم في اللغة على ضروب من  
الاشارة والايجاز فهو تفنن محض لا يرجع الى الوضع الواحد ولا المتعدد  
بل يكاد يعد نوعاً من البديع أو الصناعات اللفظية <sup>(١)</sup> . ومن يقرأ كتاب  
(الأضداد) لابي بكر بن الانباري ويتدبر معاني ما فيه ويعتبر نسبة الشواهد  
التي جاء بها يتحقق مذهبنا اليه . وقد رأيناهم ربما اختلفوا في تفسير الكلمة  
فعدوا ما يقتضيه الاختلاف من التضاد أمراً واقعاً في حقيقة المعنى كاختلافهم  
في معنى ( اشد ) من قولهم بلغ فلان أشده فان منهم من يفسرها بيلوغ ثماني  
عشرة سنة ومنهم من يقول بيلوغ اربعين أو ثلاث وثلاثين وبهذا الاختلاف  
المتناقض يعدون اللفظة من باب الاضداد . . . وربما تزيد بعض اهل اللغة  
فيتوسع في تفسير الكلمة بالمعنيين المتضادين ليدل بذلك على اتساع عامه  
كقول بعضهم في ( الضد ) نفسه انه يقع على معنيين متضادين يقال فلان  
ضدي أي خلافي وهو ضدي أي مثلي . قال ابن الانباري وهذا عندي قول  
شاذ لا يعمل عليه لان المعروف من كلام العرب . العقل ضد الحمق .  
والايمان ضد الكفر والذي ادعى من موافقة ( الضد ) للمثل لم يقم عليه دليلاً  
تصح به حجته .

(١) وقد جاءت من البديع أنواع مبنية على التضاد لفظاً أو معنى كالمطابقة وهي  
الجمع بين الضدين لفظاً كقوله تعالى ( وما يستوي الاعى والبصير ولا الظلمات ولا  
النور ) والنهكم ايضاً وهو الاتيان بلفظ في موضع الضد من معناه كقوله تعالى ( فبشر  
المنافقين بان لهم عذاباً أليماً ) ومن ذلك الهجو في معرض المدح والمدح في معرض  
الذم والمناقضة ونحوها مما لا محل لاستيفاء الكلام عليه في هذا الموضع

ولو صحح ان التضاد قديم في اللغة وانه ثابت في أصل الوضع لفسد هذا الوضع ولبطلت حكمته ثم لا بد ان يكون من أثر ذلك شيء كثير في منقول اللغة وهو خلاف الواقع حتى ان العلماء كانوا يتميزون من هذا النوع بمعرفة الفاظ معدودة كالالفاظ التي عقد لها أبو عبيد (في الغريب المصنف) باب الاضداد وهي اربعون لفظة . وهذا ابن النباري المتوفى سنة ٣٢٨ وهو من أوسع الناس حفظاً للغة قد ألف كتاب (الاضداد) الذي قالوا انه لم يؤلف في الاضداد أكبر منه وذكر في مقدمته انه نظر في الكتب التي أحصيت فيها الحروف المتضادة فوجد كل واحد من أصحابها أتى من الحروف بجزء وأسقط جزءاً فجمعها في كتابه « ليستغني الناظر فيه عن الكتب القديمة المؤلفة في مثل معناه إذ اشتمل على جميع ما فيها » . ومع ذلك لم يشتمل كتابه الا على قريب من ٣٠٠ حرف لا يتحقق التضاد في نصفها والباقي متجاوز به ومتوسع فيه .

اما الالفاظ التي رويت من هذا الباب ونسبوا لقبائل مسماة فقد حرصنا على جمعها اتباعاً لطريقتنا التي نحوناها في هذا التاريخ لا نأري في مثل ذلك أشباحاً للمعاني التاريخية التي ذهبت في آفاقها والشبح ان لم يفصل معاني جسمه ولم يضبط أجزاءه فلا أقل من ان يبين موقعه ويظهر منه صورة مهمة وذلك فتح عظيم في مثل هذا التاريخ المستغلق باباً ، المضروب على الغيب حجاباً ، وتلك الالفاظ هي :

الرجاء يستعمل بمعنى الشك والطمع واليقين وكنانة وخزاعة ونضر وهذيل يقولون لم أرج ويريدون لم أبال . وبنوا عقيل تقول لمت الكتاب

الكتاب الملقه لموقا ولما اذا كتبتة وسائر قيس يقولون لمقته لموقا اذا محوته .  
والسامد في كلام أهل اليمن اللاهي وفي كلام طيء الحزين . يقال شريت  
اذا ابتعت ولكنها بمعنى بعت لغة لغاضره . والسدفة يذهب بنوا تميم الى  
أنها الظلمة وقيس يذهبون الى أنها الضوء . حاب الرجل فهو حائب اذا أثم  
والحائب في لغة بني أسد القتال . المعصر في لغة قيس واسد التي دنت من  
الحيض وفي لغة الأزدي التي ولدت أو تعذست <sup>(١)</sup> . يقال عين للخلق كالقربة  
التي قد نهأت مواضع منها للتشعب وطيء تقول عين للجديد . المقور في  
لغة الهلاليين السمين وفي لغة غيرهم المهزول . الساجد المنحني عن بعض  
العرب وهو في لغة طيء المنتصب . القلت في كلام أهل الحجاز نقرة  
في الجبل يجتمع فيها الماء فيغرق فيها الجمل والفيل لو سقط فيها وهي في لغة  
تميم وغيرهم نقرة صغيرة في الجبل يجتمع فيها الماء . رزقه بمعنى أنا له ولكنها  
في لغة الأزدي بمعنى شكره .

وهذا كل ما أمكن العثور عليه في كتب اللغة وغيرها وهو متمم لما  
استقصيناه من لغات العرب .

### الرهيل

وهو الفاظ داخلة لغات العرب من كلام الهم التي خالطتها فتفوهت  
بها العرب على منهاجها لتدل في العبارة بها على ما ليس من مألوفها وتجعل منها

---

(١) العانس التي طال مكثها في أهلها بمد ادراكها حتى خرجت من عداد الابدكار  
ولم تنزوج قط

سبيلا الى ما يجد من معاني الحياة لان أرضهم وديارهم لم تكن الارض كلها  
فتنحصر أفلاذها وتأنجها بين أيديهم حتى يتعين عليهم أن يضعوا لكل شيء  
ضريبه من اللفظ ونديده من التعبير . والعجيب أن طبيعة أرضهم ظاهرة  
التأثير فيما أعربوه فهم لم يعدوا به حد الضرورة ولا تجاوزوا مقدار الحاجة  
الماسة مما جعل هذا النوع في لغتهم قليل النماء بادي الإحمال . بل الدخيل في  
لغة العرب يكاد يكون صورة جغرافية لما عرقوه مما خرج عن حدود جزيرتهم  
وقد كان شعراؤهم وتجرهم واهل الاسفار منهم يحملون اليهم التواريخ  
والاحاديث كما يحملون عروض التجارة من مصر والحبشة وفارس والهند  
والروم فيدخل من ذلك في عاداتهم وشعائرهم ويلحقون الفاظه بلغتهم سواء  
منها ما جعلوه على أبنيتهم وما لم يجعلوه لان قواعد اللغة يومئذ لم تكن كما هي  
اليوم في حركات الاقلام ولكنها كانت في حركات الألسنة . وبالجملة فانهم لم  
يتناولوا اسما من أسماء الاجناس أو الأعلام الا غيروه متى كان فيه ما ليس  
من حروفهم وربما عادوا فغيروا في الحروف العربية أيضا وتصرفوا في  
الكلمة بالحذف والزيادة مبالغة في تحقيق الجنسية اللغوية . اما ان كانت  
حروف الاسم الاعجمي من جنس حروفهم فقد يتركونه على حاله نحو  
خراسان اذ ليس في أبنيتهم فعالان وخرم الحقوه بيناء سلم .

فوضع التصرف كما رأيت انما هو في حروف الكلمة حتى تخرج  
على وجه من وجوه العربية الفطرية التي لا يراعى فيها غير الخفة  
والثقل وليس غير الحرف اللفظي ما يغمز مواضع الإحساس من  
ألسنتهم كما فصلناه في بابه ولهذا قال أئمة العربية : تعرف عجمة الاسم

بوجوه : ( ١ ) النقل بأن ينقل ذلك أحد أئمة العربية ( ٢ ) خروجه عن أوزان الاسماء العربية نحو ابريسم فان مثل هذا الوزن مفقود في ابنية الاسماء في اللسان العربي ( ٣ ) أن يكون أوله نون ثم راء، نحو نرجس فان ذلك لا يكون في كلمة عربية ( ٤ ) أن يكون آخره زاي بعد دال نحو مهندز فان ذلك لا يكون في كلمة عربية ( ٥ ) أن يجتمع فيه الصاد والجيم<sup>(١)</sup> نحو الصولجان والخص . ( ٦ ) أن يجتمع فيه الجيم والقاف نحو المنجنيق<sup>(٢)</sup> ( ٧ ) أن يكون خماسياً أوروباعياً عارياً عن حروف الذلاقة فانه متى كان عربياً فلا بد أن يكون فيه شيء منها<sup>(٣)</sup>

وقالوا : ( ١ ) الجيم والتاء لا يجتمعان في كلمة من غير حرف ذولقي ولهذا ليس ( الجبت ) من محض العربية — وهو في القرآن في قوله تعالى يؤمنون بالجبت والطاغوت — . ( ٢ ) الجيم والطاء لا يجتمعان في كلمة عربية ولهذا كان ( الطاجن والطيجن ) مولدين لان ذلك لا يكون في كلامهم الاصل .

( ١ ) قال الازهرى في التهذيب متمعباً على هذا القول : الصاد والجيم مستعملان ومنه جصص الجرو اذا فتح عيئه وجصص فلان اناؤه اذا ملأه والصج ضرب الحديد بالحديد .

( ٢ ) في الصحاح : الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة واحدة من كلام العرب الا أن تكون معربة أو حكاية صوت ومثل لهذه الحكاية بتولهم جلباق حكاية صوت باب ضخم في حالة فتحه واصفاقه جان على حدة وبق على حده . وقال ابن دريد في الجهرة لم يجمع العرب الجيم والقاف في كلمة الا في خمس كلمات اوسنت .

( ٣ ) ذلك لان حروف الذلاقة هي اخف الحروف وقد مر الكلام في هذا المعنى .

(٣) لا يجتمع الصاد والطاء في كلمة من لغتهم أما الصراط فصاده بدل من السين (٤) ينذر اجتماع الراء مع اللام الا في الفاظ محصورة كورّل ونحوه (٥) قال البطليوسي في شرح الفصح لا يوجد في كلام العرب دال بعدها ذال الا قليل ولذلك أبى البصريون ان يقولوا بغداد (٦) قال ابن سيده في المحكم ليس في كلام العرب شين بعد لام في كلمة عربية محضة . الشينات كلها في كلام العرب قبل اللامات <sup>(١)</sup>

هذا وقد وجد الباحثون بعد الاستقصاء ان اكثر ما دخل العربية من أسماء المعبودات والمصطلحات الدينية فهو من الهيروغليفية والحبشية والبرانية كلفظ النبي <sup>(٢)</sup> فانه هيروغليفي ومعناه في الاصل عميد الأسرة أو رب المنزل وكلفظة منبر فانه معرب (ومبر) بالحبشية وكألفاظ الحج والكاهن وعاشوراء وغيرها من البرانية . اما أسماء العقاقير والاطياب والجواهر فأكثرها هندي كالمسك فانه في اللغة السنسكريتية (مشكا) والزنجبيل وهو فيها (زنجابير) والفلفل وهو (پالا أو فيفالا) وهكذا . واكثر ما يكون من أسماء الاطعمة والثياب والفرش والاسلحة والادوات

(١) كل ما اوردناه في هذا الفصل انما هو تمام على ما سبق في الاسباب اللسانية  
فعتبره بسايقه

(٢) روى أبو عبيدة ان اهل مكة يخالفون غيرهم من العرب فيهمزون النبي والبرينة (البرية) وذلك قليل في الكلام . وقد اختلف العلماء في اشتقاق لفظ النبي لانهم لم يقفوا على أصله وأحسن ماورد لهم من ذلك ما نقله صاحب التخصيص في (باب ما تركت العرب همزه وأصله المهمز) من الجزء (١٤)

فهو من الفارسية كالكسكاج والديجاج والخز والخوذة والابريق والبطست وغيرها .

وفي المزهرة فصل . مقود لالفاظ أخذتها العرب من الفارسية والرومية والسريانية والنبطية وغيرها ولكن علماء اللغة كانوا يخلطون في ذلك لانهم غير متحققين بتلك اللغات ولا بأكثرها والعجيب انهم يردون اكثر المعربات الى الفارسية ولم تكن نظن ان لذلك سبباً غير شيوع هذه اللغة أيام العباسيين حتى وقفنا على ان مرجع تلك النسبة الى العصبية فان كثيراً من العلماء كانوا موالي أو فرساً وقد نصوا على ان بعضهم كجمزة الأصبهاني والأزهري وغيرهما كانوا يمتحلون لذلك تكثيراً لسواد المعربات من لغة الفرس وتعصباً لهم

وبلغ من ذلك ان منهم من زعم ان النبي صلى الله عليه وسلم تكلم بالفارسية واشتهر بين الأعاجم حديثان أحدهما قوله فيما زعموا : ان جابراً صنع لكم ( سور ) أي ضيافة . والثاني قوله : المنب دودو والتمر يك أي في تناولهما متى وفرادى . وقد حقق العلماء ان ذلك لا اصل له وانما يتوجه على تلك العصبية التي تشبه ان تكون ديناً لغوياً ترغم العربية على انتحاله .

ومن العرب كلمات معدودة استعملها العرب ولها رديف في لسانهم كالتامورة للابريق والثقوة للسكرجة والمشوم للمسك والناطس للجاسوس ونحوها . ولا يعقل ان يستعمل العرب هذه الالفاظ على أنها مرادفات لأوضاعها في لغتهم لانهم لا يبلغون بالعرب قوة كلامهم بالضرورة من حيث انه دخیل على الأوضاع العربية فهو ليس في معنى الأصيل إلا



حيث تخلو اللغة من نديده . وعندنا ان بعض تلك الالفاظ انما كان لمعان غير محدودة بما يظابق المعنى الدخيل كالمشموم فانه اذا أطلق على المسك بالعرف لا يطلق عليه بالحد بل يبقى من الالفاظ المشتركة وحينئذ كانت اللفظة الدخيلة أوفى بالحاجة وأصح في تأدية المعنى اللغوي بحده . وقد يكون بعض تلك الالفاظ من وضع قبيلة بعينها ثم تتناول القبائل الأخرى اسمه بالتعريب خلطوا لغتها منه أو لقربها من أسواقه واختلاطها بأهله فينطق بالأصيل قوم وبالدخيل أقوام . وقلة هذه الالفاظ المشار إليها مما يحقق ظننا فان كل ما جمعه منها نيف وعشرون لفظة

### الدخيل في الاسلام

ولما فتحت الأمصار على المسلمين ودان غير العرب الاسلام فشت في منطق المتحضرين الفاظ كثيرة من الدخيل بحكم الاختلاط والمعاملة الا أن أكثرها لم يلتحق باللغة لان الرواة أهملوه وكان هذا الدخيل أول أمره بد، انحراف الألسنة عن العربية الفطرية في تاريخ اللحن كما سيأتي في موضعه . ومن ذلك ما ساقه الجاحظ من لغة أهل المدينة فانه ذكر أنهم علقوا الفاظاً من قوم من الفرس نزلوا فيهم فيسمون البطيخ ( الخربز ) والسميط ( الروزق ) وأن أهل الكوفة يسمون المسحاة ( بال ) والسوق ( بازار ) وذلك كله فارسي .

وكان الأعراب الأقحاح يعجبون لمثل هذا ولا ينطقون به . وقد حكى أبو مهدي الأعرجي - ممن أخذت عنهم اللغة - بعض الفاظ أعجمية

كانت فاشية لمهده فانكرها وانما ضربها مثلاً لغيرها فقال :  
يقولون لي ( شنبذ ) ولست مشنبذاً طوال الليالي ما أقام ثبير  
ولا قائلاً ( زودا ) ليعجل صاحبي ( وبستان ) في قولي علي كبير  
ولا تاركاً لحني لأتبع لحنهم ولو دار صرف الدهر حيث يدور  
على أن من الأعراب من كان يستظرف بعض الكلمات الأعجمية  
فيقحمها في شعره على جهة التملح والاستظراف وتقل الجاحظ من ذلك  
بعض ابيات في كتابه البيان .

ثم لما انقضت الدولة الأموية وهي بقية العهد العربي أقبل العباسيون  
على اتخاذ البطانة من الفرس والديلم وغيرهم وهم الذين كانت لهم اليد في بث  
العلوم واتخاذ المترجمين ونقل الكتب عن الفارسية والهندية واليونانية مما  
سنفصله في مكانه فابتدأت من ثم صناعة التعريب وداخلت اللغة كلمات كثيرة  
من مصطلحات العلوم كالطب والفلك والهندسة ونحوها . ولما انشأ المأمون  
دار التعريب التي سماها دار الحكمة وهي دار كتبه العظيمة أرصد فيها علماء  
لهذيب الكتب المترجمة وتوجيه الاسماء المعربة من الاعلام والاجناس على  
ما يناسب المنطق العربي فكانوا ينحون في ذلك منجى العرب ويتصرفون  
في الاسماء بالتغيير والابدال والحذف وهذا هو وجه الصعوبة في التعريب  
لانه لا ضابط له ولان الألفاظ العربية محصورة الاوضاع محدودة الصيغ  
لا تقبل الزيادة عليها الا منها ولا يمكن أن تقحم فيها الالفاظ الاجنبية الا

( ١ ) شنبذ من قولهم شون بوذاي ( كيف ) بمنون الاستفهام . وزود وعجل .

بستان خذ

بعد ان تجانسها وتواخيها .

ومن أمثلة هذا التغيير الذي جرى عليه العرب ومن بعدهم في أسماء الاعلام : يحيى في يوحنا وقايل في قايين وعيسى في ايسوس<sup>(١)</sup> وطالوت في جليات والضحاك في ده آك والاشكري في اسكاريس وشمشقيق في زيميلساس وسجسطيلوس في سكستيلس واشبيليه في هسياليس وطليلة في تولاده وغير ذلك كثير تطفح به كتبهم

وهذا التغيير الذي لا ضابط له كان سبباً من أسباب الافساد والتحريف في الكتب حتى لقد تجد الاسم الواحد يتقلب على صور شتى وبذلك تضع حقيقته التاريخية كفيلبس ابي الاسكندر فانك تجده في كتب التاريخ العربية فيلقوس وفيلثوس وفيلنوس وفيلبوس وقتلتوس . وقد جاء في تاريخ القرماني افطياقوس في انطيوخوس ثم جاء هذا الاسم في موضع آخر من التاريخ نفسه على هذه الصورة ابطيحش ...

ومن مثل هذا الاختلاف الذي لا بد منه تنبه ابن خلدون حين اعترم وضع تاريخه المشهور الى وجوب ضبط هذه الاسماء الاعجمية على وجوها التي تلفظ بها في لغاتها فاصطلح لذلك على وضع جديد في الكتابة سندكره في الكلام على الخط مع ما كان عند علماء العرب من مثله .

ولم يكفد ينقضي عصر التعريب العامي عند العباسيين بعد ان دالت الدولة وتراخت الهمم حتى استعجمت اللغة وطمّ الدخيل على المنطق لان

---

(١) ايسوس تحريف يشوع اليونانية وقد حذفوا آخره فصار ايسو وعرب

الذين تولوا أمر التعريب يومئذ إنما هم الصناع والمخرفون لا الكتاب والمؤلفون وبذلك صار الدخيل لغة في التاريخ بعد أن كان تاريخاً في اللغة .  
وبقي من هذا الفصل كلام في كيفية التعريب واختلاف الكتاب فيه والحروف التي يطرد فيها الإبدال والالفاظ التي عربها المتأخرون أو اصطالحوا على تأدية معانيها ونحو ذلك مما لا تعلق له بالتاريخ فأمسكنا عن إيرادها وإن كان ثروة من الكلام . أما الكتب التي وضعت في المعرب والدخيل فأجمعها كتاب ( المعرب ) لأبي منصور الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩ وشفاء الغليل للخفاجي من أدباء القرن الحادي عشر وكلاهما متداول مشهور

### ﴿ المولّد ﴾

ويسمى المحدث أيضاً ويراد به في الاصطلاح اللغوي ما أحدثه المولّدون الذين لا يُحتج بالفاظهم <sup>(١)</sup> وهم الطبقة التي وليت العرب في القيام على لغتهم من المتحضرين . وذلك يشبه الوضع في بادئ الرأي لأنه استقلال بالمنطق عن الطريقة التي انتهجتها العرب والعلماء لا يقبلون الوضع ولا يصححون الاستعمال إلا من عربي لمكان السليقة واعتبار النجيزة ولذا ميزوا بين الكلام فيما ينقلونه فقالوا هذه عربية وهذه مولدة .

وشرط المولد عندهم أن لا يكون في استعمال أهل البادية ولا في العتيق من كلام العرب وبهذا قال بعضهم أن الغضارة مولدة لأنها من خزف وقصاع العرب من خشب . وفي أمالي ثعلب ما يفهم منه أن المولد عنده كل لفظ كان

(١) سندكر في بحث الشعر من يحتج به في اللغة ومن لا ينجح به

عربي الاصل ثم غيرته العامة بنوع من أنواع التغير كأن يكون مهموزاً فتدع  
همزه نحو هناك الطعام في هناك أو تبدل الهمز فيه نحو واخيته في آخيته أو  
تسقطه نحو قفلت الباب في أقفلته . أو لا يكون مهموزاً فتهمزه نحو رجل  
أعزب في عزب . أو يكون مشدداً فتخففه نحو فوهة النهر في فوّهته .  
أو يكون مخففاً والعامة تشدده نحو الدخان في الدخان . أو يكون ساكناً  
وتحركه نحو حلقة الباب وهي الحلقة . أو تبدل فيه حرفاً بحرف نحو الزمرد  
وهو بالذال . أو يكون مفتوحاً فيكسرونه نحو الكتان وهو بالفتح . أو  
مكسوراً ويفتحونه نحو الدّهيلز وهو بالكسر وهلم جرأ . وفي كتاب  
أدب الكاتب لابن قتيبة أمثلة كثيرة من هذه الانواع .

### الالفاظ الاسلمية

وقد سبقت التوايد طبقة من الوضع العربي خرجت ببعض الكلام  
في الاشتقاق عن معاني الجاهلية وذلك ما يسمونه بالالفاظ الاسلامية وقال  
ابن فارس في أسبابها : كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم  
في لغاتهم وآدابهم ونسائهم وقرابينهم فلما جاء الله جلّ ثناؤه بالاسلام  
حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور ونقلت من اللغة الفاظ من  
مواضع الى مواضع أخرى بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت  
فمفّى الآخر الاول .. فكان مما جاء في الاسلام ذكر المؤمن والمسلم  
والكافر والمنافق . وان العرب انما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان وهو  
التصديق . ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سمي المؤمن بالاطلاق

مؤمنًا . وكذلك الاسلام والمسلم انما عرفت منه اسلام الشيء ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء . وكذلك كانت لا تعرف من الكفر الا الغطاء والستر . فأما المناق فاسم جاء به الاسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه وكان الاصل من نافية اليربوع <sup>(١)</sup>

ومن هذا الضرب كل ما استحدثه اهل العلوم والصناعات من الاسماء كمصطلحات الفقه والنحو والعروض وغيرها مما يكون له اسمان لغوي وصناعي والاصل في جميع ذلك الالفاظ الشرعية التي نقلها النبي صلى الله عليه وسلم من اللغة الى الشرع كما رأيت . وقد كان مثل هذا النقل المجازي في الجاهلية ايضا لانه سبب من أعظم الاسباب في نمو اللغة كما تقدم في موضعه ولكن لم ينسب من ذلك شيء لناقل معين فيما علمنا الا كلمة واحدة ذكرها الجاحظ في كتاب الحيوان وهي فيما يقال ان أول من سمي الارض التي لم تحفر قط ولم تحرث اذا فعل بها ذلك (مظلومة) النابغة . . وقد تبعه العرب على ذلك ومنه قيل سقاء مظلوم اذا أعجل عليه قبل ادراكه <sup>(٢)</sup> . وقال الجاحظ في جزء آخر من الحيوان وقد ذكر هذه الكلمة : ان النابغة ابتداء هذا الاسم على الاشتقاق من أصل اللغة وان العرب اجتمعت على تصويبه وعلى اتباع أثره .

( ١ ) ذكروا ان اليربوع يحفر في جحره طريقا يكتبها تسمى النافقاء ويظهر طريقا مخالفة لها تسمى القاصعاء فاذا أتى من جهة الطريق الظاهرة ضرب النافقاء برأسه فانتفق ونجا . وقد قيل ان النفاق لفظ حبشي معناه البدعة والضلالة وهو في الحبشية من الالفاظ النصرانية ( ٢ ) المراد الوطوب يسقى منه اللبن قبل ان يروب

ومما يلتحق بفصل الالفاظ الاسلامية كلمات عربية كرهوا النطق بها في الاسلام كأنهم من خوفهم على العرب أن يعودوا في شيء من أمر الجاهلية احتاطوا فنعوهم من الكلام الذي فيه أدنى متعلق . وأصل ذلك ما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم في نحو قوله : لا يقولنَّ احدكم لمملوكه عبدي وأمتي ولكن يقول فتاي وفتاتي . ولا يقولن المملوك ربي وربتي ولكن يقول سيدي وسيدتي . وعلة هذا المنع ظاهرة ولكن فيما كرهوه اشياء جاءت بها الروايات ولا تعرف وجوها . قال الجاحظ ولم نسمع في ذلك اكثر من الكراهة ولو كانوا يروون الامور مع عللها وبرهاناتها خفت المؤنة ولكن اكثر الروايات مجردة وقد اقتصروا على ظاهر الرواية دون حكاية العلة ودون الاخبار عن البرهان وان كانوا قد شاهدوا النوعين مشاهدة واحدة . ومن ذلك قول ابن مسعود وابي هريرة ( لا تسبوا الكرم فان الكرم هو الرجل المسلم ) وقد رفعوه الى النبي صلى الله عليه وسلم . ورووا عن ابن عباس أنه قال ( لا تقولوا والذي خاتمته على في فانما يحتم الله عز وجل على فم الكافر ومما كرهه ابن عباس قولهم قوس قزح وقال قزح شيطان فكأنه كره ما كانوا عليه من عادات الجاهلية في الاضافة الى الاصنام والشياطين وكأنه أحب أن يقال قوس الله فيرفع من قدره كما يقال ارض الله وسما الله . وبقيت أمثال لذلك كثيرة لا نطيل في استقصائها .

### أُمثلة العلوم وكتبها

وقد علمت أن من الموائد هذه المصطلحات التي جاءت بها العلوم وهي معدودة أيضاً من الالفاظ الاسلامية لأنها وضعت في الاسلام ومنها الفاظ خاصة بالمتكلمين والرياضيين والفلكيين والاطباء والفقهاء والصوفية وغيرهم وقد أفردت لها معاجم خاصة بشرحها ككتاب التعريفات للجرجاني وكشاف اصطلاحات العلوم للتهاوني وكليات أبي البقاء واصطلاحات الصوفية. وأول ما وضع من هذا النوع فيما نظن كتاب ( مفاتيح العلوم ) لمحمد بن احمد الخوارزمي من أهل القرن الرابع وهو على اختصاره مفيد جمع فيه مصطلحات أهل العلوم والصناعات المختلفة ونحن ننقل منه بعض أمثلة توفية للفائدة. فمن ذلك في مواضع كتاب ديوان الخراج: الحشري وهو ميراث من لا وارث له — ويعرف في أيامنا بالمحلول — . والإقطاع وهو أن يقطع السلطان رجلاً أرضاً فتصير له رقبته وتسمى تلك الأرضون قطائع واحدها قطيعة . والطعمة وهي أن تدفع الضيعة الى رجل ليعمرها ويؤدي عشرها وتكون له مدة حياته فإذا مات ارتجعت من ورثته والقطيعة تكون لمقبره من بعده. والتسوين وهو أن يُترك للرجل شيء من خراجه في السنة وكذلك الحطيطة والتركبة . ومن مواضع كتاب ديوان الجيش: الأطماع وتسمى الرزقات وهي مرتبات الجند والعمال . والتاميط وهو أن يطلق لطائفة من المرتزقين بعض ارزاقهم قبل أن يستحقوا وقد لمّطوا بكذا . والمقاصّة وهي أن يحبس عن القابض لِماله ما كان تلمظه أو استلفه .



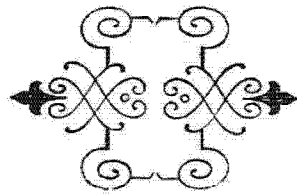
وقد رأينا لعبد الرحمن بن اسحق الزجاجي المتوفى سنة ٣٤٠ كتابا سماه الزاهر يذكر فيه معاني الكلام الذي يستعمله الناس من المولد أو من الالفاظ الاسلامية ويؤخذ من مقدمته ان المفضل أنشأ كتابا في هذا المعنى سماه الفاخر جمع فيه قطعة من اشتقاق ما يكثر ترداده في المحاورات والمحادثات فعمل محمد بن القاسم الانباري المتوفى سنة ٣٢٨ في ذلك كتابه الموسوم بالزاهر فصل فيه كتاب المفضل واكثر شواهد وضبطه فجاء الزجاجي واختصره واصلاح ما فيه من السهو والغلط وكشفه وشرح معانيه . ومما أورده في هذا الكتاب معنى قولهم حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله والفاظ القنوت والاستغفار والأذان والتشهد ونحو ذلك وهو يبحث في اشتقاق الكلام ويذكر الاقوال الواردة في معانيه ويرد اكثر ذلك الى اصله العربي . ومن أمثلته شرحه لقولهم ( يبت مزووق ) قال ابو العباس ثعلب معناه بالزاووق . والزاووق في لغة بعض أهل المدينة الزئبق وهو يقع في الزاويق فزووق مفعل منه . اهـ

### الفريب المولد

ونريد به في المولد ما يقابل الفريب والحوشي في العربي العتيق وذلك كالذي اخترعه بعض المفسرين الذين نصبوا انفسهم للعامه وخطوا في هواهم فان المفسر كلما كان أغرب عند العامة كان أحب اليهم . ومن هؤلاء عكرمة والكلي والسدي والضحاك ومقاتل بن سليمان وأبو بكر بن الاصم وقد نقل الجاحظ أنهم يقولون في تفسير قوله تعالى « ويل للمطففين » الويل

واد في جهنم . قال ثم قعدوا يصفون ذلك الوادي . . . وسئلوا عن قوله تعالى « قل أعوذ برب الفلق » فقالوا الفلق واد في جهنم ثم قعدوا يصفونه . . . وفسروا قوله تعالى « ثم لتُسئلن يومئذ عن النعيم » فقالوا النعيم الماء الحار في الشتاء والبارد في الصيف . . أي فكأنه من الاضداد ومثل ذلك كثير عن بعض غلاة الصوفية ايضاً والأصل في جميعه ما أومأنا اليه من الألفاظ المنهي عنها .

وليس يؤتى القوم الا من الطمع ومن شدة إعجاب العامة بالغريب من التأويل وهو كذلك الغريب الكاذب في المولد من اللغة



## تمدن العرب اللغوي

### فلسفة الفصل

هذا فصل من الكلام نرعى فيه الى اقصى غايات العقل العربي في الحياة وأدنى آفاقه من الخلود إذ نصف مبلغ ما انتهى اليه من الكمال في وضع هذه اللغة وإحكامها على سنن كيفما تدبّرتها رأيت فيها المعنى الالهي الذي لا دليل عليه الا شعور النفس به والنفس هي البقية السماوية في الانسان. تلك السنن التي خرجت بها اللغة كأنها عقل حي تتلامح في جهات الحكمة خطراته ، وتتراسل من أعين الوحي نظراته ، بل كأنها معنى الهي مبتكر ألقى في هذه الطبيعة ليتحوّل به وجه العالم الى جهة الله فما زال ينكشف من أطرافه شيئاً فشيئاً حتى ظهر سر ابتداعه في القرآن الكريم فاتّضح عن روعة تملك على الانسان مذاهب حسيّة ، وتنساب في قلبه لتتصل بالروح الالهي من نفسه .

وقد وصفنا بما تقدم تكوين اللغة في الجملة بما فيها من اسباب القوة والجمال ونحن واضعون من هذا الفصل مرآة تصف محاسنها وصفاً معنوياً تأخذ الأعين منه تفصيلاً في جملة وجملة في تفصيل لانه ليس كالأشياء المعنوية ما تجد فيه قوة الإفصاح عن الاسرار الصامتة اذ تكون مقابلة الاوصاف بموصوفاتها نطقاً بليغاً من لسان الحقيقة .

ومن المعلوم بالضرورة ان اللغة صورة الاجتماع وأن العرب في تمدن

جاهليتهم الفصحى لا يوازنون أمة من أمم التاريخ بل هم لو لا ما سبق في علم الله من أمر سيكون فيهم وقدر واقع بهم وشأن في الغيب مخبوء لهم لما عدوا في الاعتبار الاجتماعي أن يعدوا موجودات انسانية مهمة كأنهم بقايا منسية من التاريخ . وقد تقرر عند الحكماء أن غنى اللغة بألفاظها واتساع وجوه التصرف فيها دليل بين على مدنية أهلها وسعة متفنيهم من ظل الاجتماع فلا يبقى الا أن يكون للعرب تمدن لغوي خصوا به من أصل الفطرة إذ هم لم يكونوا في معادن العلوم ولا مواطن الصناعات ولا كان في أيديهم من أدوات الامم ومرافق الاجتماع الا متاع قليل لا يبلغ بجملته أن يكون تفسيراً موجزاً للفظ (العرب) في معجم الامم . فالحكمة التي جعلت من قديم مدينة الفنون في أيدي الصينيين ومدنية العلوم في رؤوس اليونانيين هي التي خصت مدينة اللغات بالسنة العرب .

واذا تدبرت معنى التمدن بما يعطيك من آثاره رأيت له في كل مجتمع صورتين : الاولى صورة الفرد في باطنه والثانية صورة الجماعة في ظاهرها ولن يكون التمدن حقيقياً الا اذا كان أساسه نمو الصفات العقلية في الفرد الواحد بما يتهيأ له من الفضائل التي هي مادة التغير العقلي في نموه وإنشائه نشأة جديدة تستتبع نشأة التاريخ في المجموع . ولا مرأى في ان الاحوال الظاهرة للجماعة انما هي مرآة التغيرات الباطنة في الأفراد فكأن الاجتماع في معناه ليس الا مجموع آثار العقول وتاريخ التغيرات النفسية .

ونحن اذا اعتبرنا ذلك في العرب لم نر لهم حقيقة ولا مظهراً الا في اللغة لانه لا يكتفي ان يكون العربي على أخلاق فطرية تحميها حدود البادية

وتصونها أسوار الحرية الطبيعية حتى يقال ان فيه ذاتاً نامية بآدابها لان هذه الآداب لم تحدث فيهم التغيرات العقلية التي تراءى بها صورة المجموع الا في آخر عهدهم الجاهلي حين ضمهم الاسلام . ولكننا اذا اعتبرنا لغتهم رأينا حقيقة التمدن فيها متمثلة وشروطه في مجموعها متحققة فهي منهم بحر الحياة الذي انصبت فيه جميع العناصر وانبعث بها هذا التيار العقلي الذي يدفع بعضه بعضاً وكأنها هي التي كانت تهذب من نفوسهم وزينها وتعدلها وتخلصها برقة أوضاعها وسمو تراكيبها حتى ينشأ ناشئهم في نفسه على ما يرى من اوضاع الكمال في لغته لانه يتلقنها اعتياداً من أبويه وقومه ولهي أقوم على تثقيفهم من المؤدب بأدبه ، والمعلم بعلمه وكتبه ، لانها حركات نفسية مدارها على انجذاب الطبع فيهم حتى كان العربي القحّ ربما أخطأ في الكلمة اذا جذبته طبعه اليها فيعدل بها عن سنن الفصيح كما سيأتي في باب اللحن<sup>(١)</sup> والكمال متى كان مأتاه من الطبع وكانت قوته في الغريزة فأحر به

(١) وكان منهم من يتوهم موضوعاً فيضع عليه ويجذبه اليه طبعه كقول بعضهم (سوق) في سوق جمع ساق (وهوق) في موق العين وتعليه عند النحاة ان يتوهم ان الضمة التي قبل الواو واقعة على الواو نفسها ولذلك يهملها تخلصاً من ثقل الضم ولا أصل لها في الهمز . وزعم الفارسي ان أبا حية النخيري الشاعر كان يهمل كل واو ساكنة قبلها ضمة وان لم يكن لها أصل في الهمز فيقول الموقدان أي الموقدان وموسى أي موسى وهكذا .

وعكس ذلك قولهم أيضاً الكماة والمرأة في الكماة والمرأة كأنهم توهموا فتحة الهمزة واقعة على ما قبلها فكأنها كَمَاة ومَرَّاة واذا كانت الهمزة ساكنة وما قبلها مفتوح

ان يصنع النفس صنعة غير طبيعية في العادة . ونحن نرى العرب لمهدنا لا يزالون في مواطن أسلافهم ولم تتنكر لهم الطبيعة ولكنهم حين فقدوا خصيصة اللغة فقدوا معها خصائص كثيرة من النظام النفسي حتى أنهم لا يصلحون في حالتهم الراهنة ان يكونوا مادة نظام سياسي في جزيرتهم فضلا عن ان يكونوا مادة حادث اجتماعي عظيم كالاسلام الذي جعله أسلافهم نظام العالم فكان بينهم وبين أسلافهم من الفرق ما يستغرق تاريخ العالم كله من عهد الاسلام .

وأخص شروط التمدن الاجتماعي فيما نرى ثلاثة هي الحرية والنظام والنمو وهي التي تتخلف عن معانيها الاجتماعية آثار المدنية التي تدل على حضارة الامم الخالية كالأبنية والمخلفات الادبية والعلمية والفلسفية ثم الثروة الاعتبارية التي تدير حركة العمران من التجارة والصناعة والزراعة ثم الشرائع وهذه الشروط هي كذلك أخص مميزات اللغة العربية فهي حرة في أوضاعها بما يطابق الحرية الشخصية والسياسية . منتظمة في أجزائها بما يماثل نظام القوانين والشرائع حتى أمكن ان يحصى منها كل كلمة جاءت شاذة في

وأريد تخفيفها قلبت ألفاً فتصير كاة ومراة كما ينطقون . وهذا التعليل كما قال ابن سيده من أدق النحو وأظرف اللغة .

ورأينا ابن جني يعمل ذلك في ( سر الصناعة ) بان الساكن اذا جاور المتحرك صارت حركته كأنها فيه . قال وبزيد ذلك عندك وضوحاً ان من العرب من يقول في الوقف هذا عُمُرٌ وبَسْكُرٌ ومررت بعُمَيْرٍ وبَسْكِرٍ فينقل حركة الراء الى ما قبلها . وهذه من اللغات التي لم نذكرها فيما تقدم لان لها في هذا الفصل مكاناً .

بابها<sup>(١)</sup> نامية في مجموعها بما فيها من ثروة الأوضاع التي تكافئ معاني الاقتصاد السياسي على أتم وجوها . فالعرب اذن قوم ممنويون كان تمدنهم ممنويا ولو جردتهم من مزايا لغتهم وألقيت في افواههم اصول أي لغة من لغات العالم لخرجوا بها جنساً مغموراً في الاجناس ولكانت حريتهم عبثاً ونظام قبائلهم فساداً ولصاروا في الجملة الى حال الشعوب التي لا يدور بها الزمان ولكنه يلقي عليهم الامم كلها دار ويقابلهم بالمكتشفين والفاتحين والمتخطفين وغيرهم من اجناس المجتمعات المتقدمة . بيد ان الحكمة القت في طباعهم هذا النظام اللغوي وجعلتهم بحيث ينساقون في سبيله الى الكمال لا تعترضهم عقبة ولا يصرف وجوههم عنه صارف من نظام المدنية فمضوا على ذلك واللغة تتخطى بهم درجات الاجتماع واحدة فواحدة حتى انتهت بهم الى الوحدة الجنسية فتغير مجموعهم وانصب على العالم بقوة جديدة فتية صادفت دولة قديمة بالية فصدمتها تلك الصدمة التي هدمت التاريخ وبني بعدها بناءً جديداً . ولولا اللغة ما انتظم أمر العرب لانهم قضوا أجيالاً قبل تمدنهم اللغوي لم ينبه لهم شأن في انفسهم ولا عدوا في اجتماعهم أمر النظام الطبيعي الذي هو وسيلة حفظ الحياة لنظام الحي لا حفظ الحي لإتمام نظام الحياة كما هو شأن التمدن الاجتماعي . واللغة هي التي جذبتهم الى هدي الاخلاق بالشعر والى هدي السياسة بالخطابة والى هدي الدين بالقرآن

(١) من ذلك كتاب الشذوذ لابن رشيق صاحب كتاب العمدة ( المتوفى سنة ٤٦٣ ) يذكر فيه كل كلمة من اللغة جاءت شاذة في بابها . وما نجد من قاعدة في كتب العلماء الا ولها شواذ محصورة ان كانت مما يدخله الشذوذ

### بعض وجوه النقد

تقدم لنا في غير هذا الموضع ما يثبت أن تأليف الكلام في هذه اللغة مبني على اسباب لسانية من عذوبة المنطق ومراعاة النسب اللفظي بين الحروف بحيث لم يلاق فيه بين حرفين لا يأتلفان ولا يعذب النطق بهما أو يشنع ذلك منهما في جرس النغمة وحس السمع كالغين مع الحاء والقاف مع الكاف والحرف المطبق في غير المطبق كطاء الافتعال مع الصاد والضاد في خلال كثيرة من هذا الشكل ترجع بحملتها الى ميل العرب فطرة عما يازم كلامها الجفاء الى ما يلين حواشيه ويرقها . وهذه العناية منهم بتأليف الحروف كانت السبب الطبيعي لعنايتهم بتأليف الالفاظ وإحكام الكلام وتوخيهم روعة الاسلوب ونخامة التركيب وهو ما خص به العرب دون سائر الامم وقد غفل بعض العلماء عن هذا السبب الطبيعي فذهب الى أن العرب انما تعنى بالالفاظ لانها تغفل المعاني فتجد من الفاظهم ما قد تمقوه وزخرفوه ووشوه ودبحوه ولست تجد مع ذلك تحته معنى شريفاً بل لا تجده قصداً ولا مقارناً وعلى هذا النمط اكثر أشعارهم . وقد رد على هؤلاء ابن جني في كتاب الخصائص وتمحل في النضح عن العرب لانه كذلك لم ينظر الى السبب الطبيعي الذي أومأنا اليه . قال فاذا رأيت العرب قد أصلحوا الفاظهم وحسنوها وحموا حواشيتها وهذبوها وصقلوها عذوبها (أطرافها) وأرهفوها فلا ترين أن العناية إذ ذاك انما هي بالالفاظ بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه بها وتشريف منها .



والحق أن ذلك في العربية وجه من وجوه تمدنها وقد جروا فيه على سنن طبيعية ثابتة لأنهم يفرعون من المعاني فروعاً كثيرة بالمجاز والاستعارة ثم يجرون عليها الالفاظ التي تناسبها فكأنهم يستغنونها استغلالاً معنوياً . وذلك من أمرهم أيضاً في الالفاظ فانهم لا يفرطون في مادة تتقلب عليها حروف المنطق بما ينزل على حكمهم في التأليف من المذوبة والمناسبة فيفرعون الالفاظ المتقاربة فروعاً كثيرة يجرونها على المعاني المتباينة كقولهم رَوَّات في الأمر ( فكرت ) وروَّيت رأسي من الدهن وأمثال لذلك كثيرة فكأنهم بهذا الضرب يستغلون المعاني استغلالاً لفظياً

ومن وجوه التمدن التي تناسب طبائع الاقتصاد المدني هذه الحركات التي تخصص المعاني وتعيّن الأغراض بأيسر إشارة وهي أخص مميزات السمو العقلي ومنها حركات الاعراب كقولهم ما أحسن زيداً إذا أرادوا التعجب من حسنه . وما أحسن زيداً إذا أرادوا الاستفهام عن أحسن ما فيه . وما أحسن زيداً إذا أرادوا نفي الإحسان عنه ولا يوجد ذلك في غير لغة العرب . ومنها حركات التصريف كقولهم مفتح لآلة الفتح ومفتّح لموضع الفتح وهكذا . ومنها حركات الفروق التي تنوّع المعاني كقولهم الإذلاج لسير أول الليل والاذلاج لسير آخر الليل وأمثلة من ذلك فاشية في اللغة ومن هذا الباب قولهم رجل لعنة وضحكة إذا كان يُلمن كثيراً ويُضحك منه . ورجل لعنة وضحكة إذا كان هو كثير اللعن والضحك . ولعلمهم لم ينتبهوا لهذه الفروق بالحركات الا بعد أن احدثوا مثلها في لغتهم بالحروف كقولهم أخفر إذا أجار وخفر إذا تقض المهد . وأقذى عينه

إذا ألقى فيها القذى وقذاها إذا نزع عنها القذى وأبعتُ الفرس عرضته للبيع وبعته إذا انتهى البيع وهكذا فكان الاختصار دائماً تمثيلاً للانتهاء.

ومما يستنفد عجب المفكر من أمر هذا الباب الاقتصادي تصرفهم في حروف المعاني المفصلة معانيها في كتب النحو ودلالاتهم بالحرف الواحد في الكلمة على المعاني المختلفة كمعاني الهمزة والباء وغيرهما مما يتصرف به في مناحي الكلام ويزيد هذا العجب أن لا يكون بين المعنيين أو المعاني الكثيرة وجوه من الشبه بحيث يتأول في رد معانيها الأصول بعضها إلى بعض . وقد أشرنا فيما تقدم إلى ما رآه بعض علماء اللغات من أن هذه الحروف بقايا الفاظ مستقلة بمعانيها فإن صح ذلك كان ( عجياً من العجب ) .

وهذا وأمثاله مما يكشف من اللغة عن سر النمو الذي هو أصل من أصول التمدن بالإطلاق . وإن للعرب تصرفاً ليس في لغة من اللغات وخاصة أختي العربية فإن الزمن وقف بهما عند منقطع لم يتعدّه وكأن العربية منهما قرآن لغوي مفتتح بهذه القاعدة التي يبنى عليها نظام الارتقاء « ما تنسخ من آية أو ننسخها نأت بخير منها أو مثلها » . فإن لغة السريان مثلاً لا تجد فيها أثراً للفعل المبني للمجهول كضرب زيد أي ضربه شخص — وذلك من أنواع الاقتصاد اللغوي — وفي العبرانية لا يوجد إلا صيغتان ثقيلتان من صيغ الفعل هذا وزنهما ( فعَال وهُفْعَال ) ولكن العرب يستعملون المجهول في كل الأوزان ماضياً ومضارعاً وقد فاتوا بذلك لغات الدنيا جميعاً وتجد العبرانية أيضاً قليلة الأوزان في الفعل المجرد والمزيد بحيث لا تكافئ العربية في ذلك ( وقد أسلفنا في موضع تقدم أن صيغة المشاركة التي

هي صيغة اقتصادية مما انفردت العربية ) به وانما وضعت الاوزان لتنمية المعاني وسياستها على وجوها مختلفة سياسة اقتصادية . ذلك فضلاً عما امتازت به العربية من العذوبة التي كأنها شباب الحياة ورقها بجانب ذاك الهرم الذي تولى العبرانية حتى كأن الفاظها من اللبس والتعقيد أيام الكهولة بأقذارها ... ومما لا شك فيه أن فقدان ذلك السبب الاقتصادي في العبرانية هو الذي ابتلاها بالفقر من نوابغ الكتاب والخطباء لضيق مضطرب التعبير حتى كأنما ينفذ المتكلم بها الى اغراضه من صدوع ومضايق وفي هذا المعسر كله .. ولما انتفى ذلك من العربية واستوفت وجوه السياسة الاقتصادية في صيغها والفاظها كثر شعراؤها وكتابها وخطباؤها ( اللغويون )<sup>(١)</sup> الى حد ترك رجال سائر الامم عند الترجيح في كفة شائلة .

وهنا أصل طبيعي يحسن التنبيه اليه لانه ثبت لما نحن بصدد منه وذلك أن التثنية وهي أخص مظاهر الحياة في الطبيعة لا أثر لها في اللغة السريانية وهي في العبرانية مقصورة على معناها الطبيعي أو ما يكون في حكمه فلا يثنون الا ما وجد اثنين في الطبيعة كاليدن والرجلين الخ أو ما أنزله الاستعمال هذه المنزلة كالنملين مثلاً ولكنها في العربية عامة لكل الاسماء لان العدد نظام طبيعي عام لا يتخلف ومنه الافراد والتثنية ودرجات

---

( ١ ) خصصنا هذه الكثرة بكونها لغوية لانها كذلك في الحقيقة اذ القرائح لا تكون من مواهب اللغات . واللغة انما هي اداة من ادوات الحياة لا اكثر . وعندنا انه ربما كان من شعراء بعض الامم من يرجح شعراء العرب جميعاً في منزلة شعره لاني صنعت اللغوية وكذلك القول في الكتاب والخطباء

الجمع من الثلاثة فصاعداً<sup>(١)</sup>

بقي علينا أن نذكر شيئاً من أسرار النظام في هذه اللغة غير ما سبق  
لنا بيانهُ وهو الصلة بين طريقي التمدن اللغوي اللذين هما الحرية والنمو وقد  
مضى الكلام عليهما فيما تقدم



(١) مما نتم به فائدة هذا المعنى ان كلمة (زوج) يراد بها في اللغة الفاشية الاثنان —  
وقد قلبها العامة وجعلوها جوز — قال ابن الانباري في الاضداد : وهذا ( الاستعمال )  
عندي خطأ ، لا يعرف الزوج في كلام العرب لاثنتين بهذا نزل كتاب الله وعليه  
أشعار العرب قال الله عز وجل ( وأنه خلق لزوجين الذكر والانثى ) اراد بالزوجين  
الفردين اذ ترجم عنهما بذكر وانثى . . والعرب تفرد الزوج في باب الحيوان فيقولون  
الرجل زوج المرأة والمرأة زوج الرجل ومنهم من يقول زوجة . . واذا عدت العرب  
عن الناس الى الحيوان فقالوا عندي زوجان من حمام ارادوا عندي الذكر والانثى فاذا  
احتاجوا الى افراد احدهما قلو للذكر فرد وللانثى فردة . . وكذلك يقال للشئيين  
المصطحبين زوجان كقوله عندي زوجان من الخفاف . . فمن ادعى أن الزوج يقع  
على اثنين فقد خالف كتاب الله عز وجل وجميع كلام العرب اذ لم يوجد فيهما شاهد له  
ولا دليل على صحة تأوله . اهـ واكثر للغويين على خلافه

## اسرار النظام المغوى

لا نريد بمعنى النظام هذه الاحكام الظاهرة في اللغة كالاعراب والتصريف والقواعد اللسانية من نحو عدم الجمع بين ساكنين أو متحركين متضادين فهذا كله ليس الا أسباباً للنظام الذي نشرحه في هذا الفصل وهو يشبه النظام النفسي من حيث تعلقه بالحكمة التي تضبط عواطف النفس وخطراتها وقد رأينا ذلك في اللغة على ثلاثة ضروب : ( ١ ) نظام الالفاظ بالمعاني . ( ٢ ) نظام المعاني بالالفاظ . ( ٣ ) النظام المطلق وهو نظام القرينة أو الحس النفسي .

### نظام الالفاظ بالمعاني

والمراد به مساوقة الصيغ اللفظية للمعاني الموضوعية لها وقد ألمنا بأشياء منه في باب الاشتقاق وذكرنا ثم ان لابن جني صاحب الخصائص كلاماً في هذا المعنى . وابن جني هذا هو اول من ناهض هذا البحث اتقاناً ، وتحلى بامره افتناناً ، وانما كان العلماء قبله يستروحوون الى اشياء منه عند الضرورة ويتعللون به واكثرهم لزوماً لذلك شيخه ابو علي الفارسي <sup>(١)</sup> ولهذا وضع ابن جني كتابه ( الخصائص ) ابياناً ما أودعته هذه اللغة من خصائص الحكمة ونيطت به من علائم الاتقان والصنعة أقام فيه القول على اوائل

( ١ ) توفي الفارسي سنة ٣٧٧ وكانوا يقولون ما بين سيدي به وأبي علي أفضل منه وتوفي ابن جني سنة ٣٩٢ وهو عالم هذه الامة في التصريف .

أصول هذا الكلام وكيف بُدئ، وإلى م نجي وقال في المعنى الذي عقدنا له هذا الفصل انه غور من العربية لا ينتصف منه ولا يكاد يحاط به واكثر كلام العرب عليه وان كان غفلا مسهوا عنه .

ومما حاوله في كتابه مما يتعلق بفرضنا سبعة أمور :

( ١ ) اثبات أن العرب تقارب حروف الالفاظ متى تقاربت معانيها كقوله تعالى ( انا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزّا ) اي تزعمهم وتقلقهم فهذا في معنى تهزهم هذا والهمزة أخت الهاء فكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لانها أقوى من الهاء كما ان المعنى نفسه أعظم في النفوس من الهز لانك قد تهز ما لا حراك له كالجدع ونحوه . أي فيبقى الهز المقرون بالازعاج خاصاً بذى الحياة لانه متعلق بالشعور وذلك ما أفادته الهمزة وحدها .

( ٢ ) ان هذه المقاربة بين الحروف تقع فيها المراعاة حتى في الحروف البعيدة التي لا تتشابه الا بالتأويل كقوله ان تركيب ع ل م في العلامة والملم . وقالوا مع ذلك بيضة غرماء وقطيع أغرم اذا كان فيه سواد وبياض واذا وقع ذلك بان احد اللونين من صاحبه وكان كل واحد منهما ( علماً ) للآخر وهذا المعنى من غ ر م ولكنه مقارب لتركيب ( علم ) كما ترى

( ٣ ) ان المقاربة قد تكون بالمضاربة في الاصل الواحد بالحرفين كسَحَل وصَهَل ( في معاني الصوت ) فالصاد أخت السين والهاء أخت الخاء . وسَحَل وزحر ( في الصوت ايضاً ) فالسين أخت الزاي واللام أخت الراء .

( ٤ ) ان من المضارعة نوعاً أحكم من هذا وهو المضارعة بالاصول  
الثلاثية في الفعل (الفاء والعين واللام) نحو عصر الشيء وأزله اذا حبسه قال  
والعصر ضرب من الحبس والعين أخت الهمزة والصاد أخت الزاي والراء  
أخت اللام. ونحو الأزم (أي المنع) والمصب (أي الشد) فالمعنيان متقاربان  
والهمزة أخت العين والزاي أخت الصاد والميم أخت الباء . وقد اتى بأمثلة  
من ذلك ثم قال وهذا موجود في أكثر الكلام وانما بقي من يشيره ويبحث  
عن مكنونه بل من اذا وضع له وكشفت عنده حقيقته اطاع طبعه له فوفاؤه  
وهيات ذلك مطلباً ، وعزّ فيهم مذهباً .

( ٥ ) انبات أن العرب يصورون اللفظ على هيئة المعنى وهذا مذهب  
قد نبه عليه الخليل وسيبويه قال الخليل كأنهم توهّموا في صوت الجندب  
استطالة فقالوا ( في العبارة عنه ) صرّ وتوهّموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا  
صرّ صرّ . وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على فعْلان ( بثلاث حركات )  
إنها تأتي للاضطراب والحركة نحو الغلّيان فقابلوا بتوالي الحركات في المثال  
توالي الحركات في الافعال .

قال ابن جني ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء على سمت ما حدّاه  
ومنهاج ما مثلاه . منها أن المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرّر والزعزعة  
كالقلقلة والصلصلة الخ . وأن الفعل من المصادر والصفات تأتي للسرعة نحو  
الجمزى والوقى الخ . ومنها أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلاً على  
تكرير الفعل نحو كسر وقطع الخ وانما خصوا العين بذلك لأنها اقوى حروف  
الفعل اذ الفاء قد تحذف نحو عدة وزنة اصلهما وعدة وزنة واللام كذلك

نحو يد وفم اصلهما يَدَوُ وفَمَوُ ولكن قلما تجد الحذف في العين فلما كانت الافعال دليلاً للمعاني كرروا أقواها وجعلوه دليلاً على قوة المعنى المحدث به . وكذلك يضعفون العين للمبالغة نحو اسد غشمشم ويوم عصبصب ونحو اعشوشب المكان واغد وذن الشعر الخ . قلنا ومن هذا الباب ما ذكره ابن فارس انه سمع من يثق به يقول إن العرب تشوه صورة اللفظ وتقبحها لمقابلة مثل ذلك في المعنى كقولهم للبعيد ما بين الطرفين المفرط الطول ( طرِمَّاح ) وإنما اصله من الطَّرَح وهو البعيد لكنه لما أفرط طوله سمي طرِمَّاحاً . ومثل ذلك كثير في ابواب الصفات

( ٦ ) ومن نظام الالفاظ بالمعاني أنهم يقابلون الالفاظ بما يشاكل أصواتها من الاحداث فيجعلون كثيراً أصوات الحروف على سمت الأحدث المعبر عنها كقولهم خضم وقضم . فالخضم لأكل الشيء الرطب والقضم لأكل الشيء الصلب اليابس فاختاروا الخاء من أجل رخاوتها للرطب والقاف من أجل صلابتها لليابس فحدوا بمسموع الاصوات على حدو مسموع الاحداث . ومن ذلك النضح للماء الخفيف لرقه الخاء والنضخ لما هو أقوى منه وذلك لغلظ الخاء . ومنه أيضاً قولهم القدُّ للقطع طولاً والقطُّ له عرضاً وذلك لان الطاء أحصر للصوت وأسرع قطعاً له من الدال فجعلوا الطاء لقطع العرض لقربه وسرعته والدال لما طال من الأثر وهو قطعه طولاً والامثلة من ذلك كثيرة في اللغة تبادر من يلتبسها وقد أتى ابن جني بعدة منها ونقل السيوطي في أوائل المزهر عن غيره اشياء أخرى وكلها تدل على أنهم يضبطون نظام الالفاظ المقترنة المتقاربة بالمعاني فيجعلون الحرف



الاضعف فيها والألين والأخفى والأسهل والاهمس لما هو أذننى وأقل وأخف عملاً أو صوتاً ويجعلون الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملاً وأعظم حساً ومن أجمع الامثلة لذلك ما أورده الثعالبي في فقه اللغة قال : اذا أخرج المكروب أو المريض صوتاً رقيقاً فهو الرنين فان أخفاه فهو الهنين فان أظهره فخرج خافياً فهو الحنين فان زاد فيه فهو الأئين فان زاد في رفعه فهو الخنين .

(٧) انهم قد يضيفون الى اختيار الحروف تشبيه اصواتها بالاحداث المعبر عنها وتقديم ما يضاهي أول الحدث ( المعنى ) وتأخير ما يضاهي آخره سَوَاقاً للحروف على سمت المعنى المقصود والفرض المطلوب كقولهم شدَّ الحبل فالشين لما فيها من التفشي تشبَّه بصوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد ثم يليها احكام الشد وال جذب فيعبر بالبدال التي هي اقوى من الشين لا سيما وهي مدغمة فهي اقوى لصيغتها وأدل على المعنى الذي أريد بها . وكذلك جرّ الشيء قدموا الجيم لانها حرف شديد وأول الجر مشقة على الجارّ والمجرور جميعاً ثم عقبوا ذلك بالراء وهي حرف تكرير وكرروها مع ذلك في نفسها وذلك لان الشيء اذا جرّ على الارض اضطرب في غالب الامر صاعداً عنها ونازلاً وتكرر ذلك منه على ما فيه من التمتع والقلق فكانت الراء لما فيها من التكرير ولانها ايضاً قد كررت في نفسها اوفق بهذا المعنى من جميع الحروف .

ومما يلتحق بهذا الباب الذي هو نظام الالفاظ بالمعاني ما وضعوه من حكاية الاصوات وذلك انهم يشتقون اللفظ من نفس الصوت القائم بمعناه

على جهة الحكاية وتصوير الاشياء بأصواتها وهذا النوع يعده ادباء الغربيين من مبدعات القرائح . ومما يحضرنا منه للعرب قولهم في حكاية صوت مصراعي الباب الكبير اذا أغلق جَلَنَبَلَقَ وقول الشاعر : ( جرت الخيل فقالت حَبَطَ قَطَقَ ) . وقول الآخر في الابل ( تداعين باسم السَّيْب ) يحكي صوت مشافرها . وهذا غير الاصوات التي يعبرون بها عن الأحداث وان كانت مشتقة منها كالمطعطة للأصوات المتتابة في الحرب والقهقهة للاستغراب في الضحك وامثال ذلك كثيرة

### نظام المعاني بالالفاظ

والالفاظ في هذا النوع هي التي تسوس المعاني وتنزلها في منازلها وتضعها على أقدارها لا من حيث ان اللفظ هو الذي يوجد المعنى فذلك ظاهر الاستحالة ولكن على انه هو الذي يخصص المعنى اذا كان جنساً وهو الذي يؤكده مبالغة في تلوين صورته النفسية حتى تنطق اجزاؤه وحتى يقوم كل جزء منها في البيان اللغوي مقام الكل الذي هو مادة الشعور الطبيعي . ولما كانت اللغة عملاً نفسياً محضاً كان وجود هذا النوع فيها من أخص الدلائل على تمدنها لان النظام الذي يعين درجات المعاني انما يفصل اجزاء الموجودات على درجات شعور النفس بذوات هذه الاجزاء أو بصفاتها وهذا لا يستقيم الا اذا كان في اللغة حياة باطنة تشبه ما في الانسان الراقي مما يسمى بالكمال أو الحياة الروحية العالية حتى تتكافأ النفس واللغة في تصور اجزاء المعاني وتصويرها ولقد اثبت العلماء أن أظهر ما يكون الفقر في اللغات المنحطة انما هو في

انواع الدلالة المعنوية فكلمنا انحطت اللغة قلت فيها هذه الانواع حتى لتبلغ بها تلك القلة أحياناً الى أن تشبه الجماد في تجرده من الشعور ومعانيه . ووجدوا من لغات القبائل المتوحشة في اواسط أفريقيا ما ليس فيها الفاظ تعبر عن الحب والمؤاخاة والعبادة ونحوها من أمهات المعاني النفسية كأن مادة تلك اللغات من الاحساس الحيواني المحض .

والمرية تعتبر أحكم اللغات نظاماً في أوضاع المعاني وسياستها بالالفاظ وهي من هذا القبيل أعظمها ثروة وأبلغها من حقيقة التمدن بحيث لا تدانيها في ذلك لغة أخرى كائنة ما كانت . فالعرب لم يدعوا معنى من المعاني الطبيعية التي تتعلق بالحياة الروحية أو البدنية مما تهيأ لهم الا رتبوا أجزائه وأبانوا عن صفاته بألفاظ متباينة تعين تلك الاجزاء والصفات على مقاديرها . فأول معاني الحياة الروحية الحب وهذه مراتبه عندهم : الهوى . ثم العلاقة وهي الحب اللازم للقلب . ثم الكلف وهو شدة الحب . ثم العشق وهو اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه الحب . ثم الشغف وهو احراق الحب للقلب مع لذة يجدها وكذلك اللوعة واللاعج فان تلك حُرقة الهوى وهذا هو الهوى المحرق . ثم الشغف وهو ان يبلغ الحب شغاف القلب وهي جلدة دونه . ثم الجوى وهو الهوى الباطن ثم التيم وهو ان يستعبده الحب . ثم التبل وهو ان يسقمه الهوى ثم التدليه وهو ذهاب العقل من الهوى . ثم الهيوم وهو ان يذهب على وجهه لا يستقر وذلك لغلبة الهوى عليه ومنه رجل هائم .

وكذا فعلوا في معاني السرور والعداوة والغضب والحزن والسرعة وغيرها . ومن معاني الحياة البدنية أصول المعاش الطبيعية التي هي قوام

أمرهم كاللبن فإن له نحو سبعين اسماً باعتبار اختلاف أحواله وقد ذكرها السيوطي كلها في المزهرة ( الفصل ١٥ النوع ٢٩ ) وكذلك الخيل والابل والشاء ثم صفاتها وتسمية اجزائها ونحو ذلك مما نكتفي أشهره بالإشارة إليه . وعلى أكثر هذا النوع من نظام المعاني بالالفاظ بنى الثعالبي كتابه فقه اللغة وهو أشهر من أن ينبه عليه ولذا أوجزنا في أمثله اكتفاءً بالدلالة على مظهرها والحقيقة تنهض بها الكلمة الواحدة .

ومما تنبه إليه في هذا الفصل أن ارقى الامم مدنية اذا بلغت فيها المعاني النفسية مبلغ المحرم وتعلقت بها الخواطر من كل جهة بحيث تفصل اجزاءها تفصيلاً يفهم الامة عند ذلك ان تحيط المعنى باصطلاحات علمية وتعرف حوادثه على نحو ما تعرف به فصول العلوم كالحب مثلاً فان مراتبه التي يشير اليها العرب بالالفاظ المتقدمة يشير اليها غيرهم بتعاريف وفصول واصطلاحات ثم لا تعدو بعد ذلك كله ما كان يفهمه العرب منها برقة شمائلهم ولطف حواسهم النفسية فكأنهم لما عدموا العلوم جعلوا الفاظهم فصولاً علمية وذلك منتهى ما يكون من تمدن اللغات .

ثم انت اذا تدبرت هذا النوع رأيت انتباهاً روحياً صرفاً يند أنه ممثّل بالالفاظ ورأيت فيما ترى كأن لنفس العربي طيفاً يحرك اللغة حتى بأنفاس الخطرات ، ويكشف لها كل عاطفة دقيقة ولو اختبأت في اشعة من النظرات

### نظام القرينة

وهو ما نسميه بالنظام البديع لانه في ظاهره نوع من الفوضى وذلك انهم يعتمدون في ضرب من كلامهم على اللمحة الدالة والاشارة التي تقع موقع الوحي وعلى اضعف أثر يشير الى وجه الكلام ومذهبه ويهدي الى طريق المعنى فيه ثم يطلقون الكلام اطلاقاً غير مقيد بنظام ، ولا متبع لطريق غيره من سائر الكلام ، وذلك نظم ينفردون به ولا تجد القليل منه في لغة غيرهم الا حيث تصيب أدلة النبوغ في اشعر الشعر ومأثور المنشور . وقد سماه علماؤنا (سنن العرب) وعقد الثعالبي على امثلة منه القسم الثاني من كتابه فقه اللغة وسماه (سر العربية)

ونحن نرى ان هذا النوع لم يكن في اللغة الا بعد ان انصرف العرب الى صناعة الكلام وهذبوا حواشيه وبلغوا الغاية في تنميق الشعر واجادته وذلك قبل الاسلام بما لا يتجاوز مائة سنة على الاكثر لان التفنن في العبارات لا يأتي الا من كمال صناعة الالفاظ ولان ما عرف للعرب من ذلك قليل في جنب ما اتى به القرآن الكريم وهذا معنى من معاني إعجازه اذ جعل من عبارته أزيمة لعقولهم فكان يلقتها حاجة عن المعنى الظاهر ثم ينفثها بروح الكلام فتكون لها بينهما هزة من الطرب الذي ينشأ عن ادراك العقل لما ليس في مقدوره مع رغبته فيه . فما ذكروه من سنن العرب التي يتحقق فيها نظام القرينة : مخالفة ظاهر اللفظ كقولهم عند المدح قاتله الله ما اشعره فهم يقولون هذا ولا يريدون وقوعه وكذلك قولهم هبلة امه وثكلته وهذا يكون عند التعجب

من اصابة الرجل في رمية أو في فعل يفعله . ومنها الحذف والاختصار فيقولون والله أفعل ذلك ويريدون لا أفعل فيحذفون حرف النفي . ومنها ذكر الواحد والمراد الجمع كقوله تعالى ( هؤلاء ضيفي ) وقوله ( فانهم عدو لي ) والمراد الجماعة . وذكر الجمع والمراد واحد أو اثنان كقوله ( أن ينف عن طائفة ) وهو يريد واحداً وقوله في خطاب موسى وأخيه ( إرجع إليهم فقد صغت قلوبكما ) وهما قلبان . ومنها صفة الجمع بصفة الواحد كقوله تعالى ( والملائكة بعد ذلك ظهير ) . وصفة الواحد أو الاثنين بصفة الجمع كقول العرب ثوب أهدام وجاء الشتاء وقيصي أخلاق<sup>(١)</sup> ومنها أن تخاطب العرب الشاهد ثم تحول الخطاب الى الغائب . وتخطب الغائب ثم تحوله الى الشاهد وهو الالتفات المعروف في البديع . وان تخطب المخاطب ثم ترجع الخطاب الى غيره نحو قوله تعالى ( فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ) الخطاب الاول للنبي صلى الله عليه وسلم وصحابته والثاني للمشركين . ومنها الرجوع من الخطاب الى الغيبة ومن الغيبة الى الخطاب بدون تغيير في المعنى كقوله تعالى ( حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم ) أراد بهم وقوله ( وسقام ربهم شراباً طهوراً ان هذا كان لكم جزاء ) ومعناه كان لهم وقد جاء ذلك في الشعر أيضاً كما رواه ابن النباري في الاضداد . ومنها أن يتبدى بشيء ثم يخبر عن غيره كقوله ( والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن ) يخبر

(١) أحصى ابن خالويه في كتاب ( ليس ) ما كان من هذا النحو وهو ثوب أسمال أي خاق وثوب اكباش — غليظ — وبُرمة أكسار وقد راعشار وقيص أخلاق . ولم يذكر منها ( أهدام )

عن الازواج بلفظ ( يتربصن ) وترك الذين . ومنها نسبة الفعل الى الاثنين وهو لأحدهما كقوله ( مَرَجَ البحرين يلتقيان ) الى قوله ( يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ) وانما يخرجان من الملح لا المذب . ونسبته الى الجماعة وهو لأحدهم كقوله ( وإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ) والقاتل واحد . والى أحد اثنين وهو لهما كقوله ( واللهُ ورسولهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ ) . ومنها ان تأمر الواحد بلفظ أمر الاثنين كقول العرب افعلوا ذلك ويكون المخاطب واحداً وكان الفراء يرى في اصل ذلك ان الرُقعة عند العرب أدنى ما تكون ثلاثة نفر فيجري كلام الواحد على صاحبيه ولذا كان شعراؤهم أكثر الناس قولاً يا صاحبيّ يا خليلي . ومنها أن تأتي بالفعل يلفظ الماضي وهو حاضر أو بلفظ المستقبل وهو ماض كقوله تعالى ( أُنِىْ أَمْرُ اللَّهِ ) أي يأتي ( وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ ) أي ما تلت الشياطين . ومنها أن تأتي بالمفعول بلفظ الفاعل نحو سرّ كاتم أي مكتوم وأمر عارف أي معروف . وبالفاعل على لفظ المفعول كقولهم بيع مغبون ويكون المعنى غابنا . ومنها وصف الشيء بما يقع فيه كقولهم ليلهم نائم إذا ناموا فيه وليلهم ساهر إذا سهره . ومنها البسط بالزيادة في حروف الاسم والفعل متى أمن اللبس بقرينة تقتضي ذلك كقائمة وزن الشعر وتسوية قوافيه وعلى هذا قول بعضهم في صفة الظلماء .

وليلة خامدة خمودا طخياء تغشى الجدي والفرقودا  
فجعل الفرقد كما ترى ثم قال فيها ( لو أن عمراهم أن يرقودا ) يريد  
يرقد . ومنها القبض محاذاة لذلك البسط وهو النقصان من عدد

الحروف كقولهم لاه ابن عمك اي لله ودرس المنا اي المنازل . ومنها  
الإضمار للأسماء والافعال والحروف كقولهم الا يا اسلمي اي يا هذه .  
وقولهم أثعلباً وتقرّ اي أترى ثعلباً وتقرّ وقول بعضهم ( ألا ايّ هذا الزاجري  
أشهد الوغى ) يريد أن أشهد الوغى . ومنها اقامة المصدر مقام الامر  
نحو ( فضرّب الرقاب ) اي فاضربوا واسم الفاعل مقام المصدر كقوله ( ليس  
لوقعتها كاذبة ) اي تكذيب . واسم المفعول مقام المصدر نحو ( بأيكم المفتون )  
أي الفتنة . ومنها المحاذاة وذلك أن تجمل كلاماً بحذاء كلام فيؤتى به على  
وزنه لفظاً وان كانا مختلفين في اصل الوزن وهذا النوع يسمى الازدواج  
ايضاً كقولهم انه ليأتينا بالغدايا والمشايا فجمعوا الغداة وهي من الواو على  
غدايا محاذاة للفظ المشايا وهي جمع العشية . وقول بعضهم ( هتاك أخبية  
ولآج أبوبة ) فجمع الباب على أبوبة ليشاكل لفظ الأخبية . ومنها  
إتيانهم بالمصدر من غير الفعل لان المعنى واحد كقولهم اجتورا وتجاوزا  
وتجاوزا اجتورا وانكسر كسراً وكسر انكساراً وعليه قوله تعالى ( وتبتّل  
اليه تبتيلاً ) . ومنها مجيء صفات المؤنث على فاعل كقولهم امرأة بادن  
اي بادنة وجارية عاتق بمعنى صغيرة . ومجيء فاعل في المؤنث بمعنى المفعول  
كقولهم دابة حاسر اي حسرهما السير وغلالة رادع اي مردعة بالطيب  
والزعفران في مواضع منها . وقد افاض صاحب المخصص في ابنية المؤنث  
والمذكر مما يجري هذا المجرى ( الجزء ١٦ ) .

ومن سننهم العجيبة حذف الحرف وهو مقدّر لصحة معنى الكلام  
فيستقون الوسيط تفتناً كقوله تعالى ( انما ذلکم الشیطانُ یخوِّفُ أولیاءه )



أي يخوفكم بأوليائه ومثله كثير في كلامهم وقد عقده ابن سيده باباً في  
المخصص ( الجزء ١٤ )

ومنها أيضاً قلب الكلام تفنناً كقول العباس بن مرداس ( فديت  
بنفسه نفسي ومالي ) أي فديت نفسه بنفسه ومالي . وقول الاعشى في قلب  
الإعراب

ما كنت في الحرب العوان مغمراً      إذ شبَّ حرٌّ وقودها أجزالها  
وانما هو إذ شبَّ حرٌّ وقودها أجزالها ولكن روي القصيدة بالفتح .  
ولكل ما قدمناه أمثلة كثيرة وانما اوجزنا فيها لاننا نرمي بما شرحناه الى  
تعيين الجهات التي تحصر معاني التمدن في اللغة وبيان كل شيء في حصر معانيه .  
وبعد فهذا ما حضرنا من القول في اثبات ما سميناه ( تمدن العرب  
اللغوي ) وهو كما ترى يصح أن يكون غرضنا لكتاب من أمتع الكتب  
بيد انه لا يخرج الا من الصدر الرحب والقلب المعتمز وبعد أن يتعاون على  
اخراج الفكر الصحيح والذهن الشفاف والفطنة الوقادة وبعد أن تبلغ به  
الوسائل في تصفح العربية ومقابلة معانيها ومعارضة الفاظها بعضها ببعض فان  
تم ما وصفناه والا فهو أمر منتشر ومذهب وعرٌّ وفن غامض وما برح ذلك  
شأن الحكمة من قديم لانها الطبقة الباطنة من كل الاشياء حيث تخلق  
الاسرار ، وتسدل عليها الأستار ، فلا يُرفع منها شيء الا بعون من الله  
وكل شيء عنده بمقدار .

## اللحن العامية

وهذه هي اللغة التي خلفت الفصحى في المنطق الفطري وكان منشؤها من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاض عادة الفصاحة ثم صارت بالتصرف الى ما تصير اليه اللغات المستقلة بتكوينها وصفاتها المقومة لها وعادت لغة في اللحن بعد ان كانت لحنًا في اللغة .

ولا بد للكلام على تاريخ العامية وشيوعها من التوطئة ببعض القول في تاريخ اللحن اذ هو أصلها ومادتها بل هو العامية الأولى لانه تنوع في الفصح غير طبيعي بخلاف ما قد يشبهه من اللهجات العربية المختلفة كما ستعرفه اللحن وأوليته

والمراد باللحن الزَّيغ عن الإعراب وهو أول ما اختبل من كلام العرب ولم يكن منه قبل الاسلام شيء وانما كانت له طيرة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم حين اجتمعت كلمة المسلمين على تباين قبائلهم واختلاف جهاتهم فتساوى الأحمر والأسود ووجد فيهم من يرتضخ أنواعاً من اللكنة ومن هؤلاء بلال كان يرتضخ لكنة حبشية وصهب لكنة رومية وسلمان لكنة فارسية<sup>(١)</sup> . ثم إنه ليس كل العرب سواءً في قوة الفصاحة وجفاء الطبيعة العربية فلا بد ان يكون بدء ظهور اللحن في الألفاف المستضعفين ممن لم

---

(١) من هنا سمي علماء القراءة عدم اقامة الحروف وأدائها على وجوها المتناقلة عن العرب باللحن الخفي كما مر في (مناطق العرب) . والخفي أصل الظاهر بالضرورة

يبلغ به الجفاء ولم تتوقع فصاحته فربما جذبه طبعه الضعيف وقد دار في سمعه شيء من كلام المتعربين بعد الإسلام فيزيغ ويسترسل الى ما انجذب اليه . هذا اذا لم نعتبر في أمر أولئك الألفاف ما يكون عادة من ذهول الطبع وتبلده اذا فجأه ما ليس في قوته ولا تسمو طبيعته اليه كفصاحة القرآن الكريم فانه فضلا عن نزوله بغير اللغات الضعيفة واللاهجات الشاذة قد انطوى على أسرار من سياسة الكلام لا تتعلق بها الا الطبيعة الكاملة ولذا كان أكثر اللحن فيه باديء بدء لان لسان كل عربي يركب منه قياسي لغته ويدرك من أسرارده بحسب ما تواترته قوته فاذا لم يكن صليبا جافيا قصر به طبعه فاختبل وتبلد كما ترى فيمن يقرأ الفصيح وليس من أهله ولو لم يكن ذلك لما كان أبو بكر رضي الله عنه يستحب ان يسقط القاريء الكلمة من قراءته على ان يلحن فيها لان لحن العربي خور في طبعه فهو من هذه الجهة لا يستقيم الا بمراجعته والتغيير عليه حتى يثبت على الصواب بنوع من التعليم والتلقين وأنتى لهم ذلك فلا جرم كان إسقاط الكلمة وهو في حكم السهو خيرا من إثبات اللحن الطبيعي فيها وهو في حكم الممد .

وقد رأينا العلماء فريقين في أمر الإعراب وإطباق العرب عليه فمنهم من يرى انهم يتساندون في ذلك الى السليقة ويجرون على مقتضى الطبع فلا يفطنون الى اختلاف مواقع الكلام باختلاف جهاته وعلى هذا متقدموا العلماء . ومنهم من يرى أنهم انما يتأملون مواقع الكلام ويعطونه في كل موقع حقه وحصته من الإعراب عن ميزة وعلى بصيرة وأن ذلك منهم ليس استرسالا ولا ترجيا والا لكثير اختلاف الاعراب في كلامهم وانتشرت

جهاته ولم تنفذ مقاييسه فلم يجمعوا مثلاً على رفع الفاعل ونصب المفعول ونحو ذلك ومن هؤلاء ابن فارس في كتابه فقه اللغة <sup>(١)</sup> وابن جني كما يؤخذ من كلامه في كتاب الخصائص

والذي عندنا أن ذلك من ( خرفشة النحاة ) كما يقول ابن خلدون في تحذيقهم وتنطيسهم والصواب رأي الفريق الاول لان ما ذكره ابن جني في معنى التعليم والتلقين فاذا ثبت أنهم يتصفحون وجوه الكلام ويتأملون موقعه لم يجز أن ينتقل لسان العربي عن لغة الى لغة أخرى ولا أن يستدرج في بعض الكلام ولا أن تضعف فصاحة الفصيح منهم للزومهم طريقاً واضحاً ومهيئاً معروفاً وما كان بالتعليم لا يكون بالفطرة وقد جاءت الروايات بكل ذلك عنهم ولا سبب له غير الاختلاف الفطري الذي تبتدئه الوراثة وتكمله الطبيعة كما أومأنا اليه في محله . فالصحيح أن الطباع العربية مختلفة قوة وضعفاً فمنها المتوقع الجافي ومنها الرخو المضطرب وبحسب ذلك تكون اللغة فيهم وقد نقل ابن جني نفسه في موضع من كتابه أن العرب

( ١ ) بل غلا ابن فارس غلوّاً قبيحاً لا اعتقاده أصالة اللغة واعتبارها اعتباراً دينياً كما بسطناه فيما سلف فزعم ابن العرب ( العاربة ) كانوا يعرفون النحو والمروض بمصطلحاتهما وذلك بتوقيف من قبلهم حتى ينتهي الامر الى الموقف الاول وهو الله عز وجل الذي علم آدم الاسماء كلها — على ما يفسر به بعضهم هذه الاسماء — وان هذين العاصين ( النحو والمروض ) كانا قديماً ثم أتت عليهما الأيام وقلا في أيدي الناس حتى جدد النحو أبو الاسود وجدد المروض الخليل بن احمد ...

أشد استنكاراً لزيف الإعراب منهم لخلاف اللغة فقد ينطق بعضهم بالدخيل والمولد ولكنه لا ينطق باللحن . ثم قال في موضع آخر : إن أهل الجفاء وقوة الفصاحة يتناكرون خلاف اللغة تناكروهم زيف الإعراب . ولم يأت هذا التفاوت كما ترى الامن اختلاف الطباع الذي أشرنا إليه فأحر بما اتفقوا عليه أن يكون سببه في الطبع أيضاً لأن الاختلاف في جهات من الشيء ، إنما يتميز بالاتفاق على جهات أخرى منه .

وبهذا الاعتبار نقطع بان اللحن لم يكن في الجاهلية البتة وكل ما كان في بعض القبائل من خور الطباع وانحراف الالسنه فإتما هو لغات لا أكثر وستزيد هذا الموضع بياناً في الفصل التالي .

هذه أولية اللحن كانت كما عرفت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وقد رووا أن رجلاً لحن بحضرته فقال أرشدوا أخاكم فقد ضل — ويروى فانه قد ضل — فلو كان اللحن معروفاً في العرب قبل ذلك العهد مستقراً الأسباب التي يكون عنها لجاءت عبارة الحديث على غير هذا الوجه لأن الضلال خطأ كبير والارشاد صواب أكبر منه في معنى التضاد . بل إن عبارة الحديث تكاد تنطق بان ذلك اللحن كان أول لحن سمعه أفصح العرب صلى الله عليه وسلم .

ثم لما استفاضت الأسباب التي ذكرناها في صدر هذا المقال وفتحت الروم وفارس كثر اللحن بالضرورة ولكن العرب كانوا يستسمجونه ويعتبرونه هجنة وزرابة ويتنقصون أهله وييمدونهم . ومما رووه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر يقوم يرمون فاستقبح رميهم فقال ما أسوأ

رميكم فقالوا نحن قوم (متعلمين) . فقال عمر لحنكم اشد علي من فساد رميكم<sup>(١)</sup> وقد تضافرت الروايات بان كاتباً لابي موسى الاشعري كتب الى عمر فلحن فكتب اليه عمر : عزمت عليك لما ضربت كاتبك سوطاً — وفي رواية كتب اليه أن قنع كاتبك سوطاً — ولكنهم لم يذكروا موضع اللحن في كتاب ابي موسى حتى وقفنا عليه فاذا هو لحن قبيح يشق على عمر وغير عمر لان ذلك الكاتب جعل صدر كتابه هكذا : من ابو موسى . وهذا على ما نظن اول لحن وقع في الكتابة ثم شاع بعد ذلك حين نقلت الدواوين الى العربية من الرومية والقبطية<sup>(٢)</sup> وكان اكثر ما يكون ذلك من الفاف كتاب الخراج والصارفة وقد عثروا في بعض قرى مصر على رقاع مكتوبة يرجع تاريخ أقدمها الى سنة ١٢٧ ومنها رسائل موجزة الى أصحاب البرد كبريد اشمون وغيره وهي على ايجازها قبيحة اللحن ولكن منها رسائل مؤرخة في سنة

( ١ ) كذا روى ابن الانباري في كتاب الاضداد وعندنا أن هذا الخبر موضوع لان الزام المثني والجمع الياء دائماً انما كان ظهوره في لغات الموالي والمتعربين لسهولة ذلك على السنتهم واصعوبة التمييز بين حال الرفع وحال النصب . وسياق الخبر يدل على أن القوم كانوا من العرب . ويرجح ذلك انه زاد في الخبر عن عمر قوله : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول رحم الله امراً أصلح من لسانه . فكأن ذلك للترغيب والترهيب لا غير

( ٢ ) نقلت الدواوين من الفارسية والرومية والقبطية الى العربية في خلافة عبد الملك بن مروان واول ديوان نقل اليها ديوان الشام كان بالرومية فنقل سنة ٨١ وكان الديوان في مصر اول نقله يكتب فيه بالعربية والقبطية معاً ثم ماتت هذه بحياة تلك . ولهذا البحث موضع من الكتاب نرجو أن نصل اليه ان شاء الله

١٨٢ و ٢٥٠ و ٢٧٩ و ٢٩٥ وقد كتب الاخيرتين ( شمعون بن مينا ونقله بن اندونه ) ولحنها من اقبح اللحن يكتبون فيها دنائير هكذا ( دنير ) على انها كلها تكتب بصيغة واحدة لا تتجاوز كلمات معدودة مما يرجح انها امثلة موضوعة لهم ينقلونها في تلك الاغراض الثابتة ولا يغيرون منها الا الاسماء والأرقام وذلك شأن حثالة العامة الى اليوم. ومن تلك الرسائل التي أصابوها رقة أملاها بعض المتحذقين الى يقال ولا تاريخ لها ونحن نقل نصها تفكها وهو: رقة عبر الرزق . بسم الله الرحمن الرحيم . أطال الله بقاءك وأدام عزك وكرامتك وجعلني فداك قد وجهنا اليك ربع درهم فتفضل ادفع الى الغلام داني سكينج ونصف داني بزر كرفس وادفع اليه كسرين وسرتني بذلك ان شاء الله « . . . أُملي في غدا القدر <sup>(١)</sup>

#### انتشار اللحن

ولما نشأ الجيل الثاني في الاسلام اضطربت السلائق وذلك بعد ان كثر الدخيل وعلفته الالسنه لدورانه في المعاملات وتنزله من الاجتماع منزلة المعاني الثابتة فأنحرفت به السنه الحضر عن نهجها العربي وخيف من تمادي ذلك على لسان العرب من الفساد فوضع ابو الاسود الدؤلي اصول النحو ثم كان الناس يختلفون اليه يتعلمونها منه وهو يفرع لهم ما كان أصله — وسنأتي على ذلك في موضعه — . ومن خشيتهم فساد اللسان كانوا يأخذون أولادهم بالإعراب اخذاً شديداً حتى كان ابن عمر رضي الله عنهما

---

(١) كذا نريد ان ثبت الصور الخطية لتلك الرقاع ولكننا لم نر في اثباتها فائدة من البحث الذي نحن فيه

يضرب بنيه على اللحن تقويماً لهم . ثم فشا النحو بعد ذلك وتناوله الموالي  
والمعربون وصار يعلم في المساجد فأحصى اللحن القبيح الذي هو مادة العامية  
في الزعانف من الطبقات الوضيعة كالمحترفين وأهل الأسواق . وكان الخطيب  
البلغ خالده بن صفوان — توفي في أوائل الدولة العباسية — يدخل على بلال  
بن أبي بردة يحدثه فيلحن فلما كثر ذلك على بلال قال له أتحدثني أحاديث  
الخلفاء وتلحن لحن ( السقّاآت ) فكان خالد بعد ذلك يأتي المسجد ويتعلم  
الإعراب . واشتهر النحو وغيره من العلوم التي وضعت لذلك العهد  
بأنها علوم الموالي فكان يرغب عنها الأشراف لذلك وقد روى المبرد في  
الكامل أن المنتجع قال لرجل من الأشراف ما علمت وكذلك . قال  
الفرائض . قال ذلك ( علم الموالي ) لا أبالك علمهم الرجز فانه يهرت أشداقهم .  
ومر الشعبي ( سمير عبد الملك بن مروان ) بقوم من الموالي يتذاكرون النحو  
فقال لئن أصلحتهموه انكم لأول من افسده . وسنقول في الموالي بعد

قال الجاحظ وأول لحن سمع بالبادية ( هذه عصاتي ) — والصواب  
عصاي — وأول لحن سمع بالعراق ( حيّ على الفلاح ) — وصوابه حيّ  
بالتفتح —<sup>(١)</sup>

وفي الدولة المروانية العربية كان يعتبر اللحن من أقبح الهجنة لأن  
العرب يومئذ كانوا لا يزالون على حميتهم الأولى . وكانت جماهيرهم تحضر  
مجالس الخلفاء والأمراء وتنادى كل طائفة منهم باسم قبيلتها فيقال مثلاً لتقم  
همدان ولتقم تميم ولتقم هوازن ونحو ذلك وهم يريدون من حضر من هذه

---

(١) وقل ابن السكيت زعم الفراء أن أول لحن سمع بالعراق هذه عصاتي



القبائل فكان عبد الملك يستسقط من يلحن قال العتيبي استأذن رجل من  
عليه أهل الشام عليه وبين يديه قوم يلعبون بالشطرنج فقال يا غلام غطها .  
فلما دخل الرجل فتكلم لحن فقال عبد الملك يا غلام اكشف عنها الغطاء  
ليس للاحن حرمة . ولحن محمد بن سعد بن أبي وقاص لحنة فقال حسن -  
كلمة تقال عند الألم - اني لاجد حرارتها في حاتي . وقد أحصوا اللذين لم  
يسمع منهم لحن قط في ذلك العهد فعدوا منهم عبد الملك بن مروان والشعبي  
والحسن البصري وأيوب بن القرية . وقال الحسن يوما لبعض جلسائه  
توضيت فقيل له أتلحن يا أبا سعيد فقال انها لغة هذيل وكان هذا الجواب  
أبين عن فصاحته من الفصاحة نفسها .

وأحصوا اللحانين من البلغاء فعدوا منهم خالد بن عبد الله القسري <sup>(١)</sup>  
وخالد بن صفوان وعيسى بن المدور وكان الحجاج بن يوسف يلحن احيانا .  
وقد كان بنوا مروان يلزمون أولادهم البادية لينشأوا هناك على تقويم  
اللسان واخلاص المنطق ومن أجل ذلك قال عبد الملك أضرب بالوليد جبنا له  
فلم توجهه الى البادية . والوليد هذا ومحمد اخوه كانا لحانين ولم يكن في ولد  
عبد الملك أفصح من هشام ومسامة . وذكروا أنه قيل للوليد يوما ان العرب  
لا تحب أن يتولى عليها الا من يحسن كلامها فجمع أهل النجو ودخل بيتا  
ليتعلم فيه فأقام ستة اشهر ثم خرج أجهل من يوم دخل . ومما نقلوا من لحنه

---

(١) توفي خالد هذا سنة ١٢٦ وكان من خطباء العرب المشهورين . ونقل  
صاحب الاغني عن المدائني انه كان لخالد مؤدب يقال له الحسين بن رهمه الكلبي  
وكان يجلس بازانه اذا صعد المنبر ليخطب فاذا شك في شيء أومأ اليه بالصواب .

انه خطب الناس يوم عيد فقراً في خطبته ( يا ليتها كانت القاضية ) بضم التاء فقال عمر بن عبدالعزيز عليك وارا حنا منك .

وما صار الأمر الى العباسيين حتى كانت العجمة قد فشت في الحضر وغلبت على السليقة واصبحت السلامة من اللحن لا تهياً الا بالتصوّن والتحفّظ وتأمل مواقع الكلام ولذا صاروا يشبهون اللسان الفصيح بانه لسان اعرابي قح وكانوا يسمون عثمان البتي النحوي ( معاصر للاصمعي ) عثمان العربي من فصاحته واستقامة لسانه ولكن أذى اللحن بقي ثابتاً في الفرائز القوية حتى ذكروا ان الرشيد كان مما يعجبه غناء الملاحين في الزلاّلات اذا ركبها وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم فقال يوماً قولوا لمن معناه من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعراً فيغنّون فيه فقيل له ليس أحد اقدر على هذا من ابي العتاهية وهو في الحبس . قال ابو العتاهية فوجه الى الرشيد ان قل شعراً حتى اسمعه منهم ولم يأمر باطلاقي فغاضني ذلك فقلت والله لأقولن شعراً يحزنه ولا يسره . ثم عمل شعراً رقيقاً في الموعظة والتذكير بانصراف الدنيا وانصرام لذاتها يقول فيه :

خانك الطرف الطموح	أيها القلب الجموح
هل لمطلوب بذنوب	توبة منه نصوح
كيف اصلاح قلوب	انما هن قروح
موت بعض الناس في الأر	ض على قوم فتوح
نُح على نفسك يا مس	كئين ان كنت تنوح

ودفعه الى من حفظه من الملاحين فلما سمعه الرشيد جعل يبكي وينتحب

وكان من اغزر الناس دموعاً في وقت الموعظة واشدهم عسفاً في وقت الغضب والغلظة .

تقول ولو أن أبا العتاهية لم يطرح ظل نفسه على ذلك الشعر وقتئذ وعمل على أن يصيب حقيقة غرض الرشيد لكان أول واضع في الاسلام للشعر الذي يسمى اغاني الشعب وجاء بعده من يأخذ في طريقته ويفتن فيها حتى توضع أغاني الشعب الاجتماعية والسياسية على حقيقتها ويكون ذلك من أرقى أبواب الادب العربي ولكن ظل الشاعر كان في ذلك الغضب ثقيلًا باردًا كأنه قطعة من ظلمة حبسه أو كأنه ظل شيطاني لا ينبسط الا ليطوي الاشعة المنبعثة من الافكار الصالحة .

وكان المأمون يقول انا اتكلم مع الناس كما هم على سجيتي الا علي ابن المهيم فاني اتحفظ اذا كلمته لانه يعرف في الاعراب . وعليّ هذا كان كاتباً في ديوانه وكان كثير الاستعمال لمويس اللغة وله نواذر عجيبة في التشادق . دخل مرة سوق الدواب فقال له النخاس هل من حاجة قال نعم . اردت فرساً قد انتهى صدره وتقلقت عروقه يشير بأذنيه ويتعاهدني بطرف عينيه ويتشوف برأسه ويعقد عنقه ويخط بذنبه ويناقل برجليه . حسن القميص جيد الفصوص وثيق القصب تام العصب كأنه موج لجئة أو سيل حدور . فقال له النخاس هكذا كان فرسه صلى الله عليه وسلم . .

وكان مثل هذا التقمير خاصاً بجفاة الاعراب ممن يطروئون من البادية فلما فشا اللحن ولانت جوانب الكلام أخذ في طريقهم جماعة من النحويين فكانوا يبالغون في التقمير والتقميع والتشديق والتمطيط والجهورة والتفخيم

يريدون بذلك أن يتبادوا في الحضريين ليكونوا أعرابهم فكانت هذه  
الاعرابية الكاذبة تمثيلاً مضحكاً عند العامة وثقيلاً مبغضاً عند العلماء . ومن  
اشهر أولئك عيسى بن عمرو الثقفي وهو رأس المتقمرين وفاتحة تاريخهم (توفي  
سنة ١٤٩) وابو علقمة النحوي وابو خالد النميري وابو محلم الراوية وغيرهم . ومن  
اثقل ما رأيناه في التقمير هذا الكتاب الذي كتبه ابو محلم (في اواخر القرن الثاني)  
الى بعض الخدّائين في نعل كانت له وهذه عبارته كما رواها القاضي في اماليه  
« دِنَهَا فَاذَا هَمَّتْ تَأْتِدِنْ فَلَا تَخْلِيهَا تَمْرُخِدْ وَقَبْلُ أَنْ تَقْفَعْلَ فَاذَا اثْتَدَنْتْ  
فَامَسْحُهَا بِخَرْنَةِ غَيْرِ وَكَيْبَةٍ وَلَا جَشْبَةٍ ثُمَّ امْعَسْهَا مَعْسَاً رَقِيقاً ثُمَّ سَنَّ شَفَرَتَكَ  
وَأَمْنَهَا فَاذَا رَأَيْتَ عَلَيْهَا مِثْلَ الْمَبُوتَةِ فَسَنِّ رَأْسَ الْإِزْمِيلِ ثُمَّ سَمِّ بِاللّهِ وَصَلِّ  
عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ انْحُبْهَا وَكُوفِ جَوَانِبَهَا كُوفاً رَقِيقاً وَأَقْبِلْهَا  
بِقَبَالَيْنِ أَخْنَسَيْنِ أَفْطُسَيْنِ غَيْرِ خَلْطَيْنِ وَلَا أَصْمَعَيْنِ وَلِيَكُونَا وَثِيقَيْنِ مِنْ  
أَدِيمٍ صَافِي الْبَشْرَةِ غَيْرِ نَمِشٍ وَلَا حَلِيمٍ وَلَا كَدِشٍ وَاجْمَلِ فِي مَقْدَمِهَا كَمْتَفَارِ  
النَّغْرِ <sup>(١)</sup> »

لا جرم عدد أمثال هؤلاء في الثقلاء، لان هذا الفصيح في العامة أقبح  
من اللحن في مخاطبة الاعراب الفصحاء . وقد ألف أبو الفرج النحوي

(١) هذا تفسير غريبه : تأتدين تبتل . تمرخد تسترخي . تقفعل تنقبض . وكبة  
جشبة اي وسخة غليظة . المعس الدلاك . امها السكين تسخينها بالنار ثم القاءها في الماء  
او حداثها . الازميل من انوات الخدّاء . التكويف التدوير القبالة سيران تشد بهما  
النعل ويريد ابو محلم بوصفها أن يكونا غليظين من أديم واحد لا عيب فيه من  
عيوب الجلد

المتوفى سنة ٤٩٩؛ كتاباً جمع فيه أخبار المتقمرين وساق نوادرهم .  
على ان النحويين لم يكونوا كلهم من الفصحاء بله المتقمرين ولا الرواة  
أيضاً فقد كان حماد الرواية وهو في شباب الدولة العربية لحانة حتى اعتذر عن  
ذلك في مجلس الوليد بن عبد الملك بأنه رجل يكلم العامة ويتكلم بكلامها . وقد  
ألف عمر بن شبة النحوي الراوية المتوفى سنة ٢٦٢ كتاباً فيمن كان يلحن  
من النحويين الى عهده واستمرت العامة فاشية بما كثر من اسبابها وتوفر  
من وسائلها ولم يغن الخلفاء ولا الامراء اتخاذهم المؤدبين لاولادهم يقوّمون  
السنتهم ويأخذونهم بالفصيح واندفع الناس في ذلك وخاصة بعد أن فسدت  
سلائق الأعراب أيضاً في القرن الخامس كما سيجيء . وكلما تقدمت البلاد  
في مذاهب الترف وتقلبت في أعطاف الرقة بلغت مثل ذلك من العامة حتى  
صارت الاندلس — وهي التي انفردت بمشاهير النحاة الذين أعادوا عصر  
الخليل وسيبويه <sup>(١)</sup> — تكاد تكون عامية محضة وقد تقل صاحب نفح الطيب  
أن الخاص منهم اذا تكلم بالاعراب وأخذ يجري على قوانين النحو استثقلوه  
واستبردوه .



(١) سنن فصل ذلك في تاريخ الأدب الاندلسي

### فساد اللغة في البادية

هذا ما يحضرنا من تاريخ اللحن في الحضر حيث توفرت اسبابه من الاحتلاط والملابسة أما في البادية فقد بقيت اللغة على خلوصها الى آخر القرن الرابع على ما يكون من الاختلاف الذي لا بد منه بين طبائع الاعراب كما أوما نا اليه فيما سبق . وقد حكى ابن جني في الخصائص انه كان يرد عليهم من عقيل من يؤنس به ولا يبعد عن الأخذ بلغته . وابن جني توفي سنة ٣٩٢ وكلامه في الخصائص يشعر أن السنة البدو يومئذ بدأت تضطرب حتى كان ينبه بعضهم بعضاً الى الصواب وحتى ظهر في بعض طوائفهم شيء من مردول القول . قال وقد طرأ علينا مرة احد من يدعى ( الفصاحة البدوية ) ويتباعد عن الضعفة الحضرية فتلقينا اكثر كلامه بالقبول وميزناه تمييزاً أحسن في النفوس موقعه . ثم ذكر ان هذا البدوي ركب في بعض شعره قياساً غير صحيح وتكرر منه ذلك فطرحوا لغته قال وكان من أمثل من رأيناه ممن جاءنا .

على أن اختلاف طبائع الاعراب قديم لانهم يرتون عنه سلفهم وأوليتهم وقد يكون من ضعف تلك الطبائع ما يعده الثقات فسادا لا انحطاطه في الفصاحة لا لان فيه لحنًا اذ العلماء انما يطلبون فصيح اللغة ويقدرّون الاعراب على حسب ما عندهم من ذلك . وقد ذكرنا في الكلام على ( أفصح القبائل ) من نصوا على قوة الفصاحة فيهم بعد الاسلام أما الضعاف الذين يوجهه ضعفهم على جهة ما اشرنا اليه فلم تقف على نص يعين قوماً منهم الا ما ذكره

عن أعراب الحليمات<sup>(١)</sup> فقد روى العسكري عن أبي زيد أن الكسائي المتوفى سنة ١٨٩ بعد أن أخذ العلم الصحيح عن أساتذة البصرة خرج إلى بغداد فقدم أعراب الحليمات وهم غير فصحاء فأخذ عنهم شيئاً فاسداً فخلط هذا بذاك فأفسده . وهذا الفساد ظاهر المعنى كما ترى .

ولم نثر على نص يثبت خلوص لغة الأعراب فيما وراء القرن الرابع ولا يمكن أن يكون ذلك مع اضطراب الفن واستعجام الدولة وغلبة العامية وانقطاع حاجة العلماء إلى عربيتهم الفطرية ودروس معاهد الرواية ثم فشو الاختلاط بين العرب وعامة الأمصار كما سيمر بك . وخاصة في الحجازيين منهم حيث يختلف إليهم الحجيح من جميع الآفاق . غير أننا رأينا في معجم البلدان لياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ في لفظ ( العكوتين ) تشبیه عكوة وهو اسم جبلين منيعين مشرفين على زبيد باليمن — قوله : ومن أحدهما عمارة بن أبي الحسن اليمني الشاعر من موضع فيه يقال له الزرائب . . وقال الراجز

إذا رأيت جبلي عكاد وعكوتين من مكان باد  
فأبشري يا عين بالرقاد

قال وجبلا عكاد فوق مدينة الزرائب وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة

( ١ ) الحلبيات أنقاء بالدهاء . والدهناء من ديار بني نعيم وهي سبعة أجبل من الرمل بين كل جبلين شقيقة وهي من أكثر البلاد كلاً حتى أنها متى اخصبت كفت العرب لسعتها . وأهل ضعف أعرابها من هذا الخصب

في مناكحة وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه . ثم رأينا في القاموس لمجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي المتوفى بمدينة زيد سنة ٨١٧ في مادة ( ع ك د ) ان عكاد جبل باليمن قرب مدينة زيد « وأهله باقية على اللغة الفصيحة » . وقد زاد شارحه مرتضى الزبيدي — أقام بمدينة زيد مدة طويلة فعرف بهذا اللقب — المتوفى سنة ١٢٠٥ قوله ( الى الآن ) ثم قال ولا يقيم الغريب عندهم أكثر من ثلاث ليال خوفاً على لسانهم .

ولا يعرف قوم خلصت لغتهم غير أولئك المكاديين وعبارة ياقوت تدل على انه لم يكن يعرف في زمنه غيرهم أيضاً على ان لسان البدو النازلين في الجنوب من شبه جزيرة العرب لا يزال الى اليوم أكثر شبهاً بالفصحى من بعض الوجود دون غيرهم من سائر العرب واطهر ما يكون ذلك على ما تبينه الرواد في سكان حارب وبيحان . وكذلك يقال في قبائل فهم وقحطان في الحجاز انهم أكثر انطلافاً في الألسنة من سائر عرب الشمال والله أعلم

### طبائع الأعراب

بقي ان نذكر شيئاً عن طبائع الأعراب الفصحاء الذين كانوا يطروء على الحضرة فتؤخذ عنهم اللغة لان العلماء كانوا اذا وجدوا منهم من يفهم اللحن وعلل الأعراب بهرجوه وزيفوا طبعه وطرحوا لغته كما يفعلون بمن لم يخلص منطقته وبمن يرق طبعه وتضعف فصاحته لاغراقه في علل الحضارة وأسبابها فقد ذكروا أن أبا عمرو بن العلاء ( توفي سنة ١٥٤ ) استضعف يوماً فصاحة أبي خيرة المدوي الأعرابي فسأله كيف تقول حضرت الأيران



فقال حفرت إرانا . فقال له أبو عمرو ألان جلدك يا أبا خيرة حين تحفرت <sup>(١)</sup> وهكذا كانوا اذا ارتابوا بفصاحة أعرابي وظنوا ان جلده قد لان وذهب جفاؤه الذي يعدونه مادة الفصاحة وضعوا له قياساً غير صحيح وسألوه عنه فان نطق به طرحوه والا كان عندهم بتلك المنزلة وانما يمدون الى الاقيسة غالباً لان قياس العربي قريحته كما بيناه من قبل والقريحة مظهر الفطرة . قال الاصمعي سمعت أبا عمرو يقول : ارتبت بفصاحة أعرابي فأردت امتحانه فقات بيتاً والقيته عليه وهو كم رأينا من (مُسحَب) مُسحَبٍ صار لحم النُسُور والعُقبان فأفكر فيه ثم قال رُدَّ علي ذكر (المـ حوب) . حتى قالها مرات فعلمت ان فصاحته باقية . ولا تجد الأعرابي ينطق بمثل هذا الا اذا ضمفت فصاحته وبدأت سليقته تتحضر فكأنما انصدع مفصل العريضة من لسانه . قال ابن جني سألت مرة الشجري — وهو أعرابي من عقيل كانوا يرجعون اليه في اللغة — ومعه ابن عم له دونه في الفصاحة وكان اسمه غصنا فقلت لهما كيف تحقران حمراء فقالا حميراء . . . وواليت من ذلك أحرفا وهما يجيآن بالصواب ثم دسست في ذلك علباء فقال غصن علباء وتبعه الشجري فلما هم بفتح الباء تراجع كالمذعور ثم قال آه عليَّ <sup>(٢)</sup>

(١) قال الرياشي انه أخطأ لان الحفرة يقال لها ارة وتجمع على أربن وهي التي يخبز فيها واما الاران فحشب النعش . وقد وقفنا على مسائل أخرى مما ( لان فيه جلد الاعراب ) لم نر فائدة في استقصائها

(٢) صفروه على ذلك لان هزته بدل من ياء . واذا أردت شرح ذلك فراجع كتاب سيديويه ( الجزء الثاني صفحة ١٠٨ ) . وعلباء البعير عصب عنه

وقال في موضع آخر من (الخصائص) سألته يوما — يعني الشجري —  
كيف تجمع دُكَّانا فقال دكا كين قلت فسرحانا قال سراحين .. قلت فعثمان  
قال عثمانون فقلت له هلاً قلت عثمانين قال ايش عثمانين أرايت انساناً  
يتكلم بما ليس من لغته . وكذلك نقل عن أبي حاتم سهل بن محمد السجستاني  
(توفي سنة ٢٥٥) في كتابه الكبير في القراءات قال قرأ علي أعرابي بالحرم  
(طبيي لهم وحسن مآب) فقلت له طوبى فقال طيبي فأعدت فقلت طوبى  
فقال طيبي فلما طال علي قلت طوطو فقال طي طي ... وهكذا نبا طبع هذا  
الاعرابي الا عن لحن قومه وان كان غيره أفصح منه ولم يؤثر فيه التلقين ،  
ولا ثنى طبعه هز ولا تمرين .

على أن طبع العربي قد يجذبه اذا توهم القياس ومن ذلك ما رواه صاحب  
الاغاني ان عمارة بن عقيل الشاعر (في القرن الثالث وهو الذي يقال ان  
الفصاحة ختمت به في شعراء المحدثين) <sup>(١)</sup> أنشد قصيدة له جاء فيها  
(الأرياح والأقطار) فقال له أبو حاتم السجستاني هذا لا يجوز انما هو  
الأرواح فقال لقد جذبني اليها طبعي .. أما تسمع قولهم رياح فقال له أبو  
حاتم هذا خلاف ذلك قال صدقت ورجع الى الصحيح . وقبله كان الفرزدق  
يلحن وكان عبد الله بن يزيد الحضرمي البصري مغري باعتراضه ونسبته الى  
اللحن الحضري حتى هجاه بقوله

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى المواليا

---

(١) وهو عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير وكان يطرأ من البادية فتؤخذ

فقال له الحضرمي لخت ... ينبغي ان تقول مولى موال . والفرزدق هو القائل

وعضّ زمان يا ابن مزوان لم يدع من المال الا مسحاً أو مجاف  
قال ابن قتيبة وأتعب أهل الإعراب في طلب العلة فقالوا وأكثروا  
ولم يأتوا بشيء يرتضى ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر ان كل ما أتوا به  
احتيال وتمويه . وقد سأل بعضهم الفرزدق عن رفعه هذا البيت فشتمه وقال  
علي ان أقول وعليكم ان تحتجوا ... !

وبعد ان فشت العامة وغلبت على أكثر الجليل لم يعد الأعراب  
الفصحاء يفهمون الا عن أهل البصر بسؤالهم من الرواة والعلماء وكذلك كانوا  
لا يخاطبون العامة الا بحضرم ومساعدتهم ( في الترجمة ) والآثار من ذلك  
كثيرة نكتفي منها بما رواه الجاحظ في البيان قال رأيت عبداً اسود لبني  
أسد قدم عليهم من شق اليمامة فبعثوه ناطوراً وكان وحشياً لطول تقربه في  
الابل وكان لا يلقى الا الأكرة ( الحرائين ) فكان لا يفهم عنهم ولا يستطيع  
إفهامهم فلما رآني سكن الي وسمته يقول لعن الله بلاداً ليس فيها عرب ..  
أبا عثمان أن هذه العريب في جميع الناس كمقدار القرحة في جميع جلد الفرس  
فلولا أن الله رق عليهم فجعلهم في حاشية لطمست هذه العجبان آثارهم .  
وقد بقيت أشياء مما يصلح لهذا الباب أمسكنا عنها حتى يقتضيها مكانها  
في بحث الرواية .

### العامية في العرب

قد علمت كيف بدأت العامية وكيف خرجت من اللحن وأن ذلك لم يكن الا في اوائل الاسلام فلا عبرة بما يهجس به بعض اولئك الذين تراهم في مجازاتهم وتخرصهم كأننا يشرحون للناس (علم) الغيب فيزعمون أن العامية كانت لغة بعض العرب في الجاهلية الاولى وأن القوم كان لهم فصيح وعامي معتلين لذلك بما عثر عليه من آثار بعض رعاة تلؤلؤ الصفا وغيرهم مما يرجع الى غابر أزمانهم ثم ما وجدوه من المخطوطات التي جرت فيها كلمات تشبه الفصيح . ونحن نقول إن كل ذلك لا يالحق العرب من سيئه شيء . لان أطراف الجزيرة لم تكن خالصة العروبة في القديم بل كان اهلها مغلوبين على امرهم فلم يكن لهم من معنى اللغة الاتعاور المنطق والاستبداد بالكلمات يتلقفونها ممن حولهم لان ملكات الوضع العربي فيهم غير صحيحة وشروطه غير تامة وليس كل عربي الجنس عربي للسان والا فما بال الحميريين ومن قبلهم من الامم السالفة فكما أن لهؤلاء لغة متميزة عن العربية الفصحى نشأت عن اسباب خاصة كذلك يقال في غيرهم ممن تميزت لغاتهم عن المضربية ولا يذهبن عنك أن هذه المضربية الفصحى لم تخلق مضربية فصحى بل مرت في أطوار زمنية هذبت منها وأخلصتها كما بيناه في موضعه . فلا يمكن أن يقال انه كان للعرب فصيح وعامي الا اذا أجرينا عليهم أحكامنا وألزمناهم ما ألزمنا من ضعف النظر وسوء التأويل واعتبرنا ما بيننا وبينهم من تقادم التاريخ كأنه سواد ليل ختم به الامس ..

وكل ما صح من ذلك قبل الاسلام حين فشت المضرية أن الذين كانوا يسكنون الريف من العرب ويضربون على حدود الاعاجم كانت ترق طباعهم وتلين الفاظهم ويكثر الدخيل فيها ومن ثم لا يكون لهم جفاء الخالص وقوة ملكاتهم واعتبر ذلك بمدي بن زيد العبادي الشاعر الذي نشأ في ديوان كسرى فكل شعره فصيح لا لحن فيه الا أن رقة الفاظه سَوَّغت للرواة أن يحملوا عليه شعراً كثيراً مما يسهل وضعه ولا يباين ديباجته الحضرية فيصعب تميزه في النسبة . ومما نذكره ثبثاً لما نحن فيه أن الرواة قد جاسوا خلال البادية بعد الاسلام بقليل وضربوا في أطرافها وشافوها القبائل ونقلوا عنهم كثيراً من الشاذ ولدخيل والوحشي والمتروك ورأيناهم عدوا ذلك جميعه لغات بل كانوا يجعلون الاحتجاج بلغاتهم على نسبة بعدهم من قريش التي هي سرّة العرب فاعتبروا لغة قريش أفصح اللغات وأصرحها لبعدهم عن بلاد المعجم من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني اسد وبني تميم ثم تركوا الاخذ عنهم بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن لمجاورتهم الفرس والروم والحبشة فاعتدوا بلغاتهم غير صريحة لذلك وهم على كونهم أغفلوا أمرها قد نقلوا منها أشياء كما مر في لهجات العرب فلو أنهم عرفوا لهم عامية أو ما هو في حكمها لشاروا إليها في بعض الروايات ولما صح أن يعدوا ما نقلوه عنهم في باب اللغات . هذا على أنهم أدركوهم وقد تنابت أجيالهم وانتالوا أواخر على أوائل في مخالطة الاعاجم وملاستهم فلأن ينزهوا عن العامية في جاهليتهم أولى .

وما زالت لغات العرب جارية على سنن الفطرة معتبرة في حكم اللغات المستقلة — على ما يكون في طبقات كلامهم من الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والسميح والخفيف والثقيل وذلك كما قال الجاحظ كله عربي وبكل قد تهادحوا وتمايوا — مازالت لغاتهم على ذلك حتى خالطوا السوق في الامصار الاسلامية ونشأت أجيالهم على سماع العرب والعامة فأخذوا من هؤلاء وهؤلاء وكان ذلك سريعاً في ألسنتهم ففسدت السليقة العربية فساداً عربياً أحال منطقهم وقد كانت مخالطتهم للأعاجم أبقى على فطرتهم لأنهم إنما يعربون وينقلون عنهم ولكنهم لا يحكونهم في المنطق بخلاف أمرهم مع العامة ولكل شيء آفة من جنسه . لهذا رأينا الجاحظ يعد أقبح اللحن في زمنه لحن الأعراب النازلين على طرق السابلة وبقر مجامع الاسواق ومن هنا دب الفساد في ألسنتهم بما يدور على مسامعهم من رطانة السوق ولحن البلدين ثم ما يتعاطونه من هذا الشأو في مخاطبتهم التي بها قوام المعاملات . فلا سبيل الى القول إذن بان للعرب فصيحاً وعامياً الا بعد فشو هذا الفساد العربي في منطقهم منذ القرن الخامس اما ما وراء ذلك في بادية العرب فلحن أو لغة لا أكثر



## سُجُوع اللغة العامية

وفساد العربية

كانت العامية في الامصار الاسلامية أولَ عهدها لحنًا صرفًا لما بقي في أهلها من آثار السليقة وعلى حساب هذه الآثار كانت درجاتها في القرب من الفصح والبعده عنه فكانت لا تزال قريبة من الفصحى في عوام الحجاز والمصريين البصرة والكوفة الى القرن الثالث حتى عرف بعضهم المولد بأنه ما يكون من هذا الضرب لحنًا وتحريفًا كما أومأنا اليه من قبل . وقد ذكر الجاحظ لغة أهل المدينة لعده فقال ان لهم السنة ذَلْفَة وألفاظًا حسنة وعبرة جيدة ثم قال « واللحن في عوامهم فاش وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب » . أما العامية في الشام ومصر والسَّوَاد فقد علقوا ألفاظًا كثيرة من الفارسية والرومية والقبطية والنبطية فسدت بها لغتهم فسادًا كبيرًا لانهم خلطوها بها خلطًا ولم يجانسوا بين الأصيل والدخيل . وليس يخفى ان اكثر ما تقتبس العامية انما هو من الاسماء وان اقتباس الصفات فيها قليل لان الاسماء هي في الحقيقة أدوات الاجتماع والعوام انما ياتمسون التعبير والإبانة كيفما اتفق لهم هذا الغرض ولقد كانت الشام ومصر وسواد العراق أوفر خصبًا واكثر عمرانًا من سائر الامصار الاسلامية فمن ثم كان عوامها أسقط ألفاظًا وقد رأينا العلماء يصفون اللفظ العامي الساقط المبذوء وما يدخل في باب الرطانة من ذلك (بالسوقي) — نسبة الى السوق — لا يتجاوزون هذا الوصف لانه أبين في الدلالة على الفساد والابتذال ولأن الاسواق لا تُعنى

من أمر الجيد والزيغ إلا بألفاظ لغة الارزاق ( الدراهم ) .. وهي بعدُ مجامع العامة على تباين أجناسهم ومعارض الاشياء على اختلاف جهاتها وقد قلنا في اللغات التجارية التي لا قوام لها من نفسها وتلك حقيقة لغات الاسواق .

ورأينا العلماء ألفوا كتباً ( فيما تلحن فيه العامة ) ككتاب أبي عبيدة وأبي حنيفة الدينوري وأبي عثمان المازني وأبي حاتم السجستاني وكتاب الفاخر في لحن العامة للمفضل بن سامة ولحن العامة للفراء <sup>(١)</sup> وكل هؤلاء لا يتجاوزون المئة الثالثة ولا يعدون في صنيعهم أن يوردوا ألفاظاً من الفصحح حرقها العامة ثم يذكرون أصلها على صحته وذلك يدل على ان العامية لم تكن طفت على الكلام والا لما أمكن حصر ما يلحن فيه أهلها بل لما كان لهذا الحصر معنى لا في القليل ولا في الكثير . اما بعد القرن الثالث فكان يؤلف في (لحن الخاصة) كالكتاب الذي وضعه أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٢٩٥ وسماه لحن الخاصة وكتاب الحريري المسمى ( درة القواص ، في أوهام الخواص ) وقد وضع له الجواليقي تمة . لان اللحن بعد ذلك انما كان يؤخذ

(١) ولابي بكر الزبيدي الاندلسي المتوفى سنة ٣٧٩ كتاب فيما يلحن فيه عوام الاندلس وعله جرى فيه مجرى هذه الكتب تقليداً للمشاركة ، ولسلامة بن غياض النحوي المتوفى ببغداد سنة ٥٣٣ كتاباً فيما تلحن فيه عامة زمانه ولا نراه الا تقليداً ومتابعة وكذلك فعل أبو منصور الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩ فألف فيما تلحن فيه العامة ولم يخص كتابه بزمان . وهذا يدل على ان ذلك النوع من التأليف صار لغوياً محضاً وان العمل فيه انما كان شرحاً وجمعاً واختصاراً كما فعلوا في سائر الفنون التي لا يؤلف فيها شيء الا لان التأليف ( عمل العلماء )



به خواص العلماء والادباء - في كتابتهم لا في أقوالهم - أما العامة فكانت مناطقهم كما قلنا لغة في اللحن لا لحنًا في اللغة

ومما أغان على فصاحة العامية في صدر الاسلام قيام الدولة الأموية العربية وديانة العرب فيها بالعصبية الى سقوطها حتى ان الموالي وهم من الاوشاب والزعانقة في رأي العرب يومئذ لا يحترافهم وخدمتهم ايامم وكانوا يسمونهم بالحمراء <sup>(١)</sup> أقبلوا على النحر والعلوم وأولموا بها حتى خرج منهم فقهاء الامصار جميعاً في عصر واحد ولولا خوفهم معة اللحن ما ثبتوا على ذلك لانه ان كانت العرب قد أبت عليهم فلأن خطبهم في ذلك لم يستفحل فلما جاءت الدولة العباسية وكان قيامها بنصرة الفرس - وخصوصاً اهل خراسان حتى لقبوها بالدولة الخراسانية الأعجمية - ضعفت العصبية للعرب بما سكن من سورتهم وفتى من حدتهم فكان ذلك فتقاً في العربية ايضاً ولم ينتصف القرن الثالث حتى اختلط العرب بالفرس والترك والفراغنة وغيرهم من طبقات الاعاجم الذين اتخذوا للدولة وكان ذلك بدء شيوع الألسنة الحضرية التي هي لهجات العامية . والبعد عن اللسان كما قال ابن

---

(١) يريدون بالحمراء الاعاجم وكان العرب لا يكونون الموالي بالكفى ( لانها تشریف) ولا يدعونهم الا بالاسماء والالاقاب ولا يمشون في الصف معهم وان حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم ( للخدمة ) وان أطعموا رجلاً من الموالي اسنه وفضله وعلمه أجلسوه في طريق الخباز لئلا يخفى على الناظر انه ليس من العرب . وقد ألف الجاحظ كتاباً في الموالي والعرب نقل عنه صاحب العقد الفريد في الجزء الثاني من كتابه فارجع اليه .

خلدون انما هو بمخالطة العجمة فمن خالط المعجم اكثر كانت لغته عن ذلك  
اللسان الاصيل أبعد لان الملكة انما تحصل بالتعالم وهذه ملكة ممتزجة من  
الملكة الاولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للمعجم فلي مقدار  
ما يسمعون من العجمة ويربون عليه يبعدون عن الملكة الاولى . قال  
واعبر ذلك في امصار افريقية والمغرب والاندلس والمشرق : اما افريقية  
والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من المعجم بوفور عمرانها بهم ولم يكند  
يخلو عنهم مصر ولا جيل فقلبت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان  
لهم وصارت لغة اخرى ممتزجة والعجمة فيها اغلب لما ذكرناه فهي عن  
اللسان الاول أبعد . وكذا المشرق لما غلب العرب على أمه من فارس  
والترك فخالطوهم وتداولت بينهم لغاتهم في الأكره والفلاحين والسبي  
الذين اتخذوهم خوفا ودايات وأظارا ومراضع فسدت لغتهم بفساد الملكة  
حتى انقلبت لغة اخرى . وكذا أهل الاندلس مع عجم الجلالة  
والافرنجة وصار أهل الامصار كلهم من هذه الاقاليم اهل لغة اخرى  
مخصوصة بهم تخالف لغة مضر ويخالف ايضا بعضها بعضا .

ولما تملك المعجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق وزناته والبربر  
بالمغرب ( منذ القرن الرابع ) وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك  
الاسلامية فسد اللسان العربي لذلك وكاد يذهب لولا ما حفظه من  
عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ الدين وصار ذلك مرجحا  
لبقاء العربية المضرية من الشعر والكلام الا قليلا بالامصار فلما ملك التتر  
والمغل بالمشرق ( في النصف الثاني من القرن السابع ) ولم يكونوا على دين

الاسلام ذهب ذلك المرجح وفسدت اللغة العربية على الاطلاق ولم يبق لها رسم في الممالك الاسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وارض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم وذهبت اساليب اللغة العربية من الشعر والكلام الا قليلا يقع تعليمه صناعيا بالقوانين المتداولة من كلام العرب . قال ابن خلدون وربما بقيت اللغة العربية المضربة بمصر والشام والاندلس والمغرب لبقاء الدين طالباً لها فأنحفظت ببعض الشيء ، واما في ممالك العراق وما وراءه فلم يبق لها أثر ولا عين حتى إن كتب العلوم صارت تكتب باللسان المجمي وكذا تدريسها في المجالس .

### لهجات العامية واسباب انحطاطها

وقد اختلفت لهجات العامية اختلافاً بيناً ونهجت في كل مصر من الامصار منهجاً متميزاً بل هي قد جرت في ذلك مجرى اللغات المقطعة من أصل واحد كالعربية والعبرانية والسريانية وكاللغات المشتقة من اللاتينية ونحوها مما هو من تكوين الزمن وليس يخفى ان صنعة الزمن انما تجري على المبينة والتنويع ومدارها على إضافة الأعمار التاريخية في المصنوعات بحيث لا تنقطع الصنعة مادامت لها مادة في الوجود وذلك متحقق في كل ما ترى فيه آثار الزمن من ارقى أنواع الاحياء كتكوين الامم والاخلاق والعادات الى أدنى أنواع الجماد كالجبال وغيرها . فالجبل من ذرات مجتمعة والامم كلها من أصل واحد واللهجات العامية كافة من العربية الفصحى ولكن الزمن لم يحفظ في الجميع الا نسبة المادة فقط فكان كل يوم من

الدهر إنما هو عامل مستقل يترك تأريخ عمله في كل الموجودات  
وانما اعتبرنا اللغات العامية بسبيل الاعمال الزمنية لانها مطلقة غير  
مقيدة بالقيود الثابتة كالكتابة والقواعد العلمية ونحوها مما يعتبر حداً للعصر  
التاريخي فان ما كتب لا يتغير وما لا يتغير فقد فرغ منه الزمن . لهذا  
لا يمكن ان تكون اللغات العامية مستقرة على حالة واحدة في كل مصر من  
الامصار من عهد نشأتها بل لا بد من تغيرها في المصر الواحد جيلاً بعد  
جيل ولولا هذا التغير ما تابعت في الجملة لان جميعها راجع الى لغة واحدة  
وهي العربية الفصحى واذا أردت ان تعتبر ذلك فالق رجالاً من المعمرين  
في العامة فانك تلقى فيه تأريخ طبقتين أو ثلاث من هذا التغير اللغوي .

وليس يمكن البتة تأريخ هذا التغير في الشعوب التي تنطق باللهجات  
العامية على وجه من التفصيل وضرب واضح من البيان لان هذه  
اللهجات غير معروفة وقد جهدنا كثيراً في البحث فلم نعرف ان أحداً تقل  
منها أمثلة في ادوارها الماضية لانها لغة الحاجة الراهنة فلا يتصرف فيها  
بالتفنن في العبارات وتشقيق الالفاظ وما الى ذلك مما ذهب الفصحى  
بمزيتها . الا ما يكون في بعض آدابها كالموالي والزجل والشعر البدوي  
وغيرها وهذه الانواع كلها يتوخى فيها اقرب الوجود الى الفصحى وأكثر  
القائمين عليها من الفصحاء وانما يأتون بها تفنناً في وجود الكلام وقد وقفنا  
على اشياء كثيرة منها في عصور مختلفة الى عصرنا هذا فلم نر بينها على تباين  
جهات القائمين الا فروقاً قليلة في الصيغ العامية وألفاظاً نادرة من اللغة  
البلدية كان أكثر ما اصبناه منها في ديوان ابن قزمان الإندلسي ( رأس

الزجالين كما سيجيء في بابہ) . على ان شمر البدو وحده يمتاز بتصوير اللهجة البدوية .

بيد اننا وقفنا على قاعدة واحدة من قواعد عامية شرق الاندلس في القرن السادس وهي مثال من شذوذ التصرف العامي الذي اومأنا اليه . فقد نقل السيوطي ( في بغية الوعاة ) في ترجمة الحافظ أبي محمد بن حوط الله المتوفى بغرناطة سنة ٦١٢ في تفسير هذا اللقب ( حوط الله ) : قال ابن عبد الملك كأنه مصدر حاط يحوط مضافاً الى الله تعالى . . » وذكر شيخنا أبو الحكم ان أصله حوطله مصغر حوت مؤنث على لغة شرق الاندلس فانهم يفتحون أول الكلمة من نحو الحوت والسعود وينطقون بالثناء طاءاً . . فيقولون في حوت حوط — ويأحقون آخر المصغر لاءاً مشددة مفتوحة في المؤنث مضمومة في المذكر وهاءاً ساكنة فيقولون في تصغير حوت حوطلّه وحوطلّه . فمن الذي يسمع ( حوطلّه ) في هذه الايام ويفهم ان المراد بها تصغير حوت . وقس على هذه الطرفة الغريبة مالا سبيل الى العثور عليه .

وتاريخ اختلاف اللغات العامية في جملته يرجع الى أربعة أسباب :

( ١ ) وراثية المنطق فان التقليد في حكاية اللغة أصل طبيعي في الانسان ولما بدأ الفساد والاضطراب في كلام أهل الامصار كان أهل كل مصر يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب <sup>(١)</sup> قال الجاحظ ولذلك تجد الاختلاف

---

(١) المراد باللغة هنا الالفاظ المتوارثة مما يكون من وضع اقلية أو مما

داخل كلامها

في الفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر . . قال أهل مكة لمحمد بن مناذر الشاعر ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة إنما الفصاحة في أهل مكة فقال ابن المناذر أما الفاظنا فأحكي الالفاظ للقرآن واكثرها موافقة له فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم . أنتم تسمون القدر برمة وتجمعونها على برام ونحن نقول قدر ونجمعها على قدور قال الله عز وجل ( وجفان كالجوابي وقدور راسيات ) وأنتم تسمون البيت اذا كان فوق البيت عليه وتجمعون هذا الاسم على علالي ونحن نسميه غرفة ونجمعها على غرفات وقال الله تبارك وتعالى ( غرف من فوقها غرف ) وقال ( وهم في الغرفات آمنون ) الى أن عد عشر كلمات . فحكاية الالفاظ واقتباس الأخف من اللغات وإن كان أضعف واقل استعمالا في أصل اللغة هو من خواص العامة لا يتفقدون من الالفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال فضلا عن أن يحكوا اللهجات العربية نفسها كما وهم بعضهم في الاستدلال بالمنطق على النسب وقد اشرنا الى ذلك في موضعه وكذا يقال في حكايتهم الفاظ الاعاجم كالذي كان في لغة اهل المدينة مما علقوه من الفرس النازلين بهم وفي لغة البصرة إذ نزلوا بأدنى فارس واقصى بلاد العرب وفي لغة الكوفة إذ نزلوا بأدنى بلاد النبط واقصى بلاد العرب وفي لغة الشام اذ كانوا من بقايا الروم وفي لغة مصر اذ كانوا من بقايا القبط وكذلك في لغة الاندلس والمغرب وهذا ايسر اسباب الاختلاف التي اشرنا اليها

(٢) علل الوراثة وطبيعة الإقليم . وذلك ان الناس يختلفون اختلافاً طبعياً في كيفية النطق بما يكون في ألسنتهم من عيوب الوراثة كاللف

واللجاجة والغمغة وما إليها وبذا تختلف الكامة الواحدة باختلاف الناطقين بها حتى كأن فيها لغات كثيرة وهي لغة واحدة . وهذا فضلا عن ان اللغات الاعجمية كالفارسية والرومية والنبطية ونحوها تصنع الالسنه على طرق متباينة بما فيها من التباين في المنطق بحسب الجهر والهمس والشدة والرخاوة وغيرها مما يكون في اللغات كزّاً او دُمثاً بحسب الاقاليم حتى كأنه صورة ما بين الامكنة من التباين الطبيعي إذ اللغة صورة نفسية للانسان والانسان صورة نفسية للاقليم . وعلى هذا تجد منطق الانجليزي امهدنا كأنه نفخ آلة تدار بالفحم الحجري ... وتكاد تحسب منطق الفرنسي غناءً موسيقياً وهكذا مما لو تدبرت حقيقة الاختلاف فيه لرأيتها دلالة طبيعية على اختلاف الاقاليم كأن الطبيعة تسمُ الالسنه كما تسمُ الوجوه وكأنها مصنع انساني فلا يخرج منه كل انسان الا برقه وسمته . ولهذا السبب صارت كيفية النطق كأنها تنشئ لغة أحياناً وصارت اللهجات العامية تختلف في المصر الواحد بل في البلدين المتجاورين كما تراه في سوريا ومصر وكما حدثوا به عن عرب تونس فان كل قبيلة هناك على ما يقال تتميز بخواص منطقية حتى كأن كلام الواحد منهم انتساب صريح لقبيلته

ومما لا نشك فيه ان العرب أنفسهم كانوا يعرفون تأثير الاقليم على فصاحتهم ويعتبرون اختلاف الالسنه بهذا السبب . وقد وقفنا على ثبوت ذلك وهو ما رواه القالي عن أبي عمرو بن العلاء قال : لقيت أعرابياً بككة فقلت له ممن أنت قال أسدي قلت ومن أيهم قال نهدي قلت من أي البلاد قال من عُمان قلت فأنتي لك هذه الفصاحة قال إنا سكنا قطرا لانسمع فيه ناجحة

التيار<sup>(١)</sup> قلت صف لي أرضك قال سيف أفيح ، وفضاء صحصح ، وجبل صردح ، ورمل أصبح ،<sup>(٢)</sup> .. فكأنه أراد ان لغته انما جانست هذه الطبيعة في نقائها وجفائها فمن ثم كانت فصيحة خالصة .

(٣) الإعراق في المعجمة فان المعجمة تصنع اللسان كما قلنا ولذلك فهو اذا تناول الالفاظ العربية أداها على الوجه الذي يستقيم له وان كان معوجاً وتصرف فيها بالحذف والقلب والإبدال ومزجها بمادة المعجمة حتى تنقلب الى رطانة أو ما يشبهها . ولذا قال ابن خلدون : ما كان من لغات أهل الامصار أعرق في المعجمة وأبعد عن لسان مضر قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المضرية وحصول ملكتها لتمكن المنافاة حينئذ . قال واعتبر ذلك في أهل الامصار فأهل افريقية والمغرب لما كانوا أعرق في المعجمة وأبعد عن اللسان الاول كان لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم . ولقد نقل ابن رشيق ان بعض كتاب القيروان كتب الى صاحب له : يا أخي ومن لا عدمت فقدته ... أعامني أبو سعيد كلاماً انك كنت ذكرت انك تكون مع الذين تأتي وعافنا اليوم فلم يتهياً لنا الخروج . واما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فقد كذبوا هذا باطلا ليس من هذا حرفاً واحداً وكتابي اليك

(١) ناجخة التيار صوته وكأنه أواد مايلزم البحار والانهار من الرطوبة والخصب وخضال الطبيعة وقد ثبت لفلاسفة التاريخ ان مواطن الحضارة انما تكون على الشواطئ والشطوط

(٢) السيف شاطئ البحر والمراد هنا ما يشبهه . والافصح الواسع . والصصح الصحراء والصردح الصلب . والأصبح الذي يملو بياضه حمرة



وأنا مشتاق إليك ان شاء الله <sup>(١)</sup>

وهكذا كانت ملكتهم في اللسان المضري شبيه ما ذكرنا وكذلك  
أشعارهم كانت بعيدة عن الملكة نازلة عن الطبقة ولم تزل كذلك لهذا العهد  
( سنة ٧٧٩ ) ولهذا ما كان بافريقية من مشاهير الشعراء الا ابن رشيق  
وابن شرف واكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها .. وأهل الاندلس  
أقرب منهم الى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم وامتلائهم من المحفوظات  
اللغوية نظماً ونثراً .. وتداول ذلك فيهم مئين من السنين حتى كان  
الانقضاخ والجللاء أيام تغلب النصرانية ( في القرن الخامس ) وشغلوا عن  
تعلم ذلك وتناقص العمران فتناقص ذلك شأن الصنائع كلها فقصرت الملكة  
فيهم عن شأنها حتى بلغت الحضيض ... وبالجملة فشان هذه الملكة بالاندلس  
اكثر وتعاليمها أيسر وأسهل ( بما هم عليه من معاناة علوم اللسان ) ولأن  
أهل اللسان المعجمي الذين تفسد ملكتهم انما هم طارئون عليهم وليست  
عجمتهم أصلاً للغة أهل الاندلس . والبربر في هذه العدو هم أهلها ولسانهم  
لسانها الا في الامصار فقط وهم فيها منغمسون في بحر عجمتهم وورطاتهم  
البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعاليم بخلاف أهل الاندلس

(١) ليس هذا اللحن القبيح والخلط السخيف الا من التباصر بالفصيح على  
ركاكة في الطبع وذلك أمر فاش في فصحاء الجهال وقد اذكرنا هذا الكتاب ما حدث به  
العسكري عن الانصارى قل قلت لبعض الكتاب ما فعل أبوك بجماره قل بآءٍ قلت  
فلم تقول بآءٍ قل وأنت فلم تقول بجماره . فقلت أنا جررت به بالباء الزائدة . قل فمن  
الذي جمل بآءٍ تجر وبآئي أنا لا تجر .. ( يريد الباء التي في لفظ بآء )

قلنا ولهذا السبب عينه تتبين الجفاء في عامية تونس والجزائر ومراكش حتى لتحسبها مخلقة عن بعض اللغات الأعجمية فضلاً عما فيها من جساسة المنطق ونبوّه الا عن مسامع أهلها بحيث يكاد لا يدور في مسمع الغريب عنهم الا مقاطع صوتية يحسبها لأول وهلة ميمية في ذهنه لانها لا تتعلق بشيء فيما يسمع من معاني الحياة الذهنية.

ومما يجري مجرى الاعراق في العجمة ضعف اللسان ورخاوته بحيث لا يحتمل الكلمات التي تتألف من أحرف كثيرة أو تكون مركبة تركيباً غير مستخف فيحصل الذهن من الكلمة صورة مجملة تتركب من أخف أحرفها ثم تصاغ على طريقي القلب والإبدال بحيث تخرج كأنها وضع جديد وأكثر ما تصيب أمثلة ذلك في لغات الأطفال وألفاف العوام الذين لا يران لهم على تصريف الكلام والتقلب في فنونه وإذا التمت ذلك في كلامهم أصبت كثيراً من أمثله وتراهم فيه يختلفون ضعفاً وقوة فلا بد ان تكون طائفة من الفاظ العامية قد جرت في أصلها على هذا الوجه

(٤) مخالطة الاعاجم . وهذا السبب مما ينوع مادة العامية تنوعاً محدوداً لانه مقصور على ما يقتبسه اهل الامصار ممن يلابسونهم من الامم المستعجمة كاسماء الادوات ومرافق الحياة ونحو ذلك مما لا أصل له في مواضعهم واصطلاحهم وهو الدخيل بعينه الا ان العامية تحيله اليها وتلحقه بما دلتها كيف كان مادامت لها حاجة اليه وهي لغة الحاجة كما قلنا — فاذا مضى وقته أو انقطع سببه اهملته فتزل منها منزلة الالفاظ المماتة وذلك كاسماء الثياب التي كانت مستعملة في مصر لعهد المماليك مثلاً وما يجري مجراها

من الالفاظ الفارسية والتركية والكردية وغيرها .  
بيد ان الأمصار تختلف في هذا الاقتباس ايضاً بحسب الاسباب الثلاثة  
التي قدمناها فمنها ما لا يتناول اهله الا الالفاظ التي تمس اليها حاجتهم ثم  
يصقلونها ويحرفون عجمتهما ويخففون من غرابتها بما استطاعوا من المجانسة  
وهؤلاء هم الذين بقيت لغتهم أقرب الى العربية كاهل مصر .  
ومن أهل الأمصار من يذهبون في ذلك مذهباً وسطاً لتكافئ تلك  
الاسباب فيهم كعامية الشام ومنهم من يأخذ في ذلك كل مأخذ كاهل  
طرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش على تفاوت قليل بينهم فقد  
أثبت الذين عُنوا بدراسة هذه اللغات من المستشرقين <sup>(١)</sup> ان الجزائريين  
ينقلون الالفاظ الفرنسية أقبح نقل حتى ليمتدروا أحياناً ردها الى اصولها  
(وفي لغتهم الفاظ تركية ايضاً وقليل من الاسبانية والايطالية ) وان في  
منطق التونسيين كثيراً من الالفاظ الفرنسية والتركية والايطالية . وان  
عامية المراكشيين خليط من العربية والبربرية والفرنسوية والايطالية  
والاسبانية .

وجماع القول أنه لا بد من المجانسة الطبيعية في اقتباس الدخيل فكما  
رقت عذبات الألسنة ولانت جوانبها كان الدخيل بحسب ذلك في منطقتها

---

(١) أولع كثير من هؤلاء الفضلاء بدرس اللغات العامية وضبط قواعدها  
وتعمين أصولها واحصاء أنواع الدخيل فيها على تباين أمصارها ولهم في ذلك كتب  
ورسائل لا حاجة الى ذكرها لاننا التزمنا الإيجاز في هذا الفصل العامي اذ هو ليس  
من غرضنا وانما استوردنا اليه لاتصاله بالكلام على اللحن وفساد اللسان

ومن ثم لا تسرف فيه بل تقف منه عند حد الحاجة . ولقد رأينا رجلا من المعمرين في بعض القرى المصرية لا ينطق لفظة ( البوليس ) للشرطة الا هكذا ( البأوص ) ولا يرجع عن لحنه مهاراجته لان البأوص في اصطلاحهم ( بأوص الزمارة وهو هبة من القصب تشق على وجه معروف ثم توضع في رأس اليراع المثقب ) فكأنه استروح لهذا الوضع الثابت في لفته فألحق به الوضع الطارىء عليها وترك تعيين الدلالة للقرينة وبخلاف ذلك ترى الدخيل في المناطق الجاسية والالسنه الكزة كما اشرنا اليه .

وقد بقيت عامية البدو اقرب الى الفصحى من سائر اللهجات لقلة مخالطتهم للاعاجم ولا يزالون على حيال لغات آبائهم الا في الزيغ عن الاعراب والا في ملكة الوضع ونظام اللغة <sup>(١)</sup> ولهم في عاميتهم المحافل والمجامع والخطباء والشعراء وقد اعتبر ابن خلدون تغير السننهم من قبيل ما تغير في لسان مضر عن موضوعات اللسان الحميري ( اي تغيرا قياسيا في الملكات )

( ١ ) قال ابن خلدون ان هذا الجيل الباقي ( يعنى البدو ) معظمهم ورؤسائهم شرقاً وغرباً في ولد منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان من سليم بن منصور ومن بني عامر بن صعصعة بن بكر بن هوازن بن منصور قال وهم لهذا العهد اكثر الامم في المعمور واغلبهم وهم من أعقاب مضر .

ومن أراد أن يقف على انساب بقايا العرب المتفرقين في مصر والشام والمغرب فعليه بما نقله القلقشندي من ذلك في الجزء الاول من كتابه ( صبح الاعشى ) ثم برسالة المقرئزي ( البيان والاعراب ) عن النازلين بارض مصر من قبائل الأعراب وكلاهما مطبوع . وهذا غير ما يكون لمن يلتمس التحقيق فيقابل بين ما في الكتابين وما في الاصول العامة من كذب الانساب

وذلك بعض ما وهم فيه وإنما استدرجه الغلو في الرد على « خرفشة النجاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق » كما يقول حيث يزعمون أن البلاغة لعهد قد ذهبت وأن اللسان العربي فسد اعتباراً بما وقع في أواخر الكلام من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه الخ . وإنما نظر النجاة إلى معنى كمال في الطبيعة ونظر ابن خلدون إلى الطبيعة في معناها فإن اللغة من الملكات المتوارثة وشرط الكمال في الورثة ارتقاء النوع وتحسينه فإذا كان العرب قد ورثوا لغتهم ثم أضافوا إليها اسباباً كثيرة من معاني الكمال وورثوها أعقابهم فنقص هؤلاء من كمالها ونكروا من محاسنها أفلا يكون ذلك خليفاً بأن يسمى فساداً باعتبار المعنى الكمالى وإن كان عن اسباب طبيعية ثابتة .

ولما تعطلت السنة البدو من الاعراب تصرف في الكلام على غير نظام فاختلفت من ثم لهجاتهم حتى لتسمع العربي منهم فيغطي منطقهم عندك على ما يعطيه كلامه فإذا هو فصل الفاظه رأيتها عربية صريحة وقد سمعنا بعض شعرائهم من المعاصرين ينشد في رثاء الحسين عليه السلام شعراً بدوياً مطلعها :

تَمَنِّتُ بِأَلْفَيْنِ فَوْقَ أَحْصَنَّا      يَوْمَ كَرَّ بَلَاؤُ نَجِيَّةٍ قَبْلَ الْجَنَّا

وألقي الشطر الأول متلاحق الكلمات مختلس الحركات فلم نفهم منه شيئاً حتى كشف لنا عن معناه فإذا هو ( تمنيتني بألفين فوق أحصنة ) يريد نجدة الحسين عليه السلام بفرسانه قبل أن يستشهد . وأنظر أين ما نطق مما أراد وبهذا تبين ما قدمناه من أن كيفية النطق قد تنشئ لغة أحياناً هذا ما نراه في اسباب اختلاف اللغات العامية وهي في جملتها تاريخ

طبيعي لهذا الاختلاف غير أن كل سبب منها في تفصيله يحتمل أبحاثاً مستفيضة بما يلمس له من الأمثلة في اللهجات المتباينة على كثرتها ثم ما يستقصى مع ذلك من حوادث التاريخ الاجتماعي التي أنشأت اللغة إنشاءً وجعلت لها في كل مصر معنى متميزاً وفي كل بلد هيئة مقومة وصفة يئنة حتى كأن لغة الأمة على الحقيقة أمة من اللغة

ومما ننبه عليه أن للعربية الفصحى مدنية معنوية لم تبرح فائمة على تحرير هذه اللهجات العامية وتهذيبها كلما خالطتها في التعليم والقراءة — فإن ميراث العامية إنما ثبت في الأميين — واعتبر ذلك في البلاد التي تفتح فيها المدارس وتنتشر الصحف وتثبت المؤلفات فانك ترى عامية أهلها تنفصح على نسبة مطردة بما يلين من حواشيها ويرق من جوانبها ويستأنس من غريبها وهذا هو السبب في رقة لهجات الحواضر لمهدنا دون ما يجاورها من القرى ثم في تفاوت لهجات بعض القرى الكبيرة ثم في اختلاف اللهجة في أهل القرية الواحدة حتى لقد تجد لهجة الرجل ارق وأعذب من لهجة زوجته وأولاده ثم تجد مذهبه من ذلك غير مذهب جاره وصاحبه ولا يكون السبب في هذا التفاوت غير صحيفة يقرأها كل يوم فقد بدؤا يرجعون الى شأن ( عامة التاريخ ) يوم كان الفصحى منتشراً واسباب البيان متوفرة ومجالس العلم آهلة ، وحلقات الدروس حافلة ، وهكذا يعيد التاريخ نفسه بما تقضي به سنة الله والى الله ترجع الأمور



## الباب الثاني

### ﴿ الرواية والرؤاة ﴾

وهذا باب من الادب وقف التاريخ على عتبته الى اليوم وليس من يتسبب لفتحته أو يتطوع لمعاناته أو يتقلد بعض البلية في الصبر على مكروه ذلك حتى كأنه قطعة من الارض سُوِّيت على دفين مضي حسابُه ، وكان جسمه بيت الحياة المقفر فكل الارض اذا أغلقت عليه بابُه ، على أنه كما تعلم ذلك الباب الذي خرجت منه اللغة منذ زمان ، وكان قبل هذا الصديق المتراكب يفتح قفله « باللسان » ، فعاد كأنه حجر سدت به الايام على الايام ، وكأن الأدب قد تدرَّع منه فما تزال تندق فيه أسنة الاقلام ، بيد أننا وصلنا به أسباب المطمعة وناهضناه من حيث يهتز وعالجناه من حيث يندفع وأعان الله وله الحمد والمنة فأنتقم للقلم ما خرس من صريره ، وألان ما قد استمرَّ من مريره ، واذا لم نكن مددنا لك في هذا الأدب فقد جئنا بما يوقفك على سره وصميمه ، وينحرف بك عن معوج ذلك المنهج الى مستقيمه ، وآتيناك من البحث ما يكبر عن أن يعدَّ من قليله اذا لم يعدَّ من عظيمه .



### الاصل التاريخي في الرواية

كان العرب أمة أمية لا يقرؤن الا ما تخطه الطبيعة ولا يكتبون الا ما يلقنون من معانيها فيأخذون عنها بالحس ويكتبون باللسان في لوح الحافظة. فكان كل عربي على مقدار وعيه وحفظه كتاباً أو جزءاً من كتاب وكانت كل قبيلة بذلك كأنها سجل زمني في احصاء الاخبار والآثار .

ولقد رأينا كثيراً من الباحثين يزعمون أن الاصل في حفظ العرب كونهم قوماً بادين وان قلة مرافق الحياة التي في ايديهم كانت هي الباءت لهم على التوسع في الحفظ والمران عليه وهو رأي لا يستقيم على النظر ولا يصح عند التحقيق لان أقواماً غير العرب قد تبدؤا في عصور مختلفة ولم يؤثر عنهم من نوادر الحفظ وفنونه بعض ما أثر عن هؤلاء . ولكن الصحيح ما قدمناه في غير هذا الموضع من أن العرب قوم معنويون ولم يجر من الاحكام النفسية على أمة من الأمم ما جرى عليهم ولهذا كان لا بد لهم في اصل الخلقة من الحوافظ القوية التي ترتبط ما ترتلك النفوس ارتباطاً والا اختلف تركيبهم الطبيعي وانتفت الموازنة بين قواهم فلم يقد صلاح القوة الواحدة بفساد الاخرى .

واذا أردت ان تعرف مصداق ذاك فاعتبر ما اتسعوا فيه من المحفوظ فانك لست واجده الا في المعاني النفسية مما يرجع الى التفاخر والتفاضل بالاحساب والانساب والتعابير بالمثالب والتنازع بالالقاب ولو أن الكتابة كانت فاشية فيهم ما عدلوا اليها ولا استغنوا بها عن الحفظ لان سبيل تلك



المعاني الطبيعية أن تجيء من أداة طبيعية أيضاً حتى تكون عند الخطر اذا خطر والهاجس اذا بدر وليس لذلك غير اللسان ، والعربي اذا فاخر أو نافر لا يكون من همه أن يقنع بطريقة من المنطق بدير لها الكلام على أشكاله وقضاياها وانما همه أن يضع لسانه في مفصل الحجة ثم يرسلها غير ماجة

وكل أمة تضطر الى شيء مما عددناه فانها تنزل على هذا الحكم الطبيعي كالليونان في جاهليتهم فقد حفظوا ما وضعوه من أنساب آلهتهم ثم قرنوا بها أنسابهم حتى لم يكن فيهم بيت من بيوت الشرف والحكمة الا وهو معلق بسلسلة من النسب فرعها في الارض وأصلها في السماء . . . وكذلك كان الرومان في أجيالهم الاولى فان فئة ( البطارقة ) منهم كانوا يرجعون بما يحفظونه من أنسابهم الى أصول ليست عتيقة في الارض . . .

فمثل هذه المعاني لا يتكل فيها على الكتب والخطوط دون الحفظ وعلى حسب ما كان من اختلافها وتعدد أنواعها في العرب بما لم يكن في غيرهم من سائر الاجيال كان العرب بطبيعتهم أثبت الناس حفظاً وأتمهم حافظة وكانت الكتابة غير طبيعية في نظامهم الاجتماعي . ومن ثم نشأ فيهم الأخذ والتحمل فكان كل عربي بطبيعته راوياً فيما هو بسبيله من أمره وأمر قومه . فلما ان اهتموا الى الشعر وتوسعوا فيه — وسنأتي على تاريخ ذلك في بابه — جعلوا يرتبطون به أرقى تلك المعاني النفسية حتى صار الشاعر لسان قومه يذود عنهم ويدفع عن أحسابهم ويفتخر في أعدائهم وبهذا انفرد بمعنى تاريخي في الرواية اذ صار كأنه انما يروي للتاريخ بخلاف غيره من شيوخ القبيلة واهل أنسابها والقائمين على مفاخرها ممن يرجع اليهم في علم ذلك خاصة دون

الرواية العامة وذلك فيما نرى اصل المبنى التاريخي في الرواية العلمية عند العرب وثبتته ما كان من صنيع الرواة أنفسهم في اتخاذهم الشعر عموداً للرواية والاستشهاد به على الخبر وسواد واضراح كثير مما لا شاهد له منه كما سيمر بك .

ولما صارت للشعر تلك المنزلة مست الحاجة الى من يتفرغ لرواية المفاخر والمثالب ويتقصد أخبارها في أجناد العرب على نحو من الاستقصاء والاستغراق كما هو الشأن في الاوضاع العلمية فنشأت لذلك طبقة النساء وهم رواة الجاهلية وعلماءؤها وكان أمرهم قبيل الاسلام ومن أشهرهم دغفل بن حنظلة وعبيد بن شربة الجرهمي وابن الكيس النمرى وابن لسان الحمرة وغيرهم وبهذا تميزت الرواية بالمعنى العلمي .

### الرواية بعد الاسلام

فلما جاء الاسلام وكان مرجع الاحكام فيه الى الكتاب والسنة كان الصحابة يأخذون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذاً علمياً ليتفقوا في الدين وليكونوا في جهة القصد من أمرهم اختياراً للصواب وصدًا عن الخطأ فكانت مجالسه عليه الصلاة والسلام هي الحلقات العلمية الاولى التي عرفت في سلسلة التاريخ العربي كله كما كان هو صلى الله عليه وسلم أول من علم وأول من صدرت عنه الرسائل التي تشبه المؤلفات العلمية كرسالة الزكاة التي أملاها وكانت عند ابي بكر رضي الله عنه .

فلما قبض صلى الله عليه وسلم بدأ من بعده علم الرواية اذ لم يعد من سبيل الى الاستدلال والفصل الا بها حتى يكون الرأي عن بينة وحتى

تكون المعرفة بالحق عياناً فوضع ابو بكر رضي الله عنه أول شروط هذا العلم وهو شرط الاسناد الصحيح إذ احتاط في قبول الاخبار فكان لا يقبل من أحد الا بشهادة على سماعه من الرسول صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> والعهد يومئذ قريب والصحابة متوافرون والمادة لم تنقض بعد لذلك كانت الشهادة على السماع في وزن العدالة والضبط وكل ما تقوم به صحة الاسناد

ثم كان عمر رضي الله عنه أول من سنَّ للمحدثين التثبت في النقل إذ كانت طائفة من الناس قد مردت على النفاق وكانت الحاجة قد اشتدت الى الرواية واعتبرها الناس بمنزلة علمية لا تفسح المدة وانتباه النفوس الى تقادم العهد بصاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم وان هذه الآثار ستكون علم من يتخلفون عن مراتب أهل السابقة من التابعين فمن بعدهم فكان عمر وعثمان وعائشة وجملة من الصحابة رضي الله عنهم يتصفحون الاحاديث ويكذبون بعض الروايات التي تأتي ويردونها على أصحابها . ثم خشي عمر أن يتسع الناس في الرواية وقد شعروا بالحاجة اليها فيدخلها الشوب ويقع التدليس والكذب من المنافق والفاجر والأعرابي فكان يأمرهم ان يقلوا الرواية وكان شديداً على من أكثر منها أو أتى بخبر في الحكم لا شاهد له عليه لان المكثر وان جاء بالصحيح فقد لا يسلم من التحريف أو الزيادة

(١) وقال علي رضي الله عنه كنت اذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً نفعتني الله بما شاء منه واذا حدثني عنه محدث استحلقتني فان حلف لي صدقته

أو النقصان في الرواية وقد سمعوه عليه الصلاة والسلام يقول من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار . وعلى هذه الجهة من التوقي والامساك في الرواية كان كثير من جلة الصحابة وأهل الخاصة بالرسول عليه الصلاة والسلام كأبي بكر والزبير وأبي عبيدة والعباس بن عبد المطاب يقولون الرواية عنه بل كان بعضهم لا يكاد يروي شيئاً كسميد بن زيد وهو أحد المشرة المشهود لهم بالجنة .

وكان أكثر الصحابة رواية أبو هريرة وقد صحب ثلاث سنين وعمر بعده صلى الله عليه وسلم نحواً من خمسين سنة - توفي سنة ٥٩ - ولهذا كان عمر وعثمان وعلي وعائشة ينكرون عليه ويتهمون به وهو أول رواية اتهم في الاسلام . وكانت عائشة أشدهم انكاراً عليه لتطاول الايام بها وبه إذ توفيت قبله بسنة غير انه كان رجلاً فقيراً معدماً فكان يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم لخدمته وشعب بطنه لا يشغله عنه الصفق بالاسواق ( البيع والشراء ) والتصرف في التجارات ولا لزوم الضياع والعمل في الاموال كغيره من الصحابة فلماذا حفظ ما لم يحفظوا وأتى عنه من الرواية ما لم يأت عن غيره منهم .

ثم كانت الفتنة أيام عثمان رضي الله عنه واضطرب من بعدها جبل الكلام في الخلافة وخاض الناس في ضروب من الشك والحيرة والفاق فكان فيهم من لا يتوقى ولا يتثبت وألف كثير من الناس أمر هؤلاء فلم يبالوا ان يتبينوا فيرجعوا في الرواية الى شهادة قاطعة أو دلالة قاتمة . على ان كل ما كان يقع في الحديث قبلهم من خطأ فانما كان من قبل ما يعترض

المحدث من السهو والإغفال مما هو غلط لا شوب فيه من تعمد الكذب وقد قال عمران بن حصين - وهو من الصحابة توفي سنة ٥٢ - والله إن كنت لأرى أني لو شئت لحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يومين متتابعين ولكن بطأني عن ذلك أن رجالاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعوا كما سمعت وشهدوا كما شهدت ويحدثون أحاديث ما هي كما يقولون وأخاف أن يشبه لي كما شبه لهم فأعلمك أنهم كانوا يغلطون لا أنهم كانوا يتعمدون<sup>(١)</sup>.

غير أن الاعلام كانت يومئذ لا تزال قائمة والفروع لا تزال باسقة فكان الخطب لم يستفحل حتى اذا خرجت الخوارج وتحزب الناس فرقاً وجعلوا أهلها شيعاً بدؤوا يتخذون من الحديث صناعة فيضعون ويصنعون ويصفون الكذب ثم ظهر القصاص والزنادقة وأهل الاخبار المتقدمة مما يشبه أحاديث خرافة فوق الشوب والفساد في الحديث من كل هذه الوجوه في عصور مختلفة. أما القصّاص فانهم كانوا يميلون وجوه القوم اليهم ويستدرّون ما عندهم بالمناكير والغرائب والأكاذيب من الاحاديث ومن

(١) أول من كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عامداً متعمداً عبد الله بن سبأ الذي تنسب اليه السبئية وهم من غلاة الروافض من اليمن كان يهودياً أظهر الاسلام وطاف بلاد المسلمين ليوقع الفتنة بينهم وقد دخل الشام لذلك في زمن عثمان رضي الله عنه فلم يوافقه أحد فخرج الى مصر وجعل يطعن على أبي بكر الصديق وعمر ويكذب على صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بعد ذلك وقتل شر قتلة. وابن سبأ هذا أيضاً هو أول من أظهر الرفض في أيام علي رضي الله عنه حين حكم الحكمين في صفين.

شأن العوام القعود عند القاص ما كان حديثه عجيباً خارجاً عن فطر العقول  
أو كان رقيقاً يحزن القلوب ويستغزر العيون وللقوم في هذه الفنون  
الأكاذيب المريضة والأخبار المستفيضة . وأما الزنادقة فقد جعلوا  
يحتالون للإسلام ويهجنونه بدس الأحاديث المستشعنة والمستحيلة مما يشبه  
خرافات اليونان والرومان وأساطير الهنود والفرس ليشتنعوا بذلك على أهل  
السنة في روايتهم ما لا يصح في العقول ولا يستقيم على النظر . وأما  
أهل الأخبار المتقدمة فقد قصدوا من ذلك إلى إثبات الخرافات الجاهلية  
وجعلها بسبيل من الصحة الاستعانة بها على التفسير وما إليه . وأمثلة ذلك كله  
فاشية في كتب موضوعات الحديث ولا محل لها في هذا الفصل فانما  
نريد به متابعة تأريخ النشأة الأولى لعلم الرواية وهي إنما كانت في الحديث  
كما علمت

### نروين الحديث

واستمر الحديث بعد الطبقة التي كان منها صغار الصحابة وكبار  
التابعين — كطبقة ابن عباس — على ما يعترض فيه من عوارض السهو  
والإغفال وما يدخل عليه من الشبه والتأويلات وعلى أن بعض الثقات ربما  
أخذوا عن غير الثقة حتى كانت خلافة عمر بن عبد العزيز — ببيع سنة ٩٩  
وتوفي سنة ١٠١ — فرأى أن الحديث متعلق بأفراد الرجال وقد أسرع  
الموت فيهم وأن أحدهم ربما طويت معه طائفة من الخبر إذا هو مات  
وخشي تزيد الناس وشيوع الكذب إذا قل الصحيح وكانت قد فشت

في زمنه أشياء مما يعتمد فيه الكذب لغير مصلحة يتأول عليها كالأحاديث التي كان يكذب فيها عكرمة مولى عبد الله بن عباس — توفي عكرمة سنة ١٠٥ — وبرد مولى سعيد بن المسيب — توفي سعيد سنة ٩٤ — وغيرهما . وقبل ذلك تكلم معبد الجهني ثم غيلان الدمشقي في القدر وهما أول من فعل ذلك <sup>(١)</sup> وجعل الكلام في القدر نحلة يناظر فيها وقد وضع شيئاً من الأحاديث ثم كان أمر الخوارج قد بلغ الغاية فخشي عمر عاقبة ذلك وما أشبهه فكتب إلى أبي بكر بن حزم نائبه في الإمرة والقضاء على المدينة — توفي سنة ١٢٠ — أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء .

وكان هذا أول البدء في تدوين الحديث وجمعه اذ كتب منه أبو بكر أشياء كانت عند أفراد ولم يكن الحديث يدون قبل ذلك إلا ما كان يقيده بعض الصحابة كعبد الله بن عمر وغيره ممن رأوا أن السنن تكثر وتنفوت الحفظ فكتبوا أما سائر الصحابة فأكثرهم أميون وقليل منهم يكتبون ولكن لا يتقنون الكتابة ولا يصيبون التهجي اذا كتبوا فتركوا التدوين لذلك .

( ١ ) ويقال أن أول من بحث في القدر وتعمق وانحرف رجل من أهل القرآن يقال له بيسريس كان نصرانياً فأسلم ثم تنصر فأعانه معبد وأخذ غيلان عنه . أما أول من تفوه بكلمة خبيثة في الاعتقاد بعد الإسلام فهو الجعد بن درهم مؤدب مروان الحمار آخر ملوك الرومانية وله مذاهب أخذها عن بعض اليهود وقال بها ولا محل هنا للاقتضاة فيها وكان الجعد أول من خالف السنة والجماعة أيضاً .

ولما فشت الكتابة بينهم كانت الصدور أوثق من الكتب لتوافر الرجال ولأن الحديث كان يطالب للعمل به فكان لا بد من معرفة حامله لتحقيق عدالته قبل معرفة الحديث نفسه على نحو ما مرَّ بك آنفاً . ومضوا على هذه السنة حتى حدثت الاحداث وانصدعت الفتوق ولقد روي عن ابن عباس أنه نهى عن الكتابة نهياً وقال انما ضل من كان قبلكم بالكتابة . وجاءه رجل فقال اني كتبت كتاباً أريد ان أعرضه عليك فلما عرضه عليه أخذ منه ومحا بالماء ولما سئل في ذلك قال انهم اذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ فيعرض للكتاب عارض فيفوت عامهم .

ثم أمر عمر بن عبد العزيز محمد بن مسلم الزهري عالم الحجاز والشام وصاحب اليد البيضاء على فن الرواية لانه أول من قرر شروطها ( ٥٠ — ١٢٤ هـ ) فدون الحديث تدويناً مراعيّاً فيه شروط الرواية الصحيحة . وقيل ان أول من جمع في الحديث لذلك العهد الربيع بن صبيح وسعيد بن أبي عروبة وغيرهما وكانوا يصنفون كل باب على حدة الى أن انتهى الامر لكبار الطبقة الثالثة وصنف الامام مالك بن أنس ( ٩٤ — ١٧٩ هـ ) كتاب الموطأ بالمدينة وعبد الملك بن جريج بمكة ( توفي سنة ١٥٠ ) وعبد الرحمن الأوزاعي بالشام — ولد سنة ٧٢ وتوفي ببيروت سنة ١٥٧ — وسفيان الثوري بالكوفة ( ٩٧ — ١٦١ هـ ) وحماة بن سامة بن دينار بالبصرة ( توفي سنة ١٦٧<sup>(١)</sup> ) . ونسبوا لمالك تدوين الحديث لانه أودع كتابه

---

( ١ ) وذكروا مع هذه الطبقة تصنيف هشيم بواسطة ومعر باليمن وجريز بن حميد بالري وابن المبارك بخراسان وكلهم في عصر واحد فلا يدري أيهم أسبق .



أصول الاحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه وجاء به مع ذلك على شروط الرواية <sup>(١)</sup> وكان أول من فعل ذلك وقبل ان عبد الملك بن جريج سبقه اليه <sup>(٢)</sup> . ثم شاع التدوين بعد هؤلاء فيمن تلاهم من الأئمة كل على حسب ما سنع له فمنهم من رتب على المسانيد ومنهم من رتب على العلل بأن يجمع في كل متن من متون الحديث طرقه واختلاف الرواة فيه بحيث تتضح علل الحديث المصطلح عليها بينهم - وسيأتي شيء منها - ومنهم من رتب على أبواب الفقه ونوعه أنواعاً وجمع ماورد في كل نوع وفي كل حكم إثباتاً ونفيّاً باباً فباباً . الى غير ذلك مما يخرجنا بسط الكلام فيه عن الكلام فيما نريد ان نبسطه فنجتزئ بالاياء اليه .

### الاسناد في الحديث

بعد ان دونت أوائل الكتب ورأوا ما دخل على الحديث من الشبه والتأويلات وما هجن به من التزيد والاختلاق صار لا بد من حياة الصحيح منه بأسماء الذين صح نقله عنهم وصح نقلهم عن رسول الله صلى الله

- 
- (١) ذكروا ان مالكا رضي الله عنه روى عن ٣٠٠ شيخ من التابعين و٦٠٠ شيخ من تابعيهم ممن اختاره وارتضى دينه وفهمه وقيامه بحق الرواية وشروطها وانه ترك الرواية عن أهل دين وصلاح كانوا لا يعرفون الرواية . وسيمر بك الزمن الذي دون فيه علم الرواية ،
- (٢) وكذلك كان مالك أول من صنف في تفسير القرآن بالاسناد على طريقته في الموطأ .

عليه وسلم وهذا هو الاسناد . وقد كانت أحوال النقلة من الصحابة معروفة وكان الجميع مشهورين في أعصارهم فلم يكن من باعث على الاسناد المصطلح عليه في الرواية . وكان منهم أفراد بالحجاز ومنهم بالبصرة والكوفة من العراق ومنهم بالشام ومصر فلما أدركهم التابعون أدركوا منهم عدداً وربما كان عند الواحد ما ليس عند الآخر وربما جاء الحديث الواحد عن طائفة منهم فاضطر الآخذون ان يضبطوا أسانيد ما حملوه ولقد أدرك الشعبي وحده ٥٠٠ من الصحابة - وهو عامر الشعبي رأس الادباء والمؤددين ولد في سنة ٢١ على الاكثر وتوفي سنة ١٠٧ على أوسع الاقوال - وكان يعد عالم الكوفة بين التابعين ويقرن به ابن المسيب في المدينة والحسن البصري بالبصرة ومكحول بالشام .

ولما أمعن الناس في الرحلة الى أفراد الصحابة المتفرقين في الامصار ومن اشتهر من التابعين من بعدهم تعددت طرق الرواية فمن ثم تعيّن على الرواة ان يبينوا اسناد كل طريقة وابتدأ ذلك من عهد الامام مالك بن أنس وهو سند الطريقة الحجازية بعد السلف رضي الله عنهم . ثم كثر طالبوا الحديث ورواته فتشعبت الاسانيد وصار لا بد من تعديل الرواة وبراءتهم من الجرح والغفلة وذلك لا يتهيأ الا بمعرفة طبقات الرجال على مراتبهم من العدالة والضبط وكيفية اخذ بعضهم عن بعض ومن ذلك نشأ علم الرواية وأول من قرر شروطه الزهري كما قدمنا واستمر بعده زمناً لا يعمل به الا الثقات كما رأيت فيما ذكره عن شيوخ مالك .

ولما كانت الاحاديث معروفة وكان لا مطمع للتأخر ان يستدرك

شيئاً منها على المتقدمين انصرفت عناية العلماء من المتأخرين الى تمحيص ما يروى وتصحيح الامهات المكتوبة كالموطأ وصحيح البخاري ومسلم وضبطها بالرواية عن مصنفها والنظر في أسانيدھا الى مؤلفيھا وانصرف جماعة منهم الى الاتساع في الاسناد فطلبوا الحديث الواحد من طرق مختلفة قد تبلغ الى عشرين طريقاً بأسانيدھا وكان من ذلك ان استبحروا في الحفظ واشتغلوا به وتبسطوا في فنون الرواية وجهاتها بما لا تتعلق بقليله أمة من الامم ولكل ذلك تأريخ طويل أمسكنا عن كثيره وسيأتي قليل منه فأننا لا نقصد مما قدمناه الا ان نتصل بما يلي .

### اتصال الرواية بالادب

ولقد جرت العرب في اسلامها على مثل عاداتها في جاهليتها لان الاسلام لم يهدم مما قبله الا ما كان شركاً أو داعية الى الشرك فاستمرت الرواية للشعر والخبر والنسب والايام والمقامات ونحوها مما أثروه عن اسلافهم في أعقاب الجاهلية بل توسعوا في بعض هذه الفنون أول عهدهم بالاسلام لمعالجة الحجة في الرد على شعراء المشركين ممن كانوا يهاجون شعراء النبي صلى الله عليه وسلم - كما سنفصله في موضعه - وقد علموا أنهم لا يؤثرون من مفاخر العرب وحكمتها الا الى ما يحفظونه عنهم فاذا هم أغفلوا رواية ذلك والتماق به وارتباط ما بقي منه لم يأمنوا أن يذهب على من بعدهم فيفوت الناس علمٌ ظهرت حاجتهم اليه بعد ذلك في تفسير القرآن والحديث .

وكان أحفظ الصحابة للأنساب أبو بكر الصديق وأرواهم للشعر عمر بن الخطاب أما أبو بكر فخبره مع دغفل النسابة مشهور وسنومي إليه وأما عمر فقد نقل المبرد في الكامل في سياق المناظرة التي جرت بين ابن عباس ونافع بن الأزرق من زعماء الأزارقة ( قتلته المهلب سنة ٦٥ وسنأتي على ذكر هذه المناظرة في باب القول في القرآن ) ان ابن عباس بعد ان ملّ من مساءلة نافع وأظهر الضجر طلع عمر بن أبي ربيعة عليه فأنشده من شعره قصيدة في ثمانين بيتاً حفظها ابن عباس ولم يكن سمعها الا ساعته تلك وقال لو شئت ان أردّها لرددتها ثم أنشدها<sup>(١)</sup> فقال له نافع ما رأيت أروى منك قط قال ابن عباس ما رأيت أروى من عمر ولا أعلم من علي . وكان عمر مع ذلك غاية من الغايات في الأنساب وقيافة الناس — وستعلم شرح ذلك في بابيه

بيد ان كل ما حفظوه وتناقلوه لم يدوّن منه شيء ولم يكن فيه اسناد لانه لا خطر له ولا يتعلق به أمر من أمور الدين بل هو لا يعدو ان يكون أدباً وناقلة وباباً من التطوع ومضوا على ذلك وهم يضيفون اليه رواية اشعار المخضرمين — الذين أدركوا الجاهلية والاسلام — حتى انقضى عهد الراشدين دون ان تكتب قصيدة أو يدوّن خبر من أخبار العرب وهم قد تركوا ذلك في السنة كما علمت فلأن يتركوه في هذا ونحوه أولى .

---

(١) وقد ذكر صاحب الاغانى هذا الخبر من رواية عمر بن شبة ثم قال وفي غير رواية عمر بن شبة ان ابن عباس أنشدها من أولها الى آخرها ثم أنشدها من آخرها الى أولها مقلوبة وما سمعها قط الا تلك المرة صفحاً فقال له بعضهم ما رأيت أذكى منك قط فقال لكنني ما رأيت قط أذكى من علي بن أبي طالب عليه السلام

## أولى التدوين في الأدب

وهذا موضع بعيد المنزع منتشر الجهات أمثالاً في البحث وابعداً في الطلب عن فسحة في الرأي وبسطة في الذرع وروية وأناة حتى أمد الله بمونه وسنى لنا ويسر فظهرنا من ذلك على مقدار يغني شيئاً في تبين نسق التاريخ ويعين على تأمله بما تهيأ معه السلامة في الحكم ويستقل به عمود الرأي ان شاء الله .

وقد رأينا انه لم يكتب شيء مما يكون بسبيل من العلوم - غير ما سبقت الإشارة اليه من كتابة بعض الحديث - الا في عهد كبار التابعين وأول ما عرف من ذلك ان ابن عباس كان يكتب الفتاوى التي يسأل فيها ثم كان أول ما كتب في الادب صحيفة أبي الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ (وقيل انه توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز بين سنة ٩٩ و ١٠١ عن ٨٥ سنة) وهي المعروفة عند النحاة بتعليقة أبي الأسود وفيها اختلاف بينهم نذكره في محله <sup>(١)</sup> ثم كان زمن معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء بني أمية (توفي سنة

---

(١) لم يكتب أبو الاسود الا هذه الصحيفة وكان أصحابه يكتبون عنه ومما ذكره ابن النديم في الفهرست انه رأى في مكتبة عند بعضهم قطراً كبيراً فيه نحو ٣٠٠ رطل جلود فلجان وصكك وقرطاس مصري وورق صيني وورق تهامي وجلود ادم وورق خراساني وفيها خطوط بعض الصحابة وبينها اربعة أوراق قل « أحسبها من ورق الصين ترجمتها هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الاسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر » ويحيى هذا من أبرع اصحاب أبي الاسود وسنذكر أمره بعد

٦٠ بعد ان ولي عشرين سنة) فوفد عليه عبيد بن شريّة الجرهمي النسابة الاخباري<sup>(١)</sup> وكان استحضره من صنعاء اليمن فسأله عن الاخبار المتقدمة وملوك العرب والمعجم وسبب تبلبل الألسنة واقتراق الناس في البلاد ونحو ذلك فلما أجابه أمر معاوية ان يدون قوله وينسب الى عبيد هذا وكان ذلك أول مادون في الاخبار . ولما استلحق معاوية زياداً بن أبيه — مات سنة ٥٣ — وهو من الموالي وكان قد ادعى أبا سفيان أباً وأنفت العرب لذلك ونافروه فظفروا عليه وعلى نسبه عمل (أي زياد) كتاباً في المثالب ودفعه الى ولده وقال استظفروا به على العرب فانهم يكفون عنكم<sup>(٢)</sup> وكان هذا أول

أما أول كتاب وضع في النحو على التحقيق فهو الكتاب الذي وضعه نصر بن عاصم الليثي النحوي من اصحاب ابي الاسود وتوفي سنة ٨٩ ذكره ياقوت  
(١) في طبقات الادباء : روى هشام بن الكلبي قال عاش عبيد بن شريّة ٣٠٠ سنة وأدرك الاسلام فأسلم ثم ساق له خبراً مع معاوية مانحسبه الا حديث خرافة . وقد ذكر ابن قتيبة (في التأويل) ماتوا قلوبهم في عمر لقمان صاحب النور الذي زعموا انه عاش أعمار سبعة أنسر وكان مقدار ذلك ٢٤٥١ سنة فقال وهذا شيء متقدم لم يأت فيه كتاب ولا سنة وليس له اسناد وانما هو شيء يحكيه عبيد بن شريّة الجرهمي وأشباهه من النسابين .. على ان ابن قتيبة بعد هذا الذي أنكره (صحح) باسناده الى أبي عمرو بن العلاء ان المستوغر بن ربيعة عاش ٣٢٠ سنة . . !

(٢) لم يؤلف احد في مثالب العرب كملان الشعبي وأعله من الفرس وكان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة فقد عمل كتاب الميدان في المثالب هتك فيه العرب وأظهر مثالبها وفضح أشهر قبائلها

اما قبل علان هذا فقد كان كتاب زياد أول كتاب من نوعه ثم ثني عليه الهيثم بن عدي وكان دعياً فأراد ان يعر أهل الشرف تشفياً منهم . ثم لما كان هشام بن عبد

كتاب وضع في المثالب . وقد رأينا في الفهرست لابن النديم ان أبا مخنف من اصحاب علي كرم الله وجهه ألف كتاباً ضمنه بعض التراجم فاذا صح هذا يكون أبو مخنف أول من دوّن في ذلك وكان هذا الرجل صاحب اخبار وانساب والاخبار عليه أغلب .

ويقال ان أول من ألف في السير عروة بن زبير المتوفى سنة ٩٣ وألف وهب بن منبه صاحب الاخبار والقصص — وهو من ابناء الفرس المولدين باليمن وتوفي سنة ١١٦ عن تسعين سنة — كتاباً في الملوك المتوِّجة من حمير واخبارهم وقصصهم وقبورهم واشعارهم فكان أول من دوّن هذه الموضوعات التاريخية ووضع بعد ذلك محمد بن مسلم الزهري المتوفى سنة ١٢٤ كتاباً في المغازي فكان أول من دوّنها وكتب بعده محمد بن اسحق المتوفى سنة ١٥١ كتابه الشهير في السيرة ومزجه بالخرافات والموضوعات على نحو ما فعل ابن منبه وجعل كل ذلك عربياً وعدّوه أول من ألف في السيرة لانه وضع كتابه للمنصور ولانه اتسع فيه بما لم يحمله عن احد غيره كما رأيت . ثم جاء ابن النطاح من الاخباريين في اواخر القرن الثاني وهو أول من ألف في الدولة الاسلامية واخبارها كتاباً . ثم وضع الخليل بن احمد

الملك بن مروان أمر النضر بن شميل الحميري وخالد بن سلمة الخزومي ان يبيّنا مثالب العرب ومناقبها وقال لهما وان ضم اليهما دعوا قريشاً بما لها وما عليها فوضعا كتاباً ليس فيه لقريش ذكر . وقد وضع قوم آخرون كتابي عبدة وابن غرسية الاندلسي كتاباً في المثالب ولكنهم لم يبلغوا من النسبة التاريخية مبلغ من ذكرنا . وسنأتي على شيء من هذا المعنى وتفصيل اسبابه في بعض الفصول من باب الشعر

المتوفى سنة ١٦٠ ( وقيل ١٧٠ و ١٧٥ ) كتاب العين في اللغة وهو أول كتاب جمعت فيه . وجاء ابن الكلابي النسابة المتوفى سنة ٢٠٤ فدون أنساب العرب وكان أول من فعل ذلك ثم كان أبو عبيدة الراوية المتوفى سنة ٢١١ ( وقارب المئة ) فصنف في أيام العرب وهو أول من صنف فيها .

هذا ما وقفنا عليه من الخبر في أولية التدوين في الأدب خاصة دون ما استفاض بعد ذلك ودرين هنات تركناها وستأتي في اخبار الرواة . وكل تلك الكتب لا اسناد لها على نحو ما كان في كتب الحديث . وأول من صنف الكتب مسنده في الحديث عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومي المتوفى سنة ١٥٠ ولدا عدوه أول من صنف الكتب في الحجاز كما ان سعيد بن أبي عمرو أول من صنف بالعراق لانهم لا يعتبرون من الكتب الا ما كان مسنداً . اما غير ذلك فلا يعدون به شأن ما كان يكتبه العلماء قديماً لانفسهم أو لمريديهم فان بعضهم كانوا يكتبون ما يحدثون به في صحيفة ويعطونها للمريدين فيحدثون منها ولذلك يقال مثلاً ان فلاناً ثقة وبعض روايته صحيفة ومن هنا نشأت لفظة الصحفي كما سيأتيك .

على ان العلماء في اخر القرن الاول كانوا يكتبون عن العرب ما يصيبونه من الشعر والخبر ونحوهما ولكنهم لا يعدون مثل هذا تأليفاً وقد ذكروا ان كتب ابي عمرو بن العلاء ( ٧٠ - ١٥٩ على الاكثر في التاريخين ) التي كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً الى قريب من السقف<sup>(١)</sup> ومع ذلك

---

(١) قالوا ان ابا عمرو تنسك في آخر أيامه فأحرق هذه الكتب وكان ذلك دأب طائفة من العلماء يتورعون ان يأخذ الناس عنهم ماعدوه من سيئات أنفسهم



فلم يذكروا له تصنيفاً واحداً . ونظن ان اول من كتب عن العرب هو الحافظ الزهري الذي دون الحديث فقد نقل الجاحظ في البيان عن ابي زياد قال كنا لا نكتب الا سنة وكان الزهري يكتب كل شيء فلما احتيج اليه عرف انه أوعى الناس .

### تاريخ الاسناد في الادب

قد علمت كيف كان بدء الاسناد في الحديث وما أمر الحاجة التي بعثت عليه وكيف انتهى الى التدوين . اما تأريخ اتصال ذلك بالأدب فقد دللناك على ان العرب انما جرت في اسلامها من أمر الشعر والخبر والنسب ونحوها على مثل عاداتها في جاهليتها فلا جرم انهم كانوا ينسبون اكثر ما يتناقلونه الا ان النسبة غير الاسناد فيما اصطلح عليه الرواة لان الاسناد لا يراد به الا شهادة الزمن على اتصال النسب العامي بين راوي الشيء وصاحب الشيء المروي حتى يثبت العلم بذلك على وجه من الصحة كالدعوى التي تتلقى بثبوتها من البيّنة . وهذا لا يستقيم الا اذا صارت الرواية صناعة علمية ولم يكن في العرب شيء من ذلك بالتحقيق الا بعد قيام دولة بني مروان حين اتخذوا

فيسندوه اليهم وقد يكون فيه الباطل والموضوع والمنكر وما لا يعرفه الا صاحبه . ومنهم من كان يغسل كتبه لانها جلود . وأغرب ما وقفنا عليه ان حافظ اهل الكوفة ومحدثها محمد بن العلاء بن كريب المتوفى سنة ٢٤٣ — أي بعد ان نضجت العلوم أوصى ان تدفن كتبه معه فدفنت .. فان لم يكن هذا هو الحب الميت فلا ندرى ماذا يكون . وقد ظهر لمحمد هذا بالكوفة ٣٠٠ الف حديث قالوا وكان ثقة مجعاً عليه

المؤدين لأولادهم وذلك هو العهد الذي تسلسل فيه اسناد الحديث أيضاً  
لتشعب طرقه كما هو، أنا إليه من قبل

وأول اسناد عرف في الأدب كان علمياً بحثاً وذلك اسناد نصر بن  
عاصم الليثي الى أبي الاسود الدؤلي في كتابه الذي وضعه في العربية وأشرنا  
إليه . ثم كان العلماء يروون المغازي وهذه لا بد فيها من الاسناد  
وان كان قصيراً لقرب التابعين من عهدا الذي حدثت فيه . ثم لما  
خيف على لسان العرب من الفساد ومست الحاجة الى الكتابة عن العرب  
لصيانة اللغة والاستعانة على فهم القرآن والحديث وتجريد القياس في العربية  
وما الى ذلك نشأت الطبقة التي ابتداء الاسناد في الأدب الى رجالها كحماد  
الراوي وأبي عمرو بن العلاء وغيرهما وصارت الرواية علمية محضة وبهذا تحقق  
معنى الاسناد في الاصطلاح وكان ذلك بدء تاريخه في الأدب .

ثم ظهرت الطبقة التي اخذت عن هؤلاء وكانوا جميعاً انما يطلبون رواية  
الأدب للقيام به على تفسير ما يشبهه من غريب القرآن والحديث حتى لا تجد  
فيهم البتة من لارواية له في الحديث كثرت أو قلت والمحدثون يرون انه  
ليس براو عندهم من لم يرو من اللغة <sup>(١)</sup> لأن موضوع الحديث أقوال النبي

(١) ورواة الادب هم الذين جعلوا غريب الحديث علماً وخصوه بالتدوين وأول  
من فعل ذلك منهم أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١١ — وقد ناهز المئة —  
فانه جمع من الفاظ غريب الحديث والأثر كتاباً صغيراً ذا أوراق معدودة لبقية من  
المعرفة كانت في الناس يومئذ ولأنه مبتدئ مثلاً جديداً ثم جمع النضر بن شميل المتوفى  
سنة ٢٠٤ كتاباً اكبر من ذلك شرح فيه وبسط ثم الاصمعي المتوفى سنة ٢١٣ ثم قطرب

صلى الله عليه وسلم وهو افصح العرب ولذا لا يمكن ان يقيموا آراءهم في غريب الأثر ومشتبه الحديث الا بما يحتجون به من الشعر وكلام العرب مروياً بسنده او مأخوذاً عن يسنده انتفاءً مما عسى ان يرموا به من الوضع والصنعة وتابعهم الفقهاء بعد ذلك فجعلوا المهارة في الشريعة والحذق بالفقه والبراعة في الفتيا مفتقرة الى الاصلين ( الكتاب والسنة ) واقسام العربية حتى ان الشافعي رحمه الله قال انه طلب اللغة والأدب عشرين سنة لا يريد بذلك الا الاستعانة على الفقه .

وقد رأت تلك الطبقة التي اشرنا اليها ان ما بعث على الاسناد في الحديث قد تحقق في الأدب من افتعال اللغة والتزييد في الاخبار والصنعة في الشعر وادادوا ان يطرد علمهم من ينبوع واحد فجعلوا الصنفين سواء في الرواية وأوجبوا الاسناد فيهما جميعاً .

ولم يكن الاسناد واجباً قبل ذلك على نحو ما هو في الحديث وأنت تعتبر هذا بان كل أسانيد الادباء على اختلاف عصورهم انما تنتهي الى الطبقة الأولى فحسب كأبي عمرو بن العلاء وحماد الراوية وغيرهما ممن تصدروا للرواية وكانوا ظهور هذه الصناعة في السماع والتدوين ولا تكاد

المتوفى سنة ٢٠٦ ثم وضع أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ كتابه الذي قرر به هذا الفن جمعه في اربعين سنة وكان خلاصة عمره لانه تتبع الاحاديث وآثار الصحابة والتابعين فجمع منها ما احتاج الى بيانه بطرق أسانيدھا وحفظ رواياتھا ثم تعقبه ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ فتتبع ما اغفله في كتاب ذي مجلدات عدة . وتتابع اهل اللغة بعد ذلك على التصنيف في هذا الفن مما لا محل لبسطه في هذا الموضع

تجد رواية واحدة يتصل سندها الى الجاهلية في شيء من الشعر والخبر وانما يكتبون بالنسبة الى اولئك لانهم في أول تاريخ الرواية ولانهم جميعاً يزعمون انهم أخذوا أكثر ما يروونه عن قوم أدركوا عرب الجاهلية أو نقلوا عن أدركهم<sup>(١)</sup> ولم يكن من سبيل الى رد ما تناقلوه عن الجاهلية لانه كان كل ما في أيدي الرواة .

ولم نعثر في كل ما وقفنا عليه على سند في إحدى الروايات يتصل بالجاهلية وانما وقفنا من ذلك على شيء لبعض الشعراء كالذي نقله علي بن حمزة في كتاب اغاليط الرواة قال ان ربيعة بن المجاج الراجز - توفي سنة ١٤٥ عن سن عالية - سئل عن قول امرئ القيس

نظعنهم سلكى ومخلوجة كرك لا مين على نابله<sup>(٢)</sup>

(١) رأينا في كثير من الكتب ان أبا عمرو بن العلاء روى عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية وذلك خطأ ركه النساخ والصواب انه روى عن أعراب قد أدركوا أعراب الجاهلية لان أبا عمرو ولد سنة ٧٠ وتوفي سنة ١٥٩ على الأكثر في التاريخين وكان لا يأخذ الا عن العرب قال الاصمعي : جلست اليه عشر حجج ما سمعته يحتاج بيت إسلامي .

(٢) اختلف علماء الشعر في شرح هذا البيت حتى تحدث الاصمعي عن أبي عمرو قال كنت أسأل منذ ثلاثين سنة عن هذا البيت فلم أجد أحداً يعلمه حتى رأيت اعرابياً بالبادية فسألته عنه ففسره لي .

ومعنى نظعنهم سلكى أي طعنأ مستويأ وقيل السلكى على القصد امام وجهك والمخلوجة المعوجة عن يمين وشمال والكر أي الرد واللامان السهمان والنابل صاحب النبل .

فقال حدثني أبي عن أبيه قال حدثتني عمتي وكانت في بني دارم قالت سألت امرأة القيس وهو يشرب طلي (خمرًا) له مع عاقمة بن عبدة ما معنى قولك كرك لامين قال مررت بنابل وصاحبه يناوله فما رأيت اسرع منه فشبهت به .

وخبر آخر وهو ما نقلوا عن حماد الراوية انه قال كان للكثير (الشاعر المتوفى سنة ١٢٦) جدتان ادركتا الجاهلية فكانتا تصفان له البادية وامورها وتخبرانه بأخبار الناس في الجاهلية فاذا شك في شعر أو خبر عرضه عليهما فتخبرانه عنه فمن هناك كان علمه . . . والله اعلم بأمر هاتين الروايتين وابن تقيان من الصحة .

#### ❦ فائدة الاسناد الى الرواة ❦

مما تقدم تعلم انه لولا الحديث لما خلصت اللغة ولجأت مشوبة بالكذب والتدليس ولفسد هذا العلم وما بني عليه وذلك قليل من بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونضرته غير انا رأينا قومًا ممن يردّون على الرواية ويتحكمون على السماع بالغرض مجردًا من النصفة وبالرأي مستهترين به دون ان يجعلوا له نصيبًا من الثبوت والتوقي يحددون فائدة الاسناد ولا يرون له خطرًا كبيرًا ثم لا يجدون في سلسلة تلك الاسماء التي توصل بها

وقال القتيبي انما هو كرك لامين أي تكرير كلام بمعنى قول القائل للرامي ارم ارم أي ليس بين الطعنة والطعنة الا بمقدار اللفظتين وقال زيد بن كندة يريد انه يطعن طعنتين مختلفتين وبوالي بينهما كما يوالي هذا القائل بين هاتين الكلمتين

الاخبار الا لغوا تاريخياً . ومنهم من يرى ان ذلك انما جاء من اثر الرواة  
ومحبتهم ان تبقى اسمائهم المذكورة متداولة فكأنهم دسوا تراجمهم في العلوم  
لتبقى ببقائهم وان ذلك من حبال تقفهم وفطنهم الى آخر ما يعتقدون فيه  
اعناقهم من مثل هذه الآراء التي يموت هون بها على قصار النظر وذوي العقول  
المدخولة . وهؤلاء ، وأشباههم كمن ينظرون الى الدوحة الباسقة من اعلاها  
فيحسبونها قد نبتت من السماء لانهم لم يستقروا تاريخ الاسناد ويظنون ان  
هذه العلوم المسندة قد دُفنت للناس على الكفاية ووقعت اليهم على قريب  
من التمام فهي هي في الكتب وفي الصدور لم يعترضها عارض ولا دخل  
عليها وهن ولا فساد .

وفريق آخر رأيناهم ينكرون كل ما جاءت به الروايات ويتهمون الكتب  
ويطعنون على الاسناد ومن غريب التناقض في أمر هؤلاء ان في نفس اعتراضهم  
الجواب عليه فهم يقولون ان الخبر من الاخبار لا يثبت الا عن رؤية حتى  
تكون حكايته على يقين فاذا عارضتهم بخبر وناظرهم فيه قالوا لك هل رأيت  
هل شهدت هل لقيت صاحب الخبر . وليت شعري هل غاية الاسناد الا  
ان تكون كأنك رأيت وشهدت ولقيت صاحب الخبر الذي تسنده وهل هو  
— الاسناد — الا تحقيق المعاصرة التي هي الشرط في ثبوت الرواية حتى  
كأنك اشهدت الزمان على صحة ما ترويهِ لان كل رجل في سلسلة الاسناد  
انما هو قطعة من الزمن تتصل بقطعة الى قطعة حتى يتبها من ذلك مسلك  
التاريخ ويتضح نهجه كأنك تبصره على رأي العين ويقين الخبرة .

### مفط الاسانيد في الحديث

وقد عني المحدثون بعلم الرجال أتم عناية واكملها بحيث لا يتعلق بغبارهم في ذلك الشأو مؤرخوا الامم جمعاء حتى جعلوا الاسناد عاليه ونازله كأنه علم الاخلاق التاريخي قد رتبوا فيه الرجال على طبقاتهم وانزلوهم على المراتب المتفاوتة من العدالة والضبط ووزنهم في كفتي التجريح والتعديل<sup>(١)</sup>

(١) مما يشترطونه في راوية الحديث ان يكون عادلاً ضابطاً وقد اختلفوا في تعريفها اختلافاً كثيراً يناسب خطر ما بيني عليهما حتى ردوا العدالة لمرد الملكات الثابتة في النفس لان مبناها على الاخلاق التي اتعمم من الكذب والابتداع . واصطلحوا على ان الضابط هو الذي يقل خطؤه في الرواية ووجهه فيها بحيث يوافق الثقات فيما يرويه ويسمون ذلك اتقاناً ايضاً . اما الثقة فهو الذي يجمع بين العدالة والضبط .

ولا يقبلون من مجهول العدالة كما لا يقبلون من مجهول العين الذي لم تعرفه العلماء ولكل ذلك شروط واقسام كان المتقدمون يتشددون فيها فلما تأخر الزمن وتشعبت طرق الاسناد وكثر الرجال وقلت شروط العدالة البالغة وذلك حوالي المئة العاشرة ترخص المحدثون في تلك الشروط واكتفوا بان يعتبروا في راوي الحديث الاتقان وحسن الاحدوثة ونحو ذلك حتى لاتنقسم سلاسل الاسناد اذا فرض انه لم يكن بد من اخلال احد رجالها المتأخرين بما اشترطه المتقدمون .

ولالفاظ التعديل عندهم مراتب : أعلاها قولهم ثقة أو متقن أو ضابط أو حجة (٢) خبير صدوق مأون لا بأس به (٣) شيخ (٤) صالح الحديث . ولالفاظ التجريح مراتب ايضاً : أدناها لين الحديث (٢) ليس بتوي وليس بذلك (٣) مقارب الحديث أي رديته (٤) متروك الحديث وكذاب ووضاع ودجال وواه . وواه بمرّة أي قولاً واحداً لاتردد فيه . وبعض هذه الالفاظ يستعمله الادباء ولذلك ذكرناها حتى

وحاسبوهم على كل دقيق وجليل وبحثوا فيما كان من أمرهم على العزيمة وما كان على الرخصة وحفظوا أسماءهم وتبينوا صفاتهم وتصفّحوا على اخلاقهم كما يعرف الرجل الحكيم مثل ذلك من بنيه وأقرب الناس اليه .

وهذا شأن لا تصوره الكلمات ولا يصفه الا النظر في كتبه المدونة كالكتب الموضوعة للطبقات والموضوعات وشروح الامهات من كتب الحديث كصحيح البخاري ونحوه .

وقد قال دغفل بن حنظلة : ان للعالم اربعاً : آفة ونكدا واضاعة واستجاعة فأفقه النسيان ونكده الكذب واضاعته وضعه في غير موضعه واستجاعته انك لم تشبع منه . قال الجاحظ وانما عاب الاستجاعة لسوء تدبير اكثر العلماء وخرق سياسة اكثر الرواة ولأن الرواة اذا شغلوا عقولهم بالازدياد والجمع عن تحفظ ما قد حصلوه وتدبر ما قد دونوه كان ذلك الازدياد داعياً الى التقصان وذاك الربح سبباً الى الخسران اه . والازدياد الذي وصفه كان شأن طائفة من العلماء انصرفوا الى حفظ الاسانيد وطلبوا الحديث الواحد من طرق كثيرة رغبة في تنوع اسانيدها لا لفائدة الا التميز بهذا النوع من الحفظ فانه بعد ان اتسعت فنون الرواية اخذ اهلها في مذاهب التخصيص فبعضهم كان أحفظ للنسب وبعضهم أحفظ للاسناد وبعضهم احفظ للمعاني وبعضهم احفظ لمتون الالفاظ وكل طائفة انما تشارك غيرها فيما تعلمه وتنفرد دونها بما عرفت به ليكون اليها المرجع فيه ولكن أغرب ما وقفنا عليه مما

تعرف مراتبها . وفي انهيها الى الكلام في علم الرواية وتدوينه نذكر أول من تكلم في الرجال جرحاً وتعديلاً



يتعلق بالاتساع في حفظ الاسانيد ماذ كروه من ان ابن الانباري المتوفى سنة ٣٢٧ كان يحفظ ١٢٠ تفسيراً للقرآن بأسانيدها<sup>(١)</sup> وهو الذي قيل فيه ان من جملة تصانيفه كتاباً في غريب الحديث يقع في خمس واربعين الف ورقة وله اخبار اخرى من نواذر الحفظ نذكر بعضها في محله . وهذا الرجل لو سمع أو قرأ مائتي تفسير بأسانيدها لحفظها فانه كان آية من آيات الله في الوعي وقوة الحافظة .

وبعد أن ضعف علم الرواية واقتصروا في الحديث على ما لا بد منه كان لا ينبغ من حفاظ الاسانيد المتسعين فيها الا الافذاذ الذين تعقم بهم الازمنة المتطاولة ومن أشهرهم الحافظ ابو الخطاب بن دحية الاندلسي المتوفى سنة ٦٣٣ وقد انفرد هذا الرجل بحفظ حوشي اللغة حتى صار عنده مستعملاً وامتاز بذلك في المتأخرين كما انفرد بحفظ الاسانيد حتى انه لما حضر الى مصر في دولة بني أيوب - أيام الملك الكامل - جمعوا له علماء الحديث فذكروا له أحاديث بأسانيد حوّلوا متونها ليعرفوا مبلغ حفظه فأعاد المتون المحولة وعرف عن تغييرها ثم ذكر الاحاديث على ما هي عليه من متونها الاصلية وردها الى أسانيدنا الصحيحة . وكان مثل هذا يعد غريباً في القرن الثالث والحفاظ متوافرون والاسانيد قريبة الأطراف فان علماء مصر الذين امتحنوا أبا الخطاب انما حذوا في ذلك حذو علماء بغداد في امتحان الامام محمد بن اسماعيل البخاري صاحب الصحيح المتوفى سنة ٢٥٦ رحمه الله

---

(١) مريبك ان أول من صنف التفسير بالاسناد مالك بن أنس رضي الله عنه ثم صارت من بعده طريقة المحدثين حتى ليقول ان تجمد حافظاً منهم لا تفسير له

فقد تقل كثير انه لما قدم بغداد اجتمع أصحاب الحديث وعمدوا الى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا من هذا الاسناد لاسناد آخر واسناد هذا لمتن آخر ودفعوا الى كل واحد عشرة أحاديث ليلقوها على البخاري في المجلس امتحاناً لحفظه فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب أحدهم فقام وسأله عن حديث من العشرة التي حفظها فقال لا أعرفه واستمروا يسألونه وهو يقول لا أعرف حتى أتوا على المئة فلما علم أنهم فرغوا التفت الى الأول فقال أما حديثك الاول فقلت كذا وصوابه كذا وحديثك الثاني قلت فيه كذا وصوابه كذا واستمر حتى أتى على تمام العشرة ثم فعل بالآخرين مثل ذلك ما يخطئ ترتيب حديث على غير ما التي عليه ولا في نسبة حديث الى غير صاحبه الذي القاه وهو في كل ذلك يرد كل متن الى اسناده وكل إسناد الى متنه فأقر الناس له بالحفظ . وقيل انه كان يسمر قند أربعمائة ممن يطلبون الحديث فاجتمعوا سبعة ايام وأحبوا مغالطته فأدخلوا اسناد الشام في اسناد العراق واسناد العراق في اسناد الشام واسناد الحرم في اسناد اليمن فما استطاعوا مع ذلك ان يتعلقوا عليه بسقطة لا في الاسناد ولا في المتن وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

### مفط الاسانيد في الادب

ذلك شأن الاسناد في الحديث وعنايتهم بحفظه أما الاسناد في الادب فلا يراد منه الا توثيق الرواية وإثبات صحتها وضمان عهدها لا ان يطلب الراوية بذكر الاسناد حكاية ما يرويه على أنه عن معذل وإثبات ما يسنده

على أنه الى مقنع فان اللغة ترجع الى أقيسة معروفة وان ما شذَّ عن هذه  
الأقيسة موضوع قطعاً الا ان يحمل عن الثقة أو يتفرد به أهل الكفاية  
فيوردونه على انه من الأفراد والنوادر وان الشعر والخبر قد فشا فيهما  
الكذب والتوليد منذ القرن الاول ونشأ كثيرون من الرواة يشدون من  
العلوم الموضوعة وينفقون من الاخبار المكذوبة ويموهون بمزج هذه الامور  
على الناس ويخترعون الاشعار الكثيرة عند مناقلة الكلام وموازنة الامور  
ومع ذلك فلم يعن بأمرهم أهل التفتيش والتحقيق من العلماء الا حيث يكون  
الخبر أو الشعر مظنةً الشاهد وموضع المثل فهناك يضربون دونه بالاسداد  
مخافة ان يجري في شيء من العلوم التي هي قوام الأصلين من الكتاب  
والسنة فحيث وجدت المعنى الديني تجدد التثبت والتحقيق الذي لا مساغ  
فيه الى خطرات الظنون فضلاً عن فرطات الأوهام ومتى انتفى هذا المعنى  
عن شيء فأمره عندهم بحساب ما يدور عليه واذا أردت ان تعرف  
مصدق ذلك فاعتبره بما وضعه العلماء من ترجمة الامام البخاري وتقد كتابه  
فما رأينا في الاسلام كتاباً استوفى شروط النقد الصحيح كلها كهذا  
الكتاب<sup>(١)</sup> ولو انهم تناولوا ببعض تلك العناية كبار الرواة وخول الشعراء  
ونوابغ الكتاب لكانت العريضة اليوم أغنى اللغات آداباً وأمتنها أسباباً  
وأوسعها في تاريخ الآداب كتاباً ولكن الادباء لم ينجنوا من ذلك الا ثمرة  
المراء ونكدهم الخلاف ولم يحصلوا الا الاشياء القليلة مما يتعلق باللغة لانها

---

(١) قالوا ان الذين سمعوا كتاب البخاري من مؤلفه روايةً تسعون الف  
رجل كلهم روى عنه وأسند اليه قنامل

موضع الشاهد وذلك من أمرهم كما أوامنا اليه بل كان أهل الشعر منهم برون  
انهم أضاعوا العمر في الباطل ولم يَحْلُوا من ثواب الاعمال بطائل<sup>(١)</sup>  
والاسانيد في الأدب قصيرة لان الرواة مازالوا يحملون عن العرب  
قرونًا بعد الاسلام على ما سبق لنا بيانه في الباب الاول ومن حمل شيئًا فهو  
سنده ثم ان الرواية قد درست بعد القرن الخامس على أبعد الظن ولم يبق  
الا بعض الاسانيد العلمية كما سيجي، فكان عمر الاسناد ثلاثة قرون على  
الاكثر. دع عنك ما كان من شأنهم في هذا الاسناد فان الصدور منهم  
يكتفون بالنسبة غالبًا - وهي بعض طرق الرواية كما ستعرفه - فيقولون  
روينا عن فلان وحديثنا عن فلان ويكون بين الراوي والمروي عنه  
جيلان واكثر.

بيد ان كل ذلك لا يدفع الثقة بما يرويه أهل الضبط والتحصيل منهم  
وهم قوم معدودون يعرفونهم بالعدالة ثم لأنهم يأخذون عن الثقات ولأن  
اكثر ما يروونه لاوجه للخلاف فيه واذا اختلفوا في شيء فلا يكون ذلك  
قادحًا فيهم لان مظنة الخلاف انما تكون في ضعف الرواية أو الراوية  
وسيأتي شرح ذلك فيما يأتي.

### ﴿ أصل التصحيف ﴾

وقد قلنا ان الاسناد في الحديث استتبع الاسناد في الأدب وذكرنا  
في أخذ المحدثين عن الصحف انهم يغمزون بذلك وان كان ما في الصحيفة

(١) سيأتي لهذا المعنى مزيد من البيان في موضع آخر.

صحيحاً فيقولون مثلاً إن فلاناً ثقة وبعض روايته صحيفة<sup>(١)</sup> وقد جرى  
اهل الأدب في أمر الاسناد على ذلك ايضاً وأصل التصحيف رواية  
الخطأ عن قراءة الصحف باشتباه الحروف فقد كانوا يكتبون في القرن  
الاول بدون نقط ولا شكل يفعلون ذلك في المصاحف وغيرها فكان الذي  
يأخذ القرآن من المصحف ولا يتلقاه من أفواه القراء تشبه عليه الحروف  
فيصحف وغير الناس على ذلك الى أيام عبد الملك بن مروان ففرع الحجاج  
الى كتابه وسألهم ان يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات فيقال ان  
نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط فغير الناس بذلك زماناً لا يكتبون  
المنقوطة وكان أبو الأسود قد وضع النقط قبل نقط نصر لضبط الحروف  
— شكلها — فاشتبه الامر واستمر يقع التصحيف فأحدثوا الإعجام — أي  
الشكل بالحركات على ما أرادوه في أول التعبير بذلك — فكانوا يتبعون النقط  
بالإعجام . ولكن ذلك لم يكن مستقصي في كل ما يكتب ولا كان كل من  
يقرأ يستقصي ضبط الكلمة ونقطها<sup>(٢)</sup> فلم يزل يعترى التصحيف فالتمسوا

(١) أصل تجوزهم الرواية من الصحيفة والاسناد بها الى صاحبها ان رسول  
الله صلى الله عليه وسلم أملى صحيفة الزكاة والديات وهي التي كانت عند أبي بكر  
رضي الله عنه — وقد أشرنا اليها — ثم صار الناس يخبرون بها عنه لانها انتهت اليهم  
بطريق المناولة وهذا هو أصل الاجازة التي هي من طرق الرواية كما سنبينه . وقد  
وقفنا على أخبار مما يتعلق بالصحف المروي منها أضربنا عن ذكرها اختصاراً

(٢) وقفنا على أسماء بعض علماء ذكروا انهم كانوا يخطئون اذا قروا القرآن  
نظراً فمن أشهرهم أبو صالح مولى أم هانئ أخذ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه  
وكان مفسراً فكان الشعبي يراه فيقول تفسر القرآن ولا تحسن ان تقرأه نظراً . وحامد

حيلة فلم يقدروا على غير الاخذ من أفواه الرجال . وكان ذلك كله قبل ان تستبحر فيهم الرواية فلماذا وأشباهه قالوا لا تأخذوا القرآن من مصحفٍ ولا العلم من صحفٍ .

ولما استجرت لهم أطراف الرواية وكثر التدوين كان أشد ما يهيج به الرواية اسناده الى الصحف لان ذلك غمزة في ضبطه وتحصيله ولان الرواة كانوا يتفاوتون بمقدار ما يصحفون أو يصححون <sup>(١)</sup> ولا يكون التصحيح الا بقاء العلماء والرواة والمتقدمين في صناعتهم المتقنين لما حفظوه والاسناد اليهم وقد هجا بعض الشعراء أبا حاتم السجستاني المتوفى سنة ٢٥٠ وهو واحد عصره في فنه فلم يزد على ان قال في عيبه والزراية عليه اذا أسند القوم أخبارهم فإسناده الصحف والمهاجس

وأورد العسكري في موضع من كتابه (التصحيح) شرح بيت لابن مقبل فنبه قبل ايراده على انه كتبه من كتاب لبعض العلماء قال « ولا أضمن عهدته لاني لا أعتد الا بما أخذته رواية من أفواه الرجال أو قرأته عليهم » . فلما كان القرن الخايس وابتدأت الرواية تعفو وتجود بأنفاس

الرواية ذكر العسكري انه كان يصحف نيقاً وثلاثين حرفاً من القرآن . وأبو عبيدة الرواية قال ابن قتيبة في المعارف وكان يخطئ اذا قرأ القرآن نظراً فاذا كان هذا بعض شأنهم في القرآن وهم يحفظونه ويفسرونه فالشأن في غير القرآن أعجب . ولم يزل هذا التصحيح من أمر من لم يعتادوا القراءة اذا قرؤا .

(١) أحصى العسكري المتوفى سنة ٣٨٢ في كتابه (التصحيح والتحريف) ما هم فيه جلة العلماء وأفراد الرواة من البصريين والكوفيين وكتابه أجمع ما وضع في هذا الباب وقد طبعت منه قطعة في مصر

أهلها بعد ان تميزت العلوم ووضعت فيها الكتب الكثيرة ودونت روايات  
الصدور المتقدمين ضعف أمر الاسناد شيئاً غير قليل ولكن بقيت فيه  
بقية يماسك بها حتى ان أبا محمد الأعرابي المعروف بالاسود العلامة النسابة  
الذي تصدر في القرن الخامس للرد على العلماء والاخذ على القدماء<sup>(١)</sup> كان  
لا يستطيع ان يروي بغير اسناد فكان يسند الى رجل مجهول يسميه  
(محمد بن احمد أبا النداء) وكان أبو يعلى بن الهبارية الشاعر يعيره بذلك ويقول  
من ابو النداء في العالم لا شيخ مشهور ولا ذو علم منشور .

#### اسناد الكتب

ومن يومئذ صار أمر الاسناد مقصوراً على تلقي الكتب العلمية  
وروايتها بالسند عن مؤلفيها لان العلم كان قد نضج وكملت فنونه ثم كان  
لسان العرب قد اختبل وكان أمرهم قد اختل فلم تعد الرواية عنهم تجدي  
شيئاً وذلك ما سميناه آنفاً بالاسانيد العلمية . وكان سماع الكتب ورؤايتها  
عن مؤلفيها معروفاً من أول عهد التأليف ولكنه لم يكن مما يتباهى به  
الا منذ بدأت الرواية تضعف في القرن الرابع وحين كثرت الكتب فكان

(١) قال ياقوت : كان علامة نسابة عارفاً بأيام العرب وأشعارها وأحوالها . .  
وكان لا يقنعه أن يرد على أهل العلم رداً جميلاً إنما يجعله من باب السخرية والتهكم  
وضرب الامثال . . وقال رأيت في بعض تصانيفه وقد قرئ عليه سنة ٤٢٨ . والعجيب  
ان ياقوتاً ترجم أبا النداء المجهول وقال واسع العلم راجح المعرفة باللغة وأخبار العرب  
وأشعارها ثم صرح انه استدل على ذلك برواية الاسود عنه في كل كتبه . . . مع انه  
لا يعرف له شيئاً ولا تلميذاً غير الاسود هذا .

الصولي الاديب المتوفى سنة ٣٢٥ يتباهى عظيمًا بكتبه وهي مصفوفة وجلودها مختلفة الالوان ويقول هذه الكتب كلها سماع وقد هبني بذلك لان الناس لم يكونوا قد ساروا هذه السنة بعد<sup>(١)</sup>.

ومن ثم صاروا يطلقون لفظ ( الصحفي ) على من يأخذ من الكتب بنفسه دون أن يتلقاها باسناد معروف الى مؤلفيها حتى انهم لما عابوا الحسن بن احمد النحوي - في أواخر القرن الخامس - وكان يحسن كتاب سيبويه في النحو قالوا انما كان في فهم الكتاب صحفياً.

وكان موفق الدين النحوي المتوفى سنة ٥٨٥ آية عصره في النحو ولم يكن أخذه عن امام انما كان يحل مشكله بنفسه ويراجع في غامضه صادق حسه فلما جرت المناظرة بينه وبين عمر بن الشحنة النحوي المشهور وظهر فيها موفق الدين هذا لم يكن لابن الشحنة قرار الا ان قال له أنت صحفي يعيبه بذلك فسافر موفق الدين من اربل الى بغداد ولحق بها مكّي بن ريان فقرأ عليه أصول ابن السراج وكثيراً من كتاب سيبويه ولم يفعل ذلك حاجة به الى افهام وانما أراد ان ينتمي على عادتهم الى امام<sup>(٢)</sup>.

(١) المحدثون يشترطون مع سماع الكتب مقابلة ما يكتبه المحدث بأصل شيخه الذي كتب عنه أو بأصل أصل شيخه المقابل به بشرط أن يكون الأصل الثاني قوبل على الأول أو بفرع مقابل بأصل السماع وليس من هذا شيء في الادب.

(٢) كان موفق الدين مفتناً في العلوم ولكنه كان الآية الكبرى في العربية وقالوا انه لما رحل الى بغداد أخذ معه جملة لينفقها على النحو فلم يجد من برضيه علمه



ومن كان ثقة مسنداً للكتب وفاته اسناد كتاب مما يعده الناس من الأمهات والأصول عدوه متساهلاً في الرواية . وقد نقل ياقوت ان علي بن جعفر المعروف بابن القطاع الصقلي ( من صقلية ) امام وقته بمصر في علم العربية وفنون الادب المتوفى سنة ٥١٥ لما قدم الى مصر سألته تقاد المصريين عن كتاب الصحاح فذكر انه لم يصل اليهم قال ولذلك نسبوه الى التساهل في الرواية ثم لما رأى اشتغالهم به ركب لهم اسناداً وأخذهم الناس عنه مقلدين له <sup>(١)</sup> . ولهذا قلما كان يظهر كتاب لامام في فنه الا سارع الناس الى قراءته عليه ورحلوا اليه في ذلك بغية الانتماء وتحقيق الاسناد وقد ذكروا ان بعضهم كان يقرأ المقامات على الحريري ( توفي سنة ٥١٦ ) فوصل الى قوله :

يا أهل ذا المغنى وقيم شرّاً ولا تقيم ما بقيتم ضرّاً  
قد رفع الليل الذي اكفرّاً الى ذراكم شعشاً مغبرّاً  
فقرأها ( سغباً معترّاً ) ففكر الحريري ساعة ثم قال والله لقد أجدت  
التصحيف فرب شعث مغبر غير سغب معتر . والسغب المعتر موضع

فأنفقها على تعلم الضرب بالعود . . . . . وكان مكي الذي انتهى اليه برأيه في المسائل المشكلة ويرجع الى رأيه في أجوبة ما يورد عليه .

(١) أول من أدخل كتب اللغة والنحو الى مصر ورواها بأسانيدها هو الوليد بن محمد التميمي النحوي المشهور بولاد وأصله من البصرة ولكنه نشأ بمصر ثم رحل وأخذ عن المهلب تلميذ الخليل بن احمد وغيره وروى كتب اللغة والنحو ولم يكن بمصر قبله شيء منها وتوفي سنة ٢٦٣ وسند ذكر في تاريخ الادب الاندلسي أول من أدخل كتب الادب اليها

الحاجة « ولولا أني كتبت بخطي الى هذا اليوم على سبعمائة نسخة قرئت عليّ لغيرته كذلك » .  
ولا يزال اسناد كتب الحديث وبعض كتب العربية معروفاً عند كبار العلماء الى اليوم .

## الحفظ في الاسلام

بسطنا في أول الكلام ما حضرنا من أسباب حفظ العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ونريد هنا ان نذكر تأريخ الحفظ بعد ذلك فانه كان مادة الرواية ومدارها . ولقد رأينا كثيراً من أهل عصرنا يضعفون علماء العرب مضغاً ويلوون ألسنتهم بعبارات من الإِزرء على ماوردت به الرواية من أنباء حفظهم لا يعجبون في انفسهم من أن يكون ذلك صدقاً فحسب ولكنهم يعجبونك من كذبه وينبهونك على سخافة المغالاة فيه بزعمهم لما يشق عليهم من النزوع الى مثله والأخذ في ناحيته ولقصر نظرهم عن الطموح الى بعض مراتبه فيأتونك بالكلام اعتسافاً ، ويتخرون بالاحكام جزافاً ، ويزعمون ان اكثر ماروي عن علمائنا في الحفظ فهو اما تنفيق لهم في سوق التاريخ أو تلفيق عليهم في مساقه ولو انك اعترضت الحجة في مدارج انفسهم لرأيته هواءاً ، أو كلاماً هراءاً ، فهم يقيسون على ما في طباعهم من الكلال ، وما في انفسهم من الهويناء والوكال ، ثم هم قوم لا يكشفون عن أسباب الحوادث العربية ولا ينفذون بين معاهد تلك الامور ومصادرها وقد جهلوا تاريخ الرواية وجهلوا معه الاسباب التي بعثت من

تلك الهمم سوابق غاياتها ، وأظهرت لها من معجزات الحفظ خوارق آياتها ، ورفضت للأجيال على قبة التاريخ العقلي خوفاً راياتها ، فهؤلاء لا تزيد على ان تقول فيهم هؤلاء.

وليس تاريخ العرب وحدهم هو الذي امتاز بنوابع الحفاظ بل الحفظ موجود من أقدم أزمنة التاريخ لان الحافظة كانت وحدها عند القدماء كتاب التاريخ والتقاليد والشرائع والآداب وما اليها فكانت هي صورة الفكر الانساني على الحقيقة . وقد ذكرنا من قدماء الحفاظ متيريداتس الكبير الذي كان ملكاً على الشمال من غربي آسيا الصغرى في القرن الاول قبل الميلاد فقالوا ان هذا الملك كان يحكم على اثنتين وعشرين أمة مختلفة وزعموا انه كان يخطب على كل منها بلغتها ويدعو كل واحد من جنده باسمه وذكروا مثل ذلك عن قورش ملك الفرس وسيدون الاسيوي والامبراطور اديان وغيرهم وهذا أمر لا ينقطع في عصر من العصور فان من الناس من تكون أذناه وعينه أبواباً للتاريخ فلا يسمع أو يقرأ شيئاً الا حفظه ثم لا ينساه وفي أوروبا وأمريكا لهدنا شواهد كثيرة لا نطيل باستقصائها فان أحداً لا ينكرها .

بيد ان تاريخ العرب انما امتاز بسمة مادة المحفوظ وتنوعها وبالاسباب الدينية التي بعثهم على الحفظ مما أوامنا اليه في محله ومن القواعد المطردة التي تبينها من البحث في التاريخ العربي ان كل شيء للعرب اذا تعلق به سبب من الدين جاؤا فيه بالمعجزات التي يبرزون فيها الامم كافة ويحملونها من انفسهم طبقة في التاريخ وحدها ولم تر هذه القاعدة تخلفت في أمر من أمورهم وهي

بعض ما خُصَّ به هذا الدين الحنيف الذي وجد العالم في كتابه الكريم معجزته الخالدة .

وبعد فان الحافظة نفسها تتفاوت درجاتها في الناس وتتفاوت في أدوار الحياة للشخص الواحد باعتبار الاسباب الوراثية والآفات والعلل وما يكون من الإهمال والاستعمال كما تختلف قوة وضعفها في بعض أنواع المحفوظات دون بعضها على حسب ما ركب في الفطرة وما تمس اليه الحاجة فليس ما يحفظه الرياضي بالذي يستطيعه المحدث أو اللغوي ولا حفظ هذين كحفظ غيرهم من أهل الطبقات الأخرى وهلم جرا . وان نوادر الحفظ التي تروى عن العرب إنما جاءت عن أفراد رزقوا سمو هذه القوة الطبيعية وتفرغوا لها برهة العمر مما يشغل الذراع ويملك الطاقة ويقسم القلب ويشعث الفكر فلم يكن من العجيب ان يحفظوا ما حفظوه ولكن العجيب ان لا يكونوا قد حفظوا أكثر من ذلك . فأولئك قوم هياهم الله لما برعوا فيه بالاسباب الآخذة اليه والعلل المقصورة عليه فاجتمعت له أنفسهم وتوفرت قواهم وفرغت أذهانهم حتى لم يكن من هم أحدهم الا ان يرى نفسه شخصاً للعلم الذي هو بسبيله فيقال فلان صاحب الفن والفن هو فلان .

دع عنك ما كان على الناس من مؤنة الكتابة في القرن الاول وبعض الثاني اذا ابتغوا ان يتكلموا على الخطوط ويدونوا ما يقع اليهم من فنون العلم تدويناً يفنيهم عن الحفظ ويجزئ ما تجزئه المؤلفات المعدة للمراجعة والتصفح اذ كانوا انما يكتبون على الرقاع والخاف ( حجارة بيض رفاق عراض ) وعسب النخل والجلود والعظام ونحوها مما يأتي على ما فيه أيسر

أسباب التلف أيها كان . واستمروا يكتبون بعد الاسلام على الجلود والرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد وعلى الورق الصيني وغيره نادراً الى آخر عهد الأمويين فلما كان زمن السفاح أول الخلفاء العباسيين - توفي سنة ١٣٦ غير وزيره خالد بن برمك (توفي سنة ١٦٣) الدفاتر من الادراج (لغائف الجلد) الى الكتب ولكنها كانت كتباً من الجلد وبقيت كذلك حتى اتخذ الفضل بن يحيى البرمكي هذا الكاغد (الورق) وأشار بصناعته فشاعت الكتابة فيه مع الجلود والقراطيس وأصناف أخرى من الورق الصيني والتهمي والخراساني واتخذ الناس من ذلك الصحف والدفاتر ومن ثم تمت لهم أدوات التأليف ولكن بعد ان استبحرت فنون الرواية ودرج أهلها على الحفظ ورأوا فيه صلاح الامر وسداد الرأي وبلغوا منه كل مبلغ . وانما كانوا يكتبون قبل ذلك في الرق لكثرة الحفظ وقلة الرسائل السلطانية والصكوك فلما طما بحر التأليف والتدوين وكثر ترسيل الساطان وصكوكه ضاق الرق عن ذلك فلم يكن لهم بد من تلك الصناعة .

ويبتدىء تاريخ الحفاظ المعدودين في الاسلام بعبد الله بن عباس رضي الله عنهما فقد كان لا يدور في مسمعيه شيء الا وعاه وأثبتته وقد مر بك الخبر الذي رد فيه قصيدة ابن أبي ربيعة ولم يكن سمعها الا تلك المرة صفحاً فلا جرم ان كان صدره رضي الله عنه خزانة العرب اليه مرجعهم في التفسير والحديث والحلال والحرام والعريضة والشعر . ولو صحت نسبة ما رواه بعض الرواة عن الزهري عن عكرمة عن ابن عباس من انه قال انه يولد في كل سبعين

سنة من يحفظ كل شيء<sup>(١)</sup> لكان ابن عباس نفسه صاحب السبعين الاولى في الاسلام . اما ان كان الخبر من أكاذيب عكرمة فيكون قد وصف به أستاذه ابن عباس أصدق الوصف .

ثم كان بعد ابن عباس الشعبي من التابعين وكان يقول ما كتبت سواداً في يياض الى يومي هذا ولا حدثني أحد بحديث قط الا حفظته .

(١) يناقل العلماء أيضاً خبرين غير هذا وهما بسبيل منه في التقسيم أحدهما عن اصحاب الآلاف والآخر عن اصحاب المئات وذلك كله فيما نرى من موضوعات الصوفية يزعمون مرة انه من الجفر الجامع الذي حوى أخبار الدنيا ولا يطالع عليه الا أهل الكشف منهم — وللكلام على الجفر تاريخ لا يسمه المقام — ومرة يردون ذلك في الرواية الى ابن عباس نفسه لانهم وضعوا عليه أشياء كثيرة ونحوه أموراً من الغيبين الماضي الذي لم يدركه التاريخ والآتي الذي هو تاريخ في علم الله . اما خبر الآلاف فهو ما يزعمون من ان الله يبعث على رأس كل ألف سنة نبياً ويذكرون ان الدنيا أسبوع من أسابيع الآخرة ( وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ) فيكون عمر الدنيا سبعة آلاف سنة يبعث في الألف الاولى آدم وفي الثانية ادريس وفي الثالثة نوح وفي الرابعة ابراهيم وفي الخامسة موسى وفي السادسة عيسى وفي السابعة نبينا محمد صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين . وأما خبر المئات فهو الاخ الصغير لذلك الخبر قالوا ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الامة من يجدد لها دينها فكان على رأس الاولى عمر بن عبد العزيز وعلى الثانية الشافعي — وقيل المأمون العباسي — ولم تقف على مبعوثي المائتين الثالثة والرابعة . وقال الغزالي عن نفسه انه المبعوث على رأس الخامسة . وقالوا ان ابن العربي هو المبعوث على رأس السادسة وابن دقيق العيد في السابعة وعمر البلقيني في الثامنة وقال السيوطي عن نفسه انه صاحب التاسعة ثم لم يعد احد يقول والله أعلم

وفشا الحفظ في كثير من طبقة التابعين وانما نوهنا بالشعبي لانه اُحدهم في حفظ الادب كما انه اُوحدهم في حفظ الحديث وقد صار في التفنن مثلاً دائراً على اللسنة وكان يقول لست لشيء من العلوم أقل رواية من الشعر ولو شئت لأنشدت شهراً ثم لا أعيد بيتاً واحداً .

وما أظلمهم القرن الثاني حتى كثر الحفاظ واتسعوا في فنون المحفوظ وخاصة بعد ان نشأ الاسناد واشتغلوا بطرقه والاسناد انما يعتبر به اتصال السماع فهو راجع الى التلقي والتلقين ونحن نرى انه لولا حفظ الحديث ما اشتغلوا بالاسناد ولولا الاسناد ما ثبتوا على الحفظ وقد وجدنا في الرواية جميعاً وذهبا جميعاً .

وبعد فقد كان التدبير عند ما أجمعنا النية على كتابة هذا الفصل أن نفيض في ذكر الحفاظ جيلاً بعد جيل الى سقوط الرواية ثم نستقصي أسماء من اشتهروا منهم بعد ذلك الى هذه الغاية ممن وقفنا على أخبارهم في بطون الكتب ولكننا رأينا الشوط بطيئاً والمادة حافلة وفي دون ذلك بلاغ فاجتزأنا بالنصف والنوادر مما يتعلق بالادب دون الحديث<sup>(١)</sup> تفادياً

(١) لا كان الحديث مبنياً على الاسناد كان الحفظ فيه أثبت والحفاظ له أكثر فهناك حفظ الاسانيد والعمال وأسماء الرجال ووفياتهم وطبقاتهم ومتون الاحاديث والسنن ثم ما يتبع ذلك من جمل العلوم الاخرى التي لا بد للمحدث منها . وينبغي لمن يقرأ اخبار الحفاظ من أهل الحديث ان لا يبادر بالانكار ولا يحزم بالمبالغة في الاخبار فاذا رأى ان الامام احمد بن حنبل كان يحفظ ألف ألف حديث وأبا زرعة سبعمائة ألف حديث ( وأبو زرعة هو الذي سئل عن رجل حلف بالطلاق أن أبا زرعة يحفظ مائتي ألف حديث هل يحنث وتطلق امرأته قال لا . ) وان اسحق بن راهويه كان

من ان يعد ذلك منا إغراقاً في الحشد والاجتلاب ، وتوسعاً من الضيق في هذا الباب .

ذكروا عن حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ — وهو أول من خصص بلقب الراوية من الادباء — وكانت ملوك بني مروان تقدمه وتؤثره وتسني برّه ان الوليد بن يزيد قال له يوماً بما استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية قال باني أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ثم أروي لا أكثر منهم ممن تعترف بانك لا تعرفهم ولا سمعت بهم ثم لا ينشدني أحد شعراً لقديم أو محدث الا ميزت القديم منه من المحدث . قال ان هذا العلم وأبيك كثير فكم مقدار ما تحفظه من الشعر قال كثير ولكني أنشدك على أي حرف شئت من حروف المعجم مائة قصيدة سوى المقطعات من شعر الجاهلية . قال سأمتحنك وأمره الوليد بالانشاد فانشده حتى ضجر

يُملي سبعين ألف حديث من حفظه — اذا رأى ذلك وما اليه فلا يتوهم ان كل هذا من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يشك في صحته ويستريب بما رأى وانما يتبعه ما أضيف الى النبي صلى الله عليه وسلم فعلاً وتقريراً وصفة ويدخله شيء كثير من آثار الصحابة لان غرض الراوي بيان الشرع وقد نقل ابن حجر في طبقات الصحابة ان عدد الصحابة ممن رأى النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه وسمع منه ونقل عنه مائة ألف واربعة عشر ألفاً رضى الله عنهم فانظر ما يكون مبالغ ما يروى عن هؤلاء وذلك كله غير الموضوعات ولا بد منها للمحدثين ليصونوا بها الصحيح وليتكلموا في علمها وأسانيدها وهو شطر من علم الرواية . وعلى ان ابن حنبل يحفظ مليون حديث فانه لم يذكر في مسنده الا خمسين ألفاً وقيل انه يحفظ مائة وخمسين ألفاً بالاسانيد والمتون والباقي من اخبار الصحابة وغيرها



الوليد ثم وكل به من استخلفه ان يصدقه عنه ويستوفي عليه فأنشده ألفي قصيدة وتسعمائة قصيدة للجاهليين . وروي عن الطرمّاح الشاعر انه قال أنشدت حماداً الراوية في مسجد الكوفة وكان أذكي الناس وأحفظهم قولي بان الخليط بسُحرة فتبدّدوا

وهي ستون بيتاً فسكت ساعة ولا أدري ما يريد ثم أقبل عليّ فقال هذه لك قلت نعم قال ليس الامر كذلك ثم ردها عليّ كلها وزيادة عشرين بيتاً زادها في وقته فقلت له ويحك ان هذا شعر قلته منذ أيام ما اطلع عليه أحد فقال قد والله قلت هذا الشعر منذ عشرين سنة والا فعليّ وعليّ . فقلت لله عليّ حجة أحجها حافياً راجلاً ان جالسك بعدها أبداً .

وكان الاصمعي المتوفى سنة ٢١٥ آية في سرعة الحفظ والتعلق كان يحفظه ستة عشر ألف أرجوزة دون الشعر والأخبار وذكروا انه لما قدم الحسن بن سهل العراق قال أحب أن أجمع قوماً من أهل الأدب فاحضر أبا عبيدة والاصمعي ونصر بن علي الجهضمي وأبا بكر النجوي فابتدأ الحسن فنظر في رقاع بين يديه للناس في حاجاتهم فوقع عليها فكانت خمسين رقعة ثم أمر فدفعت الى الخازن ثم أقبل عليهم فقال قد فعلنا خيراً ونظرنا في بعض ما نرجو نفعه من أمور الناس والرعية فنأخذ الآن فيما نحتاج اليه فأفاضوا في ذكر الحفاظ فذكروا الزهري وقتادة ومروا فالتفت أبو عبيدة فقال ما الغرض أيها الأمير في ذكر من مضى وبالحضرة ههنا من يقول انه ماقرأ كتاباً قط فاحتاج ان يعود فيه ولا دخل قلبه شيء ، فخرج عنه فالتفت الاصمعي وقال انما يريدني بهذا القول أيها الأمير والامر في ذلك على ما حكى وأنا

أَقْرَبَ إِلَيْكَ<sup>(١)</sup> قد نظر الأمير فيما نظر من الرقاع وأنا أعيد ما فيها وما وقع به الأمير على رقعة رقعة قال فأمر وأحضرت الرقاع فقال الأصمعي سألت صاحب الرقعة الأولى كذا واسمه كذا فوقع له بكذا والرقعة الثانية والثالثة حتى مر في ثيِّف وأربعين رقعة فالتفت إليه نصر بن علي فقال أيها الرجل أبق على نفسك من العين فكفت الأصمعي .

وكان أبو محمَّد الشيباني المتوفى سنة ٢٤٨ لا ينسى شيئاً حتى قيل فيه أنه صاحب السبعين لمعهده ولما قدم مكة لزم ابن عيينة فلم يكن يفارق مجلسه فحدث أنه قال له يوماً يافتي أراك حسن الملازمة والاستماع ولا أراك تُحْظِي من ذاك بشيء ( قال أبو محمَّد ) قلت وكيف قال لاني لأراك تكتب شيئاً مما يمر قلت اني أحفظه قال كل ما حدثت به حفظته قلت نعم فأخذ دفتر انسان بين يديه وقال أعد علي ما حدثت به اليوم فأعدته فما خرمت حرفاً فأخذ مجلساً آخر من مجالسه فأمر رثته عليه — فأورد حديث السبعين عن ابن عباس — وضرب بيده على جنبي وقال أراك صاحب السبعين وسأل الواثق يوماً أبا محمَّد هذا عن شاهد من الشعر فيه ذكر المَرت (وهو القفر الذي لا نبت فيه) فأفكر طويلاً حتى أنشد بعض الحاضرين بيتاً لبعض بني أسد . فضحك أبو محمَّد ثم قال للذي أنشده ربما بعد الشيء عن الانسان وهو أقرب إليه مما في كفه والله لا تبرح حتى أنشدك فأنشده للعرب مائة بيت معروف لشاعر معروف في كل بيت منها ذكر المَرت .

(١) كان الأصمعي كثير الذهاب بنفسه يخبر عنها بالثناء كما يخبر الانسان عن حقيقة وانما جاءه ذلك من طول صحبته للخلفاء والامراء .

وكان بندار بن عبد الحميد ( وهو معاصر لابي محلم ) لا يشذُّ عن حفظه من شعر الجاهلية والاسلام الا القليل ذكروا انه يحفظ سبعمائة قصيدة أول كل قصيدة منها بابت سعاد<sup>(١)</sup>

وكان ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ أحفظ الناس وأوسعهم علماً تقرأ عليه دواوين العرب كلها أو أكثرها فيسابق الى اتمامها من حفظه وقد تصدر في العلم ستين سنة .

وابو بكر بن الانباري المتوفى سنة ٣٢٧ فقد كان يحفظ ثلاثمائة الف بيت من الشعر شاهداً في القرآن وكان لا يملئ الا من حفظه ومرض يوماً فعاده أصحابه فرأوا من انزعاج والده أمراً عظيماً فطیبوا نفسه فقال كيف لا أنزعج وهو يحفظ جميع ما ترون وأشار الى خزانة مملوءة كتباً<sup>(٢)</sup> . وأعجب ما عرف من أمره ان جارية للراضي بالله سألته يوماً عن شيء في

(١) أشهر القصائد بهذا الابتداء قصيدة كعب بن زهير المشهورة التي يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم ومطلعها :

بانت سعاد فقابي اليوم متبول

ومن أجلها عرفت تلك القصائد بهذا الابتداء ، ومما ينظر الى هذا الخبر مارواه الاصمعي : قال جاء فتبان الى أبي ضمضم بعد العشاء فقال ما جاء بكم يا خبثاء قالوا جيشاك نتحدث قال كذبتكم بل قلتم كبر الشيخ وتبلغته السن عسى ان نأخذ عليه سقطه فأنشدهم لمائة شاعر كلهم اسمه عمرو . قال الاصمعي فعددت وخلف الاحمر فلم تقدر على أكثر من ثلاثين

(٢) قدر ابن الانباري نفسه ما يحفظه من الكتب بثلاثة عشر صندوقاً

تعبير الرؤيا فقال أنا حاضن ثم مضى من يومه حفظ كتاب الكرمانى وجاء من الغد وقد صار معبراً للرؤيا .

وللمتأخرين من بعد القرن الخامس ولوع بحفظ الكتب لان الحفظ خلف الرواية من ذلك العهد فقامت الكتب مقام الرواة أنفسهم ومن أعجب ما يروى من ذلك ان الملك عيسى بن الملك العادل الايوبى سلطان الشام المتوفى سنة ٦٠٤ أمر الفقهاء ان يجردوا له مذهب أبى حنيفة دون صاحبيه (محمد وأبى يوسف) <sup>(١)</sup> فجردوه في عشرة مجلدات وسموه التذكرة فكان يديم قراءته ولا يفارقه حتى حفظه وذكروا انه كتب على كل جلد منه (حفظه عيسى) . وهذا الملك هو الذي شرط لكل من يحفظ المفصل

(١) في تاريخ الاسلام نظائر كثيرة لمثل هذا الخبر وكأها قد وثقه العلماء فالشافعي رضي الله عنه أخذ من أبى يوسف ليلة كتاباً كبيراً لأبى حنيفة فما أصبح حتى أتى عليه حفظاً وأبو الطيب المتنبى حفظ وهو غلام كتاباً للأصمعي نحو ثلاثين ورقة أخذه لينظر فيه من يد رجل يريد بيعه في الوراقين والرجل واقف ينتظر فام يكن الا مقدار ما قرأه حتى وعاه حفظاً .

وكان أبو العباس ثعلب امام الكوفيين المتوفى سنة ٢٩١ يحفظ كتب الفراء كلها لا يشذ منها عن حفظه حرف . والفراء أملى هذه الكتب كلها من حفظه الا بعض أوراق استعان فيها بالمراجعة وكانت مقدار ثلاثة آلاف ورقة

وكان ابن عبدون لوزير الاندلسي يحفظ كتاب الاغانى بحروفه ، ان يخطئ منه واواً ولا فاءاً وفي ذلك خبر عجيب رواه المراكشي صاحب (المعجب)

وكان أبو الحسن الرويانى الفقيه المتوفى سنة ٥٠٢ يقول لو احترقت كتب الشافعي لأملئها من خاطري ، وأمثلة ذلك كثيرة

للزحشري مائة دينار وخلمة فحفظه لهذا السبب جماعة . وكان علماء الاندلس يتهافتون على حفظ الكتب وخاصة كتاب سيبويه في النحو واخبارهم في ذلك مستفيضة .

بيد ان من أعجب ماوقفنا عليه من تاريخ الحفظ في المتأخرين وفي البلاد التي يكون أهلها بالفطرة أبعد عن العربية وآدابها ما ذكره صاحب (الشقائق النعمانية) من انه كانت في بلاد قرمان — لعلمها القريم — مدرسة مشهورة بمدرسة السلسلة شرط بانها ان لا يدرس فيها الا من حفظ كتاب الصحاح للجوهري وذلك في أواخر القرن الثامن وهي مدرسة نشأ منها علماء على مذاهب من التحقيق ويظهر انه كان لعلماء الروم عناية بالصحاح فقد أورد صاحب الشقائق في موضع آخر في ترجمة المولى المشهور بالمليجي — في النصف الاخير من القرن التاسع — انه كان يحفظ الصحاح وكان يرجع اليه اذا أشكلت كلمة منه فيقرأ مايتعلق بتلك الكلمة من حفظه .

على ان خاتمة حفاظ اللغة في المتأخرين بلا نزاع انما هو الشيخ مجد الدين الفيروزابادي صاحب القاموس المتوفى سنة ٨١٧ فقد كان سريع الحفظ آية في الذكاء وكان يقول لا أنام الا بعد ان أحفظ مائتي سطر وكانت ولادته سنة ٧٢٩ فلو قضى قريباً من نصف هذا العمر لا يحفظ كل يوم الا ما شرط على نفسه على ان يهمل أياماً كثيرة لكان مبلغ حفظه مائة ألف ورقة أقل ذلك<sup>(١)</sup> وعلى ان هذا المحفوظ مما يختاره من عيون اللغات والآداب

---

(١) قدّر ابن النديم في الفهرست ما ذكره من المؤلفات بعدد الاوراق ويريد بها الورقات السلمانية ومقدار ما في الصفحة (الوجه الواحد) منها عشرون سطراً .

والفنون دون المؤلف من ذلك كله وما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده .

وتقف عند هذا الحد مكتفين بما تقدم وان كان غيضاً من فيض فان الاستقصاء يمد في كل صفحة من هذا الفصل باباً ، ويجعل من الفصل كله كتاباً . بيد أنه لا يفوتنا ان ننبه في هذا الموضع على أصل من أصول التاريخ العالمي في الاسلام . وذلك ان كثرة المؤلفات العربية على امتداد النفس في اكثرها وتوفير أوراقها وتعدد أجزائها وامتلاء مادتها واستغراق أبوابها وعلى ما فيها من سمو العبارة ومتانة التركيب وبلاغة الاداء وحلاوة الكفاية واتساق القول واطراد ينبوعه كل ذلك انما جاءهم من الحفظ وهو نتيجة الرواية فترى الواحد منهم يملئ المجالس الحفيلة بأنواع الآداب من حفظه ثم يكتبه السامعون فتخرج منه الاجزاء الكثيرة الممتعة واذا ألف استملى من حافظته فأمدته وسالت على قلمه فهو يجمع ويرتب ويستخرج من فكره وليس أسرع من حركة الفكر . وهذه السرعة هي التي تخرج لهم ما تخرجه من آثار الصناعة المتقنة على ما فيها من الجمال والكمال فهم يستعينون في أعمالهم بالادوات العقلية الحية التي تشبه الآلات الكهربائية في معجزات الصناعة الحديثة . ولا سواء من يكون كذلك ومن لزمه من أيسر مؤنة العمل كد الفكر واستحثات الخاطر وكثرة الاطراق

وقدر كتاب الاغاني المطبوع في واحد وعشرين جزءاً بخمسة آلاف ورقة من ذلك الفرار . وقد جربنا على هذا التقدير فيكون اقل ما يحفظه صاحب القاموس عشرين كتاباً في حجم الاغاني وذلك لا يبلغ ثلث حفظ ابن الانباري

وتقطع الوقت في البحث والتفتيش ثم يخرج من ذلك على حشرات يرسلها وراءه مائداً عنه مما لم تصل يده اليه في الاصول والامهات من كتب القوم وبعد هذا كله لا يكاد يجد في مدته ما ينفقه على وجوه الاتقان الصناعي في عمله ان خرج قصداً أو مقارباً

فلا سبيل الى احياء العربية وآدابها الا باحياء سنة الحفظ والرجوع الى طريقة الرواة في التعليم وهي الطريقة الجامعة ( الانسكلوبيدية ) التي زها بها العلم في أوربا وأمريكا . وكل سبب يغني شأنه ان أريد به الغناء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .



## علم الرواية

ذلك بدء الرواية وسببها ومعناها وخطرها اما اعتبارها على انها علم بأصول قد أفردوه بالتدوين فلم يكن الا في الحديث خاصة وكانوا يسمونه قديماً علم أصول الحديث وسماء المتأخرون مصطلح الحديث<sup>(١)</sup> وكانت أصوله مقررة في منتصف القرن الثاني كما علمت مما أوردناه عن رواية الامام مالك بن أنس رضي الله عنه ولكنهم اكتفوا من ذلك بالاصطلاح ومعنى العرف لان من العرف ما يكون علماً . وأول من قرر شروط الرواية ابن شهاب الزهري الذي جمع الحديث بأمر عمر بن عبد العزيز كما مر ثم كان أول من تكلم في الرواة جرحاً وتعديلاً شعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ وذلك بعد ان دوّنوا الحديث والتزموا فيه الإسناد وكان شعبة هذا يرى انه في الشعر أسلم منه في الحديث حتى قال لاصحابه « لو أردت الله ماخرجت اليكم ولو أردتم الله مااجتمعتوني ولكننا نحب المدح ونكره الذم » فمن ثم تنبه الى اسباب الجرح والتعديل في الرواة على ما نظن وكثيراً ما تجود عيوب النوابع بالقواعد التي تعد من محاسن العلوم . ثم كان أول من صنف في هذا العلم القاضي أبو محمد الرامهرمزي المتوفى سنة ٣٦٠ وضع

---

(١) أخذوا التسمية الاولى من أصول الفقه وهو العلم الذي استنبطه امام الدنيا محمد بن ادريس الشافعي رحمه الله ( ١٥٠ - ٢٠٤ ) اما الثانية فقد اخذها المتأخرون عن الكتاب لانهم كانوا يطاقون منذ القرن الثامن لفظ المصطلح على ما اصطالحوا عليه من آداب الكتابة الدبوانية وآلاتها



فيه كتاب « الفاصل بين الراوي والواعي » واستوعب فيه اكثر ما يتعلق بعلوم الحديث قال ابن حجر وهذا في غالب الظن وان كان يوجد قبله مصنفات مفردة في اشياء من فنونه . ولعله يشير بهذه الاشياء الى ما كتب عن الزهري وشعبة ثم الى مصنف الامام مسلم صاحب الصحيح المتوفى سنة ٢٦١ في علل الحديث ونحو ذلك مما ذهب علمه عن المتأخرين

وجاء الحاكم ابو عبد الله النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٥ فتصدى للتأليف في معرفة علوم الحديث وتناول روايته ورواته وابدع في ذلك ماشاء الله واحتذى مثاله افراد ممن جاؤا بعده ولكنهم لم يتدعوا شيئاً جديداً .

اما في الأدب فلم تكن الرواية علماً متميزاً وانما كانوا يجرون عليه ما يناسبه من علوم الحديث وتكلموا في ذلك واكثر ماورد منه مدوناً كان في كتب اصول النحو التي دوت في القرن الرابع وما بعده ككتاب الخصائص لابن جني المتوفى سنة ٣٩٢ ولمع الادلة لكمال الدين بن الانباري المتوفى سنة ٥٧٧ وهو اجمع الكتب في ذلك ثم كتاب اللمع الجلالية في كيفية التحدث في علم العربية لعثمان بن محمد المالقي المتوفى سنة ٦٣٥ وغيرها الى ان جاء العلامة جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ فحاكى علوم الحديث في التقاسيم والانواع ووضع في ذلك كتابه المزهري في علوم اللغة وهو متداول مشهور .

ولما اوجبوا الإسناد قديماً في نقل اللغة لوجوبه في الحديث اذ بها معرفة تفسيره وتأويله وكانت اللغة قائمة بالشعر والخبر وهما يرويان عن

الرجال والصبيان والعبيد والاماء من العرب كان لابد من ان يتناولوا مصطلحات الحديث فاشترطوا في نقل اللغة العدالة بحسب ما يناسب اللغة ولذا قبلوا نقل أهل الاهواء والمبتدعين ممن لا تكون بدعتهم حاملة لهم على الكذب ورفضوا المجهول الذي لم يعرف ناقله كما رفضوا الاحتجاج بشعر لا يعرف قائله خوفاً من ان يكون مؤلفاً فتدخل به الصنعة على اللغة واعتبروا من اللغة متواتراً وآحاداً ومرسلاً ومنقطعاً وأفراداً ونحو ذلك مما يؤب عليه السيوطي في المزهري ولا بد لفهمه من الرجوع الى ما اصطلح عليه أهل الحديث ونحن نورد بعض ذلك عنهم بما قلّ ودلّ مكتفين بما يجري على اللغة مما جرى على الحديث .

### تقاسيم الرواية

- ١ : فيها (المتواتر) وهو الذي يرويه عدد من الناس تُحيل العادة نواظهم على الكذب
- ٢ (والمُسْنَد) وهو ما اتصل سنده من رواته الى منتهاه اما ما انقطع سنده فهو (المرسل)
- ٣ (والمُنْقَطِع) ما سقط من رواته واحد
- ٤ (والمُعْضِل) ما سقط من رواته اكثر من الواحد
- ٥ (والمُعْنَن) الذي قيل فيه عن فلان عن فلان من غير لفظ صريح بالسماع أو التحديث أو الاخبار
- ٦ (والمَوْثَن) قول الراوي حدثنا فلان ان فلاناً قال . وبشروط فيه وفيما

- قبله ان يكون المسند اليهم قد لقي بعضهم بعضاً مع السلامة من التدليس
- ٧ (والغريب) ما انفرد احد الرواة بروايته وينقسم باعتبار حالة راويه الى غريب صحيح وضعيف وحسن. وتسمى الكلمات التي ينفرد بها الراوية بالافراد والآحاد
- ٨ (والمعلل) وهو ما كان ظاهره السلامة لجمعه شروط الصحة لكن فيه علة خفية غامضة تظهر لاهل النقد عند التجريح
- ٩ (والشاذ) ما خالف الراوى الثقة فيه جماعة الثقات
- ١٠ (والمنكر) الذي لا يعرف من غير جهة راويه فلا متابع له ولا شاهد
- ١١ (والموضوع) ما كان كذباً واختلاقاً وهو المصنوع ايضاً وسنفرد للكلام عليه فصلاً يأتي ان شاء الله

### وظائف الحفاظ في اللغة

وقد أخذ اهل اللغة في هذه الوظائف اخذ المحدثين واتبعوا سننهم فيها لتعلق ما كان في اللغة بما كان في الحديث كما علمت ولأن هذه العلوم كانت سواءً في طلبها لقوام الدين والتماسها لفضل الاستبانة.

وتلك الوظائف أربعة كلها ترجع الى بث العلم ونشره وهي :

(١) الإيملاء وهذه هي الوظيفة العليا عند المحدثين واللغويين وطريقتها واحدة عند الطائفتين يكتب المستملي أول القائمة مجلس املاء شيخنا فلان بجامع كذا<sup>(١)</sup> في يوم كذا ويذكر التاريخ ثم يورد المعلي باسنادة كلاماً

---

(١) كان العلم كله مسجدياً وأول من بنى المدارس في الاسلام نظام الملك وقد اشرنا الى ذلك في الفصل الاول من الكتاب ثم بنيت دور خاصة بعلم الحديث

عن العرب الفصحاء فيه غريب يحتاج الى التفسير ثم يفسره ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيد ومن الفوائد اللغوية بأسناد وغير اسناد ما يختاره . وقد كان هذا في الصدر الاول فاشياً كثيراً لتحقيق معنى الرواية به ثم مات الحفاظ وانقطعت الاسانيد وبطت أسباب الرواية واعتمد الناس على الدواوين والكتب المصنفة فانقطع املاء اللغة واستمر املاء الحديث لوجود الاسناد فيه وتحقيق السماع . قال السيوطي ولما شرعت في املاء الحديث سنة ٨٧٢ وجدته بعد انقطاعه عشرين سنة من سنة مات الحفاظ أبو الفضل بن حجر<sup>(١)</sup> أردت ان أجدد املاء اللغة وأحييه بعد دثوره فأملت

واول من بناها نور الدين صاحب دمشق المتوفى سنة ٥٦٩ وقد بنى غيرها مدارس كثيرة لاهل المذاهب ثم هذا حذوه السلطان الصالح بمصر فهو اول من بنى دار الحديث فيها

(١) ابن حجر هو امام الحفاظ في زمنه انتهت اليه الرحلة والرياسة في الحديث فلم يكن في الدنيا بأمرها من يذكر معه في ذلك وتوفي سنة ٨٥٢ وأملى أكثر من ألف مجلس . وكانت سنة الاملاء في الحديث قد دثرت قبله أيضاً فأحيها حافظ عصره الامام زين الدين العراقي المتوفى سنة ٨٠٦ وقد ابتداء الاملاء من سنة ٧٩٦ وهو أحد الخمسة الرؤساء الذين انفردوا في العالم العربي على رأس المئة الثامنة وهم : العراقي هذا بالحديث والشيخ سراج الدين البلقيني بفقته الشافعي وشمس الدين الغماري بالنحو والاطلاع على العلوم ومحمد الدين صاحب القاموس باللغة وسراج الدين بن الملقن بكثرة التصانيف والفتة في الحديث .

وكان آخر من مات من هؤلاء الرؤساء صاحب القاموس فانه توفي سنة ٨١٧ ولم نعلم أحداً جدد املاء الحديث بمصر بعد السيوطي على سنة المتقدمين غير

مجلساً واحداً فلم أجده حملاً ولا من يرغب فيه فتركته . قال وآخر من علمته أملى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجي له أمال كثيرة في مجلد ضخم وكانت وفاته سنة ٣٣٩ ولم أقف على أمال لاحد بعده . اهـ

هكذا قال في المزهرة وهو بعيد لان مجالس الإملاء بقيت أهلة الى منتصف القرن الخامس وقد أملى كثيرون بعد الزجاجي وأورد السيوطي نفسه في (بغية الوعاة) في ترجمة الاديب محمد بن أبي الفرج الصقلي المعروف بالذكي (٤٢٧ - ٥١٦) وكان قياً باللغة وفنون الادب . قال انه ورد الى بغداد وخراسان وجال في تلك البلاد حتى وصل الى الهند .. وحضر مرة (مجلس املاء) محمد بن منصور السمعاني فأملى المجلس فأخذ عليه الذكي أشياء وقال ليس كما تقول بل هو كذا فقال السمعاني اكتبوا كما قال فهو أعرف به فغفروا تلك الكلمة وكتبوا كما قال الذكي . فبعد ساعة قال ياسيدي أنا سهوت والصواب ما أمليت فقال غيروه واجعلوه كما كان فلما فرغ من الإملاء وقام الذكي قال السمعاني ظن المغربي أنني أنازعه في الكلام حتى يبسط لسانه في كما بسطه في غيري فسكت حتى عرف الحق ورجع اليه ولكن يمكن ان يقال ان خاتمة أهل الإملاء على طريقة المتقدمين هو امام العربية في عصره أبو السعادات بن الشجري المتوفى سنة ٥٤٢ وله كتاب الامالي في فنون الادب يقع في أربعة وثمانين مجلداً .

الزبيدي شارح القاموس المتوفى بمصر سنة ١٢٠٥ ، اما املاء اللغة فلم يبق له وجه بعد ان وضعت فيها المعاجم الواسعة ولذا لم يشرع فيه احد ولا يمكن ان يسمى مايزاول من مثل ذلك املاءً بعد انقطاع الاسانيد والله أعلم

(٢) الافتاء في اللغة أي الاجابة عما يسأل عنه اللغوي وهي وظيفة أدبية لا مجال فيها للتاريخ وإنما ألبسوها هذا التعبير لأنها تناظر وظيفة من وظائف المحدثين والفقهاء . ومن أدب المفتي في اللغة ان يقصد التحري والإبانة والافادة والوقوف عند ما يعلم والإقرار بما لا يعلم وان لا يحبس برأيه من غير سماع وان يصير في الشيء الذي لا يعرفه الى من يعرفه غير مستنكف وان لا يصّر على غلطه اذا أخطأ في شيء ثم بان له الصواب من بعد فان الرجوع عن الخطأ خروج الى الصواب وقد وصفوا الذي يصّر على خطائه ولا يرجع عنه بأنه ( كذاب ملعون ) . ومتى سئل عن شيء من الدقائق التي مات أكثر أهلها فلا بأس ان يسكت عن الجواب اعزازاً للعلم وازهاراً للفضيلة . قالوا واذا فسر غريباً وقع في القرآن أو في الحديث فليثبت كل الثبوت وليستقص كل الاستقصاء فانما هو علم لا يراد للمناقشة والشهوة ولا يبتغى به عرض الدنيا . وليس يخفى ان تلك الآداب هي جملة الاخلاق العامة وجماع الفضائل الادبية ولا تكون الا في العالم الذي يطلب علمه لفضيلته وكرمه وقد أخذ بها أفاضل المحدثين وأمائل الرواة وبها منحّص هذا العلم العربي ونما وطرح الله في السنة أهله البركة وله سبحانه الحمد والمنة

( ٣ و ٤ ) الرواية والتعليم والمراد بهما ان يتعلم ويعلم فيخلص النية في طلب العلم والتماسه ولا يبتغي من تعليمه المنالة والكسب وإنما يقصد الى نشره وحياته فيلزم جانب الصدق ولا يفتأ يتحرى لنفسه وينصح لغيره واذا كبر ونسي ولم يجد له عزماً وخاف التخليط أمسك عن الرواية

ليتحقق إخلاصه<sup>(١)</sup> وقد تقلوا ان الرياشي رأى أبا زيد الانصاري وقد قارب من سنّه المئة فاختلف حفظه وان لم يخل عقله فأراد ان يقرأ عليه كتابه في الشجر والكلاء فقال له أبو زيد لا تقرأه عليّ فاني أنسيته .

تلك وظائف الحفاظ وهي متداخلة ترجع الى معنى واحد غير ان بينها فروقاً في آداب الرواية وأدناها كلها عندهم التعليم لتعلق الحفاظ عليه ولا بتغائهم به الوسيلة الى الرزق في الاعمّ الاغلب وذلك مالا ينبغي ان يتواضع له شرف العلم الالهي . بيد ان كل مامراً انما ينزل على حكم العرف ويعتبر بالسنة المألوفة فالتعليم اليوم اذا كان على حقه كما نراه في أوروبا وأمريكا وفي تلك الوظائف كلها في معنى الفائدة

### طرق الاخذ والتحمل

والمراد بهذه الطرق الاصطلاحات التي تثبت بها اللغة لمن يأخذها وتصح روايته عند الأداء وهي أيضاً من أوضاع المحدثين ولهم فيها كلام مستفيض وعندهم

(١) هذا اذا نسي الراوية اكثر علمه اما ان نسي خبراً أو بعض اخبار فلا . ومن أرقى آداب الرواية ان الحافظ ربما نسي الخبر فيذكره به احد من رواه عنه من تلامذته أو غيرهم فاذا صحّ عنده وعرف ان هذا الخبر من روايته رواه ثانية ولكن لاعتن شيخه بل عن ذكره به وان كان تلميذه اقراراً بالحق وقياماً بما اصطالحوا عليه مما سموه شكر العلم فيقول الشيخ عند رواية ذلك الخبر حدثني فلان ( يعني تلميذه ) عني وحدثني فلان ( يعني شيخه الذي روى عنه في الاصل ) الى آخر السند ، وذلك شرط عند أهل الحديث وقد صنفوا كتباً <sup>فيه</sup> سموها ( رواية الاكابر عن الاصاغر )

لها علامات خاصة بالاسانيد والصيغ لم تجر على اللغة ولا محل لبسط الكلام عليها .

وطرق الاخذ في اللغة ست نذكرها توفية للفائدة ولتبيين بها القارىء مواقع الاخبار من درجات الرواية فيما يقرؤه منشوراً في كتب الأدب ثم ليعلم ما كان يرمي اليه العلماء بهذه الاصطلاحات التي يراها متشابهة في الدلالة وبينها عندهم اختلاف . وهي :

(١) السماع من لفظ الشيخ أو العربي وللمتحمل بهذه الطريقة عند الاداء صيغ تتفاوت بحسب منزلة الرواية فأعلاها ان يقول أُملى عليّ فلان ويليها سمعت فلاناً . ويلي ذلك ان يقول حدثني أو حدثنا فلان . ثم أخبرني أو أخبرنا فلان . ثم قال لي فلان . ثم قال فلان ( بدون الاضافة الى نفسه ) ومثله زعم فلان . ويلي ذلك قول الراوي عن فلان . ومثلها ان فلاناً قال . وهذا في اللغة والخبر أما في الشعر فيقال أنشدني وأنشدنا وقد تستعمل فيه بعض تلك الاصطلاحات أيضاً .

والسماع أصل الرواية ولكن علماء البصرة كانوا يأنفون ان يأخذوا عن علماء الكوفة أو يسمعوهم من اعرابهم<sup>(١)</sup> قالوا وأول من أحدث السماع بالبصرة خلف الاحمر وذلك انه جاء الى حماد الراوية (وهو كوفي) فسمع منه وكان ضنيناً بأدبه .

(٢) القراءة على الشيخ ويقول عند الرواية قرأت على فلان

(٣) السماع على الشيخ بقراءة غيره ويقول عند الرواية قرأ عليّ

---

(١) منفصل هذا المعنى بعد فان له موضعاً



فلان وأنا أسمع . أو أخبرني قراءة عليه وأنا أسمع .

(٤) الإجازة وهي في رواية الكتب والاشعار المدونة وقد أشرنا الى أصلها في الكلام على معنى الصحفي وتكون الاجازة بكتاب معين وتكون بغير معين كقول الشيخ أجزتك بجميع مسموعاتي ومروياتي وعند المحدثين أنواع من الاجازة يطلبونها ولا يعملون بها كاجازة الراوي من يولد له أو اجازته بما لم يتحمله بوجه صحيح في الرواية كالسماع ونحوه .

ولما بطلت الرواية صارت النسبة الى الشيوخ محصورة في الاجازة فهاقت الناس عليها وصار الامراء يطلبونها للمباهاة وكبار العلماء في الاقطار المتباعدة يقارض بها بعضهم بعضاً وتفنن العلماء في كتابتها وتجويد انشائها وقد بقي العمل بها في كتب الحديث والعريية الى قريب من هذه الغاية حين قامت مقامها «الشهادات»

ومن أراد ان يقف على صورة من أحسن ما كتب فيها فليقرأ اجازة حافظ عصره الامام أثير الدين بن حيان الاندلسي المتوفى سنة ٧٤٥هـ للصالح الصفدي الاديب البارع وقد ساقها برمتها صاحب (نفح الطيب) في الجزء الاول من كتابه في ترجمة أثير الدين الموما اليه .

(٥) المكاتبه وذلك ان يكتب الراوية الثقة الى غيره أياتاً أو خبراً فيروي ذلك عنه .

(٦) الوجادة وهي ان يسوق ما يرويه على انه وجدته في كتاب .

وهذا هو أضعف وجوه الاخذ لانه لا ضمان فيه لمهدة المروي وانما اضطروا اليه حين كثرت الكتب .

هذه هي طرق الرواية وكان الرواة الى آخر القرن الرابع يبالغون في بيانها ويقرنون كل خبر بطريقته انتفاءً من الظنة وقياماً بحقوق العلم وحياسة لهذا الأدب الذي اصطالحوا عليه . ثم ضعف الامر في القرن الخامس ثم صار العلم كله (وجادةً) وعاد أول هذا الامر آخره



## رواية اللغة

كانت هذه اللغة سليمة من الفساد خالصة من الشوب والاسلام لا يزال في ريعانه واندفاع موجته والعرب في أمر الأدب على إرث من جاهليتهم يأخذون في سمتها ويتجاذبون على منهاجها فيسمرّون بالاخبار ويتحملون بالاشعار لا يرون الا ان ذلك علم آبائهم وإرث أبنائهم حتى بدأت اللغة تلتوي بعد سلاستها وتمرض بعد سلامتها ونزلت من بعض الألسنة في موضع تقار ومزّمت شراد فطار اللحن في جنباتها وخيفت عليها عاقبة الاختبال وما يتوقع في تداول النقص من هذا الوبال فتقدم الكفاة من أهل عصمتها ينهجون اليها السبيل وقيمون عليها الدليل وكان من ذلك وضع النحو كما فصلناه في موضعه .

ومنذ وضع النحو اكتسب هذا الكلام العربي أول معنى لغوي اصطلاحى لان اللغة ما دامت في حياطة من السليقة والى ملجأ من الفطرة لا يكون من وجه للنظر فيها على انها علم يفيد الدرس ويثبت التلقى ولا سواء في الاعتبار العلمى ما تنشأ على معرفته صحيحاً وما تعرف صحته وخلوصه بعد ان تنشأ وتتحرى ذلك وتأخذ في أسبابه بالتلقين والتخريج

### تاريخ لفظى ( اللغة واللغوى )

وقد تتبعنا الاطوار التي تعاقبت على هذا اللسان حتى أطلق عليه المعنى العلمى الذي يفهمه المتأخرون عند اطلاق لفظة ( اللغة ) وصار يقال فيه وفي

العالم به ( اللغة واللغوي ) نستخرج تأريخ هذه الكلمة ( اللغة ) في دلالتها الاصطلاحية فرأينا ان بداءة هذا التاريخ كانت لعهد النبي صلى الله عليه وسلم حين جاءته وفود العرب فكان يخاطبهم جميعاً على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم وعلى ما في لغاتهم من اختلاف الالوضاع وتفاوت الدلالات في المعاني اللغوية على حين أن أصحابه رضوان الله عليهم ومن يفد عليه من وفود العرب الذين لا يُوجّه اليهم الخطاب كانوا يجهلون من ذلك أشياء كثيرة حتى قال له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وسمعه يخاطب وفد بني نهد « يارسول الله نحو بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره » فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوضح لهم ما يسألونه عنه مما يجهلون معناه من تلك الكلمات ولكنهم كانوا يرون هذا الاختلاف فطرياً في العرب فلم يلتفتوا اليه . فلما تكلموا في تفسير القرآن وغريب الحديث وكانوا يلتمسون لذلك مصداقاً من أشعار العرب وضح هذا المعنى اللغوي ولكنهم لم يصطلحوا على تسميته اذ كانت السلائق لا تزال متسائدة واكثر ما كان هذا المعنى وضوحاً في زمن ابن عباس رضي الله عنهما فهو الذي سنّ ذلك للمفسرين وقال ان الشعر ديوان العرب فاذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله ( بلغة العرب ) رجعنا الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه . وقد سأله نافع بن الازرق وصاحبه نجدة بن عويمر مسائل كثيرة في التفسير وجعلنا الشرط عليه ان يأتي لكل كلمة بمصداقها من كلام العرب وهي أسئلة مشهورة أخرج الأئمة أفراداً منها بأسانيد مختلفة الى ابن عباس وساق السيوطي جميعها ( في الاتقان ) الا بضعة عشر سؤالاً . فكان

هذا الصنيع من ابن عباس داعياً الى اعتبار اللغة اعتباراً علمياً اذ نظر الى لغات العرب من وجه واحد واعتبرها مادة واحدة في الاستشهاد وسمى هذه المادة (لغة العرب)

ولما وضع أبو الاسود النحو وأطلق عليه لفظ (العريية) <sup>(١)</sup> وكان الناس يختلفون اليه يتعلمونه منه وهو يفرّع لهم ما كان أصله وشاع ذلك

(١) في وضع النحو أقوال كثيرة والثقات مجمعون على ان أبا الاسود أخذه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولكن العلماء جميعاً أغفلوا ذكر التاريخ الذي كان فيه ذلك الوضع ، وقد وقفنا على نص بلغت بنا الحيرة مبلغها عنده وذلك ما أورده ابن قتيبة في كتاب (المعارف) في ترجمة أبي مريم بن حبيش من التابعين (طبقة أبي الاسود) فانه قال فيه « كان أعرب الناس وكان عبدالله بن مسعود يسأله عن العربية وعاش ١٢٠ سنة » وعبد الله بن مسعود صحابي جليل توفي سنة ٣٢ عن بضع وستين سنة . ومقتضى هذه الرواية ان اللحن كان فاشياً لذلك العهد حتى صار الاعراب الجيد يبين أهله وان العربية (النحو) كانت مقررة يومئذ أي قبل سنة ٣٢ للهجرة ولكن يبقى من الاشكال قول ابن قتيبة ان ابن حبيش كان أعرب الناس وذلك في زمن كان فيه علي بن أبي طالب وابن عباس وأبو الاسود وغيرهم من الصحابة وسائر العرب وان ابن مسعود كان يرجع اليه دون أبي الاسود نفسه وذلك غريب ان لم يكن منكراً .

والذي عندنا ان في رواية ابن قتيبة تحريفاً وان الذي كان يرجع الى ابن حبيش هو عبيد الله بن مسعود أحد السبعة المدنين الذين أخذ عنهم الفقه وهو من أجلة التابعين كان مشهوراً بكثرة العلم وفنونه وتوفي سنة ١٠٢ وهو ولد ابن أخي عبد الله بن مسعود الصحابي وبذلك ينحل الاشكال والله أعلم . أما تاريخ وضع النحو فلا سبيل الى تحقيقه البتة .

وكان الغرض منه صيانة اللسان من الخطأ وتقويمه من الزيغ وردّ السليقة الى حدود الفطرة التي خرجت عنها — ظهر ذلك المعنى اللغوي في شكل اصطلاحي ولكن لم يتميز من اللغة بالتعريف الا العويص النافر منها الذي يعلو عن طبقة الحضريين ومن ضعفت ملكاتهم فكان هذا وأشباهه كأنه غريب عليهم خارج عما ألفه سوادهم من تصاريف القول بعد ان أطبق الناس على اللغة القرشية الفصحى ولذلك اصطلاح أهل العربية يومئذ على تسميته (بالغريب) وهو أول معاني الدلالة اللغوية .

وكان أبو الاسود قد روى الشعر وتبع كلام العرب واستقصى في ذلك وبالغ<sup>(١)</sup> ومع ذا فلم يسمّر علم هذا الكلام (باللغة) ولم يعرف في زمنه الا العربية للنحو والا الغريب (لمثل ما يسميه المتأخرون بالكلام اللغوي . . . . .) نقل الجاحظ في البيان أن غلاماً كان يقرّر في كلامه فأبى أبو الاسود يلمس بعض ما عنده فقال له أبو الاسود ما فعل أبوك قال أخذته الحمى فطبخته طبخاً وفنخته فنخاً وفضخته فضخاً فتركته فرخاً. قال فما فعلت امرأته التي كانت تُشاره وتُماره وتُهاره وتضارّه قال طلقها وتزوجت غيره فرضيت وحظيت وبظيت<sup>(٢)</sup> فقال أبو الاسود قد علمنا رضيت وحظيت فما بظيت قال بظيت حرف من (الغريب) لم يبلغك

---

(١) قال الجاحظ أبو الاسود الدؤلي معدود في طبقات من الناس وهو في كلها مقدم ومأثور عنه الفضل في جميعها . كان معدوداً في التابعين والفقهاء والشعراء والمحدثين والاشراف والفرسان والامراء والدهاة والنحويين والحاضري الجواب والشيعة والبخلاء والصلح الاشراف والبخر الاشراف .

(٢) في هذا الخبر رواية أخرى يسندونها الى الاصمعي قال فيها الغلام لأبي

فقال أبو الاسود يابني كل كلمة لا يعرفها عمك فاسترها كما تستر السنور خرها . . وأشهر من عُرف بالغريب يومئذ يحيى بن يعمر المدواني وهو آخر أصحاب أبي الاسود — كما سنبينه —

ثم لما اتسعت العربية وفشا اللحن وفسد الكلام وجعل الناس ينفونها عَوَجًا وذلك في أواخر القرن الثاني وخرج الرواة الى البادية ينقلون عن العرب ويتحققون معاني العربية وأبوابها تهيات أسباب المعنى اللغوي وصارت اللغة لغتين العربية والمولدة بل صارت العربية نفسها كأنها في الاعتبار العامي لغتان بما قام بين البصريين والكوفيين وتحقق كلتا الطائفتين بمذاهب متميزة فمن ثم وجد الناس السبيل الى تسمية ما يؤخذ عن العرب ( باللغة ) لأنها صارت من ( العهد الذهني ) بعد اشتغال العلماء بها وبعد تميزها عما انتهت اليه لغتهم المولدة . فلما وضع الخليل بن احمد ( كتاب العين ) الذي رتب فيه كلام العرب وضع به علم اللغة وتمت هذه الكلمة على الناس بما صنع .

يبد أن الرواة وهم القائمون بفضون اللغة لم يكن يطلق على أحد منهم لفظ ( اللغوي ) الا بعد ان ضعفت الرواية في أواخر القرن الثالث وذلك لان أحداً منهم لم يتخصص من الرواية بعلم الالفاظ دون سائر فنونها من

الاسود عن ( بظيت ) « انها حرف من العربية لم يبلغك » على اننا نوثق رواية الجاحظ لان لفظ ( العربية ) أطلقه أبو الاسود على النحو وعرف به النحو في عصره وبعد عصره أيضاً ولكن الرواة لم يكونوا يبالون بالفروق التاريخية بين الالفاظ وهذا بعض ما نعانیه من اهمالهم عفا الله عنهم وأثابهم بما أحسنوا

الخبر والشعر والعربية ونحوها ولم تقف على هذا اللقب ( اللغوي ) في كلام أحد من علماء القرون الثلاثة الاولى وقد كان يوجد في الرواة من تغلب عليه النوادر وهي أساس علم اللغة كأبي زيد الانصاري المتوفى سنة ٢١٦ وكان أحفظ الناس للغة وأوسمهم فيها رواية وأكثرهم أخذاً عن البادية ومع ذافلم يلقبوه باللغوي ووجد فيهم كذلك من انفرد بأولية التصنيف في بعض الانواع اللغوية المحضة كقطرب المتوفى سنة ٢٠٦ وهو أول من ألف المثلث من الكلام وكان يرمى بافتعال اللغة أيضاً - كما سيجيء - ولكن لم يلقبه أحد ( باللغوي ) . وعندنا ان هذا اللقب انما ظهر في القرن الرابع بعد ان استفاض التصنيف في اللغة وتميزت العلوم العربية واستعجمت الدولة فصار صاحب اللغة يعرف بها كما ينسب كل ذي علم الى علمه الغالب عليه وخلف ذلك اللقب لقب الراوية . وممن عرفوا به في القرن الرابع ابو الطيب اللغوي صاحب كتاب مراتب النحويين وابن دريد صاحب الجمهرة والازهري صاحب التهذيب والجوهري صاحب الصحاح وغيرهم ثم فشا بعد ذلك وأكثر أصحاب الطبقات من استعماله خطأ حتى وصفوا به صدور الرواة لانهم لا يرون فيه أكثر من المعنى العامي أما الالفاظ بفروقها فهي الفاظ الناس جميعاً فلا تاريخ لها الا التاريخ كله والله أعلم

### الافئذ عن العرب

كان علم العرب في الجاهلية وصدر الاسلام مما يعرف به النسابون وأهل الاخبار وقد أشرنا الى ذلك في بعض ما مر فلما رجموا الى الشعر



والتمسوه للشاهد والمثل كان ذلك بدء تاريخ الاخذ عن العرب للقصد العلمي الذي نحن في سبيل الكتابة عنه بيد أن اللسان يومئذ كان لا يزال أقرب الى عهده من الفطرة فلم يأخذوا عن العرب شيئاً يسمونه اللغة اذ كانت هذه التسمية لم تجتمع بعد أسبابها كما عرفت فكان علم العرب مقصوراً على النسب والخبر والشعر وأكثر من يقوم عليها النسابون والخطباء وبعض رواة الحديث فلما اشتهر علم العربية بعد أبي الاسود وكان الفاعلون به ولده عطاءً وعنبسة الفيل وميموناً الأقرن ونصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمن ويحيى بن يعمر المدواني وهو آخرهم وأفصحهم وأعربهم توفي سنة ١٢٩ بعد ان بعج العربية وقلق بها تقليقاً - مست الحاجة في عصر تلك الطبقة الى تتبع اللغات والسماع من العرب وخاصة بعد ان قامت المناظرات بين اهل الطبقة التي أخذت عن هؤلاء حين ابتدأوا يجرّدون القياس ويعلمون النحو ويعتبرون به كلام العرب وأول من علل النحو فيما يقال ابن أبي اسحق الحضرمي المتوفى سنة ١١٧ وهو أعلم اهل البصرة وأنقلهم وكان هو وعيسى بن عمر الثقفي (رأس المتقربين) يطعنان على العرب وكان معهما ابو عمرو بن العلاء شيخ الرواة وهو من المشهورين في تجريد القياس ولكنه كان أشد تسليماً للعرب وقد ناظره ابن أبي اسحق فغلبه بالهمز الا ان أبا عمرو طالت مدته فكان أكثر طلباً لكلام العرب ولغاتها وغريبها حتى تميز بذلك وهو قد أخذ النحو عن نصر بن عاصم صاحب أبي الاسود . فذلك هي العلة في أخذهم عن العرب ولم يكونوا يأخذون عنهم قبل ذلك وأنت تعتبر مصداق هذا انك لا تجد رجلاً ممن عنوا بالسماع من العرب طلباً لمعرفة كلامها

ولغاتها وانتهت اليهم أسانيد الرواة الا في أواخر القرن الاول وأوائل الثاني ومن أشهرهم ابو عمرو الشيباني عاش ١٢٠ سنة وسمع النبي صلى الله عليه وسلم في صفه وقتادة بن دعامة السدوسي توفي سنة ١١٧ والشعبي سنة ١٠٥ وابن أبي اسحق وعيسى بن عمر وابن بن تغلب سنة ١٤١ وابو عمرو بن العلاء وسائر من تخدم من متقدمي الرواة .

ثم لما تفرعت المذاهب واشتد الخلاف بين اهل الطبقة الثالثة التي أخذت عن أولئك وأصاب ذلك ضعف اللغة في الحضرة ورقة جوانبها ورأى العلماء ان أكثر اللغة مما لا يطرد فيه القياس لتداخل لغات العرب بعضها في بعض وان أكبر العلم بهذه اللغة هو العلم بنواذرها وغربها صار لابد من استقصاء ذلك في مناطق العرب واستغراقه الى أطراف البوادي وتصفح تلك اللهجات فيمن لا يزال منطقهم خالصاً ولم يلبس فطرتهم شوباً ولا فساد فكان الراوية يأخذ عن يلقاه من أهل الطبقة الثانية حتى يستنفد ما عنده ثم يرحل الى البادية يستزيد ويتحقق من منطق العرب ماشك فيه ويطلب ما عسى ان ينفرد بروايته الى غير ذلك مما يتصل بهذا المعنى . وهذه الطبقة الثالثة هي أشهر طبقات الرواة في الاسلام وغنها أخذت اللغة وفي أيامها دونت ورأسها الخليل بن أحمد وان لم يكن في اللغة كأبي زيد والاصمعي وأبي عبيدة فانهم فيها أئمة الأئمة وهم الذين أخذ عنهم جل ما في أيدي الناس من هذا العلم العربي بل كله على ما قيل



### الرمز الى البادية

كان أهل المِصرين ( البصرة والكوفة ) عرباً كلهم في القرن الاول  
الا الموالي منهم على ان كثيراً من هؤلاء اشتغلوا بالعلوم وبرعوا فيها أنفة  
وبُقيا على أنفسهم وكان أولئك العرب من قبائل مختلفة وكلهم باق على فطرته  
ثم كان الأعراب من أهل البادية وسكان الفيا في يطروُن على المِصرين  
والمدينيتين ( مكة والمدينة ) فلم يكن للرواة في القرن الاول من حاجة الى  
البادية لانهم لم يكونوا قد بلغوا الغاية في تجريد القياس وتعليل النحو وتفريعه  
وكان ذلك الامر لما يضطرب والمادة لانزال باقية وفي الناس فضلٌ بعدُ .  
ولهذا تقطع جزمًا بأن الرحلة الى البادية في طلب اللغة لم تكن في القرن  
الاول البتة وانما كان يعنى الرواة بالسماع من العرب كما أومأنا اليه آنفاً .  
فلما كانت الطبقة الثالثة من الرواة - طبقة الخليل وجماعته - وقد اختلفت  
أسانيد اهل المِصرين عن العرب واختلفت بذلك مذاهبهم وتمكنت منهم  
المصبية وأخذوا في الازراء بعضهم على بعض وخرج بعضهم من ذلك الى  
الوضع والافتعال وصنعة الشواهد - كما نوضحه بعد - ورغب أهل  
التحصيل منهم في استيعاب الشواذ والنوادر وأهل التحقيق في تمحيص  
المذاهب المختلفة ورأوا ان اكثر القبائل البادية قد اخذت في مخالطة البلديين  
والاعاجم ويوشك ان تختبل ألسنتهم ويلين جفاؤهم ويدخل على طباعهم  
الفساد وان شيئاً من ذلك قد خلص الى الاجيال الناشئة في الحضر - لما  
اجتمعت لهم كل هذه الاسباب ورأوا ان اهل الحديث يرحلون في طلب

الامر ويقطعون ظهور الابل الى المراعي البعيدة والى كل شرق وصقع يعلمون ان فيه من مصادر الحديث أحداً أخذوا هم أيضاً في سبيلهم فرحلوا الى البادية وهي مصدر اللغة يطلبون جفأة الاعراب وأهل الطباع المتوقعة ويأخذون عن القبائل التي بعدت عن أطراف الجزيرة وبقيت في سرّة البادية أو فاضت حوالها فأخذوا عن قيس وتميم وأسد وهؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف<sup>(١)</sup> ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم وخاصة الذين كانوا يسكنون أطراف بلادهم المجاورة لمن حولهم من الامم فانه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ولا من قضاة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية ولا من تغلب واليمن فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان<sup>(٢)</sup> ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس ولا من عبد القيس وأزد عمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ولا من حاضرة الحجاز لانهم حين ابتدؤا ينقلون لغة العرب صادفوه وقد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت ألسنتهم بالحضارة

---

(١) تقدمت الاشارة الى ذلك في الكلام على (أفصح القبائل) من الباب الاول . وقد كان النحو والتصريف شيئاً واحداً في المدارس والتدوين ويقال ان أول من أفرد التصريف وميزه من النحو بالتصنيف والتبويب أبو عثمان المازني المتوفى سنة ٢٤٩ على الأكثر . (٢) كذا قالوا .

وهم لا يأخذون عن حضري قط مع ان أولئك كانوا هم الاصل في الفصاحة العربية وهم الذين نزل القرآن بلغتهم والاصل فيهم قريش لان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرشي ثم بنوا سعد بن بكر لانه استرضع فيهم وأقام عندهم حتى ترعرع<sup>(١)</sup> ثم ثقيف وخزاعة وهذيل وكنانة وأسد وضبة وهؤلاء كانوا قريباً من مكة وكانت لغة أهل مكة والمدينة قد فسدت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثرة من خالطهم من رقيق العجم وبمن تردد اليهم من تجارهم وقد مرّ شرح ذلك في بابه

وأقدم من عرفنا ممن رحلوا الى البادية يونس بن حبيب الضبي المتوفى سنة ١٨٣ وقد جاوز المئة فيما قيل وخلف الاحمر المتوفى سنة ١٨٠ والخليل ابن احمد المتوفى سنة ١٧٥ وأبو زيد الانصاري المتوفى سنة ٢١٥ عن ٩٣ سنة وهو اكثر اهل هذه الطبقة أخذاً عن البادية وكانت له بذلك ميزة على صاحبيه الاصمعي وأبي عبيدة حتى قيل ان الاصمعي جاء يوماً الى مجلسه فأكبّ على رأسه وجلس وقال هذا عالمنا ومعلمنا منذ عشرين سنة . ولقد أراد أبو زيد هذا مرة ان يعرف باباً من الصرف ويتبين من منطق العرب ما هو أولى بالضم وما هو أولى بالكسر من باب فعل ( بفتح العين ) الذي

---

(١) أسلفنا في الكلام على تاريخ اللحن صفحة ٢٤٣ أن بني مروان كانوا يلزمون أولادهم البادية لتخلص لغتهم وتسلم عربيتهم وفاتنا ان نذكر هناك ان ذلك كان من شأن اهل مكة ولا يزال الى اليوم فان اشرافها يرسلون اولادهم الى بعض القبائل فيترعرعوا فيها وقد أخذوا لغتها وحفظوا اشعارها وتفرسوا وتمهروا وهم يتبعون في ذلك سنة اسلافهم من أيام الجاهلية

قالوا فيه ان كل ما كان ماضيه بفتح العين ولم يكن ثانيه ولا ثالثه حرفاً من حروف اللين ولا الخلق فانه يجوز في مضارعه ضم العين وكسرها وليس احدهما أولى به من الآخر ولا فيه عند العرب الا الاستحسان والاستخفاف (كقولهم نفر ينفر وينفر وشم يشتم ويشتم الخ) فطاف أبو زيد لذلك في عليا قيس وتيم مدة طويلة يسأل عن هذا الباب صغيرهم وكبيرهم قال فلم أجد لذلك قياساً وانما يتكلم به كل امرئ منهم على ما يستحسن ويستخف لا على غير ذلك .

ولما جاءت الطبقة الرابعة التي اخذت عن هؤلاء، أخذوا عنهم التلقي عن العرب في باديتهم اذ صار ذلك سنة وباباً من أبواب الكفاية عندهم ومن اقدمهم واسبقهم اليه النضر بن شميل المتوفى سنة ٢٠٤ فانه اخذ عن الخليل بن احمد وعن بعض الاعراب الذين اخذت عنهم الطبقة الثالثة واقام بعد ذلك بالبادية اربعين سنة . ثم الكسائي المتوفى سنة ١٨٩ (على الاكثر) فانه اخذ عن الخليل ثم خرج الى بوادي الحجاز ونجد وتهامة ورجع وقد انقد خمس عشرة قينة من الخبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ .

واستمروا يرحلون الى البادية الى اواخر القرن الرابع ثم فسدت سلايق العرب كما فصلناه في بابها . وبذلك انقطعت مادة الرواية عنهم واكتفى الناس بآثار اسلافهم التي حوتها الكتب وانما كان العلماء بعد ذلك يسألون بعض الاعراب المتوسمين بشيء من جفاء البادية ممن لم تنسخ فيهم الفطرة نسخاً وكانوا يستروحون الى ذلك ولا يأخذون به وبقي هذا الامر الى

منتصف القرن السادس ونقلوا عن الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ بعض كلمات مما سألهم فيه ولكن لم ينقلوا ان احداً اعتدّ هذا وامثاله من اللغة واجراه مجرى الرواية ولا يمكن ان يكون ذلك

### فُصَحَاءُ الْأَعْرَابِ

وقد قلنا في فرق ما بين العربي والأعرابي في موضع ذلك من صدر هذا الكتاب ورأينا العلماء وأهل اللغة في الاسلام يضربون المثل بفصاحة الأعراب وخلوص لغتهم وما لهم من بارع اللفظ وسري المخرج والعارضة الشديدة واللسان السليط ثم ما يحمل عليها من طبع جاف متوقع غير بكيء ولا منزور وفطرة سليمة لا تنازع الى غير الصواب ولا يصرفها عنه صارف من سوء العادة أو الضعفة الحضرية الى ما يكون من هذا الضرب . والبلغاء في الصدر الاول انما كانوا يتكفون ان يحكوا الاعراب في مقامات الكلام يبتغون من وراء ذلك بعض ما يرذّه التقليد والحكاية من تلك الصفات وكان أفصح الناس انما يرى منزلته منهم أن يجري على ما سبق اليه من أعراقهم فهو منهم بطبيعته دون موضع الغاية وعلى حدّ المقاربة في منزلة بين المنزلتين . ولا نقيض هنا في هذا المعنى وأدلته فقد أسلفنا منه اشياء وسنأتي على بقيته في باب الخطابة وانما نكتفي بهذا الايماء لانه سبيل ما نحن فيه .

كان الاعراب يطروّن من البادية على الحضر فيلتناهم الرواة بما اختلفوا فيه يعترضون حجته في منطقهم ويتلقفون أدلته من أفواههم ويتحملون

عنهم بالنوادر وما إليها ومنهم طائفة كانوا ينزلون الأوصار العربية و يقيمون بها فيأمنون الى الرواة ويسكنون الى مسئلتهم ثم ينتهي الامر بهم الى ان يصيروا أساتذة القوم في الفتيا و مرجعهم في الخلاف لا يتبرمون بذلك بل يتصدرون له لانهم يخشون على ألسنتهم من طول المكث في الحضر فلا ينفكون يذاكرون الرواة اذ لا يجدون غيرهم من سائر الناس وهم الذين يسمونهم فصحاء الأعراب .

و يبتدىء تاريخهم منذ مست الحاجة اليهم في الطبقة الثانية من الرواة عند تفريع النحو و قياسه كما أشرنا اليه ولذا لم نر لاحد من هؤلاء الاعراب اسماً مذكوراً قبل أبي خيرة وأبي الدقيش ورؤبة بن العجاج الراجز وأبي المهدى وأبي المنتجع وأضرابهم ممن أخذت عنهم تلك الطبقة .

ولما كثر تردد الاعراب على الرواة ومذاكرتهم اياهم أقبل بعضهم على الطلب والرواية عن العلماء والتلمذة لهم ولم تقف على أحد فعل ذلك قبل أبي مسحل الأعرابي الذي قدم من البادية وأخذ النحو عن الكسائي المتوفى سنة ١٨٩ وروى شعراً كثيراً في الشواهد عن علي بن المبارك ثم صنف في النوادر والغريب . أما قبل ذلك فكان فصحاء الأعراب انما يلمون بالرواة إماماً كالذين كانوا يقصدون منهم حلقة يونس بن حبيب بالبصرة وكان بعضهم يقف على حلقة أبي زيد الانصاري يسأله عن اشياء من العربية تظرفاً لا حاجة

ومتى طال مكث الأعرابي في الحضر ضعفت طبيعته ورق لسانه فاذا آنس منه الرواة ذلك وضعوا له الاقيسة الفاسدة يمتحنونه بها كما مر في



موضعه واذا وجدوه قد صار يفهم الكلام على لحن اهل الحضر فضلاً عن ان يحكيه مثلهم نبدوه لان الاصل ان لا يفهم هذا اللحن الا من زاوله ودار على سماعه حتى الفه . وقال الجاحظ ( توفي سنة ٢٥٥ ) انهم لا يفهمون قولهم ذهبت الى ابو زيد ورأيت ابي عمرو ثم قال ومتى وجد النجويون اعرابياً يفهم هذا واشباهه بهرجوه ولم يسمعوا منه لان ذلك يدل على طول اقامته في الدار التي تفسد اللغة وتنقض البيان لان تلك اللغة انما انتقلت واستوت واطردت وتكاملت بالخالص التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة وفي تلك الجيرة ولقد كان جميع الامم ولقد كان بين يزيد بن كثره يوم قدم علينا البصرة وبينه يوم مات بون بعيد على انه قد كان وضع منزله في آخر موضع الفصاحة واول موضع العجمة ( تأمل ) وكان لا ينفك من رواة ومذاكرين .

وقد سقنا مثلاً من اسئلة الاعراب في بعض الفصول التي تقدمت ونسوق هنا بعضها توفية لفائدة هذا الفصل . روى المبرد في الكامل ان الاصمعي شك في امظ استخذي ( خضع ) وأحب ان يستثبت أهى مهموزة ام غير مهموزة قال فقلت لأعرابي أقول استخذيت ام استخذأت قال لا اقولها . فقلت ولم قال لان العرب لا تستخذي ( لا تخضع ) . وقال الاصمعي لأعرابي أنهمز الفارة قال همزها الهرة<sup>(١)</sup> . . . وقال الجاحظ سمعت ابن بشير وقال له المفضل العنبري اني عثرت البارحة بكتاب وقد

---

(١) تروى عنهم من ذلك نواذر كثيرة لا فائدة منها الا الفكاهة فلم نفسح لها في هذا الفصل

التقطته وهو عندي وقد ذكروا ان فيه شعراً فان أردته وهبته لك قال  
ابن بشير اريده ان كان مقيداً (مشكولاً) قال والله ما ادري أ كان  
مقيداً أو مغلولاً .. قال الجاحظ ولو عرف التقييد لم يلتفت الى روايته  
ومهما جهدت بالاعرابي ان ينطق بغير لحن قومه وان كان أفصح منه  
فانه لا يستطيع الا من ضعف لان تقليده في الصواب كتقليده في الخطأ  
واللغة انما تؤخذ عن السليقة وهي سنة واحدة . قال الاصمعي : جاء عيسى  
بن عمر الثقفي ونحن عند أبي عمرو بن الملاء فقال يا أبا عمرو ما شيء بلغني  
عنك تجيزه قال وما هو قال بلغني انك تجيز ليس الطيب الا المسك  
(بالرفع) قال أبو عمرو نمت وأذلج الناس ليس في الارض حجازي ألا  
وهو ينصب ولا في الارض تيمي ألا وهو يرفع ثم قال قم يا يحيى يعني  
اليزيدي وأنت يا خلف يعني خلف الأحمر فاذهبا الى أبي المهدي (أعرابي  
الحجاز) فلقناه الرفع فانه لا يرفع واذهبا الى أبي المنتجع (أعرابي تميم)  
فلقناه النصب فانه لا ينصب . قال فذهبا فأتيا أبا المهدي فاذا هو يصلي  
فلما قضى صلاته التفت إلينا وقال ما خطبكما قلنا جئنا نسألك عن شيء من  
كلام العرب قال هاتيا فقلنا كيف تقول ليس الطيب الا المسك (بالرفع)  
فقال « تأمراني بالكذب على كبر سني » فقال له خلف ليس الشراب الا  
العسل قال اليزيدي فلما رأيت ذلك منه قلت له ليس ملاك الامر الا طاعة  
الله والعمل بها فقال هذا كلام لا دخل فيه ثم اعادها بالنصب فرفعا ثانية  
فقال ليس هذا لحي ولا لحن قومي . قالوا فكتبنا ما سمعنا منه ثم أتينا  
أبا المنتجع فلقناه النصب وجهدنا به فلم ينصب وأبى الا الرفع .

واذا قال الاعرابي شعراً وأخطأ فيه على مصطلح اهل العروض وان كان قد ذهب في نفسه مذهباً فبهات ان يفهم الصواب أو يذكر الوجه الذي ذهب اليه الا بالتلطف في سؤاله والحيلة على افهامه . قال ابن جني في الخصائص : انشدنا أبو عبد الله الشجري لنفسه شعراً مرفوعاً يقول فيه يصف البعير :

فقامت اليه خذلة الساق اعقلت به منه مسموماً دؤينة حاجبة  
فقلت يا أبا عبد الله أتقول دؤينة حاجبه مع قولك مناسبه وأشانبه  
فلم يفهم ما اردت فقال كيف اصنع أليس ههنا تضع الجرير على القرمة  
على الجرفة<sup>(١)</sup> وأوماً الى أنفه فقلت صدقت غير انك قلت اشانبه وغالبه  
فلم يفهم واعاد اعتذاره الاول . فلما طال هذا قلت له أيحسن ان  
يقول الشاعر :

آذَتْنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رَبُّ نَاوٍ يَمَلُّ مِنْهُ النَّوَاءُ  
ومطلت الصوت (أي مد الهمزة) ثم يقول مع ذلك  
مَلَكُ الْمَنْدَرُ بْنُ مَاءِ السَّمَاءِ

فأحسن حينئذ وقال أهذا . أين هذا من ذاك ان هذا طويل  
وذاك قصير فاستروح الى قصر الحركة في حاجبه وانها اقل من الحرف في  
اسماء والسماء .

(١) الجرير الحبل والقرمة موضع الجلدة التي تقطع من فوق خطم البعير لتقع على موضع الخطام وليذل . والجرفة أثر الجلدة التي تقطع من جسد البعير دون أذنه من غير ان تبين . وقد ظن الشجري ان ابن جني ينتقد معنى البيت ويخطئه فيه

### المحاكمة الى الاعراب

وكان العلماء اذا اختلف ما بينهم في المناظرة وادعى كل منهم الفلج والظهور بالحجة والدليل رجعوا في الحكم الى منطق الاعراب ممن يصيبونهم من الفصحاء على ابواب الامراء او في المساجد او في طرق السابلة . ولم تكن المحاكمة اليهم مقصورة على القياس وما يحتاج الى المنطق الصحيح في تعيين صحته فحسب ولكنها كانت تكون ايضا في معاني الالفاظ وما يدخله التصحيف وخاصة اسماء الامكنة والبقاع وما يجري مجراها من هذه الجوامد التي يعرفها الرواة عن سماع ويعرفها الاعراب عن يقين وعيان . قال احمد بن يحيى لقمي ابو محلم على باب احمد بن سعيد بن مسلم ومعه اعرابي فقال جئتم بهذا الاعرابي لتعرفوا منه كذب الاصمعي أليس كان يقول في قوله : زَوْرَاءُ تَنْفِرُ عَنْ حِيَاضِ الدَّيْنَامِ . ان الديلم الاعداء فاسألوا هذا الاعرابي فسألناه فقال هي حياض بالغور قد أوردتها ابلي غير مرة . والامثلة من هذا كثيرة .

واشهر ما عرف من محاكماتهم الى الاعراب المسئلة الزنبورية التي اختلف فيها سيبويه البصري والكسائي الكوفي<sup>(١)</sup> بحضرة الرشيد وقيل انها

---

(١) أوردنا في فصل « فساد اللغة في البادية » صفحة ٢٤٩ ان الكسائي اخذ عن اعراب الحلبيات لما قدموا الى بغداد وكانوا غير فصحاء فخط في علمه . وقد نقلوا عن الاصمعي ان هؤلاء الاعراب كانوا ينزلون بقطر بل (قرية من متنزعات بغداد اشتهرت بالخر واسباب اللهو) وان الكسائي لما ناظر سيبويه استشهد

كانت بين سيديويه والفرء بحضرة الرشيد أو بحضرة يحيى بن خالد البرمكي وذلك ان سيديويه قدم الى بغداد وكان الكسائي يعلم الأمين وهو يومئذ رأس الكوفيين فوفد سيديويه على يحيى بن خالد وابنيه جعفر والفضل وعرض عليهم ما يذهب اليه من مناظرة الكسائي فسمعوا له في ذلك وأوصلوه الى الرشيد فكان فيما سأله الكسائي كيف تقول ظننت ان العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هي أو اياها . فقال سيديويه فاذا هو هي وأجاز الكسائي القولين بالرفع والنصب (لان نصب الخبر المعرفة بعد اذا لا يجزئه الا الكوفيون ولم يأت عن العرب في سماع صحيح) . ثم قال الكسائي كيف تقول يا بصري خرجت فاذا زيد قائم أو قائما فقال سيديويه أقول قائم ولا يجوز النصب فقال الكسائي أقول قائم وقائما . فقال يحيى أو الرشيد قد اختلفتما وأنتما رئيسا ببلديكما فمن يحكم بينكما فقال له الكسائي هذه العرب بيابك قد سمع منهم أهل البلدين فيحضرون ويسألون . فجأوا بالاعراب الذين كانوا بالباب يومئذ وهم أبو فقعس وأبو دثار وأبو الجراح وأبو ثروان فوافقوا الكسائي ويقال انهم أرسوا على ذلك أو انهم علموا

بلغتهم عليه . . . فقال أبو محمد اليزيدي

كنا نقيس النحو فيما مضى	على لسان العرب الأول
فجاء أقوام يقيسونه	على أئمة اشياخ قطر بل
ان الكسائي واصحابه	يرقون في النحو الى اسفل

وتقل السبوطي هذا الخبر في ( بنية الوعاة ) لكنه قال ان الكسائي اخذ اللغة عن أعراب الحطمة . . وجاءت هذه اللفظة في كتاب التصحيف للعسكري أعراب الحلمات والصواب ما ذكرناه

منزلة الكسائي عند الرشيد فنظروا الى المنزلة . ويقال انهم لم يزيدوا على ان قالوا في الموافقة القول قول الكسائي ولم ينطقوا بالنصب وان سيبويه قال ليحي مرهم ان ينطقوا بذلك فان السننهم لا تطوع به<sup>(١)</sup>

وكان الامراء الذين يتولون الامصار البعيدة عن البلدين يستقدمون الى جهاتهم اعراباً من الفصحاء لتأديب اولادهم وليأخذ عنهم علماء تلك الامصار ثم ليرجعوا اليهم في بعض ما يختلفون فيه . ومن اشهر أولئك الامراء عبد الله بن طاهر فانه لما ولي خراسان استقدم اليها جماعة ذكروا من اسمائهم ابا العميشل الاعرابي المتوفى سنة ٢٤٠ وعوسجة ولما ورد ابو سعيد اللغوي الضرير من بغداد على ابنه طاهر بن عبد الله تأدب بهؤلاء الاعراب وأخذ عنهم

ومنذ القرن الخامس فسدت سلائق الاعراب في الحضر والبادية ولم يعد العلماء يركنون اليهم في شيء الا الاستئناس ببعض ما يسمعونونه وعز الظفر بالفصيح منهم الذي يرجع الى نجره ويتساند الى سليقته حتى صار لقب الأعرابي مما يحرص عليه بعض الفصحاء من اهل العلم يدعونه

---

(١) سئل الاعلام الشنمري نحوي اهل الاندلس عن هذه المسئلة في سنة ٤٧٦ فأجاب بجواب مسهب اورده صاحب نفح الطيب في الجزء الثاني من كتابه وعقد له هناك فصلاً برأسه . وأورد صاحب الاغاني في ترجمة أبي محمد اليزيدي (في الجزء الثامن عشر) مناظرة كانت بين اليزيدي والكسائي بحضرة المهدي ظفر فيها اليزيدي بشهادة اعرابي ايضاً . ولذلك أمثلة اخرى اضربنا عن ذكرها اكتفاءً بما مر .

تميزاً به واحياً للسنّة العربية كأبي محمد الاعرابي النسابة اللغوي المعروف  
بالاسود ( وهو الذي كان يسند الى ابي النداء كما مر ) فانه تلقب بالاعرابي  
وكان يتعاطى تسويد لونه بالقطران ويقعد في الشمس ليتحقق تلقيبه بذلك.  
وهذا الرجل هو آخر تاريخ الاعراب الفصحاء لا يعرف معه اعرابي ولا  
يعرف بعده من ادعى الأعرابية اللغوية<sup>(١)</sup>.

### بعض فصحاء الأعراب

وقد عقد ابن النديم في كتابه ( الفهرست ) فصلاً لاسماء اولئك  
الفصحاء الذين اخذ عنهم الرواة ودارت اسماؤهم في كتب القوم وفي خطوط  
العلماء . ولا يذهبنّ عنك ان جميع الاعراب انما كانوا في العراق وكان  
قليل منهم في الحجاز لان الرواية كانت قائمة بأهل هذين الصقعين وهم  
لا يقيمون لعلماء الشام وزناً ولا يوثقون روايتهم ان لم تكن من ناحيتهم  
ولهذا قلّ ان تجد لعلماء ذلك الشرق أعراباً معروفين يختصون بالأخذ  
عنهم . بيد أن الجاحظ في بعض رسائله قد ذكر اسم عكيم بن عكيم  
الحبشي وقال فيه « كان أفصح من المجاج وكان علماء أهل الشام يأخذون  
عنه كما أخذ علماء أهل العراق عن المنتجع بن نهان وكان المنتجع سندياً

(١) أما قبل ذلك فلم نقف على من ادعى الأعرابية وبالغ في انتحالها غير أبي  
خالد النخعي ( وهو معاصر لأبي عبيدة والاصمعي ) وكان يتبادى ويتقعر ، قال  
المسكري وابو خالد هذا هو الذي خرج الى البادية فأقام أياماً يسيرة ثم رجع  
الى البصرة فأنكر الميازيب فقال ما هذه الخراطيم التي لا نعرفها في بلادنا . . !

وقع الى البادية وهو صبي فخرج أفصح من رؤبة « اه ولم تقف على اسم  
أعرابي انفرد أهل الشام بالاخذ عنه وحاكوا به أهل العراق غير عكيم هذا  
— والمنتجع بن نبهان كان في القرن الثاني .

وهذه أسماء المشهورين من أولئك الفصحاء عن ابن النديم وغيره :  
الخشعي وكان راوية أهل الكوفة . وأبو خيرة المدوي . وأبو الدقيش  
وكان من أفصح العرب . وأبو مهديّة الأعرابي . وأبو المنتجع . وأبو  
البيداء الرياحي وراويته أبو عدنان . وكان أبو البيداء حين نزل البصرة  
يعلم الصبيان بأجرة . وأبو طفيلة . وأبو حياة بن لقيط . والفقعسي  
محمد بن عبد الملك راوية بني أسد وصاحب مفاخرها واخبارها ادرك المنصور  
وعنه اخذ العلماء مآثر بني أسد . وعبد الله بن عمرو بن أبي صبح معاصر  
للفقعسي . وأبو مالك عمرو بن كركرة الأعرابي اللغوي صاحب النوادر  
وكان يعلم في البادية ويورق في الحضر<sup>(١)</sup> . وأبو الجاموس ثور بن يزيد  
وكان من أفصح الناس لساناً وهو الذي اخذ عنه ابن المقفع الفصاحة  
وجرى في طريقته من البيان . وأبو سوار الغنوي . وأبو زياد الكلابي

(١) الغرض من التعليم في البادية اقراء الاعراب بما يقيم لهم صلاتهم ويعرفهم  
الضروري من أمر دينهم احتساباً لا لأجر . ومن أقدم من وقفنا على أسمائهم من  
معلمي البادية الحصين بن عبدة بن نعيم المدوي كان في منتصف القرن الاول وكان  
يعلم أعراب بني عدي . وصناعة الوراقه أو التوريق هي معاناة الانتساخ والتصحيح  
والضبط وكان الوراقون من العلماء والادباء ولذا كانت الكتب القديمة آية في الصحة  
والضبط كما قال ذلك بن خلدون .



قدم بغداد أيام المهدي فأقام بها أربعين سنة . وأبو عرار المجلي . وأبو  
ثوبة الأسدي . وأبو ضمضم الكلابي . وعمرو بن عامر البهدي وقد  
أخذ عنه الأصمعي وأبو شبل العقيلي وفد على الرشيد واتصل بالبرامكة .  
وأبو ثروان العكلي وكان يعلم في البادية وأبو ققمس وأبو دثار وأبو الجراح  
وهؤلاء الأربعة هم الذين حكموا بين سيديويه والكسائي كما مر . وأبو  
العميشل . وعوسجة . وأبو مسهر الاعرابي . وأبو المضرحي .  
والحرمازي . وأبو الهيثم . وأبو المحبب الربيعي . وأبو صاعد الكلابي .  
وأبو أدهم الكلابي . وأبو الصقر الكلابي . وأبو الصعق المدوي .  
والفضل الغنبري . ويزيد بن كشوة . وناهض بن ثومة الكلابي وكان  
شاعراً بدوياً جافياً كانه من الوحش وكان يقدم البصرة في منتصف القرن  
الثالث فيكتبون شعره ويأخذون عنه . وأبو السمع الطائي وهو ممن  
أحضر في أيام المعتز ليؤخذ عنه .

ومن أشهر الاعرابيات اللواتي أخذ الرواة عنهم وهن قليلات : غنية أم  
الهيثم الكلابية وكانت راوية أهل الكوفة . وقريبة أم البهلول . وغنية أم الحمارس  
وفيما قدمناه بلاغ وبعض مادون الاستقصاء في هذا الباب كفاية  
الباب كله .



## الوضع والصنعة في الرواية

المراد بالموضوع والمصنوع ما كان كذباً مُصنَّعاً أو صدقاً مشوباً ببعض التليس . والصدق والكذب من اخلاق الناس تبعث على كليهما البواعث وهذا في رأي اهله متى صادف موضعه وتعلق بأسبابه كذاك في رأي اهله متى اصاب حقه وقرّ في نصابه وان كان الصادق يرى انه قد استهتراً لدينه وامانته والكاذب يرى انه قد حمل على ذمته مالا حيلة له في التفصي منه وانه قد تابع هواه واضلّه الله على علم . وانما يدور هذا الامر بين العلماء واهل الرواية على الاستهتار بالغريب والولوع كل الولوع بالطرف والنوادير وعليهما يكون اقبال العامة وبهما تكون كثرة الاتباع وما زال هوى الناس في كل جيل معقوداً بأطراف الطرائف وان فسد بها العلم واتهمّت الكتب الصحيحة ومن كان ذلك شأنه لا يقف على فرق ما بين التصحيح والتصحيّف والتوكيد والتوليد فهو يداخل الغث في السمين والممكن في الممتنع ويتعلق بأدنى سبب الى ما يشبهه حقاً ثم يدفع عنه كل الدفع كما يدفع اهل الحق عن الحق ومن ثم لا تنهياً له الدلالة التي تقوم بأمره ولا الشهادة التي تقطع فيه الا بعد ان يضرب حق ذلك بباطله ، ويموه بصفات حاله أمر عاطله ، وبين ذلك الى ان يبلغ مبلغه ما يكون قد تورّك عليه وتكلف له وذهب فيه مذاهب البواطيل كلها ومن شؤم الكذب انه لا يستغني منه شيء ، بنفسه الا افتضح ولذا تحتاج الكذبة الواحدة في اثباتها الى كذب كثير .

وَضَرَبُ آخر من الرواة يرجع امرهم في الوضع الى التلبس على الناس تعنتاً وتكلفاً للأثرة أو مكابرة في اقامة الحجة وانهاض الدليل فهؤلاء يتقذرون من الكذب استغناءً بأنفسهم وصوناً لأقدارهم ولكنهم يكذبون انفسهم بالمنافسة ويستكبرونها على الظهور والغلبة وتلك سودة تذهب بالتحفظ وتصعد عن التوقي وهيئات ان يكون الامر فيها مقداراً عدلاً مع تلك الرغبة الجائرة . ومن هذا بكى الكسائي وهو ما هو في علماء هذه الامة حتى قال فيه الشافعي من أراد ان يتبحر في النحو فهو عيال على الكسائي . قال الفراء دخلت عليه يوماً وكان يبكي فقلت له ما يبكيك قال هذا الملك يحيى بن خالد يوجه اليّ ليحضرني فيسألني عن الشيء فان ابطأت في الجواب لحقني منه عتب وان بادرت لم آمن من الزلل . قال الفراء فقلت له يا أبا الحسن من يعترض عليك قل ماشئت فأنت الكسائي ... فأخذ لسانه وقال قطعه الله اذن اذا قلت ما لا أعلم .

وبالجملة فان آفة الرواية رقة الامانة وللعلم طغيان لا يقوم له شيء اذا كان سبب ذلك في طبع النفس ومذهبها ولذا جعلوا اهل العربية كأهل الحديث فعدوا منهم اهل الاهواء واهل السنة وسيمر بك تفصيل لهذا المعنى .

وقد تناول الوضع مآثور اللغة والشعر والخبر ونحن قائلون في ثلاثها ونجعل لكل فصل من القول بحسبه .



### افتعال اللغة

قال الخليل بن احمد ان النحارير ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب ارادة اللبس والتعنت . وليس يخفى انه لا سبيل الى الوضع فيما يرجع من اللغة الى الاقيسة المطردة وان وضع من ذلك شيء لم يجز على العلماء وانما الشأن في الغريب وما ينفرد به الراوية مما لا دليل على مثله الا دعوى حامله فان قومًا يفتعلون من ذلك أشياء كعَيْدَشون اسم دَوِيَّة وصيخدون للصلاية والبدُّ للصنم الذي لا يعبد والبتش وضئيد وعنشج وأمثالها<sup>(١)</sup> يضعونها رغبة في الذكر بها وان يكون عندهم من العلم ما ليس عند غيرهم والافراد في اصطلاح الناس منبهة . ومن هذه الاشياء ما يقره الرواة اذا لم يجدود مخالفاً لأبنية العرب ولم يعلموا على حامله سوءاً ولا كان ممن يتدينون بالكذب كبعض فرق الروافض فان منهم من يضع الشعر ويضمه شيئاً من الغريب ليقيم به حجة واهية أو رأياً متداعياً كما ستعرفه . وقد أفرد ابن جني باباً في الخصائص لكلمات من الغريب لا يعلم أحد أتى بها الا ابن احرر الباهلي . وثقات الرواة كانوا يتثبتون في

(١) وعلى هذا القياس جري القصاصون وبعض المتصوفة فيما وضعوه من الغريب الاسلامي ( وهو غير الغريب المولد الذي مر الكلام عليه في الباب الاول ) كاسماء الملائكة والشياطين والسموات والارضين ونحوها مما لا يعرف في كتاب ولا سنة صحيحة ومن بعض اسماء السموات : أرقلون وقيدوم وديما ودقنا . وكقولهم ان أول من آمن من الجن هامة بن الهام بن لاقيس بن ابليس وامثال لذلك كثيرة

مثل هذا فينفرد الواحد بالكلمات القليلة ولكن مع شواهدهما من كلام العرب وهم لا يروونه مع ذلك على أنه من قول العرب الذي اجتمعت عليه فإن هذا الضرب من الكلام المجمع عليه لا يكون الا في المؤلف وفي الذي يسمع من الفصحاء خاصة وعلى ذلك/أبي زيد « لست أقول قالت العرب الا اذا سمعته من هؤلاء ، بكر بن هوازن وبني كلاب وبني هلال أو من عالية السافلة أو سافلة العالية<sup>(١)</sup> والالم أقل « قالت العرب » . ولا يجيء بالغريب على أنه بسبيل من الكلام المجمع عليه الا من أراد ان يستبد بشروط الرواية فيلبس على الناس أمرهم وهو يرمي بذلك الى التزييد في علمه والتكثير بالباطل والتنبل عند الناس وتراد اذا أورد الكلمة المفتعلة جعلها من سماعه وزينها بوجوه من الرواية آمناً ان تردّ عليه أو يدعي فيها مدّع لان اليئنة عليها منه والحكم فيها اليه اذ كان له سلف صدق من الرواة الذين انفردوا بالغرائب والنوادر وقبل ذلك منهم وألحق بمادة اللغة . ولهذا وأشباهه من الملل كانوا يرجعون الى الاعراب كما علمت .

ولم يعرف ان احداً من الرواة كان يضع اللغة في القرن الاول ولا في القرن الثاني الا ما يكون من الكلمات التي يكذب فيها الأعراب<sup>(٢)</sup> أو توضع ارادة اللبس والتعنيث والا ما يكون من خطأ بعضهم ومكابرتة في

(١) يعني عجز هوازن . وأهل العالية أهل المدينة ولغتهم ليست بلك عند أبي زيد

(٢) مما يروونه ان روضة قال ليونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٣ وكان يسأله

عن بعض الغريب « حتى م تسألن عن هذه الخزعبلات وازخرفها لك أما ترى الشيب قد بلغ في لحيتك » .

الاحتجاج له كما سيأتي مع نظائره في الكلام على وضع الشعر . وادل  
من رمي بافتعال اللغة وانه يتعمد الصنعة فيها محمد بن المستنير المعروف  
بقطرب المتوفى سنة ٢٠٦ وكان يرى رأي المعتزلة النظامية فأخذ عن النظام  
مذهبه ولذا طرحوا لغته ولم يوثقوه في الرواية قال يعقوب بن السكيت  
كتبت عنه قَطْرًا ( أي ملء صندوق ) ثم تبين أن يكذب في اللغة فلم  
أذكر عنه شيئاً . واتهموا بالصنعة وتوليد الالفاظ ابن دريد صاحب  
الجمهرة المتوفى سنة ٣٢١ لانه كان مدمناً للخمر لا يكاد يفتر عن ذلك قال  
الازهري اللخوي وقد سألت عنه ابراهيم بن عرفة ( يعني نفطويه ) فلم يعبا  
به ولم يوثقه في روايته<sup>(١)</sup> . وكذلك اتهموا أبا عمرو الزاهد المعروف بفلام  
ثعلب المتوفى سنة ٣٤٥ وكان واسع الحفظ جداً حتى قيل انه أملى من حفظه  
ثلاثين الف ورقة في اللغة وتلك لعمر الله مظنة وكان بعض اهل الادب  
يطعنون عليه ويضربون به الامثال لوضعه وتلييسه فيقولون لو طار طائر في  
الجو قال حدثنا ثعلب عن ابن الأعرابي ويذكر في معنى ذلك شيئاً . ولكن

(١) دفع بعض العلماء ذلك عن ابن دريد بما كان بينه وبين نفطويه من  
المنافرة حتى قال ابن دريد يهجو من أبيات :

أحرقه الله بنصف اسمه وصير الباقي صراخاً عليه

يريد ( النفط ) ولفظ ( ويه ) وكان الصياح على الموتى بهذين اللفظين ( واي وي )  
وأول من صاح بذلك في الاسلام أم عبد المجيد الثقفى صاحب ابن منذر الشاعر أيام  
الرشيد العباسي حين مات عبد المجيد وكان من أجمل الفتيان جمالا وذلك في خبر  
ليس هذا موضعه . والمحدثون يرون ان كلام الاقران بعضهم في بعض  
لا يقدح في العدالة وقد جاراهم اهل الادب حتى قالوا ( ان المعاصرة حجاب )

أبا بكر بن الخطيب جعل مردّ التهمة الى سعة حفظه ثم أثبت هذا الحفظ  
فنفى التهمة وقال رأيت جميع شيوخنا يؤثّقونه ويصدقونه وكان يُسأل عن  
الشيء الذي يقدر السائل انه وضعه فيجب عنه ثم يسأل عنه بعد سنة فيجب  
بذلك الجواب ويروى ان جماعة من اهل بغداد اجتازوا على قنطرة الصراة  
وتذاكروا كذبه فقال بعضهم أنا أصحّف له القنطرة وأسأله عنها فانه يجب  
بشيء آخر فلما صرنا بين يديه قال له أيها الشيخ ما القنطرة عند العرب فذكر  
شيئاً قد أنسيته فتصاحكنا وأتممنا المجلس فلما كان بعد شهر ذكرنا الحديث  
فوضعنا رجلاً غير ذلك فسأله فقال ما القنطرة قال أليس قد سألت عن  
هذه المسئلة منذ كذا وكذا فقلت هي كذا فما درينا من أي الامرين نعجب  
من ذكائه ان كان علماً فهو اتساع طريف وان كان كذاباً في الحال فحفظه فلما  
سئل عنه ذكر الوقت والمسئلة فأجاب بذلك الجواب فهو أطرف .

وكان معز الدولة قد قلد شرطة بغداد غلاماً تركياً مملوكاً يعرف بخواجا  
فبلغ أبا عمرو هذا وكان يملّي كتاب (الياقوتة) فلما جازه قال اكتبوا (ياقوتة  
خواجا) الخواج في أصل اللغة الجوع ثم فرع على هذا باباً باباً وأملاه  
فاستعظم الناس كذبه وتتبعوه . وله من مثل ذلك أشياء أضربنا عنها  
فان بين العلم المستطيل والحفظ المتسع موضعاً لبسط اللسان اذا أراد قائل  
ان يقول .

وأشهر من عرف بافتعال اللغة في الاسلام قاطبة ابو العلاء صاعد بن  
الحسن اللغوي البغدادي الذي ورد الاندلس في حدود سنة ٣٨٠ على  
المنصور بن أبي عامر وكان يأخذ في طريق أبي عمرو الموماً اليه لانه نشأ

والالسنه لا تزال تحكي عنه ولذا نظروه في الاندلس في سرعة الجواب وقوة الاستحضار بأبي عمرو هذا في العراق . وادعى في الاندلس علم الغريب وتنفق به عند المنصور بن أبي عامر وعرض ما شاء من دعواه في الرواية والسماع من أئمة الرواة بالعراق لضعف ذلك في الاندلسيين .

قالوا ودخل مرة على المنصور وفي يده كتاب ورد عليه من عامل له في بعض البلاد اسمه ميدمان بن يزيد يذكر فيه ( القلب والتزيل ) وهي أسماء عندهم لمعانة الارض قبل الزرع فقال له المنصور أبا العلاء . قال ليبيك مولانا قال هل رأيت فيما وقع اليك من الكتب كتاب القوالب والزوالب لميدمان بن يزيد . قال إني والله يا مولانا رأيته ببغداد في نسخة لابي بكر بن دريد بخط كأكرع النمل في جوانبها علامات الوضائع هكذا هكذا . فقال له أما تستحي أبا العلاء هذا كتاب عاملي يبلد كذا الخ وانما صنعت لك هذه الترجمة مولدة من هذه الالفاظ التي في هذا الكتاب ونسبته الى عاملي لأختبرك فجعل يحلف له أنه ما كذب وانه أمر وافق وله من هذا كثير .

وقال ابن بسام ان المنصور أراه كتاب النوادر لابي علي القالي فقال ان أراد المنصور أمليت على كتاب دولته كتاباً أرفع منه وأجل لا أورد فيه خبراً مما أورده ابو علي فأذن له المنصور في ذلك وجلس بجامع مدينة الزاهرة على كتابه المترجم ( بالفصوص ) فلما أكمله تتبعه أدباء الوقت فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ولا خبر ثبت لديهم وسألوا المنصور في تجليده كرايس بياض تزال جديتها حتى توهم القدم ففعل ذلك وترجم عليه



« كتاب النكت تأليف أبي الغوث الصنعاني » قترأى عليه صاعد حين رآه وجعل يقبله وقال إني والله قرأته بالبلد الفلاني على الشيخ أبي فلان فأخذه المنصور من يده خوفاً أن يفتحه وقال له ان كنت قد قرأته كما تزعم فعلام يحتوي فقال وأبيك لقد بعد عهدي به ولا أحفظ الآن منه شيئاً ولكنه يحتوي على لغة منشورة لا يشوبها شعر ولا خبر فقال المنصور أبعده الله مثلك فما رأيت اكذب منك وأمر باخراجه وان يقذف كتاب الفصوص في النهر<sup>(١)</sup>.

وكان أبو صاعد هذا قوي البديهة في الشعر يضع لسانه منه حيث يريد وهو صاحب البيت المشهور (بيت الخنفسار) الذي جرى في المتأخرين مثلاً مضروباً في الكذب والوضع لما لا اصل له وذلك ان المنصور قال له يوماً ما الخنفسار<sup>(٢)</sup> فقال حشيشة يعقد بها اللبى بيادية الاعراب وفي ذلك يقول شاعرهم :

لقد عقدت محبتها بقلبي كما عقد الحليب الخنفسار

وتوفي صاعد سنة ٤١٧ .

وانما كان كل ذلك قبل ان تجمع مفردات اللغة وتؤلف فيها الامهات

---

(١) قال ابن بسام ما أظن أحداً يجترئ على مثل هذا وانما صاعد اشترط أن لا يأتي (في الفصوص) الا بالغريب غير المشهور وأعانهم على نفسه بما كان يتنفق به من الكذب .

(٢) جاءت هذه الكلمة فيما بين أيدينا من الكتب بالباء ولكن المتأخرين ينطقونها بالفاء .

والاصول وتشيع في أيدي الناس كالصحيح للجوهري والتهذيب للزهرى ولم يوضع قبله كتاب اكبر ولا أصح منه وذلك في أواخر القرن الرابع في المشرق لان الرجوع في اللغة كان الى الرجال وفيهم من علمت اما بعد ذلك فلم يؤثر الافتعال شيئاً في اللغة لسقوط الرواية فيها الا من الكتب كما أوامناً اليه في محله وبهذا بطلت الصنعة وبطل تاريخها اللغوي

### وضع الشعر

والشعر هو عمود الرواية عليه مدارها وبه اعتبارها وقد كانت منزلته من العرب ما هي اذ كان يتعلق بأنسابهم واحسابهم وتاريخهم وما يجري مع ذلك حتى كأنه الحياة المعنوية لاولئك القوم المعنويين فلم يكن عجباً ان يدور فيهم مع الشمس والريح وان تسخر له أسنتهم فينصرفوا الى قوله وروايته حتى بلغ منهم مبلغه الذي نصفه لك في بابيه ان شاء الله وقد كان عند قدماء اليونان لبعض الاسباب المعنوية التي تشابهوا فيها هم والعرب رواة يتفرغون لنقل الشعر ويقومون في الناس على انشاده ويروون قطعاً من التواريخ وهم يسمونهم Rhapsodist ومن اشهرهم في القديم رواة الاللياذة لهوميروس . على ان الفرق بين العرب واليونان في ذلك كالفرق بين أمة كلها شعراء بالفطرة وأمة تميز الفطرة منها بعض شعراء . ولم يكن من سبب في جاهلية العرب يبعثهم على وضع الشعر ونخلته غير قائله وارساله في الرواية على هذا الوجه لان شعراءهم متوافرون ولاهم لا يطلبون بالشعر الا المحامد والمعاير وقصارى ما يكون من ذلك ان يتزيد

شاعرهم في المعنى ويكذب فيه اذا هو حاول غرضاً أو أراغ معنى مما تلك سبيله وعلى ان ذلك لا يكون الا في الاخبار التي تلحق بالتاريخ لان الشاعر موضع الثقة وهو مصدر رواية في العرب فان ارسل القول ارسل معه التاريخ فيجريان معاً وذلك كالذي ادّعاها الاعشى في منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل فانهما تنافرا الى هرم بن قطبة في خبر مشهور فاحتال لهما حتى رضيا بحكمه جميعاً إذ كره ان يفضل احدهما على الآخر وهما ابنا عم فيوقع بذلك عداوة بين الحيين فوصفهما بانهما في المنزلة كركبتي البعير الأدرم تقمان الى الارض معاً . ولكن الاعشى ادعى انهما حكماً هرماً وانه حكم لعامر على علقمة وقال في ذلك بعض قصائده واشاعها في العرب فلبس على الناس وانما جاء هذا الإفك لانه كان ممن ثار مع عامر وكان قبل ذلك حين رجع من عند قيس بن معد يكرب بما أعطاه طلب الجوار والخفرة من علقمة فلم يكن عنده ما طلب وأجاره وخفّره عامر حتى أداه وماله الى أهله . وهذا التزيد هو الذي يسميه الرواة أ كاذب الشعراء . اما أن يكون في عرب الجاهلية من يصنع الشعر وينحله غيره على نحو ما كان في الاسلام فذلك مالا نعلمه ولا نظنه كان البتة<sup>(١)</sup>

(١) انما كان منهم عكس هذا وهو اتحال الرجل شعر غيره أو الاجتلاب منه أو نحو ذلك مما يأتي تفصيله في الكلام على سرقة الشعر . قل الراجز  
يا أيها الزاعم أني أجتلب وأنني غير عضاءي أتعجب  
كذبت ان شر ما قيل الكذب  
والعضاء شجر والانتعاب نزع نجبه (بفتح الجيم) وهو لحاؤه أو قشر عروته

ولما جاء الاسلام واندفع به العرب الى الفتوح اشتغلوا عن الشعر بالجهاد والغزو حيناً من الزمن فلما راجعوا روايته بعد ذلك وقد اخذ منهم السيف والحيف وذهب كثير من الشعر وتاريخ الوقائع بذهاب روايته صنعت القبائل الاشعار ونسبتها الى غير أهلها تتكثر بها وتعتاض مما فقدته وكان في العرب قوم آخرون قلت وقائهم وأشعارهم فأرادوا ان يلحقوا بذوي الكثرة من ذلك وانما العزة للكاثر فقالوا على ألسن شعرائهم ما لم يقولوه واخذه عنهم الرواة .

وأول القبائل التي وضعت الشعر في الاسلام قريش وكانت اقل العرب شعراً وشعراء — لاسباب نذكرها في الكلام على الشعر — فانها لما تعاضت واستبّت وكذب بعضها على بعض أول العهد بالاسلام حين كان منها المسلمون ومنها القاسطون ومنها دون ذلك وضعوا على حسان بن ثابت اشعاراً كثيرة لاتليق به ولا تجوز عليه وما نرى العرب الا اخذت اخذها في ذلك من بعد .

ولما كانت الرواية العلمية في القرن الثاني وثمر الرواة في طلب الشعر للشاهد والمثل استفاض الوضع في العرب وتفرغ قوم منهم لذلك كمحمد بن عبد الملك الفقعسي راوية بني اسد الذي وضع للرواة اشعاراً كثيرة ادخلها في روايته عن قومه وإن أشد ما كان يعضل بالرواية يومئذ ان يقول الرجل من ولد الشعراء في العرب عن لسان أبيه تكثيراً لشعره فان هذا كان مما يشكل عليهم لانهم لا يميزون اكثر الشعراء الا بالنسبة وهي محمل الصدق والكذب أما الصنعة الشعرية فقلما تختلف في أشعار العرب اختلافاً يظهر لاولئك

الرواة الا في القليل من صنعة الفحول المتقدمين . وكان القوم اذا تعلقوا برجل من ولد الشعراء وألحوا عليه في السماع ورغبوا في شعر أبيه دونه فكثيراً ما يفعل بهم مثل ذلك . ومن هؤلاء داود بن متمر بن نويرة الشاعر قال أبو عبيدة انه قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي من الجلب والميرة قال فأتيته أنا وابن نوح فسألناه عن شعر أبيه متمر وقمنا له بحاجته فلما نقد شعر أبيه جعل يزيد في الاشعار ويصنعها لنا واذا كلام دون كلام متمر واذا هو يحتذي على كلامه فيذكر المواضع التي ذكرها متمر والوقائع التي شهدها فلما توالى ذلك علمنا انه يفتعله

#### شعر الشواهد

وهو النوع الذي يدخل فيه اكثر الموضوع لحاجة العلماء الى الشواهد في تفسير الغريب ومسائل النحو وقد اشترط ذلك علماء المصرين ( البصرة والكوفة ) بعد ان قامت المناظرات بينهم في فروع النحو ومسائله وكانوا يستشهدون على ذلك باشعار الطبقتين من الجاهليين والمخضرمين ثم اختلفوا في الاسلاميين كجرير والفرزدق واكثرهم على جواز الاستشهاد بأشعارهم وكان أبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن اسحق والحسن البصري وعبد الله بن شبرمة يلحنون الفرزدق والكميت وذا الرمة وأضرابهم ويعدونهم من المولدين الذين لا يستشهد بكلامهم قال الاصمعي جلست الى أبي عمرو عشر حجج ماسمعه يحتاج بيت اسلامي . وأبو عمرو هذا كان يقول في شعر تلك الطبقة لقد حسن هذا المولد حتى هممت ان أمر صبياننا بروايته ..

والعلماء كلام كثير في الطبقات التي يجوز الاستشهاد بأشعارها من أهل الحضرة ولكن الثقات منهم مجمعون على أن ذلك لا يتجاوز تقرأ من طبقة المحدثين ممن ينتسبون في العرب وتقل ثعلب عن الأصمعي أنه قال ختم الشعر بإبراهيم بن هرمة وهو آخر الحجج . وتوفي ابن هرمة بعد الحسين ومائة وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية<sup>(١)</sup> . أما ما يذهب إليه بعضهم من أن سيبويه احتج بشعر بشار بن برد فالخبر في ذلك أن سيبويه عاب أحرفاً على بشار ونسبه فيها إلى الغلط كالوجلي من الوجلي وجمع نون (أي الحوت) على نينان فهجاه بشار قال أبو حاتم فتوقاه سيبويه بعد ذلك وكان إذا سئل عن شيء فأجاب عنه ووجد له شاهداً من شعر بشار احتج به استكفافاً لشره . (وتوفي بشار سنة ١٦٨ وقد نيف على التسعين) .

وشعر الشواهد في اصطلاح الرواة على ضربين شواهد القرآن وشواهد النحو . أما الأولى فكثيرة وقد تقدم مارووه من حفظ ابن الأنباري فيها ولا يبالي الرواة في هذه الشواهد إلا باللفظ فيستشهدون بكثير من كلام سفهاء العرب وأجلافيهم ولا يأنفون أن يعدوا من ذلك أشعارهم التي فيها ذكر الخنى والفحش لأنهم يريدون منها الالفاظ وهي حروف طاهرة وقد روى أبو حاتم عن الجرمي أنه أتاه أبو عبيدة معمر بن المثنى الراوية بشيء من كتابه في تفسير غريب القرآن الكريم قال الجرمي

(١) في رواية ابن قتيبة عن الأصمعي أنه قال ساقه الشعراء ابن ميادة وابن

فقلت له عن أخذت هذا يا أبا عبيدة فإن هذا تفسير خلاف تفسير الفقهاء فقال هذا تفسير الأعراب البوالين على أعقابهم فانت شئت فخذ وإن شئت فذر .

وأما شواهد النحو فأوسع الناس حفظاً لها فيما وقفنا عليه الأحمر النحوي المتوفى سنة ٢٠٧ وهو مؤدب الأمين بن الرشيد قال ثعلب أنه كان يحفظ أربعين ألف بيت شاهد في النحو سوى ما كان يحفظ من القصائد وأبيات الغريب . وأبو مسجل الأعرابي الذي أخذ عن الكسائي قالوا أنه روى عن علي بن المبارك أربعين ألف بيت شاهد على النحو

وقد قلت شواهد النحو واللغة بعد ذهاب الرواة وعفاء مجالسهم حتى صارت تشبه الآثار التاريخية في الضن بها والحرص عليها وتداولها كما هي لأن قيمتها في نفس الحالة التي هي عليها ومنشأ ذلك من تناقل الكتب بالرواية والاقتصار على ما فيها مبالغة في تحقيق الاسناد العالمي ولم يشتهر أحد في التأخرين بالكثرة من تلك الشواهد والاتساع في حفظها كابن مالك النحوي الشهير صاحب الألفية المتوفى سنة ٦٧٢ وكان قد أخذ العلم بنفسه وليس له في الانتماء ما غيره من العلماء<sup>(١)</sup> قال الذهبي في ترجمته «وأما اشعار العرب التي يستشهد بها على اللغة والنحو فكانت الأئمة الاعلام يتحIRON فيه ويتعجبون من أين يأتي بها ...» وهذه العبارة وحدها كافية في الوصف التاريخي الذي نحن فيه .

(١) قال أبو حيان وكان ابن مالك لا يهتمل المباحثة ولا يثبت المناقشة يريد بذلك أنه يتوقى التعبير بأنه صحفي على ما كان من أمر العلماء كما سبقت الإشارة إليه في موضعه

والكوفيون أكثر الناس وضماً للأشعار التي يستشهد بها اضعف  
مذاهبهم وتعلقهم على الشواذ واعتبارهم منها أصولاً يقاس عليها مجازاة لما  
فيهم من الميل الطبيعي الى الشذوذ كما سنبينه قال الاندلسي في شرح المفصل  
« والكوفيون لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه  
أصلاً وبوّبوا عليه بخلاف البصريين » وأول من سنّ لهم هذه الطريقة  
شيخهم الكسائي قال ابن درستويه كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز الا في  
الضرورة فيجعله أصلاً ويقيس عليه ما أفسد النحو بذلك .

ولهذا وأشباهه اضطر الكوفيون الى الوضع فيما لا يصيبون له شاهداً  
اذا كانت العرب على خلافهم وتجد في شواهدهم من الشعر ما لا يعرف قائله  
بل ربما استشهدوا بشطرييت لا يعرف شطره الآخر كالشاهد الذي  
يحتجوب به على جواز دخول اللام في خبر لكنّ وهو قول القائل  
المجهول \* وليكنني من حبتها لعميد \* واستمروا على الوضع حتى  
بعد ان استبحرت الرواية في أواخر القرن الثالث . قال المبرّد المتوفى سنة  
٢٨٥ وهو من البصريين قال لي ابو عكرمة الضبي ما يساوي نحوك عند  
ابن قادم شيئاً ( وابن قادم من الكوفيين ) قلت كيف قال لأن له لغة  
بخلاف هذه وشواهد من الشعر عجيبة فجعل ينشدني ويحدثني ويضحك  
فكان من ذلك أن قال لي سمعته يقول أرز ورز ثم أنشد

قرّبا يا صاح رنزه واجعل الاصل أوزّه

واصف القينات حقاً ليس في القينات عزّه



فقلت له من يقول هذا . قال بعض العرب المتحضرة فقلت بل بعض  
النبط المتقدرة . اهـ

ومن أجل هذا وأمثاله كان البصريون يغمزون على الكوفيين فيقولون  
نحن نأخذ اللغة عن حَرْشَةِ الضَّبَابِ وَأَكَلَةِ الْيَرَابِيعِ وَأَتَمُّ تَأْخِذُونَهَا عَنْ  
أَكَلَةِ الشَّوَارِيزِ وَالْكُوَامِيخِ<sup>(١)</sup> . على أن البصريين وإن ثبتوا في أشعار  
الشواهد فقد وقع لهم أشياء من الموضوع وجازت عليهم وهذا سيديويه الذي  
سمى كتابه «قرآن النحو» وقيل فيه أن شواهد أصح الشواهد سأل اللاحقي  
هل تحفظ للعرب شاهداً على إعمال فعل (الصفة) قال اللاحقي فوضعت  
له هذا البيت

حَذِرْ أُمُورًا لَا تَضِيرُ وَأَمِنْ      مَا لَيْسَ مُنْجِيَةً مِنَ الْأَعْدَاءِ  
وقال المبرد في الكامل<sup>(٢)</sup> وقد روى سيديويه بيتين محمولين على الضرورة  
وكلاهما مصنوع وليس أحد من النحويين المفتشين يجيز مثل هذا في  
الضرورة . . . والبيت الأول  
هَمْ الْقَائِلُونَ الْخَيْرَ وَالْأَمْرُونَهُ      إِذَا مَا خَشَوْا يَوْمًا مِنَ الْأَمْرِ مُعْظَمًا  
والثاني :

---

(١) حرش الضب صاده . واليربوع دويبة . والشواريز الالبان الثخينة .  
والكوامبخ المخللات يشهى بها الطعام . والمراد الأخذ عن أعراب البادية الجفاة  
وأعراب الأسواق الضعفاء

(٢) كان المبرد من أجل علماء البصريين وقد أفرد كتاباً في القدح في  
كتاب سيديويه والغرض منه أما الكوفيون فإنهم لا يعدون كتاب سيديويه شيئاً . . . !

ولم يرتفق بالناس منتضرونه جميعاً وأيدي المشتفين رواهقة  
وقال الجرمي في كتاب سيبويه الف وخمسون بيتاً سألته عنها فعرف  
الفا ولم يعرف الحسين<sup>(١)</sup>. أما شواهد اللغة والغريب فلم يحصها الرواة لأن  
مادتها أكثر شعر العرب ولأن اللغة لم تكن علماً برأسه.

### ﴿ شواهد أخرى ﴾

وهنا ضرب ثالث من الشواهد نشأ في القرن الثالث وهو ما يولده  
بعض المعتزلة والمتكلمين للاستشهاد به على مذاهبهم وكانت رواية الشعر

(١) ذكر العلامة اللغوي المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطي نزبل مصر  
المتوفى بها سنة ١٣٢٣ في حماسته المطبوعة انه عالم واحداً من هذه الخمسين وهو قول  
القاتل أبعد كندة تمدحن قبيلة قال وهو لامرئ القيس من قصيدة أوردتها  
هناك في ثمانية عشر بيتاً وذكر انه نقلها مع شرح ديوان امرئ القيس رواية أبي  
سهل بن خراش بن داود عن أبي جعفر الكوفي ثم قال وليكون الديوان برواية الكوفيين خفي على  
البصريين وغيرهم معرفة قائل الشاهد المذكور مع شهرته ومسايقه الناس الى حفظ أشعاره.  
قلنا ولكن الشيخ رحمه الله ذهب عنه ما روي عن يونس بن حبيب الضبي من  
ان علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس وان أهل الكوفة كانوا يقدمون الاعشى.  
وقد دفع البصريون أشعاراً لأمرئ القيس وزهير وغيرهما مما انفرد بروايته الكوفيون  
وأورد العسكري شيئاً من ذلك في كتابه التصحيف . والتصحيح ان تلك الايات  
موضوعة على امرئ القيس لنزولها عن طبقة وظهور الصنعة والتوليد فيها ولا بد ان  
تكون الخمسون أو معظمها من هذا الطراز .

وقد اثبتنا هذه الكلمات لهذه الفائدة ثم لنذكر المرحوم الشنقيطي فانه آخر من ضمه  
التاريخ ممن يمكن ان يوصف ببعض صفات الرواة المتقدمين

فيهم يومئذ عامة . قال ابن قتيبة في ( التأويل ) وفسروا القرآن بأعجب تفسير يريدون ان يردوه الى مذاهبهم ويحملوا التأويل على نحلهم فقال فريق منهم في قوله تعالى « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ » أي علمه وجاؤا على ذلك بشاهد لا يعرف وهو قول الشاعر ولا يكرني علم الله مخلوق ... وتقل الجاحظ في الحيوان انهم يدفعون أن الرجوم كانت حجة للنبي صلى الله عليه وسلم واحتجوا على ذلك بأن عرب الجاهلية رأت الرجوم ووضعوا أشعاراً في ذلك منها ما نسبوه لآوس بن حجر وهو قوله

فاتقض كالدرى من متحدر لمع المقيمة جنح ليل مظلم  
قال الجاحظ فخبّرني أبو اسحق ان هذا البيت في أبيات أخر لأسامة صاحب روح بن همام وهو الذي كان ولّدها .  
ونجزيء من الكلام عن شعر الشواهد بهذا المقدار لانه جماع الباب كله على كثرة شواهد ، وتوفر فوائده

### الرواة الوضّاعون للشعر

وكان من الرواة قوم انفردوا بعلم قبائل العرب وأخبارها وأشعارها وما اليها وغلب ذلك عليهم حتى لم تكن اليهم حاجة الا فيه وهؤلاء هم الذين فتقوا بالسنتهم هذه الفتوق في الادب وليس يخفى ان الحاجة وسيلة الى الاختراع وان من كثرت اليه الحاجة في أمر من الامور كان خليفاً ان يكون رأس هذا الامر والغاية فيه وهيئات هيئات لذلك الا اذا استبدت بفنه وأحكمه بأسره ووجد الناس عنده منه ما لا يجدون عند غيره . وقد

كانت علوم أولئك النفر قاطبة تدور على الخبر والشعر وليس في ذلك عندهم أكثر من الاستمتاع باللفظ الحسن والمعنى الطريف مما لا يبني عليه دين ولا يدخل الناس منه في حرج ولا يكون فيه من بعد الإفساد التاريخ العربي وأهون بذلك ما دام هذا التاريخ قائماً بالتأويلات والمفاخرات والمناشدات وبكل ما نسخه الاسلام أو أنساه أو جاء بخير منه وليست الغاية من أكثره إلا ضرباً من السمر ونوعاً من لهو الحديث وقد تزيد فيه العرب أنفسهم وهم مصدر الرواية وقدوة الرواة<sup>(١)</sup>. وهذا هو السبب في أنك لا تكاد تجد للجاهلية تاريخاً صحيحاً ولا ترى فيما تصفحه إلا التكايب والمبالغات وما يتصل بها لأن مثل هذا العلم قريب أسباب المظمة لا يكف عنه بأس ولا يدفع دونه عي ما دام قد تعاطاه أمثال أولئك الرواة من كل بصير بمذاهبه متحقق بمناقبه ومن حذق شيئاً لم يصبر عن الزيادة منه .

فأما الاخباريون الوضاعون فستعرف أمرهم وأما اهل الشعر فهم يضعون منه ثلاثة أغراض للشواهد على المعلوم — وقد مرّ الكلام عليها — والشواهد على الاخبار . والاتساع في الرواية .

#### ❦ الشواهد على الاخبار ❦

وقد نشأ هذا النوع من الاستشهاد بالشعر على التفسير والحديث وعلى كل ما قامت به الرواية في الصدر الاول حتى قرّ في أوهام الناس ان

---

(١) في مثل هذا يقول الرواة اذا كانت الكلمة حسنة استمتعنا بها على قدر ما فيها من الحسن .

مألا شاهد له من كلام العرب لا ثقة به كائناً ما كان علماً أو خبيراً وكانت  
الامة لا تزال على إرث من الفطرة العربية في اعتبار الشعر وتمجيده  
والاهتزاز له ثم كان ذلك عاماً في سواد الناس من الخلفاء فمن دونهم فلما  
كثر القصاصون وأهل الاخبار اضطروا من أجل ذلك ان يصنعوا الشعر  
لما يلفقونه من الاساطير حتى يلائموا بين رقعتي الكلام وليجحدوا تلك  
الاساطير من أقرب الطرق الى أفئدة العوام فوضعوا من الشعر على آدم فمن  
دونه من الانبياء وأولادهم وأقوامهم وأول من أفرط في ذلك محمد بن اسحق  
بن يسار مولى آل مخزومة المتوفى سنة ١٥٠ وكان من علماء السير والمغازي<sup>(١)</sup>  
فكان الناس يعملون له الاشعار فيحمل منها كل غناء ويعقد قوافيها على  
الهواء وقد كتب في السيرة من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط  
وأشعار النساء ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود فكتب لهم أشعاراً كثيرة حتى  
صار فضيحة عند علماء السير ورواة الشعر وكان في عصره جماعة من القصاصين  
يأتون بمثل تلك الاشعار على وهنها وتداعيا ويعزونها الى القدماء ثم  
يزعمون انهم أخذوها من الصحف ويروونها للامم البائدة وغيرهم فكان  
راوية ذاك العصر أبو عمرو بن العلاء يقول لو كان الشعر مثل ما وضع  
لابن اسحق ومثل ما يروي الصحفيون ما كانت اليه حاجة ولا كان  
فيه دليل على علم

---

(١) ولم يعرف قبل ابن اسحق أحد وضع الشعر على أمم مختلفة وانما كان قبله  
يزيد بن ربيعة بن مفرغ وهو في أيام يزيد بن معاوية وقد وضع أشعاراً نسبها الى تبع  
من ملوك حمير وعمل له سيرة وسنذكر ذلك في الكلام على التزييد في الاخبار

﴿ شعر الجن وأخبارها ﴾

والقصاصون انما قلدوا في ذلك الأعراب ايضاً وذهبوا مذاهبهم  
فللأعراب شعر كثير يزعمونه للجن ويعقدون له الاخبار وقد تناقله عنهم  
الرواة وتظرفوا به في الاحاديث وأمثله كثيرة

وكان أبو اسحق المتكلم من أصحاب الجاحظ يقول في الذي تذكر  
الأعراب من عزيز الجنان وتفوّل الغيلان : أصل هذا الامر وابتدأؤه  
ان القوم لما نزلوا ببلاد الوحش عملت فيهم الوحشة ومن انفرد وطال  
مقامه في الفلاة والخلاء والبعد من الانس استوحش ولا سيما مع قلة الاشتغال  
والمذاكرين . والوحدة لا تقطع أيامهم الا بالمني والتفكير والفكر ربما كان  
من أسباب الوسوسة وقد ابتلي بذلك غير حاسب . . وخبرني الاعمش انه  
فكر في مسألة فأنكر أهله عقله حتى حمّوه ( من الحمية ) وداووه وقد  
عرض ذلك لكثير من الهند واذا استوحش الانسان مثل له الشيء الصغير  
في صورة الكبير وارتاب وتفرق ذهنه وانتقضت أخلاطه فيرى ما لا يرى  
ويسمع ما لا يسمع ويتوهم على الشيء الصغير الحفير انه عظيم جليل . ثم  
جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعراً تناشدوه وأحاديث توارثوها فازدادوا  
بذلك ايماناً ونشأ عليه الناشء وربى به الطفل فصار احدهم حين يتوسط  
الفيافي وتشتمل عليه الغيطان في الليالي الحنادس فعند أول وحشة أو فزعة  
وعند صباح يوم ومجاوبة صدى تجده وقد رأى كل باطل وتوهم كل زور  
وربما كان في الجنس وأصل الطبيعة نفاجاً كذاباً وصاحب تشنيع وتهويل

فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة فعند ذلك يقول رأيت  
الغيلان وكلت السعلاة ثم يتجاوز ذلك الى أن يقول قتلها ثم يتجاوز ذلك  
الى أن يقول رافقتها ثم يتجاوز ذلك الى أن يقول تزوجتها . . ومما زادهم  
في هذا الباب وأغراهم به ومدّ لهم فيه انهم ليس يلقون بهذه الاشعار  
وبهذه الاخبار الا أعرابياً مثلهم والا غيباً لم يأخذ نفسه قط بتميز ما يوجب  
التكذيب أو التصديق أو الشك ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت في هذه  
الاجناس قط وأما ان يلقوا راوية شعر أو صاحب خبر فالرواة عندهم كلما  
كان الأعرابي اكذب في شعره كان أظرف عندهم وصارت روايته أغلب  
ومضاحيك حديثه أكثر .

والامر قريب مما قاله ابو اسحق فان أخبار الجن لا تعرف الا عن  
رجل من الأعراب او رجل من الرواة الذين يقصون للعامة وأشباه العامة  
وقد يأتي القليل من ذلك عن الراوية الثقة يريد به الاغراب في حديث ان  
جاء به وشعر ان انشده ليدر الكلام على روعة تؤكد معناه وتجعله طريفاً  
غريباً فكأنه يستعين على بيان غرضه بضرب من التخيل كما يستعين الكاتب  
أو الشاعر بمثل من المجاز . ولقد أفرط رواة الاسلام من اهل الاخبار في  
مزاعمهم عن الجن ونسبوا اليها كل غريب وكل عظيم لانها مظنة كل ذلك  
في أوهامهم وقفى على آثارهم جماعة من المتصوفة حتى عينوا أول من أسلم  
من الجن وهو بزعمهم ( هامة بن الهام بن لاقيس بن ابليس . . . ) وأول  
نبي أرسل الى الجن فيما قالوا ( عامر بن عمير بن الجان ) فقتلوه وقتلوا بعده  
٨٠٠ نبي .

والغرائب من هذا النمط كثيرة وما نراها استفاضت في الاسلام الا بعد ما ذكره جهلة المفسرين وأهل القصص ممن تكلموا في تفسير ما ورد في القرآن الكريم من الاشارة الى الجن أو ما جاء من ذلك في الحديث الشريف أو ما يشبه ذلك<sup>(١)</sup> ولا بد لكل كلام عندهم من شعر يُستشهد به على ما عرفت ولا أبلغ في ذلك ولا أدعى الى الرضى من شعر الجن انفسهم وقد سبقهم الى بعضه لأعراب فلم يبق الا ان ينفوا عنه تلك اللؤنة الاعرابية ويرفقوا حواشيه ويلائموا بينه وبين ما هم بسبيله من العلوم القديمة التي ادعى غيرهم من اهل الكتاب ان بعضها إلهي نزل من السماء وادعوا هم ان سائرها شيطاني خرج من الارض

على ان نادرة النوادر من ذلك في التاريخ العربي كله انما هو ما جاء به ابوالسري سهل بن ابي غالب الخزرجي الشاعر المفلق الذي كان في اواخر القرن الثاني فانه نشأ بسجستان ثم ادعى رضاع الجن وانه صار اليهم ووضع كتاباً ذكر فيه امر الجن وحكمتهم وأنسابهم وأشعارهم وزعم انه بايعهم الامين بن هرون الرشيد بالمعهد فقربه الرشيد وابنه لامين وزيدة ام الامين وبلغ معهم وافاد منهم ثم جعل يتنفق عندهم بما يضعه من الشعر الجيد على السنة الجن والشياطين والسعالى وقال له الرشيد ان كنت رأيت ما ذكرت

---

(١) من تفسير مقاتل بن سليمان في غزوة بدر وهي أفضل غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم انه « لم يجتمع جمع قط منذ كانت الدنيا اكثر من يوم بدر وذلك ان ابليس جاء بنفسه وحضره الشياطين وحضره كفار الجن كلهم ... وتسعون من مؤمني الجن وألف من الملائكة الخ فتأمل



فقد رأيت عجباً وان كنت ما رأيته فقد وضعت ادباً .  
ولكل ما أومأنا اليه في هذا الفصل امثلة كثيرة من الشعر والخبر  
أضربنا عنها خوف الاطالة بما لا طائل تحته ولو كان فيها شيء غير إنسي  
لجئنا به . . . اما ما يتعلق بزعمهم في شياطين الشعراء فقد امسكنا الكلام  
عنه الى بابها فان له ثمة موضعاً .

### ❦ الانساع في الرواية ❦

وهو سبب من اسباب الوضع يقصد به فحول الرواة ان يتسعدوا في  
روايتهم فيستأثروا بما لا يحسن غيرهم من ابوابها ولذا يضعون على فحول  
الشعراء قصائد لم يقولوها ويزيدون في قصائدهم التي تعرف لهم ويدخلون  
من شعر الرجل في شعر غيره هوى وتعتتاً ورأس هذا الامر حماد الراوية  
الكوفي المتوفى سنة ١٥٥ وقد لقب بالراوية لهذا الانساع . قال المفضل  
الضبي سُلِّط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح ابداً فقيلاً له  
وكيف ذلك أخطى في روايته أم يلحن قال ليته كان كذلك فان أهل العلم  
يردون من أخطأ الى الصواب ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها  
ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل  
ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا  
يتميز الصحيح منها الا عند عالم ناقد وأين ذلك<sup>(١)</sup>

(١) من ذلك ان حماد اقدم على بلال بن أبي بردة بالبصرة وعنده ذو الرمة  
فأنشده حماد شعراً مدحه به فقال بلال لذي الرمة كيف ترى هذا الشعر قال جيد

وكان حماد أول من جمع اشعار العرب وساق احاديثها فلا جرم انه كان رأس الوضاعين لما يقتضى لصنعة الجمع الذي يراد به الاتساع والاستثثار من الزيادة في شعر المقل حتى يكثر ونسبة ما يكون للخامل من الشعراء الى المشهور حتى يروى شعره ونحو ذلك . وكان حماد يضع من الشعر ليقربه الى بعض الامراء زلفى كالذي حدثوا به عن يونس قال قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة فقال ما أطرفني شيئاً فعاد اليه فأنشده القصيدة التي في شعر الخطيئة مديح أبي موسى فقال ويحك يمدح الخطيئة أبا موسى ولا أعلم به وأنا أروي شعر الخطيئة ولكن دعها تذهب في الناس<sup>(١)</sup> وكان أبو موسى جد بلال لان أبا بردة ابنه . واخذ في مذهب حماد خلف الاحمر المتوفى سنة ١٨٠ وهو أول من احدث السماع بالبصرة فيما سمعه من حماد

وليس له قال فمن يقوله قال لا أدري الا انه لم يقله فلما قضى بلال حوائج حماد وأجازه قال له ان لي اليك حاجة قال هي مقضية فقال أنت قلت ذلك الشعر قال لا قال فمن يقوله . قال بعض شعراء الجاهلية وهو شعر قديم وما يرويه غيره قال فمن أين علم ذو الرمة انه ليس من قولك قال عرف كلام أهل الجاهلية من كلام أهل الاسلام .

(١) يريد أبا موسى الاشعري والقصيدة مثبتة في ديوان الخطيئة وهي اربعة

عشر بيتاً مطلعها

هل تعرف الدار مذ عامين أو عام دار لهند بمجزع الحزج فالدام  
والبصير بالشعر ومذاهبه اذا قرأ شعر الخطيئة أخرج هذه القصيدة منه لانها  
تقليد ومقاربة وان كان المدائني قد صحح انها للخطيئة في أبي موسى ونفى ان يكون  
حماد نحلها الخطيئة تقرّباً الى بلال فان نفّس الشاعر أصدق في نسبة كلامه من  
السنة الرواة .

كما مر وقد سلك في البصريين مذهب حماد في الكوفيين غير ان اكثر ما وضعه من الشعر انما خص به أهل الكوفة فرووه عنه وكان خلف أفرس الناس بيت شعر وأعلمهم بمذاهب الشعراء ومعانيها وأبصرهم بوجوه الاختلاف بين ما يميز به شاعر وشاعر فاذا عمد الى المحاكاة فيما يضعه اشبه كل شعر يقوله بشعر الذي يصنع عليه حتى لا يتميز منه وحتى لا يكون من الفرق بينهما الا فرق التعدد الطبيعي الذي لا يدرك في الجوهر الواحد كالفرق بين الروح والروح . وكان تقاذه في ذلك سريعاً بمقدار ما أوتي من سرعة البديهة ودقة الحس البياني حتى ضربوا به المثل وهو في باب معاني الشعر ومذاهب الشعراء معلم أهل البصرة جميعاً لا يصدرون الرأي في شعر دونه حتى ان مروان بن أبي حفصة لما مدح المهدي بشعره السائر الذي أوله طرقتك زائرة فخيألها أراد ان يعرضه على تقاد البصرة فدخل المسجد الجامع فتصفح الحلق فلم ير حلقة أعظم من حلقة يونس النحوي فجلس اليه فعرفه خبره ثم استأذنه ان يسمعه فقال يونس يا ابن أخي ان هنا خلفاً ولا يمكن احدنا ان يسمع شعراً حتى يحضر فاذا حضر فأسمعه . وقد وضع خلف قصائد عدة على فحول الشعراء ذكروا منها قصيدة الشنفرى<sup>(١)</sup> المشهورة بلامية العرب التي أولها

---

(١) الشنفرى شاعر جاهلي من بني الحرث بن ربيعة وهو من لصوص العرب وصاحبه في التلصص ابن أخته تأبط شرا وعمر و بن براق وكان الثلاثة اعدى العدائين في العرب لا تلاحقهم الخيل اذا عدوا وقد وضع خلف على تأبط شرا ايضاً قصيدة مشهورة زعم انه رثى بها خاله والله أعلم

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فاني الى قوم سواكم لا ميل  
وما شبه ان تكون هذه القصيدة أو أكثرها كذلك . وقال الاصمعي  
سمعت خلفا يقول أنا وضعت على النابغة هذه القصيدة التي فيها  
خيلٌ صيامٌ وخيل غير صائمة تحت العجاج وأخرى تملك الأجماء  
وهو من أبيات الشواهد . وله قصائد أخرى نص على بعضها العلماء  
ويبنوا أنها مصنوعة وقد وضع على شعراء عبد القيس شعراً كثيراً وقال  
الجاحظ انه هو الذي أورد على الناس نسيب الاعراب وهذا النسيب من  
أرق الشعر قاطبة وما أحراه ان يكون مصنوعاً . ثم قالوا ان خلفا نسك  
في آخر أيامه فخرج الى اهل الكوفة فعرفهم الاشعار التي قد ادخلها في اشعار  
الناس فقالوا له أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة فبقيت  
الاشعار على حالها اذ كان الامر قد مضى لوجهه وهكذا لا يملك الانسان  
من آخرة الكذب ما يملك من أولاه .

وانما امتاز اهل الكوفة بكثرة الشعر والاتساع في روايته لان ذلك  
ميراث فيهم منذ نزلها العرب حتى ان عليا كرم الله وجهه لما رجع بهم من  
قتال الخوارج على ان يستعدوا لقتال اهل الشام ثم تخاذلوا عنه لم ير ابلغ  
في ذمهم من صفة التشاغل بالشعر فقال في خطبته حين خطبهم « اذا تركتم  
عدتم الى مجالسكم حلقاً عزين (جماعات) تضربون الامثال وتناشدون الاشعار  
تربت ايديكم وقد نسيتم الحرب واستعدادها واصبحت قلوبكم فارغة من  
ذكرها وشغلتموها بالأباطيل والأضاليل » . وكان الشعر علم اهل الكوفة  
حين كانت العربية علم اهل البصرة لان العربية لم تكثر عند أولئك الا

بآخرة كما سنبينه بعد وللكوفيين رواية قديمة في الشعر وكان الخشمي راويتهم فيه قبل حماد ومعه ابو البلاد الكوفي وهما في خلافة عبد الملك بن مروان ولم يشتهروا برواية الشعر الا في أيامهما. بيد ان حماداً جعل لامتياز الكوفيين بالشعر اصلاً تاريخياً فزعم ان النعمان بن المنذر أمر فנסخت له اشعار العرب في الكراريس ثم دفعها في قصره الأبيض فلما كان المختار بن ابي عبيد الثقفي<sup>(١)</sup> قيل له ان تحت القصر كنزاً فاحتفره فأخرج تلك الاشعار قال فمن ثم اهل الكوفة اعلم بالشعر من اهل البصرة . . .

ولما اشتغل هؤلاء الكوفيون بعلم العربية وكان في طبعهم الشذوذ كما ستعرفه سهل عليهم قبول الشواذ ولم يتخرجوا من الصنعة للاستشهاد لان الصنعة من شذوذ الرواية ايضاً فزاد ذلك في الشعر عندهم ومن اشهر رواتهم بعد حماد خالد بن كلثوم الكابي وله صنعة في الاشعار المدونة على القبائل وقد ألف فيها كتاباً وابو عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢٠٦ وقد جاوز المئة بعقد وعنه اخذت دواوين اشعار القبائل كلها وقد جمع نيفاً وثمانين قبيلة وليس في الرواة جميعاً من يداني حماداً وخلفاً في الصنعة واحكامها فهما طبقة في التاريخ كله وانما يكون لغيرهما البيت الواحد والايات القليلة مما لا تقتضح صنعته يضعونه لتوجيه الحجة وتزيين الخبر ونحو ذلك ومن هؤلاء

---

(١) وثب المختار بالكوفة سنة ٦٦ في سلطان ابن الزبير وأخرج منها عامله فوجه اليه ابن الزبير اخاه مصعباً فقتله سنة ٦٧ وكان يزعم ان جبرائيل عليه السلام يأتيه وهو من رؤس المتن التي نجمت في الاسلام . والكوفة قد بنيت بظاهر الحيرة وكانت مقراً للنعمان بن المنذر .

ابو عمرو بن العلاء قال مازدت في شعر العرب الا بيتاً واحداً يعني ما يروى  
للاعشى من قوله

وانكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث الا الشيب والصلماً<sup>(١)</sup>

وهو من ابيات الشواهد . ومنهم الاصمعي وابو عبيدة واللاحق  
وقطرب وغيرهم . وقد يجد الرواة للشاعر الايات الحسنة في المعنى  
الجيد وهي تحتمل الزيادة فيصنعون عليها ويولدون حتى تبلغ قصيدة كأيات  
الطيرة للحارث بن حنظلة وهي اربعة ايات ولكنهم جعلوها قصيدة طويلة  
قال ابو عبيدة انشدنيها عمرو وليست الا هذه الايات وسائر القصيدة  
مصنوع مولد وتلك قوله

يا ايها المزيع ثم انثنى	لا يثنيك الحادي ولا الشاحج
ولا قعيد اعضب قرنه	هاج له من مربع هائج
بيننا الفتى يسعى ويسعى له	تاح له من امره خالج
يترك مارقح من عيشه	يعيش منه همج هائج <sup>(٢)</sup>

(١) هذه رواية أبي الطيب اللغوي ينسب فيها وضع البيت لابي عمرو ولكن  
صاحب العقد الفريد نقل ان حماداً كان يقول ما من شاعر الا وقد حققت في شعره  
أبياتاً فجازت عنه الا الاعشى أعشى بكر فاني لم أزد في شعره قط غير بيت . قيل له وما  
البيت فقال (وانكرتني وما كان الذي نكرت) الخ . ورواية أبي الطيب أوثق وأصح

(٢) الحادي مقلوب الحائد وهو في الطيرة ما استقبلك من تجاهك من الطير  
والوحش والسائح ما ولاك ميامنه والبارح ما ولاك مياسره والقعيد الذي يأتيك من خلفك  
والشاحج الغراب المسن الذي غلظ صوته وهو من شر ما يطيرون به كالثور الاعضب  
وهو المكسور القرن . وترقيح المال اصلاحه والقيام عليه حتى ينمو

وقد يزيدون في القصيدة ويبعدون بآخرها متى وجدوا لذلك  
باعثاً كقصيدة أبي طالب التي قالها في النبي صلى الله عليه وسلم وهي  
مشهورة أولها

خليلي ما أذني لأول عاذل بصغواء في حق ولا عند باطل  
قال ابن سلام زاد الناس في قصيدة أبي طالب وطولت بحيث لا يدرى  
أين منهاها وقد سألتني الأصمعي عنها فقلت صحيحة فقال أتدري أين  
منهاها قلت لا . قلنا وإنما طولت هذه القصيدة معارضة للطوال المعروفة  
( بالملقات ) حتى لا يكون من شعر الجاهلية ما هو خير مما قاله عم النبي  
صلى الله عليه وسلم . ولكن في أصلها أبياتاً هاشمية تفي بكثير من الطوال .  
ولما كان علم العرب كله في البصرة والكوفة بعد أن نشأت الرواية  
لم يكن الناس يأبهون لما يظهر في غيرها فكانت تسقط أخبار الوضاعين  
في الأمصار لذلك الا قليلاً يأتي عن بعض علماء البلدين كالذي ذكره  
الأصمعي قال أقمت بالمدينة زماناً ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة الا  
مصحفة أو مصنوعة وكان بها ابن دأب يضع الشعر وأحاديث السمر وكلاماً  
ينسبه الى العرب فسقط وذهب علمه وخفيت روايته وهو عيسى بن يزيد  
يكنى أبا الوليد وكان شاعراً وعلمه بالاخبار أكثر .

ولما فشا أمر الصنعة في الشعر جعل المتأخرون يضعون القصيد  
والرجز وينسبونه لمن اشتهروا بالوضع من المتقدمين كخلف أو بالاتساع  
في الرواية كالأصمعي لان من أجاز على الناس أجاز الناس عليه وما من ظالم  
الا سيُلبى بأظلم وأخذ القصاص أيضاً في هذه الناحية فصنعوا الاخبار

الكثيرة وأسندوها الى علماء الانساب والاختباريين ليعطوها بذلك معنى التاريخ الذي تثبته الرواية .

### ❦ ضرب من الوضع ❦

وضرب آخر من الوضع سنه الادباء فيما يتكلفون له من الشعر والرسائل والخطب<sup>(١)</sup> اذا عرضوا ذلك يطلبون فيه رأي النقادين وأهل البصر بالكلام وان يعرفوا موقع ما يأتون به من الاستحسان ومبلغ مجرد الهوى في الحكم عليه . قال الجاحظ يزين هذه الطريقة : فان أردت ان تكلف هذه الصناعة وتنسب الى هذا الادب فقرضت قصيدة أو حبرّت خطبة أو ألّفت رسالة فإياك ان تدعوك ثقتك بنفسك وعجبك بثمره عقلك الى أن تنتحله وتدّعيه ولكن اعرضه على العلماء « في عرض رسائل أو أشعار أو خطب » فان رأيت الاسماع تصغي له والعيون تمدج اليه ورأيت من يطلبه ويستحسنه فانتحله . قلنا ولعلم لا يطلبونه ولا يستحسنونه

( ١ ) لم تناول الرواية من المشور غير الخطب لان الرسائل لم تكن في الجاهلية ولا كان ما يصنعه الاسلاميون منها مما له متعلق في غرض من أغراض الرواية الا عند الاختباريين ( المؤرخين ) ولهذا لم يكن الوضع في المشور الا على الخطباء خاصة وأكثر ما يكون الوضع من ذلك في الكلام المغمور أهله الذي لا يدور على اللسان وان كان سرّياً شريعاً لان جميع القائلين لم يرزقوا الحظ في ذلك على السواء وقد قال الجاحظ : ما علمت انه كان في الخطباء أحد أجود خطباً من خالد بن صفوان وشيب بن شبة الذي يحفظ الناس ويدور على ألسنتهم من كلامهما وما علمنا ان أحداً ولّد لهما حرفاً واحداً . اهـ



فيخرج عندهم مخرج المتروك وينتفي منه قائله ولا ينفيه فحسى ان يكون فيمن سمعه من يحفظه مدخولاً أو يرويه منحولاً ويجريه مع سائر القصيدة أو الخطبة أو الرسالة ان كان في شيء من ذلك على انه بعضه أو يحفظ نسبته ان كان في كلام متفرق ويكون ذلك سبب وضعه ثم يمر في الافواه فتصقله ويلقيه الزمن بعد ذلك لمن ينقله ولا شك عندنا أن مثل هذا في تاريخ الوضع قول ومذهب .

### التعليق على الكتب

وهنا نوع من الرواية الموضوعة كان يذهب اليه بعض المتأخرين وذلك ان الواحد منهم ربما ألحق الايات للشاعر المتأخر ببعض العرب ويلقى ذلك على كتاب عنده أو ينحل الشاعر أياتاً لغيره ثم يدسها في ديوان شعره على ان يكون هذا مما يكاد به لذلك الشاعر حسداً له وتقاسة عليه أو عبثاً يلهو به من يفعل ذلك أو لسبب مما يجري هذا المجرى وقد اختلف العلماء في اشيء من هذا الجنس قال المعري في كتاب ( عبث الوليد ) وحكى بعض الكتاب أنه رأى كتاباً قديماً قد كتب على ظهره « أنشدنا احمد بن يحيى عن ثعلب من الجآذر في زبي الرعايب <sup>(١)</sup> » وذكر خمسة أيات من اول هذه القصيدة وهذا كذب قبيح واقتراء بين وانما فعله مفرط الحسد قليل الخبرة بمظان الصواب غرضه ان يلبس على الجهال . وقد رويت ايات ابي عبادة ( البحري ) التي في صفة الذئب لبعض العرب

( ١ ) . طالع قصيدة المتنبي في كافور .

ويجب ان يكون ذلك كذباً مثل ما تقدم . وقد نسبوا الايات التي في صفة الذئب الى عبد الله بن انيس صاحب النبي صلى الله عليه وسلم وهو من بني الترك راشد بن وبرة ولا ريب ان ذلك باطل . والشواهد من هذا النوع غير قليلة .

### الشوارد

ومن الشعر نتف قليلة تقع في البيتين والثلاثة ويسمى الرواة بالشوارد لانهم لا يعرفون نسبتها بل يروونها على انها مرسلة لا ارباب لها وهي نادرة في الشعر لانهم لا يحفلون بما جهلوا نسبه كما مر في موضعه . بيد أنه متى كانت الايات لا شاهد فيها وكانت جيدة حسنة السبك رصينة المعنى طليّة العبارة عدوها من الشوارد لتجوز من هذا الباب الى الرواية فمن ذلك ما رواه ابو عبيدة : قال من الشوارد التي لا ارباب لها قول بعضهم :

إن يغدروا أو يفجروا      أو يخلوا لم يحفلوا  
يغدوا عليك مرجّلين      كأنهم لم يفعلوا  
كأبي براقش كل يو      م لونه يتبدّل

### اختلاف الروايات في الشعر

وقد كان العرب ينشد بعضهم شعر بعض ويجري كل منهم في النطق على طبعه ومقتضى فطرته اللغوية فمن ثم يقع الاختلاف الصرفي واللغوي

الذي نراه في بعض الروايات وقد يغير العربي فيما يمثله من الشعر كلمة بأخرى يراها أليق بموضعها وأثبت في معناها أو تكون الكلمة قد أصابت هوى في نفسه لأنهم إنما يمثّلون الشعر لغير الغرض اللغوي الذي قامت به الرواية وذلك كقول أبي ذؤيب الهذلي

دعاني إليها القلب إني لأمره مطيعٌ فما أدري أرشدٌ طلابُها  
وهي رواية أبي عمرو بن العلاء ولكن الأصمعي رواه على تقيض هذا المعنى فقال (عصاني إليها القلب) البيت . وظاهر أن هذا التناقض في الرواية لا يكون من الشاعر وإنما هو تفاوت في الاستحسان لا غير . وكان الرواة ينقلون الشعر على ما يكون فيه من مثل هذا الاختلاف ولا يبالون أمره لأنهم يريدون لغة الشعر والشعر متى جاء عن أعرابي كان حجة لأن لسان العربي لا يطوع بغير الصواب وبهذا تختلف الروايات في بعض الأبيات وهي في الأصل غير مختلفة .

ومن أسباب الاختلاف أن الشعراء في الصدر الأول كانوا يعتمدون على الحفظ ولكنهم لا يثبتون من شعرهم كل لفظ بعينه بل ربما أنشد الرجل منهم أبياتاً فتروى عنه ثم تأتي الأيام فينسى بعض الفاظها فلا يكون إلا أن يضع غيرها ثم ينشد الأبيات على وجه آخر فتروى أيضاً ومن ثم تجتمع الروايتان في شعره أو الروايات المختلفة ولهذا قال ذو الرمة لعيسى بن عمر الثقفي اكتب شعري فالكتاب أحب إلي من الحفظ لأن الأعرابي ينسى الكلمة قد سهر في طلبها ليلته فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثم ينشدها الناس والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام .

ومن الرواة من كان يغيّر في الفاظ بعض الأبيات لتوجيه حجته وانهاض دليله فيروى عنه البيت على وجهه المغيّر وذلك فاش بينهم وخاصة في رواية الكوفيين ومنهم من كان يغير في الدواوين المكتوبة ليُعذر بها عند الخلاف ويقيم منها الحجة على الرواية الصحيحة فيكون ذلك سبباً في الاختلاف . ولا تنس ما ينشأ عن التصحيف في الكلمات المتشابهة فانه من بعض اسباب الاختلاف ايضاً وشواهد كثيرة في كتاب التصحيف للعسكري وهذا وذاك غير ما يكون من تزيد بعض الرواة في الشعر حتى يخرج الى الوضع والصنعة كما مر في محله ثم يجي، غيره فينقص أو يزيد ويقدم أو يؤخر ويعقبهما ثالث فيصيب أبياتاً حسنة على روي تلك القصيدة فيدسها فيها ويرويها على انها منها ثم يأتي رابع فيرى اختلاف النسبتين في القصيدة الواحدة فيسقطهما جميعاً وينحلها شاعراً آخر وهكذا . ومما استجمع كل ذلك الاختلاف هذه القصيدة التي أولها

تقول ابنة العبيّ قد شبت بعدنا وكل امرئ بعد الشباب يشيب  
ومنها شاهد النجاة المشهور « لعلّ أبي المغوار منك قريب » وهي  
مرثية رواها القالي في أماليه وقال قرأت على أبي بكر محمد بن الحسن بن  
دريد هذه القصيدة في شعر كعب الغنوي الى ان قال وبعضهم يروي هذه  
القصيدة لكعب بن سعد الغنوي وبعضهم يرويها بأسرها لسهم الغنوي  
وبعضهم يروي شيئاً منها لسهم وزاد احمد بن يحيى عن أبي العالقة في أولها  
يبتين . قال وهوّلا، كلهم مختلفون في تقديم الأبيات وتأخيرها وزيادة  
الايات وتقصاتها وفي تغيير الحروف في متن البيت وعجزه وصدره . ثم

قال والمرثي بهذه القصيدة يكنى أبا المغوار واسمه هرم وبعضهم يقول اسمه شبيب ويحتج بيت روي في هذه القصيدة «أقام وخلق الظاعنين شبيب» وهذا البيت مصنوع والاول (كأنه أصح) ..

هذا وقد بقي الكلام في انتحال الشعر ورواة الشعراء وشياطينهم وعمل اشعارهم وتدوينها وما الى ذلك وكله مما يمكن ان يتصل نسبه بما نحن فيه من أمر الرواية ولكنه يباب الشعر أقرب مشاكلة وأدنى اتصالاً فأنزله ثم في مراتبه ، والحقناه بتلك المطالب لفائدة طالبه ،



## التزويد في الاخبار

وهذا أوسع أبواب الوضع في الرواية لانك اذا اعتبرت اللغة والشعر وجدتهما في حكم العلوم الثابتة المدونة بما حاطها الرواة من التثبت والتفتيش كما مر ولان اللغة كانت لساناً فطرياً في قوم معروفين لقيهم اهل الرواية وشافههم بها وكان الشعر انما يطلب اكثره للفظه ولم يأخذوه عن المحدثين فهو في حكم اللغة من هذه الجهة . واما الاخبار التي تأتي عن العرب وغيرهم فانما يريدون ببعضها التاريخ وباكثرها السمر والمنادمة والاستماعة على حشو علوم اخرى كالنسب والتفسير والحديث وما اليها . ولم يعن العلماء بالتثبت في شيء من الخبر الا ما نسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه مما يدخل في السنن فقد محصوا كل ذلك وميزوا جيده ونفوا رديته وخلصوا الى الحقيقة فيه بكل حجة اما ما عداد فكان امره بحسب القائلين عليه . منهم من ثبت واستبصر ورأى انه يبرأ من العهدة ويتخرج من التبعة باسناد كل خبر وبيان طريقه في الرواية وهم مشاهير الرواة . ومنهم من لم يبال معروف ذلك من مجهوله ، وصحيحه من مدخوله فكان يكذب ويصدق الناس ويأتي بالأخبار المتنافية المتناكرة ويضع التهاويل والأباطيل والاضاليل والناس مقبلون عليه منصرفون بوجوه الرغبة اليه وهؤلاء هم اكثر القصاص . ومنهم قوم جعلوا الاخبار علمهم فتميزوا بها ودنوا فيها الكتب الكثيرة المفضنة فهم يكذبون مبالغه في الإغراق ورغبة في الاجتلاب والحشد لان ذلك لا يطرد لهم الا بالتزويد وهؤلاء هم الذين كتبوا

في تاريخ العرب واخبارهم واسماهم ومنافهم ومثالبهم وأيامهم في الجاهلية ونحو ذلك وقد سموهم (الإخباريين) لأنهم لم يكونوا يعرفون من معنى (التاريخ والمؤرخ) إلا التوقيت - وسيأتي الكلام على الإخباريين في فصل الرواة - ولم يتسموا في ذلك الاتساع كله إلا في أطراف القرن الثاني حين استفحل أمر الشعوبية فوضع القوم على العرب شيئاً كثيراً من المناقب والاخبار ردّاً أكثره عليهم أهل الرواية من المحققين وكذبهم فيه واغفلوا روايته عنهم ومن هذا الموضوع خبر المعلقات المشهورة كما سيمر بك في بابها .

والرواة إنما قلدوا العرب في صنعة الاخبار والتزيد فيها كما قلدوهم في وضع الشعر لأن العرب كانوا يكذبون بعضهم على بعض في المناقب ويتزيدون في المناقب وكانوا يتناقلون أخباراً من تاريخ الأئمة والبائدة عن خالطهم من الاعمى على ما في أكثرها من الوهن والكذب وهي لا تدور فيهم حتى يكون قد داخلها الكثير من مثل ذلك وشبه الشيء منجذب إليه . وللبعض نوع من التاريخ الوضعي يسميه الرواة (تكذيب الأعراب) (وأضاحيك الأعراب) وهو هو الخرافات أو «الميثولوجيا» - وللكلام عليه موضع - ومن وراء ذلك أمر المهجائين والفحاشين ومن أشراً بؤاً للفتنة ومردواً على النفاق وألفافهم ومادة هذا الأمر مجبولة بالكذب . فلما جاء الإخباريون بعد الاسلام أخذوا تلك الاخبار وجملوها علمهم وولّدوا منها واحتدوا مثالها لأن كل ما هو بسبيل التاريخ مما خرج عن أمر الدين فهو عندهم في سبيل الحكاية والتلفيق وما يتغنى من القصص ولولا اعتبارهم هذا لما بقيت الآداب العربية خالية إلى اليوم من كتاب واحد يوثق به في

تأريخ العرب أو تأريخ آدابهم وقد أشرنا الى هذا المعنى غير مرة . وروى الجاحظ ان بعضهم قال لاحد الرواة إنك تكذب في الحديث فقال وما عليك اذا كان الذي أزيد فيه أحسن منه فوالله ما ينفعك صدقه ولا يضرك كذبه (نخ) وما يدور الامر الا على لفظ جيد ومعنى حسن ..

هذه هي طريقتهم بعينها قبل ان تنضج العلوم وتنضج الرواية كمخض الماء لا يوثني غير الماء وقد ورثوها عن العرب انفسهم لان العرب أمة في حكم الفرد والفرد منها في حكم الأمة اذ كان كل واحد منهم انما ينهض بعينه ولا يحمل الا رأسه يطرحه كيف أراد وتلك طبيعة أرضهم لا يجمعهم ولا يفرقهم الا منفعة الفرد ومضرته . ومعلوم ان تأريخ العرب لا ينفع صدقه أحداً ولا يضر كذبه أحداً اذا جعلنا مصداق النفع والضرر ما يتبينه المرء في خاصة نفسه مما يحس منه أثر النفع أو الضرر . وهل الامر اذا رجعنا الى هذه القاعدة الا كما يقول الله سبحانه وتعالى « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت <sup>ولكم ما كسبتم</sup> وعليها ما اكتسبت » ولا تسألون عما كانوا يعملون »

هذا وان أكثر ما وضع من الاخبار لغير التصنيف انما كان يراد به الملوك ومن في حكمهم أو العامة ومن في وزنهم فأما الملوك فان الرواة كانوا يعرفون انهم لا يستقصون فيصنعون لهم الاخبار يزلفونها الى هوى أنفسهم ويديرون الكلام فيها على أغراضهم يأخذون في تلك الفنون استعانة على السمر وتكثيراً للاحاديث وكل من عرف من الرواة بانه صاحب سمر كان ذلك غميمة في عامه ومذهباً للكلام فيه كشرقي بن القطامي مؤدب المهدي فانهم جعلوا السمر علته وكان يجري في مذهب ابن دأب الشاعر الإخباري



الذي كان بالمدينة كما جرى خلف الأحمر في مذهب حماد .  
وأول من عرف من ملوك لاسلام بالرغبة في السمر والتعاقب بأهل  
الاخبار وان كان ذلك لمعنى سياسي معاوية بن أبي سفيان فقد كان داهياً  
نقاباً في أموره<sup>(١)</sup> يستبين من رأيه في كل مشكل طريقاً نهجاً ويفرق له  
في كل معضل عن سبب الى النفاذ صحيح فكان يتطاب الاخبار يستعين  
بها على استيضاح الشبهات ويرجع منها الى القدوة في العضلات فيقال انه  
كان اذا انتقل من صلاة الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه ثم  
يضطرب في أموره سائر نهاره حتى اذا صلى العشاء الآخرة جلس لمؤامرة  
حاشيته فيما أرادوا صدرأ من ليلتهم ويستمر الى ثلث الليل في اخبار العرب  
وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيها وسائر ملوك الامم وحروبها  
ومكايدها وما الى ذلك وقد اسلفنا انه استقدم عبيد بن شريفة الجرهمي النسابة  
الاخباري من اليمن خصيصاً لبعض أغراضه تلك .

واما العامة فكما كان الراوية أو المحدث أو القاص أموق كان عندهم  
أنفق ، واذا كان مستهتراً بالغرائب كان عندهم أوثق ، واذا ساء خلقه وكثر  
غضبه واشتد حدة وعسرة في الحديث وشغب ولوى شدقه لمن يراجعه  
تهافتوا عليه وهذا أمرهم بعد التابعين لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم  
كما سيجيء . وقد كان الاعمش المحدث (توفي سنة ١٤٨ ) يقلب الفرو  
ويلبسه حتى يكون صوفه الى خارج وي طرح على عاتقه منديل الخوان مكان

---

(١) عرف معاوية بالدهاء منذ عرف حتى روي ان عمر بن الخطاب رضي الله  
عنه قال جلسائه تذكرون كسرى وقبصر ودهاءهما وعندكم معاوية

الرداء وسأله رجل مرة عن اسناد حديث فأخذ بحلقه وأسنده الى الحائط وقال هذا اسناده . . . والاعمش هو القائل فيمن كانوا يسمعون منه والله لا يأتون أحداً الا حملوه على الكذب.

### ❦ القصاص ❦

وهم الذين يقصون على الناس ويكون من علمهم التفسير والأثر والخبر عن الامم البائدة وغيرهم ينقلون ذلك تعليماً وموعظة وكانوا في القرن الاول يقدمونهم في بعض حروب بني أمية ليقصوا على المقاتلة اخبار الشهداء وفضائلهم وما وعدوا به في الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت وليحسبوا بذلك قبل مباشرة القتال حتى لا تحجزهم رهبة ولا يملكهم فزع ولا ترد وجوههم آمال الحياة وهو وجه من الحيلة في السياسة وحسن النظر في التدبير وكان ذلك دأب الحجاج الثقفي أمير العراقيين لبني أمية في حروبه وورقائه لان اكثر من قاتلهم كانوا من المستميتين ديانةً أو حميةً كالخوارج والناقلين عليه وعلى بني أمية من العرب واخبارهم مشهورة

اما قبل هذه الدولة فكانت الموعظة في الحروب والتذكير بما يصدق الله من وعده للمجاهدين في اعلاء كلمته شأناً من شؤون القواد يخطبون بذلك على الناس ولا يتجاوزون به آيات من القرآن وجملات من الحديث وكلمات لهم بين ذلك .

ولم يكن القصص في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولا في زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لاجتماع كلمة المسلمين ولقرب العهد من الرسالة

وانما احدثت القصص في زمن معاوية حين كانت الفتنة بين الصحابة رضي الله عنهم وكانت مقصورة على الموعظة الحسنة والتذكير وما الى ذلك وأول من قص من الصحابة الاسود بن سريع وكان يقول في قصصه اذا ذكر الموت وخاطب الميت

فان تنج منها تنج من ذي عزيمة والا فاني لا أخالك ناجيا  
ثم كان أول من قص من التابعين بمكة عبيد بن عمير الليثي وقد جلس اليه عبد الله بن عمر وسمع منه فكان ذلك داعية الى اقبال الناس ورغبتهم في استماع القصص لمكان ابن عمر من الدين والورع وقد أقرته كذلك عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ولم تنكر عليه فحدث عطاء قال دخلت أنا وعبيد بن عمير عليها فقالت من هذا فقال أنا عبيد بن عمير فقالت رضي الله عنها قاص أهل مكة قال نعم قالت خفف فان الذكر ثقیل . وقد مر بك آتفاً ان معاوية اتخذ قاصاً كان يجلس اليه متى انتقل من صلاة الفجر فلا غرو ان يتابعه اهل الشام على ذلك ويكثر القصص فيهم ولعل هذا من دهاء معاوية في السياسة

ثم صار القصص مما يلقى في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة واتخذت له حلقة كحلق الدروس وأول من لزم ذلك فيه مسلم بن جندب الهذلي وهو امام اهل المدينة وقارئهم وفيه يقول عمر بن عبد العزيز من سره ان يسمع القرآن غصاً فليسمع قراءة مسلم بن جندب . ثم كان اول من اتخذ مثل تلك الحلقة في مسجد البصرة جعفر بن الحسن .

ولم يكن القصص في القرن الاول مردولاً ولا كانوا يرون به بأساً

لان فنونه انما ترجع الى القرآن والحديث ولم يكن يشوبه شيء الا ما كانوا يسمونه (بالملم الاول) وهو ما يتعلق بأخبار الأمم السالفة واكثره يأخذونه عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى وعن أسلم منهم وبعض هؤلاء كان غزير الملم واسع الحيلة في قصص الاولين كعبد الله بن سلام الذي أسلم عند هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة وكعب بن الاحبار الذي أسلم في خلافة عمر وتوفي سنة ٣٢ وعن هذين الرجلين ووهب بن منبه المتوفي سنة ١١٤ أخذوا سواد قصصهم مما يتعلق بأخبار الأمم وأحوال الانبياء والنذر الاولى وما يجري مع ذلك وكان وهب من الابناء (ابناء الفرس) لان جده جاء الى اليمن فيمن بهم كسرى حين استنجدوه على الحبشة وقد أخذ آباؤه عن اليمن اخبار اليهود واخذوا عن الحبشة اخبار النصارى ثم كان وهب يعرف اليونانية ايضاً فاتسع بذلك علمه حتى قلوا في بعض ما نقلوه عنه انه قرأ من كتب الله اثنين وسبعين كتاباً . وهو أول من صنف قصص الانبياء في الاسلام . ومن أخذوا عنهم ايضاً طاوس بن كيسان التميمي وهو من الابناء وتوفي سنة ١٠٦ ثم ورث الرواية عنه ابنه عبد الله بن طاوس .

ولما كان القرن الثاني وانتهى عصر كبار القصاص من التابعين ورأسهم الحسن البصري المتوفي سنة ١١٠<sup>(١)</sup> وكان رضي الله عنه مفتحاً ثقة

---

(١) كانت أم الحسن تقص للنساء ايضاً وللمها أول امرأة فعلت ذلك في الاسلام . ودخل عليها يوماً وفي يدها كراثة نأكلها فقال لها يا أماء ألقى هذه البقلة الخبيثة من يدك فقالت يا بني اذك شيخ قد كبرت وخرفت قال يا أماء أبنا أكبر ...

في كل ما يتعاطاه من المعلوم — نشأت بعده الطبقة التي أخذت عنها العامة وقد اضطربت الفتن وكثر الكلام وفشت الاكاذيب في الحديث وفي أخبار العرب وفي الشعر فصار هم الفاص ان يجيء بالفرائب ويكثر من الرقائق لان أهل العلم انصرفوا الى حلقات الرواية ولم يبق في حلقات القصص الا العامة واشباههم وقد علمت مذهبهم والشأن فيما ينفق عندهم فمن ثم ساءت المقالة فيهم وصار القاص عند أهل العلم أحمق ممخرقاً لا يعرفونه بغير ذلك الا قليلاً ممن استوعبوا وتبينوا وجروا في مذهب الرواة (وهو نقل الكذب الذي لا بأس به واستناده الى اهله) وامتازوا مع ذلك بالفصاحة والبيان . ويبدأ تاريخ هؤلاء بمد الحسن البصري بموسى بن سيار الاسواري قال الجاحظ وكان من أعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس في مجلسه المشهور فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرهما للعرب بالعربية ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرهما لهم بالفارسية فلا يدرى بأي لسان هو أئين واللغتان اذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتهما الا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار ولم يكن

وكان الحسن أفصح الناس وأعلمهم وأزهدهم ولما مات بالبصرة تبع الناس كلهم جنازته واشتغلوا به بمد صلاة الجمعة فلم تقم صلاة العصر بالجامع قال حميد ولا أعلم انها تركت منذ كان الاسلام الا يومئذ لانهم تبعوا كلهم الجنازة حتى لم يبق بالمسجد من يصلي العصر .

في هذه الامة بمد ابى موسى الاشعري أقرأ في محراب من موسى بن سيار  
ثم عثمان بن سعيد بن اسعد ثم يونس النحوي ثم المعلى . قال ثم قص  
في مسجده (بالبصرة) ابو علي الاسواري بن فائد ستاً وثلاثين سنة وابتداً  
لهم في تفسير سورة البقرة فما ختم القرآن حتى مات لانه كان حافظاً للسير  
ولوجوه التأويلات فكان ربما يفسر آية واحدة في عدة اسابيع كأن تكون  
الآية قد ذكر فيها يوم بدر وكان هو يحفظ مما يجوز ان يلحق في ذلك  
من الاحاديث الكثيرة وكان يقص في فنون كثيرة من القصص ويجمل  
للقرآن نصيباً من ذلك وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب  
ويحتج به وخصاله المحمودة كثيرة ثم قص من بعده القاسم بن يحيى  
وهو ابو العباس الضرير ولم يدرك في القصص مثله وكان يقص معها  
وبعدهما ملك بن عبد الحميد المكفوف . فأما صالح المري فانه كان يكنى  
أباً بشر وكان صحيح الكلام رقيق المجلس قال الجاحظ فذكر أصحابنا ان  
سفيان بن حبيب لما دخل البصرة وتوارى عند مرحوم العطار (من اصحاب  
الحديث كان في أواخر القرن الثاني) قال له مرحوم هل لك ان تأتي قاصاً  
عندنا فتتفرج بالخروج والنظر الى الناس والاستماع منه فأتاه على تكرهه  
لانه ظنه كبعض من يبلغه شأنه فلما أتاه وسمع منطقه وسمع تلاوته للقرآن  
وسمعه يقول حدثنا سعيد عن قتادة وحدث قتادة عن الحسن رأى بياناً لم  
يحتسبه ومذهباً لم يكن يدانيه فأقبل سفيان على مرحوم فقال ليس هذا  
قاصاً هذا نذير .

ولما نضجت العلوم في القرن الثالث ذهب القصاص وخلفهم الوعاظ  
من المتصوفة والزهاد اذ كان اسم القاص قد أصبح لقباً عاماً مبتدلاً  
واكثر المتصدرين في الوعظ انما يكونون من اهل الحديث والمتسمين  
في العلوم ولا حاجة الى الكلام عنهم ولم يزد المتصوفة في الاخبار الا ما يزعمون  
انهم احتووه بعلم خاص والله اعلم بغيبه .



## الرواية

فرغنا من القول في الرواية ونشأتها وتأريخها والوجوه التي تقلبت عليها وبقي الكلام على الرواة وعلومهم وما تحققوا به من المذاهب وما تميزت به طوائفهم عند أهل المقابلة والتنظير ثم ما يُدْخِل ذلك من معانٍ حين تعرض وأغراض حين تتوَّافى لتورد بها الفائدة موردتها ويصدر الأدب مصدره وهو منزَّع لا تنكر أن المتناول إليه هو المقصّر عنه، وأن المبتدئ فيه هو المنتهي منه، وذلك لأن رواتنا وإن قدح بعضهم في بعض جرحاً وتعديلاً، وتوسعوا في مذاهب النقد تعريضاً وتطويلاً، إلا أنهم لم يدونوا شيئاً لمن بعدهم كما دون أهل الحديث بل اكتفوا بأن هذا الأمر كان منهم على المشاهدة والعيان أو قريباً منهما بالسند والسمع فألقوا لنا بذلك الشغل الطويل، والعناء الويل، ولو أنهم دونوا الطبقات وميزوها وفصلوا مراتبها وساقوا أخبار الرجال على نحو ما فعل نقاد الحديث وهم كما قالوا « عيار هذا الشأن، وأساس هذا البنيان » لقد كانوا أحسنوا لأهل التاريخ الاحسان كله .

ولشدَّ ما كانوا يتحَوَّبون عفا الله عنهم فيما يهجن به بعضهم بعضاً مما يسبق من الظنة إلى أحدهم ويتوجه من الشبهة عليه فلا يحبون أن يثبتوا من ذلك شيئاً لأنه جهاد لا يراد به وجه الله كما هو الشأن في الحديث فكان الأمر بينهم مقصوراً على المناقضات والمنافسات بيد أن كل طبقة منهم كانت تحكي عن سابقها أشياء مما تناقلته حتى انتهى جماع ذلك إلى مدوني



كتب الطبقات والى المتناظرين في تصنيف الكتب التي وضعوها للكلام في علماء المصريين والى المصنفين في اللغة من متأخري الرواة الذين تعقبوا السابقين وتبعوا ما نقل عنهم كالزهري صاحب التهذيب وغيره فرأى كل أولئك ان القليل الذي تأدى اليهم لا يعطى من حكم النقد المباح ما كان له في زمنه فيعتبر من الكلام المعفوّ عنه الذي بعثت عليه المعاصرة كما أجراه أهله فلا يبقى له شأن متى وضح الحق وظهر وجه الصواب وتمهدت به العلوم بل رأوا فيه مادة لما كانوا بسبيله ورأوا ان التاريخ قد احوال تلك المناقضات بعد ان طوى اشخاصها ونقض عنها رهج الحفيظة ووهج الانفاس فحرصوا عليها ودوّنوها ولولا ذلك لعفا هذا الموضوع من التاريخ

وأول من صنف في طبقات القوم أبو العباس المبرّد المتوفى سنة ٢٨٥ فانه وضع كتاباً في علماء البصريين وكان بصرياً ثم صنف أبو الطيب اللغوي المتوفى سنة ٣٣٨ (وقيل بعد الخمسين) كتابه مراتب النجويين جمع فيه البصريين والكوفيين ثم اطرّد التصنيف بعد ذلك فوضع السيرافي المتوفى سنة ٣٦٨ كتابه في طبقات النحاة البصريين وصنف أبو بكر الزبيدي الاندلسي المتوفى سنة ٣٧٩ طبقات النحاة وميز فيه البصريين من الكوفيين ثم ظهرت بعد ذلك كتب كثيرة لا حاجة الى الكلام عنها لاننا انما نريد ان نعيّن تاريخ التدوين فيما تناول أحوال الرواة ومناقضاتهم ولم يكتب من ذلك شيء قبل القرن الثالث ولا نعلم انه كتب منه شيء قبل الذي أورده الجاحظ في تضايع كتبه وهو قد توفي سنة ٢٥٥ وليس غيره أولى بان يكون أول من اقتحم هذا الباب من الكتابة وان كان ما أورده

قليلاً لا حفل به ولا قدر له في جانب ما تناولناه من كتب الطبقات على اختلافها وكتب أخرى كالتهذيب للزهري والتصحيح للعسكري والخصائص لابن جني وقد كسر فيه باباً على ما يكون من قدح أكابر الأدباء بعضهم في بعض وتكذيب بعضهم بعضاً .

ولقد انتقد كثير من جاة العلماء - وخاصة علماء الاصول - اهمال الرواة والقائمين باللغة والنحو ان يبحثوا عن احوال هذه العلوم ويفحصوا عن جرح رواياتها وتمديدهم واعتذر بعضهم من ذلك بانهم اهملوه ولم يجاروا فيه رواة الاثر لان الدواعي كانت متوفرة على الكذب في الحديث لاسبابه المعروفة التي تحمل الواضعين على الوضع . قال وأما اللغة فالدواعي الى الكذب عليها في غاية الضعف . . ولذلك اكتفى العلماء فيها بالاعتماد على الكتب المشهورة المتداولة فان شهرتها وتداولها يمنع من ذلك مع ضعف الداعية اليه . وقد رد السيوطي على اصحاب هذه الاقوال بما زعمه ( الجواب الحق ) ولم يزد على ان احتج بما جاء في كتب الطبقات . . . .

( البصرة والكوفة )

وقبل ان نمضي فيما اخذناه فيه نسوق هذه الكلمات الموجزة في تاريخ هذين المصرين العظيمين اللذين خرج منهما علم العرب واللذين يرجع اليهما سند العربية في سائر الامصار .

اما البصرة فقد اتخذها المسلمون مصراً حين كانوا يغزون من قبل البحرين ليشتموا فيه ثم ليلوذوا به اذا رجعوا من غزوهم وأول من مصرها

عتبة بن غزوان بن ياسر وذلك في سنة اربع عشرة للهجرة في خلافة عمر بن الخطاب وهي أقرب الى البوادي الصريحة من الكوفة تكاد تقابل في وضعها سرّة البادية التي ضربت فيها القبائل العربية الفصيحة . ولذا فصح أعرابها وتميز أهلها بالصحيح وكانت مثابة الجفأة الخالص من أعراب البادية . وقد كان فيها المربد وهو عكاظ الاسلام يقوم فيه الخطباء ويتناظر الاشراف ويتناقض الشعراء ومن ثم ضربوا المثل بأدب البصريين وجعلوا هذا الادب فيهم بمنزلة ما اختصت به الامم طبيعة من الميراث التاريخي كحكمة اليونانيين وصناعة أهل الصين وما إليها .

وأما الكوفة فكان تمصيرها بعد البصرة بستة أشهر على قول وبعام أو عامين على قول آخر<sup>(١)</sup> واتخذها المسلمون مصراً حين كانوا يغزون من قبل فارس وأكثر أهلها من عرب اليمن وكان يطراً عليها ضعاف الأعراب مما فوق البادية الصريحة ولذا لانت جوانب ألسنتهم وضعفت فصاحتهم وكان الميل الى الشاذ متأصلاً فيهم طبيعة فأسرع الفساد في ألسنتهم قبل ان يفسدوا مثل ذلك في البصريين . وأعظم ما اشتهرت به الكوفة ميل أهلها الى الطاعة ديانة دون البصرة التي اشتهر أهلها في التاريخ بالنزوع الى الشقاق والعصيان وبالمصيبة العربية ولذا كانت الكوفة مثلاً مضروباً في فقه أهلها كما ضربوا البصرة مثلاً في الادب وكما ضربوا المثل بالمدينة في القراءة وبمكة

(١) وثلاثة أعوام في قول ابن قتيبة وهذا الاختلاف يشبه ان يكون منهم اغفلاً لتاريخ الكوفة وغضاً من شأنها ان لم يكن مثلاً من سوء العناية بكل ما هو من التاريخ (الذي لا دين له) ،

في المناسك<sup>(١)</sup> . وبظاهر الكوفة كانت منازل النعمان بن المنذر والحيرة والخوزنق والسدير وما هناك من القصور والمتنزهات وكل ذلك غير طبيعي في تاريخ الفصاحة العربية .

ولما مضت بغداد وجعلها المنصور ثاني الخلفاء العباسيين مدينة (وكان قد اختطها قبله أخوه أبو العباس السفاح وشرع في عمارتها سنة ١٤٥ ونزلها سنة ١٤٩) وكانت قرب الكوفة وهي ماهي حاضرة الدنيا ومدينة الاسلام ومظهر أبهة الخلافة وجلال الملك . كان علماء الكوفة اسرع الناس اليها فأكرم العباسيون لقاءهم وبسطوا لهم بالعطاء غير أن ذلك لم يزد هم الا ضعفاً وشذوذاً حتى عيرهم البصريون بانهم يأخذون عن باعة الكواميخ كما تقدم في موضعه . أما بغداد نفسها فلم يعتد البصريون بأحد من علمائها ولا يرونها مدينة علم وانما هي عندهم مدينة ملك وما فيها من العلم فنقول اليها ومجلوب للخلفاء وأتباعهم . قال أبو حاتم اهل بغداد حشو عسكر الخليفة لم يكن بها من يوثق به في كلام العرب ولا من ترتضى روايته فان ادعى أحد منهم شيئاً رأيتُه مُخَطَّطاً صاحب تطويل وكثرة كلام ومكابرة<sup>(٢)</sup> .

(١) لم يعرف بمكة ولا بالمدينة أحد من أئمة العربية أو من يتصدر للرواية وكل ما قاله أبو الطيب اللغوي في علمائهما انه كان بالمدينة علي الملقب بالجلل وضع كتاباً في النحو لم يكن شيئاً . وأما مكة فكان بها رجل من الموالي يقال له ابن قسطنطين شدا شيئاً من النحو ووضع كتاباً لا يساوي شيئاً . ولم يجد الاصمعي بالمدينة من الرواة الا ابن دأب الذي ذكرناه في الوضائين

(٢) توفي أبو حاتم سنة ٢٥٥ . وقال الاصمعي وقد توفي سنة ٢١٥ خرجت

### عنايتهم بالرواة

وكان الرواة مَحَطَّ الأعباء في الرحلة واليهـم المرجع في الغريب والشعر والخبر والنسب وقد انهمردوا بالقيام على هذه العلوم أيام بني أمية والدولة يومئذ دولة العرب وهم لا يزالون حيال آبائهم وعلى إرث منهم فلم يكن إلا أن تنفق سوق الرواة ويَقْبَل في الدهر أمرهم وينبـه في الناس شأنهم ويجد كل واحد منهم ما يجده الحظيـظ في بضاعته والمحتاج إليه في صناعته ولم يأت ذلك من قِبَل الخلفاء وحدهم ولكن الشأن كان في أهل الامصار من الامراء فمن دونهم فانهم صرفوا الى الرواة وجوه المطالب وقصروا عليهم الرغبات لانهم الوصلة بينهم وبين أوليـتهم من العرب بما يقصون من أخبارهم ويروون من أشعارهم وينقلون من آثارهم وبهذه وما إليها كانت تلتئم أطراف المجالس وتتفصل جهات الأحاديث وتتشعب مذاهب السمر وفوق ذلك فإن أكثر الرواة جمعوا الى علومهم تلك رواية الحديث وتفسير غريبه والفتيا في مشتبـه القرآن والقول في السير ونحوها وهي من أغراض الناس جميعاً .

أما الخلفاء من لدن معاوية الى عبد الملك بن مروان فهؤلاء اقتصروا على اهل الشعر والنسب والخبر لان أمر اللغة لم يكن بدأ في أيامهم ولان

الى بغداد وما فيها أحد يحسن شيئاً من العلم . لقد جاءني قوم يسألونني عن الجمطري فأخبرتهم انه المكتل قالوا وما المكتل قلت هو المعضل قالوا وما المعضل وكان بقربي يقال ضخم فقلت هو مثل ذلك يقال فرووا عني . . .

ذلك كان هو علم العرب يومئذ وكان معاوية يرمي الى اجتذابهم حوله وتأثف قلوبهم عليه والى التخذيل عن أهل الحق في الخلافة من رجال هاشم وفتيان قريش وكان يأتي كل مأنى لا تنظام أمر الملك والدولة حتى لو عرف انه يستكثر بالزنج لوطاً الحيلة اليهم فبالغ في إثارة الشعر والنسب ومبررة اهلها والافضال عليهم حتى تحدث الناس بذلك فأرسل في ألسنتهم رسائله السياسية من حيث لا يدرون . وكان يحث على رواية الشعر ويتنقص من لا يروي منه حتى انه كتب الى زياد ( الذي ادعى أباسفيان ) في إشخاص ابنه عبيد الله وقد علم انه يتورع عن الشعر فأوفده زياد اليه . وأقبل معاوية يسأله فما سأله عن شيء الا أنفذه حتى سأله عن الشعر فلم يعرف منه شيئاً فقال ما منعك من روايته قال كرهت أن اجمع كلام الله وكلام الشيطان في صدري فقال معاوية اعزب والله لقد وضعت رجلي في الركاب يوم صفين مراراً ما يمنعني من الانهزام الا ابيات ابن الاطنابة حيث يقول :

أَبَتْ لِي هَمَّتِي وَأَبَى بَلَائِي      وَأَخَذِي الْحَمْدَ بِالْثَمَنِ الرِّيْحِ  
وَأَعْطَانِي عَلَى الْإِعْدَامِ مَالِي      وَإِقْدَامِي عَلَى الْبَطْلِ الْمَشِيحِ  
وَقَوْلِي كَلِمَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ      مَكَانَكَ تَحْمَدِي أَوْ تَسْتَرْجِي

ولا نرى هذا الا من دهاء معاوية وحذقه في سياسة الامور ومداورتها والا فمتى كان الاقرار بالنقيصة من سياسة الملوك اذا لم تكن قد استبطنت غرضاً من الاغراض لا ينكشف حتى يخيلها الى محمودة . وقد رمى خلفاؤه من قوسه ونزعوا في وتره وهو كان يبصرهم حتى كان لا يقطع أمراً دون يزيد ابنه ويريه انه انما يفرع الى رأيه فيما يلم حتى يستخرج أقصى

ما عنده ويعمره بالخلافة قبل ان يصير خليفة . وقال أبو الحسن المدائني كانت بنو أمية لا تقبل الراوية الا ان يكون راوية للمرائي قيل ولم ذاك قال لانها تدل على مكارم الاخلاق . . . فعفا الله عن أبي الحسن ما كان أحسن ظنه حتى اعتبر السياسة بالعلم ولقد سئل أعرابي مابال المرائي أجود اشعاركم قال لانا نقول واكبادنا تحترق . وانما كان بنو أمية رجال مرزأة وحروب وقتن عربية ولم يقيم أمرهم الا بدعوى المطالبة بدم عثمان فكان همهم ان لا ترقأ الدمة ولا تطفأ اللوعة وان تبقى في القلوب معان رقيقة تهيجها المرائي فتندح بها المعاني الغليظة في قلوب المقاومة والمسترزقة من العامة وهم قوة الدعوة ومن قلوبهم قوت السياسة وقد استقام لهم بذلك عمود من الامر كان مائلا ، وحق كان فيما ظنه غيرهم باطلا

ولما استخلف عبد الملك بن مروان اخذ بسنة معاوية واقتدى به في إحكام السياسة وحسن التأني للامور وكانت القلوب المضطربة قد استقرت أو كادت والاعناق المائلة قد استقامت بعد ان مادت فبسط عبد الملك بره للرواة والآن لهم جانبه وكان لا يجالسه من الناس غير ذي علم وأدب وهو الذي قال فيه الشعبي « ما ذا كرت أحداً الا وجدت لي الفضل عليه الا عبد الملك فاني ماذا كرته حديثاً الا زادني فيه ولا شعراً الا زادني فيه » ولهذا اجتمع اليه الشعراء وعلماء الاخبار ورواة الناس وضربوا اليه آباط الابل شرقاً وغرباً حتى حفلت بهم مجالسه وازدهت أيامه وكان يذاكرهم ويحدثهم وينوّه بهم ويدني مجالسهم ومن أجله أطلق الادباء على دولة بني أمية قولهم الدولة « المروانية » على جهة التغليب لان من بعده أخذوا في طريقته

واتبعوا أثره وزادوا عليه بمقدار ما اتسع في أيامهم حتى كانوا ربما اختلفوا وهم بالشام في بيت من الشعر أو خبر أو يوم من أيام العرب فيبردون فيه بريداً الى العراق . وحدث أدباء البصرة انهم كانوا يرون كل يوم راكباً من ناحية بني مروان ينيخ على باب قتادة بن دعامة السدوسي الراوية (وكان أجمع الناس توفي سنة ١١٧) يسأله عن خبر أو نسب أو شعر وربما سار هذا الراكب بالكلمة عن قتادة فأبلغها بالشام ثم عاد ليسأله عن معنى في نفس جوابه حتى يكون الجواب مما يحسن السكوت عليه وهذا لعمر أليك علم الملوك وقد بعث هشام بن عبد الملك في إشخاص حماد الراوية من الكوفة

لبيت خطر ياله لا يعرف صاحبه وهو قول عدي بن زيد  
ودعوا بالصباح يوماً فجاءت قينة في يمينها إبريق  
وقطع حماد طريقه الى دمشق في اثنتي عشرة ليلة ليذكر له صاحب  
البيت وسائر القصيدة

وما كان الناس يومئذ وهم على دين ملوكهم بأقل رغبة في الرواة والعلماء  
والمؤسسين بالأدب وخاصة بعد ان توطد أمر الرواية حتى قال عمرو بن  
العلاء لو أمكنت الناس من نفسي ما تركوا لي طوبة — يصف تدافعهم  
وازدحامهم عليه — . اما العباسيون وأمراء دولتهم وهم أهل العلوم  
والحكمة والأدب فوالله ان كان احدهم ليرى الراوية عنده كأنه ديوان من  
أبلغ الشعر مدحه خالص له من دون الناس وانشاده دأثر في ألسنة الناس  
جميعاً . لانهم رأوا آثار بني أمية وأرادوا ان يطمسوا عليها وينسوا الناس  
اخبارهم ولا يدعوا للرواة باباً من الذكرى وصار الناس يومئذ أوفر ما كانوا



اقبالاً على مجالس الرواية وأشد ما كانوا حاجة اليها لشيوع العلوم وتنافس  
الخاصة فيها حتى لا يشك من يقف على تاريخ الرواة أنهم كانوا في امصارهم  
كأنهم خلفاء الدولة العظمى التي تعنو لها الدول كافة وهي دولة التاريخ .

ولقد كان الرشيد يجلس الكسائي ومحمد بن الحسن على كرسيين بحضرته  
ويأمرهما ان لا ينزعجا لهضته وكان يطرح الرواة ويناشدهم ويذاكرهم ولما  
رآهم يقصرون الرواية على اشعار الجاهليين والمخضرمين ممن يحتاج بهم في  
العربية اتخذ له منشداً يروي اشعار المحدثين خاصة وينشده اياها وهو محمد  
الراوية المعروف بالبيدق ( لقب بذلك لقصره ) وكان انشاده يطرب كما  
يطرب الغناء ولم يرو مثل ذلك عن احد قبل الرشيد . اما المأمون

فناهيك من خليفة عالم وهو لم يزل منذ دخل العراق يرسل الاصمعي في ان  
يجيئه ( من البصرة ) وكان لا ينفك يعد اصحابه به في مجالسه ويقول كانكم  
بالاصمعي قد طلع . ولكن الاصمعي احتج بضعف وكبر وعمل ولم يجب  
الى ذلك فكان المأمون يجمع المسائل وينفذها اليه بالبصرة ثم ينتظر جوابها  
ولما كان أبو عبيدة مع عبد الله بن طاهر ألف كتاب غريب الحديث

وعرضه عليه فاستحسنه ابن طاهر وقال ان عملاً بعث صاحبه على عمل مثل  
هذا الكتاب لحقيق ان لا يخرج عنا الى طاب المعاش فأجرى له عشرة  
آلاف درهم في كل شهر ولزمه بعد ذلك فوجه اليه أبو دلف « يستهديه  
أبا عبيدة مدة شهرين » فأنفذه اليه ابن طاهر فلما انسلخ الشهران أراد  
الانصراف فوصله أبو دلف بثلاثين ألف درهم فردها وقال أنا في جنبه  
رجل ما يحوجني الى صلة غيره ولا آخذ ما فيه علي نقص فلما عاد الى ابن

ظاهر وصله بثلاثين الف دينار فعوضه من كل درهم ديناراً .  
والامثلة من ذلك مستفيضة لانطيل باستقصائها وما من كتاب في  
الادب والمحاضرة الا وانت واجد فيه شيئاً منها ومن أخبار الملوك والامراء  
ومجالسهم مع الرواة . وكان آخر خليفة جرى على هذه السنة العربية من  
مجالسة الندماء وتقريب العلماء هو الراضي بالله المتوفى سنة ٣٢٩ - وببيع  
سنة ٣٢٢ - وهو كذلك آخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجابه  
تجري على قواعد الخلفاء المتقدمين وكانت الرواية يومئذ قد بدأت آخرتها  
أيضاً بيد ان الامراء الذين استبدوا بالامصار الاسلامية بعد ذلك كآل بويه  
وآل حمدان وغيرهم لم يألوا جهداً في احياء تلك السنة والافضال على العلماء  
الا ان هؤلاء كانوا غير الرواة كما بسطناه في موضعه ولذا نجتزئ بما أوردنا  
فان اكبر غرضنا من هذا الفصل ان نخلص الى الكلام على موضع الرواة  
من انفسهم ولم يكن لذلك سبيل الا من الكلام على موضعهم من الناس

### (علوم الرواة)

واعلم ان من طريقتنا في هذا الباب ان لا نعد من الرواة كل من  
اقتنى علماً من علومهم أو قبس أدباً من آدابهم وان جاء ذلك على شرط  
الرواية وأدبها فلو أنا عددنا من امثال هؤلاء لكان لنا منهم باب واسع  
(في الترادف التاريخي) يهجن نسق الكتاب ويزري على سبكه ويتنزل منه  
منزلة الجملة التي تجمع مترادفات لفظة بعينها أو اكثر هذه المترادفات وكان  
في كلمة منها أو كلمتين البلاغة كلها فلما كثرت وتقطع بها نسق المعنى ذهب

آخرها بفضل أولها ولم يُغن أولها عن آخرها شيئاً . انما نذكر من الرواة الافراد الذين ذهبوا بماثر العلوم وكانوا مشيخة الاجيال وانقادت لهم أزمّة الاسانيد واتخذ التاريخ منهم اقطاب رحاء وقل من هؤلاء من لا يجمع علوم الرواية كلها أو أكثرها بحسب ما يكون منها في عصره من النسب والخبر والشعر والعربية واللغة بيد أنهم قد تفاوتوا في مقادير الاحسان من ذلك كله فطائفة غلب عليها النسب وأخرى ذهبت بمزية الشعر وثالثة انفردت بعلم الاخبار وهلم جرا . وسنصرف الكلام في هذا الفصل الى التنظير بين رجال هذه الطبقات على ما أعلمناك من طريقتنا فان فيها غناءً وكفاية

### ﴿ النسب ﴾

اما رواية النسب فقد كانت عامة في العرب وكانوا ينسبون حتى الخيل والأبل والكلاب ما كرم عليهم من هذه الاجناس ( كما نسبت طائفة من الاسلاميين الحمّام ) . والنسب يستتبع رواية اخبار العرب وما فيه شاهد على التاريخ من اشعارها فكان كل أولئك علم النساء وقد اجتمع من رؤسائهم في القرن الاول عبيد بن شَرِيّة الجرهمي وانفرد باتساعه في رواية الاخبار المتقدمة وما يسمونه بالعلم الاول الى مبدء الخليفة عربها وعجمها وبالحكمة والخطابة والرياسة وقد ذكرنا أمره مع معاوية في محله . ودغفل بن حنظلة وأبو الشطاح الاخمي وقد جمع بينهما معاوية وتناظرا في فنون كثيرة جاء في جميعها بالنادر الغريب حتى صارت مناظرتها مثلاً

يضرب لكل ما يجري بين اثنين من الكلام البديع الذي يتدفق بالحكمة والبيان وكان دغفل أوسع اهل زمانه رواية في انساب العرب خاصة واخبارها وعلومها في الجاهلية كالانواء وغيرها وقد تصادر مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه على حديث في النسب ودغفل يومئذ غلام قد بقل وجهه فكان أمره مع أبي بكر كما قال

صادف درء السيل درءاً يدفعه يهيضه حيناً وحيناً يصدعه

ثم النخار بن أوس وهو دون اصحابه يجري في قص النسب على طريقة الكهان من السجع والتشبيه لفضل في بيانه وبسطة في لسانه وكانت له حكمة تزين ذلك . دخل على معاوية أول عهده به فازدراء وكان عليه عباءة خلقة فقال يا أمير المؤمنين ان العباءة لا تكلمك وانما يكلمك من فيها . ويجري في هذه الطريقة عبد الله بن عبد الحजर وهو ممن وفدوا على معاوية ايضاً .

وهؤلاء ومن كان في طبقتهم كزيد بن الكيس النخري وابن لسان الحمرة وصحار العبدي والمختار العدوي وصبح الطائي وميجور بن غيلان الضبي هم رؤساء النسايب واليهم تنتهي الرواية وكل علمهم مقصور على الجاهلية وطرف من الاسلام . وامتا في أواخر هذه الطبقة صمصمة بن صوحان وكانت الرواية عنه بعد الاسلام في اخبار العرب خاصة وكان ابن عباس على سعة حفظه كثيراً ما يسأله ويذاكره وقد لقبه بياقر علم العرب .

واشتهر من قريش أربعة بانهم رواة الناس للشعار وعلماءهم بالانساب

والاخبار وكل ما كان قرشياً فهو عند العرب طبقة متميزة . والاربعة هم  
خزيمة بن نوفل بن وهيب بن عبد مناف وأبو الجهم بن حذيفة وحويطب  
ابن عبد العزّي وعقيل بن أبي طالب . وكانت قريش في الجاهلية  
دون غيرها من العرب تعاقب شعراءها القليلين اذا هجا بعضهم بعضاً اما  
النسابون فكانوا يحققون منهم من يروي المثالب ويقع في أعراض الناس  
لان ذلك هو الهجاء المشهور . وهم يريدون بهذا الازراء ان يسقطوا شأن  
الراوية اذا شاعت له قالةُ السوء حتى تخرج قبيلته مما يباحق بها انتسابه  
اليها واكتسابه على نفسه أو تذهب الأحداث عنه بصدق الاحاديث منه  
اتقاء للذم بالذم . وقد كان عقيل واحد الاربعة في ذكر مثالب الناس فعادوه  
لذلك وقالوا فيه وحقوه وسمعت ذلك منهم دهماء الناس فألف فيه بعض  
أعدائه الاحاديث وقرنوه فيها الى الحمق والمغمورين فجعلوه بجانب أخيه علي  
بن أبي طالب كعتبة بن أبي سفيان بجانب أخيه معاوية ومعاوية بن مروان  
بجانب أخيه عبد الملك . وانما كان عقيل رجلاً قد كف بصره وله بعد  
لسانه ونسبه وأدبه وجوابه فلما فضل نظراءه بهذه الخصال صار لسانه بها  
أطول وصار هو بذلك أجراً وأشد صولة .

تلك هي الطبقة الاولى وما امتازت به اما الطبقة الثانية فهي التي اخذت  
عن هؤلاء ونشأت منتصف القرن الاول وكان أهلها مبدء الرواية في  
الاسلام وهم يتناولون اخبار العرب وأنسابهم وما حدث في الاسلام الى  
المهد الذي هم فيه ويضمون الى ذلك أنساب الصحابة وطبقاتهم واشهرهم  
في اخبار العرب قتادة بن دعامة السدوسي المتوفى سنة ١١٧ والشعبي نديم

عبد الملك بن مروان وهو مُفَنِّنٌ يمتاز عن سائر الرواة بذلك حتى كانوا في القرن الثاني يلقبون من يجمع بين الفقه والحديث والشعر وأيام الناس والانساب ونحوها « بشعبي زمانه » ومن أطلقوا عليه هذا اللقب القاسم بن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل وكان على قضاء الكوفة<sup>(١)</sup> . ثم قتيبة بن مسلم وهو يمتاز بمعرفة أحوال الشعراء وأخبارهم والبصر بأشعارهم ومذاهبهم فيها . والنضر بن شميل الحميري وخالد بن سلمة المخزومي وكانا أعلم أهل زمانهما بانساب العرب ومغامزها وهما اللذان وضعَا كتاب المثاب كما مر في موضعه . والزهري عالم الشام والحجاز وقد تقدم الكلام عليه . ومن هذه الطبقة عبد الرحمن بن هرم بن الأعرج المتوفى سنة ١١٧ وهو أحد من ينسب إليه وضع العربية وقد امتاز من سائر طبقاته بعلم أنساب قريش وأصولهم والتغلغل في ذلك إلى أعماق بعيدة<sup>(٢)</sup> وروي أن مالكا بن أنس رضي الله عنه كان يختلف إليه في هذا العلم وكان يرى أنه علم لم ينته للناس .

(١) ونقل الجاحظ أن عبد الله بن شبرمة كان فقيهاً عالماً قاضياً وكان راوية شاعراً وكان خطيباً ناسباً وكان حاضر الجواب مفوهاً ثم قال وكان لاجتماع هذه الخصال فيه يشبه بالشعبي .

(٢) أبعد رواية الاسلام في كل ما يتعلق بانساب قريش وفضائلها لمكان النبي صلى الله عليه وسلم منها حتى نقل القاضي عياض في الشفاء أن ابن الكلبي كتب للنبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة أم . فكان ابن الكلبي ينفذ في تاريخ الجاهلية إلى مالا يقل عن عشرة آلاف سنة . . . وأما زعم الرجل ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم . ليس في آبائي من لدن آدم سفاح .

واما الطبقة الثالثة فهي التي كانت في القرن الثاني وهي مصدر الرواية العامة في الاسلام لان شروط الرواية لم تعرف الا في عهدها وتمتاز هذه الطبقة بغلبة الاخبار عليها وبكثرة الوضع على العرب في المناقب والمثالب وبانتحال بعضهم مذاهب من الفتنة في الدين وقل منهم من لم يكن أكبر علمه الاخبار ولهذا نذكرهم فيما يلي ولم يعد لعلم الانساب من بعدهم الشأن الذي كان له وانما صار يُروى على انه بعض علوم العرب

### ﴿ الخبر والاخباريون ﴾

وصار الخبر بعد الاسلام في طائفتين من الرواة الاولى تروي اخبار العرب وتغلب عليها والثانية تغلب عليها اخبار الفتوح الاسلامية وأحوال الدولة . ومن رؤس الطائفة الاولى محمد بن السائب الكلبي صاحب التفسير المتوفى سنة ١٤٦ وكان أعلم القوم بالنسب وهو كوفي أجمعوا على تركه واتهموه بالكذب والرفض وزيفوا كلامه عن أصل العرب والعريية وما جرى هذا المجرى لكثرة ما يوضع منه كذباً وزوراً وعنه اخذ ابنه هشام بن الكلبي النسابة صاحب الجهرة والكتب الكثيرة في اخبار العرب وأحوالها ومناقبها وأخبار الاوائل والامم البائدة والاحاديث والاسمار ونحوها وتوفي سنة ٢٠٤ وهو أول من اقترى خبر كتابة القصائد السبع ( المعلقة ) وتعليقها على الكعبة - كما سيأتي في بابها - وقد اتهمه العلماء كما اتهموا أباه بالرفض وتركوا حديثه لذلك ولما ظهر من كذبه . وشبيل بن عرعرة

الضبي<sup>(١)</sup> وكان راوية ناسباً شاعراً عالماً بالغريب قالوا وكان سبعين سنة رافضياً ثم صار بعد ذلك خارجياً. ومجالد بن سعيد بن عمير وهو يروي عن الشعبي وقد توفي سنة ١٤٤ والشرقي بن القطامي وهو من رواة الغريب واللغة والشعر وكان يكذب للرجل في الكلمة ثم يحدث بها الناس في المسجد على أنها من علمه الذي يرويه . وعبد الله بن عياش الهمداني وراويته الهيثم بن عدي . وكل أفراد هذه الطبقة يتقاربون إلا ما كان من هشام بن الكلبي فإنه أوسعهم علماً وأمدّهم رواية وأكثرهم تأليفاً حتى ليصح أن يعتبر بمفرده في وزن الطبقة كلها . ويمتاز معه أبو اليقظان النسابة المتوفى سنة ١٩٠ فإنه يشارك طبقة في علومها وينفرد بالاتساع في أنساب الإسلاميين وأخبارهم من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم .

وأما الطائفة الثانية وهم الذين غلب عليهم لقب الإخباريين لامتيازهم بالاتساع في أخبار الفتوح الإسلامية فقد انفرد منهم ثلاثة بأنواع من المعرفة قلما يساويهم أحد فيها : أبو مخنف الأزدي بأمر العراق وفتوحها وأخبارها وأبو الحسن المدائني بأمر خراسان والهند وفارس ( توفي سنة ٢١٥ ) والواقدي بالحجاز والسيرة النبوية ( توفي سنة ٢٠٧ ) ويشتركون مع غيرهم في فتوح الشام وأخبارها

ولقد عرف كثيرون بعلم السيرة والأحداث والفتوح ولا نعرفهم

---

(١) وفي المعارف لابن قتيبة أنه ابن عروة وذلك تحريف من النساخ . وشبيل هذا معدود من الفصحاء عند الرواة ومن النسايب الرواة عند الناس ومن الخطباء العلماء عند الخوارج



يمتازون بشيء عمن ذكرناهم فإن ثلاثهم بالغوا في الاستيعاب والاستقصاء الى ما لا يلحق بهم فيه أحد . ومن أولئك محمد بن سعد كاتب الواقدي واحمد بن الحارث صاحب ابي الحسن المدائني وعبد المنعم بن ادريس المتوفى سنة ٢٢٨ وقد بلغ المئة ونصر بن مزاحم واسحق بن بشير وسيف بن عمرو الاسدي ومحمد بن اسحق صاحب السيرة وابو اسحق الفزاري وكلهم من أصحاب السير والاحداث .

وممن جاء بعدهم من أصحاب الاخبار العربية والإسلامية : محمد بن سلام الجمحي والزيير بن بكار وعمر بن شبة وابن الازهر وكلهم في القرن الثالث والفضل بن الحباب وتوفي سنة ٣٠٥ . وانفرد في القرن الرابع رجلان من الاخباريين الرواة المصنفين أحدهما محمد بن عمران المرزباني المتوفى سنة ٣٧٨ وليس لأحد في الإسلام أكثر ولا أمتع من تصانيفه في الشعر والشعراء — وسنشير اليه في باب الشعر — والثاني ابو الفرج الاصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ وهو صاحب كتاب الاغاني وغيره من الكتب الكثيرة في الاخبار والآداب مما لا يدانيه فيه أحد .

وكان في القرن الثالث رجل من الاخباريين هو طبقة وحده في الإسلام وهو محمد بن عبيد الله العتيبي المتوفى سنة ٢٢٨ وكان من ولد عتبة بن أبي سفيان أخي معاوية وقد انفرد برواية أخبار بني أمية خاصة وليس له في غيرها يد وكان يرويها عن آبائه وهم يروونها عن سعد القصير وسعد هذا هو مولى بني أمية قتله ابن الزبير بمكة . وهذا الذي أوردناه من القول في الاخباريين لا يداخله الكلام على المؤرخين في الإسلام فإن فصل ما بين

الفريقين ان الذين ذكرناهم كانوا مادة المؤرخين لانهم تميزوا بأنواع من الرواية جمع منها المؤرخون ما جمعه ولكل قول موضع ومقام معلوم .

### ❦ رواة العرب ❦

وهؤلاء قوم كانوا في البادية بمنزلة الرواة في الحضر من حيث هم مصادر العلم والقائمون عليه فيتحققون بعلم الأخبار والآثار والانساب والاشعار وكان الرواة يأخذون عنهم ويسمونهم علماء البادية وهم منهم في هذه العلوم كالأعراب الفصحاء في اللغة وكانت أسماؤهم دائرة في أفواه الرواة بيد ان العلماء الذين دونوا الأخبار وصنفوا الكتب اكتنوا بنسبة الكلام الى صدور الرواة ممن نقلوا عن علماء البادية كالاصمعي وأبي عبيدة وابن الكابي وغيرهم دون هؤلاء العلماء لتحقق الرواة بالامانة والضبط ولانهم لا يقدرّون الالفاظ بمعانيها التاريخية ولهذا لم تقف الا على القليل من أسماء القوم وعلى ان هذا القليل انما جاء في عرض كلام مما يتعلق بالسمر ويدخل في باب الحكاية . . . وقد رأينا في الفهرست لابن النديم ان لابن دريد كتاباً سماه (رواة العرب) ولا ندري من خبره شيئاً .

فمن هؤلاء الرواة المسوّر العنزي وسماك بن حرب . ومنهم ثم من علماء بني عدي زرعة بن أذبول وابنه سليمان وأبو قيس وتيم المدوي وكلهم في أواخر القرن الاول . ومنهم أبو بردة وأبو الزعرا وأبو فراس وأبو سريرة والاعطش وكانوا في القرن الثاني وادركهم أبو عبيدة وطبقته وأخذوا عنهم ولا بد ان تكون منهم طائفة ممن عدوهم في فصحاء الأعراب

ولكنهم لم يترجموهم ولم ينهوا عليهم ولم يذكروا ما أخذوه عنهم ان كان لغة أو خبراً أو نسباً أو شعراً كمحمد بن عبد الملك الفقمسي فانه معدود من فصحاء الأعراب وقد ذكرناه ثمت وهو مع ذلك راوية بني أسد وصاحب مفاخرها واخبارها وعنه اخذها العلماء والله أعلم

### الشعر

والشعر كان عمود الرواية فلا بد منه لكل راوية وانما يتفاضلون فيه من جهتين : الاتساع في الرواية واكثر ما يكون فيمن لم تقطعه العلوم التي يفتن فيها علماء الرواة كالنسب والخبر والعربية والقراءة والحديث ومن هذا الاتساع ينشأ الوضع وقد مكنا القول فيه من قبل . والجهة الثانية معرفة تفسيره والبصر بمعانيه وهي التي نرمي الى الكلام عليها في هذا الفصل كان صدور الرواة انما يطلبون الشعر للشاهد والمثل وهما غرضان اكثر ما تؤديهما الالفاظ دون المعاني ولما كانت الالفاظ عربية صريحة ينبغي ان تؤخذ بالتسليم ولا وجه لتقليبها وتقدمها والتورك عليها انصرف اكثرهم عن البحث في الشعر والتصفح على معانيه فاقصر العلم به على رواية اللفظ كما هو وما يقتضي لها من فهم المعنى كما هو وبذلك بقي الشعر ايضاً كما هو ..

ومن شعر العرب نوع مما يقال على المشاهدة فيستخرج الشاعر المعنى الغريب من شيء رآه ويكون في اللفظ ابهام لا يتعين معه أصل المعنى وهذا النوع ان لم يفسره شاعره أو من اخذه عنه ذهب العلم بحقيقة معناه واضطربت فيه الظنون . ونوع آخر يتعلق بالعادات التي كانت للعرب

في جاهليتها ولا بد لتفسيره من المعرفة بها وبما كان خاصاً منها بقبيلة الشاعر ان كان من ذلك شيء . . . ونوع ثالث يتعلق بعلوم العرب التي اخذتها عن الامم واعتبرتها علوماً صحيحة واعتبرها من جاء بعدهم من الخرافات والتكاذيب ويسمى الرواة كل ذلك في الشعر بأبيات المعاني لانها اشياء خارجة عن غرضهم اللفظي الذي أومأنا اليه . والعلم بتلك الايات وتفسيرها اكثر ما يكون عند الشعراء والرجاز من العرب الذين نشأوا في البادية كما نشأ اصحاب المعاني أو الذين رووا الشعر عن نشأ فيها وأقاموا بالامصار كالطيئة وجريز والفرزدق والكميت وغيرهم لانها طرف من صناعتهم ولان الشعر كان لا يزال على بداوته وان ضعف شيئاً قليلاً . وسيأتي الكلام على هذا النوع مفصلاً في باب الشعر — .

أما الرواة فقد انصرفوا عن هذا وأشباهه وكانوا يرون المعاني على مقادير أصحابها من الشعراء في أوهامهم فالمعنى الذي يكون لامرئ القيس يكون كامرئ القيس في اعتباره واجلاله وتحاميه ان يتلقى بالرد والمواجهة ولذا فشا الغلط بينهم في تفسير الشعر وأخذ منه التصحيف كل مأخذ ولقد سئل ابو عمرو بن العلاء عن معنى قول امرئ القيس ( وهر تفسيره عن الكميت )

نظمهم سألكي ومخلوكة كرك لا مین علی نابلی  
فقال ذهب من يحسنه . وقال الاصمعي سألت أبا عمرو عن قوله  
( أي الشاعر )

زعموا أن كل من ضرب العير موالٍ لنا وأني الولاء

فقال مات الذين يعرفون هذا وإنما يعني شعراء العرب لا الرواة . وكان  
أبو عمرو نفسه يقول العلماء بالشعر أقل من الكبريت الأحمر .  
فلما أخذ الخلفاء وأمرؤهم يطارحون الرواة ويذاكرونهم في المعاني  
وذلك حين استبحر العلم في الدولة العباسية وكانت قد انحرفت طريقة  
الشعر بما ذهب إليه المحدثون كبشار بن برد ومسلم وأبي نواس وغيرهم إذ  
جعلوا يغوصون على المعاني ويتلوّمون على حوك الشعر وسبكها وأقبل الناس  
أيضاً يفتشون على المعاني وقلت عنايتهم بالالفاظ انتبه بعض الرواة الى هذه  
الجهة من الشعر وأعطوها قسطها من العناية فنبغت منهم طبقة لم يعرف  
غيرها ولم تنبغ مع ذلك الا في معاني أشعار العرب ومن يستشهد بقولهم  
دون المولدين وهؤلاء كان شعرهم أدق معاني وأبعد أغراضاً وقد انفرد  
يومئذ بعلم الشعر على الاطلاق أغراضه ومعانيه ومذاهب النقد فيه أهل  
الطبع والبلاغة من أدباء الكتاب الذين صرفوا القول في فنونه واندفعوا  
الى مضايقه وحزونه قال الجاحظ : طلبت علم الشعر عند الاصمعي فوجدته  
لا يعرف الاغريه (الالفاظ والمعاني الغريبة) فسألت الاخفش فلم يعرف الاعرابه  
فسألت أبا عبيدة فرأيت أنه لا ينفذ الا فيما اتصل بالاخبار ولم أظفر بما أردت  
الا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب وغيره .

أما الطبقة التي أومأنا اليها فرجالها ثلاثة : خلف الأحمر والاصمعي  
وجهم بن خلف المازني وهو معاصرها وكانوا ثلاثتهم يتقاربون في ذلك  
وامتاز خلف بقول الشعر واحسانه واجادته حتى لا ينزل عن الطبقة التي  
يقارنه بها ومن ثم كان يُنحَل الشعراء المتقدمين ذهاباً بنفسه واعتداداً بما

تطوع له وكان أيضاً أعلم الرواة بالشعر ومعانيه ومذاهب الشعراء فيه ثم هو معلم الاصمعي ومعلم اهل البصرة وقد أجمعوا على انه أفرس الناس بيت شعر وكان علماءؤهم لا يتكلمون في الشعر وتقده ما لم يكن حاضراً ولا يراجعونه في قول ان قال وفي رأي ان رأى . ولكن الاصمعي فاته بمعرفة النحو مع مقاربتة له في المعاني وصدقه في الرواية ولذا فضله عليه وكان للاصمعي ذهن ثاقب وطبع صحيح فما لبث في آخر عهده ان صار أبعد نظراً في الشعر من أستاذه وأوسع رواية فيه حتى كان الرشيد يسميه شيطان الشعر وقال ابن الأعرابي شهدت الاصمعي وقد أنشد نحواً من مائتي بيت ما فيها بيت عرفناه .

وأما جهم بن خلف المازني فهو يقارب الاصمعي وخلفاً وينفرد دونهما بسعة علمه في عادات العرب وحقائق أوصافها ولذا كان كثير الشعر في الحشرات والجراح من الطير ونحوها الى ما يتصل بذلك من معاني البادية التي لا ينفذ في حقائقها الا العربي الفصح والا البدوي الجاني .

ولم يساو هذه الطبقة أحد ممن جاء بعدهم من الرواة الا ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ وكان أحفظ الناس وأوسعهم علماً وأقدرهم على الشعر وأبصرهم بمذاهبه ولذلك نظّروه بخلف وقالوا ما ازدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحامهما في صدر خلف الأحمر وابن دريد . ولو كان الاصمعي يجمع الى علمه وروايته القدرة على الشعر وصوغه لكان نادرة التاريخ العربي كله بلا امتراء .

وقد وقفنا للاجاحظ على فصل نادر يصف به رواة عصره في معرفتهم

بالشعر وبصرهم بمعانيه وما تلتبس من أغراضه كل طائفة منهم وانصرف  
الناس يومئذ الى حقيقة الشعر والتفتيش على دقائقه مما هو من محض  
البلاغة وصميم الفصاحة ثم ما تدرجوا فيه من ذلك ونحن نورد كلامه توفية  
لفائدة هذا الفصل ولكننا ننبهك الى ان الجاحظ يتحامل على من أدركه  
من الرواة الذين كان اليهم أمر اللغة لانهم لم يوثقوه بل ذموه وهجّوا كتبه  
وتنقصوا روايته وسنشير الى ذلك بعد .

قال الجاحظ : قد أدركت رواية المسجديين والمربديين ومن لم يرو  
أشعار المجانين ( كجنون بني جمدة وجنون بني عامر وغيرهما من العشاق )  
ولصوص الأعراب ونسيب الأعراب والارجاز الاعرابية القصار وأشعار  
اليهود والأشعار المنصّفة فانهم كانوا لا يعدونه من الرواة ثم استبردوا ذلك كله  
ووقفوا على قصار الاحاديث والقصائد والفقروا وانتف من كل شيء ، ولقد شهدتهم  
وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب عباس بن الأحنف فما هو الا  
ان أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب فصار زهدهم في نسيب العباس  
بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب ثم رأيتهم منذ سنين وما يروي عندهم  
نسيب الأعراب الا حدث السن قد ابتداء في طلب الشعر أو فتياي متغزل  
وقد جلست الى أبي عبيدة والاصمعي ويحيى بن تميم وأبي مالك عمرو بن  
كركرة مع من جالست من رواة البغداديين فما رأيت أحداً منهم قصد  
الى شعر في النسيب فأنشده وكان خلف يجمع ذلك كله ولم أر غاية النحويين  
الا كل شعر فيه إعراب ولم أر غاية رواة الاشعار الا كل شعر فيه غريب  
أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج ولم أر غاية رواة الأخبار الا كل شعر

فيه الشاهد والمثل ورأيت عامتهم فقد طالت مشاهدتي لهم لا يقفون على  
الالفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة وعلى الالفاظ العذبة والمخارج السهلة  
والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام  
له ماء ورونق وعلى المعاني التي ان صارت في الصدور عمرتها واصلحتها من  
الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودات الاقلام على مدافن الالفاظ  
وأشارت الى حسان المعاني . ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة  
الكتاب أعمّ وعلى السنة حذّاق الشعراء أظهر ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني  
يكتب أشعاراً من أفواه جلسائه ليدخلها في باب التحفظ والتذاكر وربما  
خيل الي ان أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبداً ان يقولوا شعراً جيداً  
لمكان إغراقهم في أولئك الآباء ولولا ان اكون عياباً ثم للعلماء خاصة  
لصورت لك في هذا الكتاب بعض ما سمعت من أبي عبيدة ومن هو أبعد  
في وهمك من أبي عبيدة . اهـ

### العربية واللغة

ونريد بالعربية النحو والكلام فيه سابغ الذيل اذ يتناول تاريخه وأهله  
ومذاهبهم فيه ومن انقرد منهم ببعض المذاهب ومن شارك الى ما يداخل  
ذلك ويلتحق به وهو فن من التاريخ لاصلة له بما نحن في سبيله الآن الا  
من جهة استتباعه للشعر واللغة ومن جهة انه كان مثار الخلاف بين الطائفتين  
العظيمتين من البصريين والكوفيين منذ تجاروا الكلام في مسائله وقد  
تقدم لنا صدر من القول في الجهة الاولى ونحن نردفه بفصل موجز عن



الجهة الثانية ثم نمسك سائر ما يتعلق بهذا النحو الى موضعه من باب العلوم ان شاء الله .

وأما اللغة فقد اجمعوا على انه لا معوّل في روايتها على اهل الكوفة اما اهل البصرة فقالوا ان منهم اصحاب الاهواء الأربعة فانهم كانوا اصحاب سنة وهم ابو عمرو بن العلاء والخليل بن احمد ويونس بن حبيب والاصمعي وهم يريدون بذلك التثبت والتحري وتوثيق الرواية والامانة في النقل والاداء لان هؤلاء الاربعة كانوا اركان الرواية في اللغة والعربية . ورأيانهم ذكروا أئمة اللغة الذين امتازوا دون سائر الرواة في الاسلام بما حفظوه منها فقالوا ان الاصمعي كان يحفظ ثلث اللغة وكان الخليل بن احمد يحفظ نصف اللغة<sup>(١)</sup> وكان ابو فيد مؤرج السدوسي ( من تلامذة الخليل ) يحفظ الثلثين وكان ابو مالك عمرو بن كركرة الاعرابي يحفظ اللغة كلها قالوا وكان الغالب على ابي مالك حفظ الغريب والنوادر ( وهي حقيقة المراد باللغة كما شرحناه في موضعه ) . وجاءت هذه الرواية من وجه آخر بأن الاصمعي يجيب في ثلث اللغة وابو عبيدة في نصفها وابو زيد الانصاري في ثلثها وابو

(١) امتاز الخليل عن سائر الرواة في الاسلام بشدة العقل وثقوب الفراسة ودقة الفطنة والاستنباط فهو مدون اللغة وواضع العروض ومستخرج المعنى ومتمم النحو حتى قالوا فيه انه اذكى العرب واجمعهم كما ان ابن المقفع اذكى المعجم واجمعهم وقد نفس عليه الجاحظ هذه الصفات فذمه<sup>١</sup> في كتاب الحيوان بما لا يذم به مثل الخليل اذ قال انه غره من نفسه حين أحسن في النحو والعروض فطن انه يحسن الكلام وتأليف اللحن فكتب فيهما كتابين لا يشير بهما ولا يدل عليهما الا المرة المحترقة ولا يؤدي الى مثل ذلك الا خذلان من الله . وهذا من تعنت الجاحظ

مالك الاعرابي فيها كلها وانما يريدون توسعهم في الرواية والفتيا لان الاصمعي كان يضيق ولا يجوز الا اصح اللغات وبلغ في دفع ما سواه وكان شديد التأله لا يفسر شيئاً من القرآن ولا شيئاً من اللغة له نظير واشتقاق في القرآن وكذلك كان يتخرج في الحديث ثم كان لا يفسر شعراً يوافق تفسيره شيئاً من القرآن ولا ينشد من الشعر ما كان فيه ذكر الأتواء ولا يفسره لقوله صلى الله عليه وسلم اذا ذكرت النجوم فأمسكوا . ولم يكن ينشد أو يفسر شعراً يكون فيه هجاء <sup>(١)</sup> ومن ثم فاته ابو عبيدة وأبو زيد ولما وضع ابو عبيدة كتاب المجاز في القرآن <sup>(٢)</sup> وقع الاصمعي فيه وعاب عليه تأليف هذا الكتاب وقال يفسر القرآن برأيه فسأل ابو عبيدة عن مجلس

- (١) كان الرواة المتورعون يرون الشعر من عمل الشيطان وهو عبث لا ثواب فيه ولم يكونوا يطلبونه الا لانه وسيلة الثواب اذ يتوصل به الى اللغة والعربية وهما انما يرادان للقيام بهما على فهم كتاب الله وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم واول من تخرج في ذلك من الرواة ابو عمرو بن العلاء فكان اذا دخل رمضان لا ينشد بيتاً حتى يتقضي . ولما تقرأ خلف الاحمر وزهد في آخر ايامه كف عن الشعر فلم يتكلم فيه وقد بذلوا له مالا كثيراً ليتكلم في بيت منه فأبى . أما قبل ابي عمرو فكان لا يتأثم من انشاد الشعر الا الغلاة في الزهد والنسك ولقد روى الاصمعي هذا الورع المتخرج انه قيل لسعيد بن المسيب ( من التابعين ) ههنا قوم نسك يعيبون انشاد الشعر فقال نسكوانسكا اعجباً
- (٢) وضع ابو عبيدة هذا الكتاب حين قدم بغداد على الفضل بن الربيع بعد ان تقدم الفضل الى اسحق الموصلي في إقدامه وكان سبب وضعه ان بعض الكتاب سألوه في مجلسه عن قوله تعالى « طأطأها كأنه رؤس الشياطين » وقال انما يقع الوعد والايماذ بما قد عرف مثله وهذا لم يعرف فتال ابو عبيدة انما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم اما سمعت قول امرئ القيس ( ومسئونة زرق كأنياب اغوال ) وهم لم يروا

الاصمعي في أي يوم هو ثم قصد اليه وجلس عنده وحادثه ثم قال له يا أبا سعيد ما تقول في الخبز قال هو الذي تخبزه وتأكله فقال فسرت كتاب الله برأيتك قال الله تعالى « إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً » فقال له الاصمعي هذا شيء بان لي فقلته ولم افسره برأيتي فقال ابو عبيدة وهذا الذي تعييه علينا كله شيء بان لنا فقلناه ولم نفسره برأينا . . .

يد أن الاصمعي امتاز في رواية اللغة بالشعر ومعانيه وانفرد ابو زيد دون الثلاثة بالنحو وشواهدده وهو الذي يعنيه سيبويه اذا قال في كتابه وحدثني من أثق بعربيته<sup>(١)</sup> وفاتهم ابو مالك بالتريب والنوادر أما ابو عبيدة فانه استبد بهم جميعاً في العلم بأيام العرب وأخبارهم وعلومهم وكان يقول ما التقي فرسان في جاهلية ولا اسلام الا عرفتهما وعرفت فارسهما وقال فيه الجاحظ ليس في الارض خارجي ولا اجماعي اعلم بجميع العلوم من ابي عبيدة وكان أبو زيد وابو عبيدة يخالفان الاصمعي ويناوياونه كما يناويهما فكلهم كان يطمعن على صاحبه بأنه قليل الرواية وكانت اللغة متنازعة بينهم فيتفق الصاحبان وينفرد الاصمعي وحده بالخلاف . والكوفيون لا يرون فيهم ولا في الناس اعلم باللغة من الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ وكان من رؤسهم وقالوا فيه انه لولاه لما كانت اللغة لانه حصلها وضبطها ولولاه لسقطت

القول قط ولكنهم لما كان امر الغول يهولهم اوعدوا به . ثم انتبه ابو عبيدة الى مثل هذا في القرآن فلما رجع الى البصرة عمل كتابه

(١) وكل ما في كتاب سيبويه وقال الكوفي كذا فانما يعني به أبا جعفر الرواسي شيخ نخاعة الكوفة وأستاذ الكسائي والفراء .

العربية لأنها كانت تنازع ويدعيها كل من اراد ويتكلم الناس على مقادير  
عقولهم وقرائحهم فتذهب . ثم انتهى علم اللغة في البصريين الى ابن  
دريد وهو خاتمة روايتهم وآخر ثقاتهم لم تفتح بعده صفحة في التاريخ لما  
يسمى بصرياً أو كوفياً من هذا العلم

ولما دوت كتب الأئمة في اللغة وتناقلها روايتها بالاسانيد كثرت فيها  
التزديد وركب النساخ منها عبثاً كثيراً الى ان جاء الازهري المتوفى سنة ٣٧٠  
وهو صاحب كتاب التهذيب فتفقد كتبهم وتأمل نوادرهم ونظر في الكلام  
المصحف والالفاظ المزالة عن وجهها أو المحرفة عن معناها وما أدخل في  
الكلام مما هو ليس من لغات العرب وما اشتملت عليه الكتب التي افسدها  
الوراقون وغيرها المصحفون واعتبر كل ذلك اعتبار ناقد يتصفح على الرواة  
ويطلب مواضع الثقة فيما يروى عنهم ثم انه بعد ان امكن في ذلك واستقصى  
قال انه وجد عظم ما روي لابن الاعرابي وأبي عمرو الشيباني وابي زيد وابي  
عبيدة والاصمعي معروفاً في الكتب التي رواها الثقات عنهم والنوادر  
المحفوزة لهم نخص بالثقة هؤلاء دون سائر الرواة

ولما عدت في مقدمة كتابه التهذيب ثقات الرواة وهم أولئك الذين  
عرفتهم ووصفهم بالاتقان والتبريز ووثقتهم قال فلندكر بعقب ذكرهم أقواما  
اتسموا بسمة المعرفة وعلم اللغة والفوا كتباً أودعوها الصحيح والسقيم  
وحشوها بالمزال المفسد والمصحف المغير الذي لا يتميز ما يصح منه الا عند  
الثقة المبرز والعالم الفطن وعد من هؤلاء الليث بن المظفر الذي نحل الخليل

تأليف كتاب العين<sup>(١)</sup> وقطربا وقال كان متهما في رأيه وروايته عن العرب  
والجاحظ وقال فيه ان اهل المعرفة بلغات العرب ذموه وعن الصدق دفعوه  
ثم ابن قتيبة وابن دريد

### ( البصريون والكوفيون )

وهما الطائفتان اللتان عَصَبَ بهما طلاب العربية وقد تضافرتا جميعاً على  
استخراج هذه العلوم بعد أن كانت السابقة فيها للبصريين بما أصلوا وفرّعوا  
وكان في هؤلاء غريزة التحقيق والتمحيص دون الكوفيين فَبَغَتْ لذلك  
احدى الطائفتين على الاخرى نفاسة وحسداً ثم استطار الجدل بينهما فوقعوا  
من المناظرة في امر مستدير وتباين ما بين الفئتين الا حيث تتصلان في  
الكلام لتدفع احدهما الاخرى . ومن ثم جعل الكوفيون يَتَمَرَّؤْنَ  
بمُخَصِّمِهِمْ<sup>(٢)</sup> فينتقصونهم ليعمد ذلك منهم قدرة على الكمال ، ويعيبون الرجال  
ليكونوا هم وحدهم الرجال ، أما البصريون فكانوا يرون أن اصحابهم لو ركبوا  
في نِصاب رجل واحد ما بلغوا ان يعدلوا أضعف رجل في البصرة وقدر مومهم  
في باب الكذب بقَمَصِ الحناجر ، والاخذ عن كل بَرٍّ في الرواية وفاجر  
وجملوهم من علماء الاسواق ، وتلامذة الاوراق ، ولشدماً اندرؤا جميعاً

---

(١) في هذا الكتاب ونسبته الى الخليل كلام كثير لم نجد له متسماً في هذا الباب  
فأرجأناه الى باب العلوم حيث نقول في علم اللغة وتدوينه  
(٢) تمرأ به اذا طلب المروءة بنقصه

بعضهم على بعض بمثل هذا الكلام ، وقاموا في المناظرة كل مقام ، على ان العلم منذ وجد انما تخلص حقائقه بالجدال فرحم الله الغالب فيه والمغلوب

### ﴿ أولية العربية في الكوفة ﴾

وقد رأينا المتوسمين بالادب لا يميزون عهد الكوفيين من عهد البصريين ولا يدرون متى اشتغل الكوفيون بالمذاهب المقصورة عليهم والحدود المنسوبة اليهم بل يحسبون ان أول بصري من النحاة وجد معه أول نحوي من الكوفيين وذلك جهل فاحش بتاريخ الرواية والجهة المتقدمة في الرواة . ونحن لم تقف على كلام لاحد في أولية العربية بالكوفة بيد ان ذلك لم يقعد بنا عن التتبع والاسترواح كسائر ما نستفرغ الهم فيه من أصول هذا الكتاب وفصوله . والذي ثبت لنا ان أولية العربية انما كانت في البصرة لان أبا الاسود الدؤلي قد نزل بها واخذ عنه جماعة هناك فكان كل اصحابه الذين شققوا العربية بعده بصريين ثم انتقل النحو الى الكوفة وكانت الرواية فيها مقصورة على الشعر وما يتصل به من النسب والخبر كشأنها من أول العهد بالاسلام ومن أقدم روايتهم الخثعمي وقد أومأنا اليه من قبل ومنهم ثم من أعلمهم أبو البلاد الكوفي وكان أعشى جيد اللسان وهو في زمن عبد الملك بن مروان فلا بد ان تكون نشأته في منتصف القرن الاول . ثم ظهر بعده حماد الراوية وهو لحانة لا يذكر في العربية ولكن أول من عرف بالنحو من الكوفيين انما هو شيبان بن عبد الرحمن التميمي النحوي المتوفى سنة ١٦٤ وكان بصرياً ثقة غير انه انتقل الى

الكوفة وسكن بها زماناً وهو من تلامذة أبي عمرو بن العلاء وظهر معه معاذ الهراء واضع التصريف وقد عمر طويلاً حتى قارب المئة وتوفي سنة ١٨٧ ثم نجم رأس علماء الكوفيين واستاذهم وأول من ألف منهم كتاباً في العربية وهو أبو جعفر الرؤاسي وكان معاذ الهراء عمه فأخذ عنه ثم أخذ عن عيسى بن عمر من تلامذة أبي الاسود وعن هذين (معاذ والرؤاسي) أخذ علي بن حمزة الكسائي المتوفى سنة ١٨٩ وهو الذي رسم للكوفيين الحدود التي عملوا عليها وخالفوا بها البصريين وكان فيهم كالخليل بن أحمد في أولئك .

ثم استفاض نحو الكوفيين من بعده وتوسع فيه تلميذه الفراء حين ألف كتاب (الحدود) وكان المأمون أمره ان يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب وأمر ان تفرد له حجرة من حجر الدار (دار الحكمة) ووكل به من يكفيه كل حاجته حتى لا يتعلق قلبه ولا تتشوق نفسه الى شيء وحتى انهم كانوا يؤذنون له في حجرته بأوقات الصلوات (تأمل وترحم على ملوك العلماء) وصير له الوراقين وألزمه الأئمة والمنفقين فكان الوراقون يكتبون وهو يملئ حتى صنف الحدود<sup>(١)</sup>

وفي الكسائي وتلميذه يقول ابن الانباري (وهو من الكوفيين ايضاً) لو لم يكن لاهل بغداد والكوفة من علماء العربية الا الكسائي والفراء لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس اذ انتهت العلوم اليهما وكان يقال الفراء أمير المؤمنين في النحو . ومن لدن الكسائي غلب اهل الكوفة على بغداد لخدمتهم الخلفاء وتقديمهم اياهم كما علمت فغلبوا بذلك البصريين

(١) هذا تفسير ما مر من قولهم لولا الفراء لما كانت اللغة

على أمرهم ورغب الناس من يومئذ في الروايات الشاذة وتفاخروا بالنوادير وتباهوا بالترخيصات وتركوا الأصول واعتمدوا على الفروع ومن ذلك بدأ اختلاط المذاهب الذي عده البصريون اختلاطاً للعلم لأن مذاهب الكوفيين ليست عندهم من العلم الصريح .

### ﴿ مذاهب الطائفتين ﴾

وقد انفرد كل من البصريين والكوفيين بمذاهب في العربية استخرجوها من كلام العرب أو وضعوها محاكاة لكلامهم كالذي كان يصنعه علماء الكوفة وليس من عالم الا وقد اخذ بمذاهب هؤلاء أو أولئك أو خلط بين المذهبيين كما سنفصله في باب النحو ونذكر اهله ان شاء الله . بيد ان البصريين كانوا يأنفون ان يرووا عن الكوفيين لضعفهم وتعلقهم بالشاذ وارتفاعهم عن البوادي القصيحة وكانوا لا يرون الأعراب الذين يحكون عنهم حجة في العربية لانهم غير خلص وكما تركوا عريتهم تركوا شعرهم لا لانه فاسد كله ولكن لحينه على مذاهبهم . قالوا وأول من أحدث السماع في البصرة خلف الاحمر وذلك انه جاء الى حماد الراوية فسمع منه الشعر ثم تابعه البصريون فأخذوا عن حماد بعد ذلك لانفراده بروايات من الشعر فانه هو الذي اخذ عنه كل شعر امرئ القيس الا شيئاً أخذوه عن أبي عمرو بن العلاء ومع ذافكان البصريون لا يرون حماداً ثقة ولا مأموناً لانه كوفي وكفي .

أما في النحو واللغة فلا يعلم أحد من علماء البصريين أخذ شيئاً منها



عن أحد من اهل الكوفة ولا روى عنهم شيئاً من الشعر أيضاً لان الذين أخذوا عن حماد انما كانوا يطلبون الشعر ليرووه شعراً لا ليقيموا منه الشواهد ولا يعرف في تاريخ البصريين من روى الشعر عن الكوفيين للشاهد الا ابا زيد الانصاري فانه روى عن المفضل الضبي لثقتة في الشعر وتحريره اذ لم يكن للكوفيين رواية يذكر بازاء علماء البصرة الا المفضل هذا وهو أوثق من روى الشعر منهم وقد اختص به دون العربية واللغة ولذلك أمنوا جانبه . وكان الكوفيون يأخذون عن أهل البصرة وما من أحد من أسانذتهم الا وقد تلمذ لبصري ولكنهم كانوا يتميزون بروايتهم حتى لم يكن فيهم أحد أشبه رواية برواية البصريين الا ابن الاعرابي ( توفي سنة ٢٣١ ) وهو ممن أخذوا عن الكسائي ولم ير أحد في علم الشعر واللغة كان أغزر منه . وكذلك لا يعرف أحد في رواية المصريين كان أشد عصبية من ابن الاعرابي هذا قال ابو عمرو الطوسي كان يدع ما يعرف ويركب الخطأ ويقيم في العصبية عليه . . . وكان يضع من أبي تمام فجته يوماً ومعي ارجوزته . وعاذل عدلته في عدله فقرأها عليه « على انها لبعض شعراء هذيل » فقال لا تبرح والله حتى أكتبها فأمليتها عليه فكتبها بخطه فلما فرغ قلت هذا الذي تعيبه ابو تمام فخرقها وقال ولذا يظهر عليها أثر التكلف . . .

على أن مثل هذه العصبية انما تقدر بسببها وقد كان الاصمعي رواية البصريين يتعصب على ابي النجم الراجز بالعشيرة ولعداوة ما بين ربيعة وقيس حتى حملته العصبية على ان صرح بيفضه وتتبع سقطاته وبينهما اكثر

من نصف قرن وقال علي بن حمزة في كتاب التنبيهات<sup>(١)</sup> انه كان شديد المصيبة على جماعة من الشعراء لعل . . فعلة ذي الرمة اعتقاده العدل وكان الاصمعي جبرياً وقيل لابي عثمان المازني لم قلت روايتك عن الاصمعي قال رميت عنده بالقدر والميل الى مذهب الاعتزال ثم ذكر قصة أنه جاءه يوماً فاستدرجه الاصمعي الى الإقرار بعقيدته ليغري به العامة وقال في آخرها ثم أطبق ( يعني الاصمعي ) نعليه وقال نعم القناع للقدري . . . فأقلت غشيانه بعد ذلك . قال وكان الاصمعي لهذه العلة يكثر الاخذ على ذي الرمة ويعترضه مخطئاً ايضاً .

ولا يزال يكون مثل ذلك في العلماء الذين يجعلون العلم وراء العقيدة فهم اذا انتحلوا مذهباً يميزهم في طائفة من الأضداد ذهبت ربحهم بهذا التضاد فصرفوا العلم الى جانب الهوى فيه وجعلوا السنتهم من وراء ما يذهبون اليه يحوطونه ويدروئن عنه ويبغون الفوائل بمن يعترضه دافعاً أو مدافعاً ولا بد

(١) هو علي بن حمزة البصري اللغوي المتوفى سنة ٣٧٥ وعنده نزل المتنبي حين ورد بغداد وقد كانت له عناية لا تعرف لغيره ( وغير معاصره صاحب التهذيب ) في التبع على أئمة اللغة وتصنع كتبهم ولكنه انفرد عن الأزهري بتدوين ذلك فصنف الرد على رواية بعض ما في نوادر أبي زياد الكلابي الاعرابي ونوادر أبي عمرو الشيباني وما في كتاب النبات لابي حنيفة الدينوري وما في الكامل للمبرد وما في الفصح ثعلب وما في الغريب المصنف لابي عبيد وما في اصلاح المنطق لابن السكيت وما في المقصور والممدود لابن ولاد النحوي المصري . وسمى مجموع هذه الردود ( التنبيهات على اغلاط الرواة ) وهو في المكتبة الخديوية وردوده كما قال فيها كلمة مصحفة وأخرى محرفة وتفسير غير صحيح وتأويل غير رجيح واعراب غير ملبح الخ

في التسبب لذلك من ضغن علمي يرويه حالاً يئناً فان كان فيه مكروه من النفاسة والتخذيّل فكراهة تحليل لانه في الله أو في الحق الذي هو من الله . والضغن متى كانت له سبيل في العلم كان أمدّ في الصدور وأرسخ في القلوب لما يكون معه من خاصة النظر التي تكتنفه بأشعة النفس فتجعله كأنه من أخلاط الطبيعة في التركيب وان كان من أغلاطها ، وتظهره في أشعتها مظهر السحاب الذي يرتفع بقطرات الماء وان كان بعد ذلك سبب انحطاطها ، فرحم الله القوم فان لهم وجوهاً من المعدرة ، تنظر فيها عيون المغفرة ، وان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين

( وبعده ) فهذا مجمل من أمر الرواية والرواة ولولا أني حبست من نفس المقال ، وعدت بالقلم عن انتجاع الغيث الى البلال ، لأضيت البحث لطيفته ، وتركت الخاطر على سجيته ، ولكنها قصبة من جناح قد طار ، وأثارة من علم صار من الإهمال الى ما صار ، وإن هو الا بساط كان منشوراً فطوي ، وحديث قيل ثم روي .



صفحة		صفحة
٤٨	المواضعة على الألفاظ	٣ المقدمة
٥٥	تفرع اللغات	٨ كلمة في هذا التأليف وطريقته
٥٨ ✓	علوم اللغات	١٧ نمط الكتاب وأبوابه
٦١	اللغة العامية وأصلها العربي	الفصل الاول
٦٣	اللغات السامية	٢١ الأدب — تاريخ الكلمة
٦٥	الاصل السامي	٢٩ المؤدبون
٦٧	أصل العربية	٣١ ✓ علوم الأدب وكتبه
٧٠	مجانسة العربية لآخواتها	الفصل الثاني
٧٣	اللسان العربي في شمال الجزيرة	٣٥ العرب
٧٦	تهذيب العربية الأول	٣٦ بلاد العرب
٨٠	انتشار القبائل والتهذيب الثاني	٣٧ أصل العرب
٨٢	الدور الثالث	٣٩ طبقات العرب
٨٤ ✓	أسواق العرب	٤٠ العرب البائدة
٨٥	عكاظ	٤١ القحطانية
٨٧	الاسباب اللسانية	٤٣ الاسماعيلية
٩٠	أمثلة منها	٤٤ العرب والأعراب
		الباب الاول — اللغة وتاريخها
		٤٦ أصل اللغات

صفحة	صفحة
١٣٣ النوع الاول	٩٤ مواقع الحروف اللسانية
١٣٧ » الثاني	٩٥ عدّة أبنية الكلام
١٤٣ » الثالث	٩٨ أوزان الافعال في العربية وأختيها
١٤٩ » الرابع	مناطق العرب
١٥٤ » الخامس	١٠٠ الحروف العربية وحركاتها
١٥٥ عيوب المنطق العربي	الحروف المتفرعة المستحسنة
١٥٦ تنبيه تاريخي	١٠٣ (١) النون الخفيفة
١٥٩ البقايا الاثرية في اللغة	١٠٤ (٢) التسهيل
١٦٥ نموّ العربية	١٠٥ لغات في التخفيف
١٦٧ طرق الوضع فيها	١٠٦ (٣) الامالة
١٦٨ الارتجال	١٠٨ (٤) المضارعة بين الحروف
١٦٩ الاشتقاق	١١٠ الحروف المتفرعة المستهجنة
١٧٤ المجاز	صفات الحروف ومخارجها
انواع النموّ في اللغة	١١٣ الصفات
١٨٠ الابدال	١١٧ المخارج
١٨٣ القلب	١٢٠ اختلاف لغات العرب
١٨٤ النحت	١٢١ قبائل العرب
١٨٦ المترادف	١٢٣ أفصح القبائل
١٩٠ المشترك	١٢٦ معنى اختلاف اللغات ووجوهه
١٩١ المشجّر والمسلسل	١٢٩ معنى اللغات في الاصطلاح
١٩١ تاريخ هذا النوع	١٣٢ امثلة اختلاف اللغات

صفحة	صفحة
٢٦١ لهجات العامية وأسباب اختلافها	١٩٢ أمتعة منه
الباب الثاني - الرواية والرواة	١٩٤ الاضداد
٢٧٣ فصل	١٩٨ الدخيل
٢٧٤ الاصل التاريخي في الرواية	٢٠٣ الدخيل في الاسلام
٢٧٦ الرواية بعد الاسلام	٢٠٦ المولّد
٢٨٠ تدوين الحديث	٢٠٧ الالفاظ الاسلامية
٢٨٣ الإسناد في الحديث	٢١٠ أمثلة المولّد وكتبه
٢٨٥ اتصال الرواية بالادب	٢١١ الغريب المولّد
٢٨٧ أولية التدوين في الادب	تمدن العرب اللغوي ✓
٢٩١ تاريخ الاسناد في الادب	٢١٣ فلسفة الفصل
٢٩٥ فائدة الاسناد الى الرواة	٢١٨ بعض وجوه التمدن
٢٩٧ حفظ الاسانيد في الحديث	اسرار النظام اللغوي
٣٠٠ » » » الأدب	٢٢٣ نظام الالفاظ بالمعاني
٣٠٢ أصل التصحيف	٢٢٨ نظام المعاني بالالفاظ
٣٠٥ اسناد الكتب	٢٣١ نظام القرينة
٣٠٨ الحفظ في الاسلام	اللغة العامية
٣٢٢ علم الرواية	٢٣٦ اللحن وأوليته
٣٢٤ تقاسيم الرواة	٢٤١ انتشار اللحن
٣٢٥ وظائف الحفاظ في اللغة	٢٤٨ فساد اللغة في البادية
	٢٥٠ طبائع الأعراب
	٢٥٤ العامية في العرب
	٢٥٧ شيوعها وفساد العربية

صفحة	صفحة
٣٨٨ الشوارد	٣٢٩ طرق الاخذ والتحمل
٣٨٨ اختلاف الروايات في الشعر	٣٣٣ رواية اللغة
٣٩٢ التزييد في الأخبار	٣٣٣ تاريخ لفظي (اللغة والغوي)
٣٩٦ القصص	٣٣٨ الاخذ عن العرب
٤٠٢ الرواة	٣٤١ الرحلة الى البادية
٤٠٤ البصرة والكوفة ✓	٣٤٥ فصحاء الأعراب
٤٠٧ عنايتهم بالرواة	٣٥٠ المحاكاة الى الأعراب
٤١٢ علوم الرواة ✓	٣٥٣ بعض فصحاء الاعراب
٤١٣ النسب وطبقات أهله	٣٥٦ الوضع والصناعة في الرواية
٤١٧ الخبر والأخباريون	٣٥٨ افعال اللغة
٤٢٠ رواة العرب	٣٦٤ وضع الشعر
٤٢١ الشعر واصحاب المعاني ✓	٣٦٧ شعر الشواهد
٤٢٦ العربية واللغة ✓	٣٧٢ شواهد أخرى
وثقات رواها	٣٧٣ الرواة الوضاعون للشعر
٤٣١ البصريون والكوفيون ✓	٣٧٤ الشواهد على الأخبار
٤٣٢ أولية العربية في الكوفة	٣٧٦ شعر الجن وأخبارها
٤٣٤ مذاهب الطائفتين	٣٧٩ الاتساع في الرواية
٤٤٢ اصلاح غلط	٣٨٦ ضرب من الوضع
	٣٧٨ التعليق على الكتب

## اصلاح غلط



وقد تركنا التنبيه من هذه الهنات المطبعية الى تصحيح بعض ما تنبه صورته  
الوضعية اليه من نقطة مكسورة أو حرف هالك واقتصرنا في هذا البيان على ما لا بد  
منه مما يتردد فيه النظر حائراً أو يتخطل عنده وان ظل سائراً .

صفحة سطر خطأ	صوابه	صفحة سطر خطأ	صوابه
٤ ٦ في مره	في مره	٨٥ ٨ التسوق	التسوق
٤ ١٨ كثر	واكثر	٨٦ ٢ المحدة	المحمدة
٦ ٩ قد يفتحمه	وقد يفتحمه	١٠١ ١ ينوزيلاندا	نيوزيلاندا
١١ ١٥ هذا السبيل	هذه السبيل	١٠٤ ١٣ مكسرة	مكسورة
٢٣ ١٢ ند	عند	١٠٨ ٤ والباء	والياء
٢٤ ٦ ١٠٥	١٢٥	١١٩ ٤ وبسامتها	وبسامتها
٣٢ ٩ اختبر	اختبر	١٢٦ ١٢ انها شكل لغة انها لغة	
٣٣ ٢ العمدة لانها	لانها العمدة	١٣٣ ١٥ الشهر	الشين
٣٤ ٤ ١ غاني	الاغاني	١٣٧ ٧ ابوزيد	ابوزيد
٣٧ ١٧ يل	قبل	١٣١ ١٢ الهوي	الهدي
٣٩ ١٥ شعبيها	شعبيها	١٤١ ١٧ الاجح	الاجلح
٤٠ ١٤ الذي	الذين	١٤٧ ٥ وانطلق	وانطلق
٥٣ ١٨ اللغة العربية	اللغة (باسقاط لفظ العربية)	١٥٠ ١٦ تقد	تقدد
		١٥١ ١٥ أمثلة	أمثله
٦٦ ١٣ زينك	تينك	١٥٧ ٤ كامر	كامر
٦٦ ١٤ هذين	هاتين	٢١٨ ٩ بعنايتهم	لعنايتهم
٧٩ ٣ في القول	في العقول	٢٢٥ ٧ فواعاه	فواعاه



صفحة سطر خطأ	صوابه	صفحة سطر خطأ	صوابه
٣ ٢٤٦ عيسى بن عمرو عيسى بن عمر	١٢ ٢٩٦ روضة	٨ ٢٥٠ يدل	٢ ٣١٣ أوحدهم
١٢ ٢٧٣ أولان	١٢ ٣١٤ تلي	٨ ٢٧٥ سلسلة	٥ ٣٢٤ فتدخل
٨ ٢٧٨ وعمر	١٩ ٣٢٩ كتباً سموها	٨ ٢٧٨ وعمر	١٩ ٣٢٩ كتباً سموها
٩ ٢٨٥ اتصال	٤ ٣٥٩ أبي زيد	٨ ٢٧٨ وعمر	٤ ٣٥٩ قول أبي زيد
٦ ٢٩١ وما أمر	١٣ ٣٩٤ وعليها ما اكتسبت	٩ ٢٨٥ اتصال	١٣ ٣٩٤ وعليها ما اكتسبت
	ولكم ما كسبتهم		

تم تصحيح هذا الجدول في هذه النسخة  
مكتبة  
الملك

